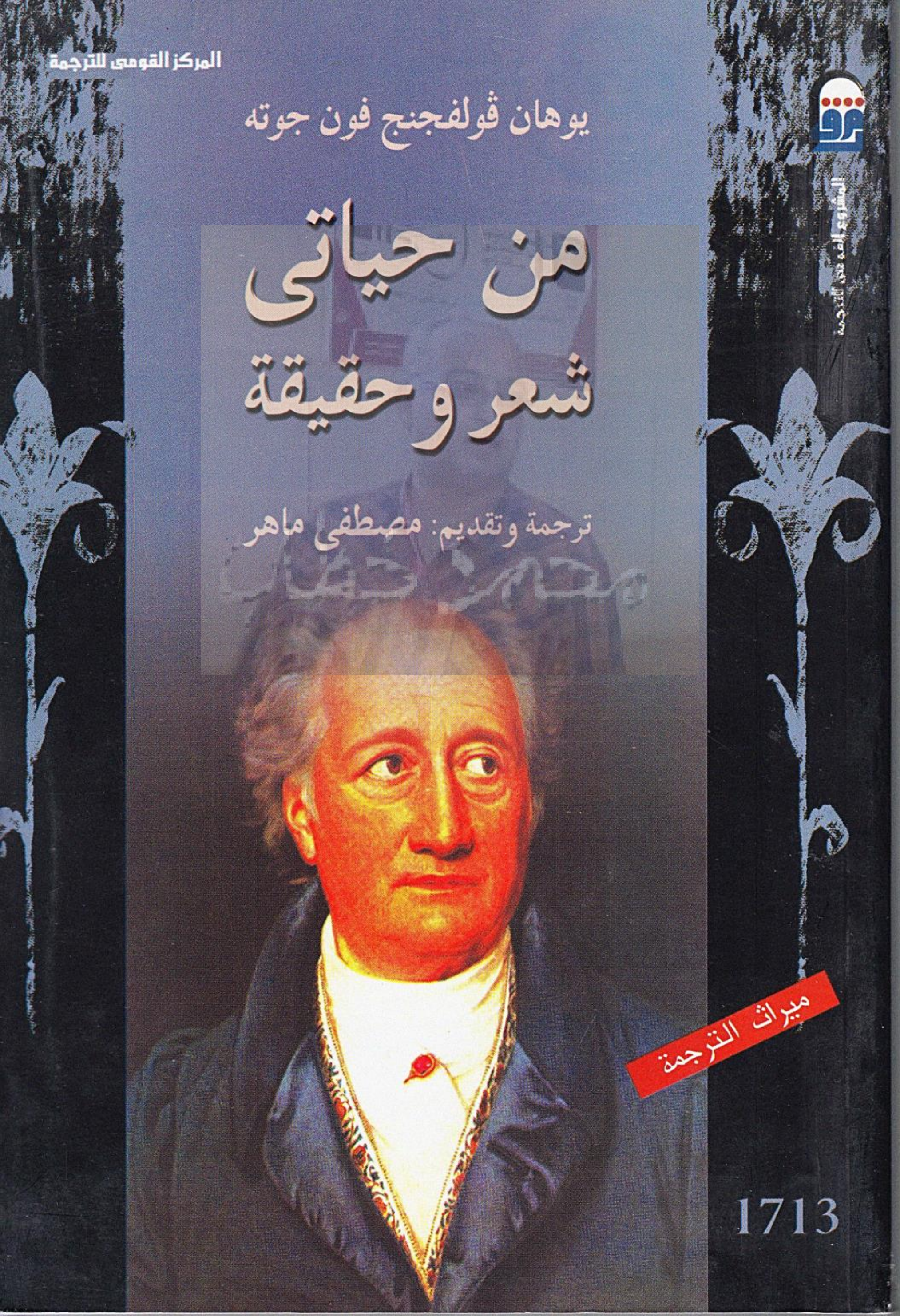
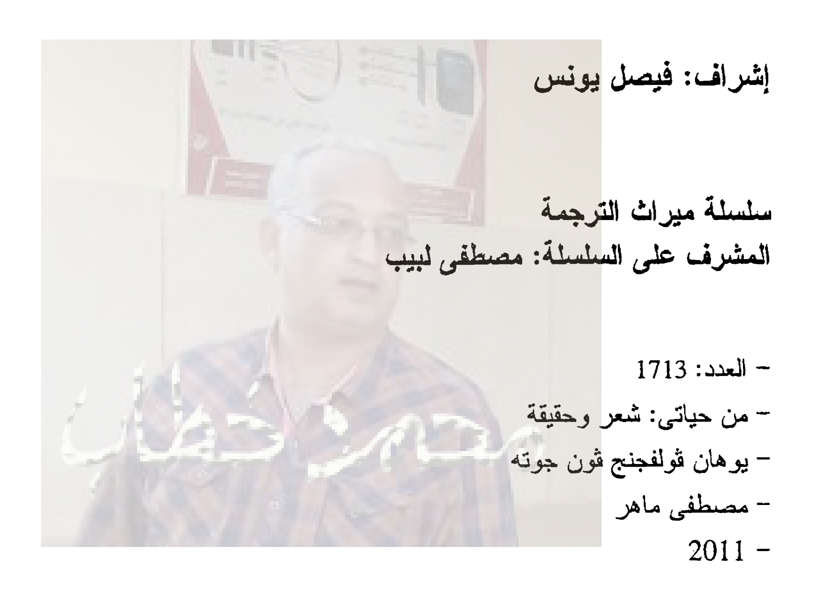

المركز القومى للترجمة
يوهان ڤولفجنج فون جوته
من حياتى
شعر و حقيقة
ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر
ميراث الترجمة
1713



من حياتى

شعر وحقيقة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور



إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1713
- من حياتى: شعر وحقيقة
- يوهان ڤولفجنج ڤون جوته
- مصطفى ماهر
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

Aus meinem Leben: Dichtung und Wahrheit

Johann Wolfgang von Goethe

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ ـ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

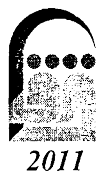


من حيــاتـى

شعر وحقيقة

تـأليــف : يوهان ڤولفجنج فون جوته

ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فون جوته، يوهان ڤولفجنج ، ١٧٤٩ - ١٨٣٢

من حياتى.. شعر وحقيقة / تأليف: يوهان ڤولفجنج فون جوته، ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر

القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١

٣٠٤ ص، ٢٤ سم

١ - الشعر الألمانى

٢ - الأدب الألمانى

(أ) ماهر، مصطفى (مترجم ومقدم)

(ب) العنوان ٨٣١

رقم الإيداع: ١٩٣١٦ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978- 977- 704 - 309 - 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات


محمد خطاب

تقديم المترجم

لا أظنى بحاجة فى هذا التقديم الموجز إلى الدخول فى تفصيلات حياة أديب ألمانيا الأكبر يوهان ڤولفجنج فون جوته، فقد ظهرت بالعربية كتيبات ومقالات متعددة تتعرض بصورة أو بأخرى لحياة جوته، نجد بيانًا عنها فى كتابى البيليوغرافى "مؤلفات لكتاب ألمان مترجمة إلى العربية ومؤلفات كتاب عرب مترجمة إلى الألمانية" الذى أصدرته بالاشتراك مع ڤولفجنج أوله لدى الناشر زاور، ميونيخ – نيويورك – لندن – باريس فى عام ١٩٧٩، ونجد معلومات أفضل عنها فى رسالة الدكتوراه القيمة التى قدمها الدكتور علاء الدين حلمى إلى جامعة بون فى عام ١٩٨٥م. ويمكننا أن نحيل القارئ إلى المقدمة المفصلة التى قدمت بها "نزوة العاشق" و "الشركاء"، القاهرة فى يونية عام ١٩٦٦ – العدد ٢٥ سلسلة مسرحيات عالمية ص ٩ – ٦٠ عندما بدأت منذ نحو عشرين عامًا فى نقل أعمال جوته المسرحية إلى العربية. ونكتفى هنا بكلمة موجزة.

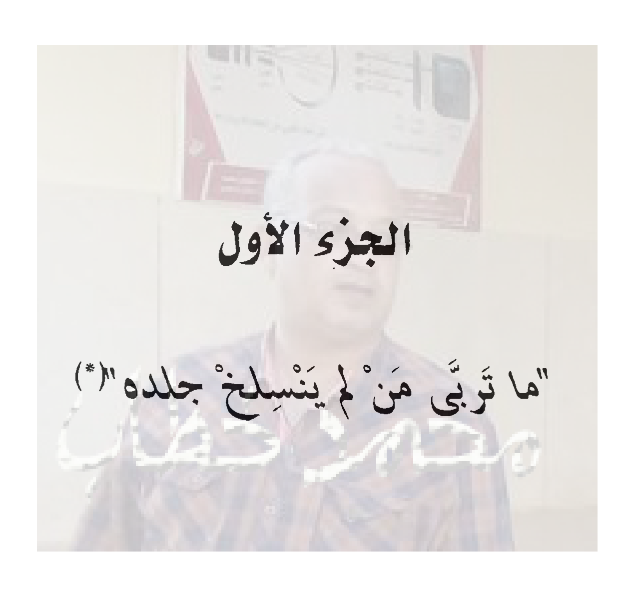
ولد جوته فى ٢٨ أغسطس من عام ١٧٤٩ فى مدينة فرنكفورت لأسرة مرموقة ودرس القانون فى مدينة لايپتسج، حيث أتيحت له فرصة الاتصال بعدد من الأدباء والمفكرين البارزين ومن بينهم جيللرت وجوتشد، وتأثر باتجاه الروكوكو، وكتب شعرًا بهذا الأسلوب، ومسرحية "نزوة العاشق" التى عالج فيها موضوعًا استقاه من "ألف ليلة وليلة"، وتأثر بالاتجاه المتحمس للكلاسيكية الفرنسية، وكتب مسرحية "الشركاء" التى تتطبع بهذا الطابع الفرنسى. فلما اتصل بهردر ونيتس وغيرهما من دعاة حركة "العاصفة والاندفاع" شارك فى هذه الحركة مشاركة كبيرة، وكتب روايته الشهيرة "لام ڤرتر" ومسرحيات "جوتس فون برليشينجن" و"أورفاوست"، و"كلاڤيجو" و"شتيلا". وقبل فى عام ١٧٧٥ دعوة أمير ڤايمار، فانتقل للحياة فى هذه الإمارة الصغيرة، وتولى الوزارة حينًا من الزمن،

وشجع الحياة الثقافية والفنية التى تربع على عرشها. وخلق بالاشتراك مع شيللر الحركة الكلاسيكية فى ألمانيا وقدم العديد من القصائد والبلادات، ومسرحية "إفيجينيا" التى كتبها فى عام ١٧٧٩، ولكنها لم تكن أعمالا أدبية، لم تكن نوعًا فنيًا، وقد عبر جوته فى أكثر من مناسبة عن رغبته فى أن تدخل السيرة إلى عالم الأدب، جامعة بين البيانات الجافة والشكل الفنى النابض بالحياة. وقد تحققت رغبة جوته فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر بكتاب هايم عن "هومبولت" وبكتب أخرى صدرت بعده عن ليسينج وهردر وڤنكلمان وغيرهم. كذلك كان جوته يعرف كتب السير الذاتية المهمة، ومنها مثلاً كتاب "جوتس" الذى اعتمد عليه عندما كتب المسرحية، ومنها "مذكرات سان سيمون"، و"اعترافات چان چاك روسو" ورواية "أنطوان رايزر" التى تحكى حياة مؤلفها كارل فيليب موريتس، والسيرة الذاتية لبينڤينوتو تشيلليني التى ترجمها ونشرها فى مجلة "دى هورين" ١٧٩٦ – ١٧٩٧، ثم نشرها فى كتاب فى عام ١٨٠٣.

والخلاصة أن جوته ذهب فى حكمه على هذه الكتب، وفى نقده لها، وتأملاته حولها، إلى أن رجال الفكر عليهم عندما يبلغون الخمسين أو الستين من عمرهم، أن يكتبوا سيرهم الذاتية، يعرضون فيها ما أنجزوا، ويتحدثون عما يرجون بلوغه إذا امتد بهم العمر. كذلك كان من رأيه أن على من يكتب سيرته الذاتية أن يضعها فى إطار يشمل أوجه الحياة المختلفة السياسية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية. وهذا هو ما فعله جوته عندما خطط لكتابه، وعندما نفذ خطته.

وكتاب "من حياتى شعر وحقيقة" كتاب ضخم فى أكثر من ألف صفحة، تنقسم إلى عشرين فصلا أو على حد تسمية جوته، عشرين كتابًا، نقدم إلى القارئ أربعة منها، فى ترجمة كاملة، وقد يطول بنا العمر فنترجم أجزاء أخرى منها، فما من شك فى أن هذا الكتاب من أمهات الكتب لا فى الأدب الألمانى وحده، بل فى الأدب العالمى كله.

مصطفى ماهر.



الجزء الأول

"ما تَربَّى مَنْ لم يَنْسِلخْ جلده"(*)

(*) فى الأصل باليونانية. عبارة أخذها جوته من ملهاة لميناندروس، ولسنا على يقين من المعنى الذى قصد إليه جوته بالضبط، هل يعنى أن الإنسان لا يكتمل تكوينه إلا بالمعاناة، أم أن الصعاب هى التى تعرك الإنسان وتقوى عوده، أم أن سلخ الجلد يكشف عما تحته، فتذهب القشرة ويتجلى المعدن الحقيقى. (المترجم)


محمد حطاب

مقدمة

لتكن مقدمة هذا الكتاب – ولعل حاجته إلى مقدمة تفوق حاجة غيره من الكتب – رسالة(١). تلقيتها من صديق كانت هى التى حفزتنى على كتابته، وإنه لضرب من الكتب لا يقدم الإنسان عليه مطمئن النفس، قرين العين:

"لقد اجتمعت بين أيدينا، أيها الصديق العزيز، مجلدات اثنا عشر من أعمالك الأدبية(٢)، نلقى فيها عند قراءتها أشياء نعرفها، ونصادف أشياء لا نعرفها، بل نجد فى طياتها أشياء تذكرنا هى بها بعد طول نسيان، والإنسان لا يستطيع أن يمنع نفسه من اعتبار الاثنى عشر مجلدًا، التى تمثل له فى حجم واحد، كلاً متكاملا، ويسعى إلى رسم صورة للمؤلف وفنه اعتمادًا عليها. وليس هناك من سبيل إلى إنكار أن هذه المجلدات الاثنى عشر تلوح لنا كما ضئيلا إذا قيست بالنشاط الذى بدأ به المؤلف حياته الأدبية، وبالوقت الطويل الذى انقضى منذ ذلك الحين. أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن ننكر أن الأعمال المختلفة تفتقت فى أكثر الأحيان عن مناسبات خاصة، وأن أمورًا خارجية معينة وأطوارًا داخلية محددة تتجلى من بين جنباتها، وأن ثمة مبادئ واتجاهات أخلاقية وجمالية معينة تطبع بطابعها نتاج كل مرحلة. ولكن هذه الأعمال التى بين أيدينا أشتات لا يربطها رابط، بل إن القارئ لا يكاد يصدق أنها قد انسابت كلها من قلم أديب واحد.

ولقد عكف أصدقاؤك فى هذه الأثناء على البحث والتقصى، فهم يحاولون، بما أتيح لهم من قرب من حياتك وفكرك ومعرفة بهما، أن يكشفوا شيئًا استغلق على الأفهام، وأن يحلوا بعض العقد التى استعصت على الحل. وهم يجابهون

الصعاب، ولكنهم يجدون فيها متعة لما يشدهم إليك من ميل قديم ويربطهم بك من علاقة قديمة أيضًا. فلو قدمت إلينا مساعدة تعيننا هنا وهناك على مهمتنا، لارتحنا إليها وما نظنك تحجبها عنا وقد علمت صدق نوايانا وخلاصة ودنا.

وأول ما نطلبه منك هو أن تذكر لنا، عندما تنشر مؤلفاتك فى طبعة جديدة، الترتيب الزمنى التى يقوم على علاقات اعتملت فى ذات نفسك، وأن تكشف لنا عن ظروف حياتك وأحوال نفسك التى انطلقت عنها هذه المؤلفات، وتبين لنا النماذج التى أثرت فيك والمبادئ النظرية التى أخذت بها، وأن تعرضها لنا فى شيء من الترابط. وقد يلوح لك هذا العمل مقصورًا على طائفة خاصة ضيقة من الناس، ثم تتبين أنك أنشأت كتابًا تجد فيه دائرةٌ أوسع من الناس ما تنعم به وتفيد منه. ولا ينبغى للأديب، مهما تقدمت به السن، أن ينصرف عن الحديث، ولو عن بعد، إلى أولئك الذين شغفوا به وإذا لم يتح للأديب أن يطلع على الناس فى سنوات بعينها بأعمال جديدة باهرة تحدث فيهم أثرًا عظيمًا، فليس من شك فى أنه فى هذه السنوات بالذات، وقد اكتملت معرفته، ووضح وعيه، يقوم بعمل يسلى أعظم التسلية، وينعش كل الإنعاش عندما يعود إلى معالجة مؤلفاته من حيث هى مادة يصل بها إلى صورة تعتبر أدبًا جديدًا فى نظر أولئك الذين عرفوا الأدب من قبل مع الفنان وبه".

فما إن قرأت هذا الطلب الذى ينطق بالود حتى أثار فى نفسى الرغبة إلى تلبيته. والحق أننا كنا فى أوقات مضت قد تمسكنا بالسير على نهج رأيناه خاصًا بنا، ورفضنا الاستجابة إلى مطالب الآخرين، حتى لا نضل السبيل، وتحرينا هذا الرفض، ولكننا نرحب فى سننا هذه المتقدمة أشد الترحيب بكل لفتة تحرك فينا ساكنًا، وتدفعنا فى رفق إلى نشاط جديد. ونهضت من فورى بمهمة تمييز الأعمال الصغيرة والكبيرة التى يضمها الاثنا عشر مجلدًا، ورتبتها بحسب سنوات نشأتها، واجتهدت فى أن أذكر الأوقات والأحوال التى أخرجتها. ولكنى كلما توغلت فى العمل تبينت أن المهمة تزداد صعوبة، إذ تتطلب عرض بيانات تفصيلية وإيضاحات مسهبة تملأ ما بين أعمالى المنشورة من ثغرات. فلم يخرج إلى الناس

شيء من الأعمال التى كتبتها فى البداية على سبيل التدريب، وضاعت بعض الأعمال التى كنت قد بدأتها ولم أتمها، بل ضاعت صياغة بعض الأعمال المكتملة، لأننى تناولتها فيما بعد بالتغيير الكامل وصببتها فى قالب آخر.

كذلك لم تظهر فى مجلدات أعمالى المطبوعة الدراسات التى قمت بها فى بعض العلوم والفنون، وما عالجته فى هذه الموضوعات التى تبدو غريبة فى ظاهرها، تارة بمفردى، وتارة مع بعض الأصدقاء، تارة بينى وبين نفسى، وتارة فى أعمال خرجت بها على الناس.

وكانت نيتى أن أذكر هذه الأمور شيئًا فشيئًا، وحينًا بعد حين إرضاء لمن أحاطونى بودهم. ولكننى تبينت أن الجهود التى بدأت بها، والتأملات التى استرسلت فيها، أخذت تسوقنى إلى بعيد، فما سعيت إلى تلبية هذا الطلب الحكيم، وعكفت على تسجيل ما اعتمل فى نفسى من خلجات، وأثر فيّ من مؤثرات خارجية، وإثبات الدرجات التى خطوتها واحدة بعد واحدة، نظريًا وعمليًا، حتى اتضح لى أننى أخرج من إطار حياتى الخاصة الضيقة، إلى إطار الدنيا الواسعة، وتمثلت لى شخصيات مهمة عديدة أثرت فى من بعيد ومن قريب، ورأيت من الضرورى أن أضع فى تقديرى بصفة خاصة ما طرأ على أحداث الدنيا فى مسارها السياسى العام من حركات هائلة أثرت فى، كما أثرت فى جمهرة المعاصرين تأثيرًا بالغًا. ويبدو أن الهدف الأساسى لكتابة السيرة هو أن نصور الإنسان وسط ظروف زمانه، وأن نبين إلى أى حد عاقته هذه الظروف، وإلى أى حد يسرت له السبل، وكيف كون لنفسه منها صورة للعالم والناس، وكيف عاد فعكسها إلى الخارج إذا كان فنانًا أو شاعرًا أو أديبًا. وذلك لعمرى مطلب لا أظن أن إنسانًا يستطيع تحقيقه، فهو يعنى أن يعرف الإنسان نفسه، وأن يعرف عصره، فيعرف نفسه وكيف ظلت هى هى تحت كل الظروف التى أحاطت بها، ويعرف عصره وكيف جرفه فى تياره، راضيًا أو كارهًا، فكونه وعدله، حتى إننا لنستطيع

أن نقول إنه لو ولد مبكرًا أو متأخرًا عشر سنين لأصبح فى تكوينه الذاتى وتأثيره الخارجى إنسانًا آخر مختلفًا كل الاختلاف.

فعلى هذا السبيل وعلى ضوء هذه الاعتبارات والمحاولات، ومن أمثال هذه الذكريات والتأملات، خرجت هذه الصورة. وأفضل سبيل إلى تذوقها والإفادة منها، وأعدل سبيل إلى الحكم عليها هو أن ينظر إليها الناظر على النحو الذى بيناه.

أما ما ينبغى أن يقال عن المعالجة التى تقوم على شق شعرى وتاريخى، فستسنح فى الكتاب نفسه أكثر من فرصة للخوض فيه.

الكتاب الأول

فى الثامن والعشرين من شهر أغسطس من عام ١٧٤٩، وفى الساعة الثانية عشرة ظهرًا، خرجت إلى الدنيا، فى مدينة فرنكفورت الواقعة على نهر الماين. كان الطالع طالع سعد: فقد حلت الشمس فى برج العذراء على سمت النهار، وتطلع إليها المشترى والزهرة فى ود، ونظر إليها عطارد فى غير نفور، وزحل والمريخ فى غير اكتراث، إلا القمر الذى كان قد بلغ تمامه، فقد سلط قوة ضوئه المضاد فى عنف، وقد حانت ساعته منذ قليل، وعارض مولدى، فلم يتم إلا بعد أن انقضت تلك الساعة.

ويبدو أن هذه العلامات الطيبة – التى بين لى الفلكيون فيما عظم شأنها – كانت السبب فى الإبقاء على حياتى: لأن غباء القابلة أدى إلى خروجى إلى الدنيا أقرب إلى الميت منى إلى الحى، ولم أبصر النور إلا بعد جهد جهيد. وكانت هذه الملمة – التى عانى منها أهلى أشد المعاناة – فاتحة خير لأهل البلد، لأن جدى يوهان ڤولفجنج تكستور، عمدة المدنية، قرر بسببها أن يعين حكيمًا فى المدينة وأدخل نظامًا لتعليم القابلات أو جدد النظام القائم – وربما جاء ذلك بالنفع على من ولدوا بعدى.

إن الإنسان إذا أراد أن يتذكر ما جرى له فى المرحلة المبكرة من طفولته، كثيرًا ما يخلط ما سمعه من الغير وما اجتمع له من خبرة خاصة تقوم على المشاهدة الفعلية. وأنا أعرف، معرفة لم أعتمد فيها على الفحص الدقيق والتقصى – فهذا موضوع لن يؤدى فيه الفحص الدقيق والتقصى إلى نتيجة – أننا كنا نسكن فى بيت قديم، كان فى الحقيقة يتكون من بيتين متلاصقين فتح أحدهما على الآخر. وكان هناك سلم على هيئة البرج يؤدى إلى حجرات ليس بينها ترابط، ثم كانت

هناك درجات ابتنيت لتقرب بين المستويين المختلفين. أما الصحن الذى وسعه أسفل البيت فكان أحب مكان إلينا، إلى أختى التى تصغرنى قليلاً. وإلى أنا، وكان هذا الصحن ينتهى عند الباب بساتر كبير من الخشب المعشق يصل الإنسان مباشرة بالشارع وبالهواء الطلق. وكان الناس يطلقون على هذا الساتر الذى يشبه القفص والذى اتخذته بيوت كثيرة اسم "التحويطة" وهذه التحويطة كانت ملتقى النساء، فيها يجلسن وفيها يخيطن ويطرزن، وفيها تنقى الطباخة الخس، ومن خلالها تتبادل الجارات الحديث عن بعد مما يضفى على الشارع عندما يعتدل الجو طابع البلاد الدافئة. وكان الناس يحسون بحرية وانطلاق وهم يتصلون بالحياة العامة اتصالا أليفًا على هذا النحو. وهكذا اتصلنا، نحن الأطفال، عن طريق هذه التحويطة بالجيران، وأحبنى منهم ثلاثة إخوة كانوا يسكنون فى بيت يواجه بيتنا، أبناء شيخ البلد المتوفى أوكسنشتاين، حبًا شديدًا، وكانوا يشاغلوننى ويسترسلون معى فى ألوان مختلفة من العبث.

وكان يحلو لأهلى أن يحكوا الحكايات عن ألوان من العبث حرضنى عليها هؤلاء الرجال الذين عرف عنهم – إذا استثنينا هذا العبث – الجد والروية. وسأكتفى برواية واحدة من هذه الحكايات. كانت سوق الأوانى قد قامت منذ قليل فى بلدنا، وابتاعت الأسرة للمطبخ حاجته من الأوانى إلى حين، واشترت لنا نحن الصغار بعض الأوانى المصغرة لنلعب بها ونلهو. وفى عصر يوم من الأيام كان كل شىء هادئًا فى البيت، فذهبت لألعب بالصحون والأوانى فى التحويطة، حتى مللت وظننت أننى لم أصل فى عبثى إلى بغيتى وهنا ألقيت صحنًا فى الشارع فتحطم وابتهجت له إذ تحطم على نحو طريف. وصاح بى الإخوة الثلاثة الذين رأوا فرحتى الغامرة وتصفيقى بيدى الصغيرتين: الق غيره. فلم أتوان عن إلقاء إناء آخر. وكلما صاحوا فىّ: الق؛ أحضرت غيره وألقيته، حتى انتهت الأطباق الصغيرة والطاسات الصغيرة والأباريق الصغيرة حطمتها كلها فوق بلاط الشارع. وظل جيرانى يظهرون استحسانهم، وظللت أنا مبتهجًا كل الابتهاج بما أهيئه لهم من متعة. فلما فرغت جعبتى، وهم لا يكفون عن الصياح: ألق غيره، هرعت إلى

المطبخ وأحضرت الصحون الفخارية وألقيتها، فكان تحطمها بطبيعة الحال مشهدًا أكثر بهجة. وهكذا أخذت أجرى ذهابًا وإيابًا، أحضر الصحن تلو الصحن، على قدر ما استطعت الوصول إليها فوق رفها. ولما كان الإخوة الثلاثة لا يكتفون، بل يطلبون المزيد، فقد حطمت بهذه الطريقة كل آنية وصلت إليها يداى. ولم يأت أحد من البيت ليمنعنى ولينقذ ما بقى من الأشياء إلا متأخرًا كل التأخر.

كانت الواقعة قد وقعت، وخسرت الأسرة الأوانى الفخارية الكثيرة، وكسبت لقاءها على الأقل قصة مضحكة، ظل الخبثاء الذين تسببوا فيها يتمتعون بها حتى نهاية أيامهم.

وكانت جدتى، أم أبى، التى كنا فى الحقيقة نعيش فى بيتها، تتخذ لنفسها حجرة خلفية فسيحة تطل مباشرة على الصحن، وكان من عادتنا عندما نلعب أن نصل فى أثناء لعبتنا إلى كرسيها الوثير، بل وإلى فراشها إذا كانت مريضة وأنا أذكرها، وأتمثلها فى ذاكرتى على صورة ملاك، أتمثلها امرأة جميلة تلبس الثياب البيضاء النظيفة ولا تلبس غيرها، وقد ظلت إلى اليوم فى ذاكرتى على صورتها الرقيقة اللطيفة الطيبة.

ولقد سمعنا الناس يسمون الشارع الذى يقوم فيه بيتنا "هيرشجرابن" أى خندق الأيل. ولما لم نر فيه أيلا ولا خندقًا، فقد سألنا عن تفسير للاسم، فقالوا لنا إن بيتنا يقوم فى موضع كان فيما مضى يقع خارج المدينة، وكان فى مكان شارعنا خندق تربى فيه عدد من الأيائل. وكانت هذه الأيائل توضع فى الخندق وتعلف، لأن مجلس شيوخ المدينة كان يقيم بناءً على تقاليد قديمة مأدبة عظيمة يأكل فيها أعضاؤه لحم الأيل، ولهذا كانوا يربون الأيل، ويحفظونه فى الخندق فى متناول اليد، حتى إذا حل الموعد وجدوه. ثم تطورت الأمور، وافتأت الأمراء والفرسان من خارج المدينة على حقهم فى الصيد، أو أزعجوهم، ثم أتى الأعداء وضربوا على البلاد حصارهم إلى حين. ولقد أعجبنا بهذه القصة غاية الإعجاب، وتمنينا لو رأينا فى عصرنا أيضا خندقًا يستأنس فيه هذا الحيوان البرى.

أما الناحية الخلفية من البيت، فكنا نطل منها، وخاصة من الطابق العلوى على منظر جميل كل الجمال، منظر مساحات لا تنتهى إلى نهاية من الحدائق، حدائق الجيران، تمتد نحو أسوار المدينة. إلا أن تحويل الأراضى العامة إلى حدائق منزلية خاصة، أدى للأسف إلى التضييق على بيتنا وعلى بعض البيوت الأخرى الواقعة على ناصية الشارع، لأن البيوت الممتدة من سوق الخيل نحونا توسعت وأضافت إلى مبانيها مبان خلفية كبيرة بددت من أجلها الحدائق الواسعة، وإذا نحن نرى أنفسنا وقد حيل بين أبصارنا وهذه الجنان القريبة، بعد أن حجبها جدار فنائنا الشاهق.

وكانت لدينا فى الطابق الثانى حجرة يسمونها حجرة الحديقة، لأنهم وضعوا على نافذتها بعض النباتات القليلة حاولوا أن يعوضوا بها منظر الحدائق الذى افتقدوه. وكنت أجد فى هذه الحجرة كلما تقدمت بى الأيام مقامًا قريبًا إلى نفسى غاية القرب، لا أقول مقامًا حزينًا، بل مقامًا أهفو إليه. كان الناظر من النافذة يتجاوز ببصره الحدائق المجاورة وأسوار المدينة والمتاريس فيرى السهل الخصب الجميل، السهل الذى يمتد صوب هوكست[٣]. كنت آوى إلى هذه الحجرة صيفًا فأستذكر دروسى، وأنتظر مقدم العواصف وأتطلع إلى الشمس الغاربة التى اتخذت النوافذ ناحيتها فأطيل التطلع ولا أشبع من النظر إليها. وكنت كذلك أرى الجيران يمشون فى حدائقهم، ويرعون زهورهم، وأرى الأولاد يلعبون والصحاب يلهون، وأسمع الكرات وهى تتدحرج وأقماع اللعب الخشبية وهى تهوى، وكان ذلك كله يثير فى نفسى منذ وقت مبكر إحساسًا بالعزلة ينبثق عنه إحساس بالحنين، وكان إحساس العزلة هذا يطابق ما غرسته فىَّ الطبيعة من جد وتلهف لن يلبث أن يفصح عن أثره واضحًا جليًا.

وكان ما يتصف به البيت من قدم وتعرج وكآبة في كثير من جنباتة يثير الفزع والخوف في نفوس الأطفال الناعمة. وكانت الأسرة تتبع، للأسف، المبدأ التربوى القائل بتجريد الأطفال في وقت مبكر من الخوف مما توسوس به النفس ولا تراه العين، وتعويدهم الأشياء المفزعة. وهكذا فرضوا علينا نحن الأطفال، أن ننام بمفردنا، فإذا استحال علينا النوم على هذا النحو، وخرجنا من مخادعنا، والتمسنا صحبة الخدم والخادمات، خرج الوالد متشحًا بثوب النوم، واعترض طريقنا متخذاً هيئة رهيبة تصطنع التخفى والتقنع، ويردنا مفزوعين إلى فراشنا. ويمكن لكل إنسان أن يتصور الأثر السيئ الذى أدت إليه هذه الطريقة فكيف يتخلص إنسان من الخوف عندما يحاصر بخوف مضاعف؟ أما أمى فكانت دائمة المرح والبشاشة، لا تفتأ تفيء على الآخرين بالبهجة والسرور، ابتكرت أمى وسيلة تربوية أفضل كانت تصل بها إلى الهدف المرجو، ألا وهى المكافأة. وأذكر أن الوقت كان وقت جنى الخوخ، فكانت تعدنا بنفحة سخية من هذه الفاكهة في كل صباح إذا نحن تغلبنا بالليل على الخوف. ونجحت وسيلتها، ورضى الطرفان.

وكانت تجذب انتباهى فى داخل البيت مجموعة من الرسوم الإيطالية زين بها الوالد قاعة صغيرة، وكانت رسومًا صنعت بالحفر، حفرها رسامون سبقوا بيرانيزاى(٤)، يفهمون العمارة والمنظور فهمًا جيدًا، ويحركون إبرة الحفر بوضوح يجمع بين النصاعة والقيمة. فى هذه القاعة الصغيرة كنت أرى كل يوم "ساحة الشعب" و"الكوليسيوم" و"ميدان بطرس" من الخارج والداخل، وأرى "صرح الملائكة"(٥). وغيرها من معالم مدينة روما.

انطبعت هذه الأشكال عميقة فى نفسى. وكان الوالد بطبعه إنسانًا صموتًا، ولكنه كان من حين لآخر يخرج عن صمته، ويتفضل علينا بوصف لما تبينه الصور. كان الوالد يحب اللغة الإيطالية ويحب كل ما يتصل بإيطاليا حبًا شديدًا

وكان يحتفظ بمجموعة من المرمر ومن الأحجار الأخرى أتى بها من إيطاليا، فكان يعرضها علينا أحيانًا. وكان فى ذلك الوقت عاكفًا على تسجيل وصف لرحلته إلى إيطاليا، باللغة الإيطالية، يكتب الكراسة تلو الكراسة. وينسخها ببطء وتؤدة وتأن، ويستعين فى هذا العمل برجل إيطالى مسن مرح يعمل فى تعليم اللغة الإيطالية، كان اسمه جوفينازى(٦). كذلك كان أبى يغنى بصوت مقبول، وكان على أمى أن تعزف على البيانو مصاحبة لإنشاده ولإنشادها. وهكذا حفظت أغنية "سوليتاريو بوسكو إمبروزو" قبل أن أفهم معانى كلماتها(٧).

وكان أبى بصفة عامة ميالا بطبيعته إلى التعليم، يحب – عندما يفرغ من أعماله – أن ينقل إلى الآخرين ما يعرف من علم وما يتقن من مهارة. وهكذا علم أمى فى السنوات الأولى لزواجهما الكتابة الجيدة، وعلمها عزف البيانو والغناء ثم أحست هى بأنها فى حاجة إلى تحصيل شىء من المعرفة باللغة الإيطالية وشىء من المهارة الضرورية فى ممارستها.

كنا قد اعتدنا أن نقضى ساعات فراغنا كلها عند الجدة، وكنا نجد فى حجرتها الفسيحة متسعًا لما نسترسل فيه من ألوان اللعب، وكانت هى تعرف كيف تشغلنا بكثير من الأشياء الصغيرة، وكيف تدخل البهجة إلى نفوسنا بكثير من النفحات اللذيذة. وهكذا قدمت إلينا فى أمسية عيد الميلاد تتويجًا لحسناتها كلها، قدمت إلينا تمثيلية على مسرح للعرائس اقتنته من أجلنا، فخلقت به فى البيت القديم عالمًا جديدًا. واجتذبت هذه التمثيلية النفوس الصغيرة التى لم تكن تتوقعها اجتذابًا شديدًا، وأحدثت فى نفس الصبى خاصة انطباعًا قويًا ظل أثره فيه عظيم الصدى، طويل البقاء(٨).

واتخذ هذا المسرح الصغير – الذى عرضوه علينا فى البداية للمشاهدة فحسب، ثم سلموه لنا بعد ذلك للتدريب والتمثيل – قيمة كبيرة بالنسبة إلينا نحن الأطفال، لأنه كان آخر ما قدمته إلينا الجدة الطيبة التى اشتد بها المرض، فاحتجبت عن عيوننا، ثم اختطفها الموت وحرمنا منها إلى الأبد. وكانت وفاتها كبيرة الأثر على الأسر كلها، لأنها غيرت أحوالها تغييرًا تامًا.

فطالما كانت الجدة على قيد الحياة، كان أبى يحذر مـــن إدخال أدنى تغيير أو تجديد على البيت، وكان معلومًا أنه يعد العدة لعملية بناء شاملة، ما لبث أن بدأ فى تنفيذها. وكان الناس فى فرنكفورت، وفى كثير من المدن القديمة الأخرى، قد اعتادوا عند بناء بيوت من الخشب، أن يسمحوا لأنفسهم، طمعًا فى مزيد من المكان، بأن يبرزوا – لا بالطابق الأول فحسب – بل وبالطوابق التالية كذلك ناحية الشارع، مما أدى بطبيعة الحال إلى ضيق شوارع كانت ضيقة أصلاً، وأضفى عليها سمة كئيبة مخيفة. ثم صدر قانون يحتم على من يبنى بيتًا من أساسه ألا يبرز على الأساس إلا بالطابق الأول فقط، وأن يرتفع بالطوابق التالية رأسيًا دون ما بروز جديد. ولم يكن أبى يريد أن يفقد البروز فى الطابق الثانى، فهو لم يكن حريصًا على المنظر المعمارى الخارجى، بل حريصًا على أن يكون المكان داخل البيت واسعًا مريحًا، ولهذا لجأ إلى حيلة سبقه إليها آخرون، وهى تحميل الأجزاء العلوية من المبنى على دعامات، وهدم الأجزاء السفلية وإعادة بنائها ثم التدرج منها إلى الأجزاء العلوية، فإذا تم البناء الجديد ولم يبق من القديم شىء كان فى نظر القانون ترميمًا. ولما كانت عملية الهدم والبناء تجرى على مراحـــل، فقد صمم أبى على ألا يبرح البيت ورأى أن بقاءه فيه سيمكنه على نحو أفضل من الإشراف والتوجيه، وكان يفهم النواحى الفنية فى البناء فهمًا جيدًا، أضف إلى ذلك أنه لم يكن يريد أن يفترق فى هذه الأثناء عن أسرته. وبدأ عصر جديد لاح للأولاد عجيبًا مفاجئًا إلى أقصى حد. فهذه هى الحجرات التى كثيرًا ما كانوا يحصرون فيها حصرًا، ويضيَّق عليهم فيها بالتعليم وبما لا يفرح له القلب من عمل ثقيل،

وهذه هى الطرقات التى كانوا يلعبون فيها ويمرحون والحيطان التى كانت الأسرة حريصة على المحافظة على نظافتها ورونقها، تنهار أمام أعينهم تحت معول البناء وبلطة النجار، ورأى الأولاد أعمال الهدم والبناء تجرى من أسفل إلى أعلى، وقد ظل الجزء العلوى محمولاً على دعائم، وكأنه طائر فى الهواء. وكانوا رغم هذا مطالبين بالاستمرار فى استذكار الدروس وأداء الواجبات. وأحدثت هذه الظروف بلبلة فى الرؤوس الصغيرة لم يسهل فيها بعد تسويتها وإصلاحها. على أن الصغار لم يتأثروا كثيرًا بما اعتور المكان من اضطراب، لأنه أتاح لهم مجالاً للعب وفرصًا للتأرجح على الأعمدة، والاهتزاز على الألواح.

ونفذ الأب مخططه فى المرحلة الأولى، فلما بدأ رفع السقف قطعة قطعة، ووصل المطر إلى سررنا، على الرغم من المشمعات التى نشرت لدرئه وكانت من قبل ملصوقة على الحيطان لتزيينها، قرر كارهًا أن يضع الأولاد إلى حين عند أصدقاء كرام عرضوا استضافتهم، وقرر أن يبعث بهم إلى مدرسة عامة.

وكان هذا الانتقال محفوفًا بشىء من المكاره: فقد زج بالأولاد الذين كانوا يتلقون تربية خاصة قاسية نظيفة رفيعة إلى جمهرة من المخلوقات الصغيرة الفظة الشرسة، فعانوا أشد المعاناة من كل ما لم يكونوا يتوقعونه من نذالة وشر وخبث، لأنهم كانوا يفتقرون كل الافتقار إلى الأسلحة والقدرة على الدفاع عن النفس.

وكان هذا الوقت هو الذى رأيت فيه مدينتنا رؤية حقيقية، فقد بدأت منذ ذلك الحين أسير فى جنباتها بحرية متزايدة، وتردد متناقص، أسير فى جنباتها، تارة بمفردى وتارة مع أتراب أولى مرح ونشاط. ولابد أن أبدأ هنا بوصف المدينة التى شهدت مولدى، وكيف تطورت أجزاؤها شيئًا فشيئًا أمام عينى، قبل أن أتناول بالحديث الانطباع الذى أحدثته فى هذه الربوع المهيبة الجليلة. كنت أفضل التنزه على جسر الماين[٩] الكبير على غيره من ألوان التنزه الأخرى، وكان هذا الجسر بطوله وقوته ومنظره الجميل بناء عظيمًا، وكان هو الأثر الوحيد تقريبًا الذى بقى مع العصور المبكرة ناطقًا بما قدمه أصحاب السلطان إلى مواطنيهم. وكان النهر

الجميل فى انسيابه من منبعه، واندفاعه إلى مصبه، يشد نظراتى إليه، كذلك كنت أحس بالبهجة عندما أرى الديك الذهبى يتلألأ فى ضوء الشمس عند صليب الجسر. واعتدت السير للنزهة حتى أبلغ ربوع زاكسنهاوزن[١٠]، وأن أتمتع باجتياز النهر على متن سفينة لقاء أجر زهيد، فإذا وصلت إلى الشاطئ الآخر إلى سوق النبيذ تمتعت بمشاهدة تركيب الروافع والعمل الذى يجرى عند تفريغ البضائع. وكنا نتمتع بمنظر وصول السفن إلى السوق، ونرى عليها أشياء عجيبة، وأناسًا غرباء ينزلون منها. فإذا نزلنا المدينة ذهبنا، أيًا كان الوقت، لنقف موقف التحية والإجلال أمام مبنى الزالهوف الذى يقوم فى مكان يقولون إن قلعة الإمبراطور شارلمان وخلفائه كانت تقوم فيه. وكنا نحب أن نتيه فى جنبات المدينة القديمة التى تعج بمختلف الحرف والصناعات وبخاصة فى أيام السوق، ونندس بين الجماهير المتزاحمة حول كنيسة بارتولوميوس. وكانت أخلاط من الباعة والتجار تحتشد منذ أقدم العصور فى هذا المكان، وأصبح تزاحمها فى العصور الحديثة حائلاً دون إقامة بناء واسع فسيح. أما نحن الصغار فكنا كلفين أشد الكلف بدكاكين طريق (اليفارأيزن)، نحمل إليها النقود لنشترى أوراقًا ملونة طبعت عليها صور حيوانات مذهبة. ولم نكن نحب، إلا فيما ندر، أن نتقدم نحو ساحة السوق المغلقة المزدحمة القذرة. وأذكر أننى كنت دائمًا أنفر نفور الهارب من مناضد الجزارة الضيقة القبيحة المتاخمة. وأسعى منشرح الصدر إلى تل (الرومربرج) الذى كان على العكس تمامًا، مكانًا لطيفًا للنزهة. كذلك كان السير إلى المدينة الجديدة خلال شارع كريمي الجديد نزهة بهيجة. ولكننا كنا نحس بالضيق، لأن الطريق من كنيسة (الليبفراونكيرشه) إلــى شارع (التسايل) لم تكن مباشرة مستقيمة، فكنا نضطر إلى الالتفاف على هيئة قوس كبير من خلال حارة (هازنجاسه) أو بوابة كاتارينه. وكان هناك شيء يجذب انتباه الصبى إليه جذبًا بالغ الشدة ألا وهو منظر المدن داخل المدينة، والقلاع داخل القلاع، أعنى تلك الأديرة المسورة والمبانى القديمة المقصورة التى ترجع إلى قرون غابرة والتى تحاكى هيئتها هيئة القلاع. وأذكر منها: الدار النورنبرجية[١١] ودير الكومبوستل[١٢]. والبراونفلس[١٣]، الدار الأصلية

لآل شتالبورج، والحصون التى حولت فيما بعد إلى مساكن ومحال لممارسة الحرف المختلفة. أما فرنكفورت نفسها فلم يكن فيها شيء من هذه العمائر المنيفة، بل كان كل ما فيها يشير إلى عصور مضت كانت بالنسبة للمدينة والمنطقة عصورًا مليئة بالاضطرابات والقلاقل. منها البوابات والحصون والأسوار والجسور والمتاريس والخنادق التى تحيط بالمدينة الجديدة، وكلها تنطق فى وضوح بأن ضرورة تأمين حياة الأهالى فى الأوقات المضطربة هى التى خلفت هذه المنشآت، وأن الميادين والشوارع، ومن بينها الجديدة الفسيحة الجميلة ذاتها، أتت وليدة المصادفة أو وليدة النزوة، ولم تصدر عن فكر منظم. وهكذا ثبت فى وجدان الصبى ميل أكيد إلى الأشياء القديمة الأثرية، حفزته وغذته التواريخ القديمة والصور القديمة المطبوعة بالخشب، ومن بينها على سبيل المثال الصورة التى رسمها (جرافه) لحصار فرنكفورت[١٤]. كذلك، تأكدت لديه رغبة أخرى، هى الرغبة فى فهم الأحوال الإنسانية فى تنوعها وطبيعتها دون أن يربط هذا الفهم بنفع أو جمال. وهكذا كانت من بين الجولات المحببة إلى نفوسنا، والتى كنا نحرص على القيام بها مرات كل عام جولة على الناحية الداخلية من الطريق الممتدة فوق سور المدينة. كانت هذه الجولة تتيح لنا التطلع إلى الحدائق والأفنية والأجزاء الخلفية من بيوت تتوالى حتى تصل إلى المكان البارح بين السور الداخلى والسور الخارجى للمدينة. وكنا فى أثناء جولتنا نرى آلاف الناس منغمسين فى حياتهم المنزلية البسيطة المحـــددة المستورة، فنرى حديقة الرجل الغنى بما فيها من جمال وثراء، ثم حديقة الرجل العادى الذى يحرص على زراعة ما ينفعه، ثم نرى المصانع وأماكن تبييض الأقمشة وما إليها، ثم نصل إلى المقابر – كان قلب المدينة يمثل عالمًا صغيرًا، نمر فى كل خطوة على مشهد مختلف كل الاختلاف، عجيب غاية العجب لا يقف فضولنا فى التمتع به عند حد. والحقيقة أن الشيطان الأعرج[١٥]. عندما رفع لصديقه أسطح مبانى مدريد بالليل، لم يكشف له عن شيء أكثر مما كان يجرى أمام أعيننا هنا فى العراء وفى ضوء الشمس الوضاح. وكنا

نحتاج فى جولتنا هذه إلى مفاتيح الأبراج والأبواب حتى يستقيم لنا السير، وكانت هذه المفاتيح فى عهدة الحراس، فكنا نتملقهم ولا نقتصد فى التملق حتى يفتحوا لنا.

أما مبنى البلدية المسمى "رومر" فكانت له أهمية خاصة فى تقديرنا، فقد كان يحرك الساكن فى فكرنا على نحو مثمر كل الإثمار. فكنا نتيه فى قاعاته السفلية الشبيهة بالأقبية، ونتسلل إلى حجرة الاجتماعات الكبيرة البسيطة غاية البساطة. كانت حيطان حجرة الاجتماعات الكبيرة هذه مكسوة بالخشب إلى ارتفاع معين، عليها من فوقه طــلاء أبيض حتى السقف، وكانت خالية من كل رسم أو تصوير، لا يرى الناظر إليها سوى كلمات كتبت أعلى الحائط الأوسط هى:

كلمة رجل ما

ليست هى كلمة كل رجل

فاستمع لهذه وتلك راضيًا

وكانت هناك بناء على التقاليد القديمة مقاعد المجلس حول القاعدة، تثبت خشب الحيطان، ورفعت فوق الأرض درجة. فلما رأينا المقاعد ونظامها فهمنا لماذا كانت رتب أعضاء المجلس مرتبطة بالمقاعد. كانت مقاعد الصف الأول التى تلى الباب يسارًا وتمتد إلى الركن المقابل هى المقاعد التى يجلس عليها المحلفون، أما العمدة فكان يجلس على مقعد فى الركن وكان هو الوحيد الذى وضعت أمامه منضدة صغيرة، وأما مقاعد الصف الثانى من يسار العمدة على النوافذ فكان يجلس عليها سادة الصف الثانى، وكان أهل الحرف يجلسون على مقاعد الصف الثالث على طول النوافذ وكان كاتب الجلسة يجلس إلى منضدة فى وسط القاعدة.

وكنا عندما نذهب إلى مبنى البلدية نندس فى الجمع المحتشد عند العمدة. ولكن مبنى البلدية كان يرتبط فى نظرنا بانتخاب القياصرة وتتويجهم وما يتصل بهما من أمور كانت تستهوينا على نحو أشد من اجتماعات المجلس العادية. ونجحنا فى استمالة الحراس فسمحوا لنا بارتقاء سلم القيصر الحديد المشرق الذى طليت

جوانبه بالألوان الزاهية وأقيم عليه ساتر يحجبه. وكانت حجرة انتخاب القيصر، بما اكتست به حيطانها من ورق قرمزى، وبما تحلت به من أطر ذهبية مثقلة بالزخرف، تملأ نفوسنا بالرهبة والمهابة. وكنا نتطلع باهتمام كبير إلى تلك الأجزاء من الأبواب التى زينت بصور أولاد صغار أو جنيات تلبس الزى القيصرى وتتحمل برموز الرايخ، كان منظرها عجيبًا، وكنا نتمنى أن نرى بأعيننا مرة تتويج القيصر.

لم يكن من الممكن إخراجنا من القاعة القيصرية إلا بشق الأنفس إذا تمكنا من التسلل إلى داخلها، فإذا وجدنا من يحكى لنا شيئًا عن أعمال القياصرة الذين علقت صورهم النصفية على ارتفاع ما فى القاعة، فقد كنا نحتفى به احتفاءنا بأصدق الأصدقاء.

وسمعنا عن كارل الأكبر – شارلمان – قصصًا كأطياف الخيال، ولكن الروايات التى كانت تهمنا تاريخيًا كانت تبدأ برودولف الهابسبورجى الذى استطاع بشجاعته أن يضع حدًا للاضطرابات العنيفة. وكذلك جذب كارل الرابع اهتمامنا، وكنا قد سمعنا من قبل عن الصحيفة الذهبية وعن قانون العقوبات وعن حلم كارل الرابع مع أهل فرنكفورت فلم يعاقبهم على وقوفهم ضده إلى جانب القيصر المنافس له جونتر الشفارتسبورجى. وسمعناهم يمدحون ماكسيمليان الذى كان يحب الناس ويحرص على الأهالى، والذى أثر عنه قوله إنه سيكون آخر قيصر من دم ألمانى. ولقد تحققت نبوءته بالفعل، للأسف، وتأرجح الانتخاب بعد موته بين ملك إسبانيا كارل الخامس وملك فرنسا فرانسوا الأول. وكانوا يضيفون، وقد تملكهم الحزن، أن هذه النبوءة قد شاعت على أية حال، لأن الحوائط كانت قد امتلأت عند ذاك بالصور ولم يبق سوى مكان واحد، وعلى الرغم من أن ذلك جاء وليد المصادفة، فإن الوطنيين أحسوا بالقلق، ووجدوا فيه نذير شؤم.

وكنا عندما نخرج للنزهة والتجوال لا ننسى أن نذهب إلى الكاتدرائية "الدوم"، وأن نزور هناك قبر البطل جونتر الذى كان الأعداء والأصدقاء على السواء يقدرونه حق قدره. ولم يكن الحجر العجيب الذى تغطى به القبر فيما مضى من الزمان فى مكانه، بل كان قد نقل إلى الهيكل. وقد ظل الباب المجاور له والمؤدى إلى ساحة الانتخاب مقفلاً فى وجوهنا حينا من الزمن حتى حصلنا فى النهاية على تصريح من السلطات العليا بدخول هذا المكان المهم. وليتنا لم نفعل، وظللنا معتمدين على خيالنا فى تصور روعته. فقد ألفينا هذا المكان الذى اتخذ فى التاريخ الألمانى شهرة فائقة فريدة، والذى كان أقوى الأمراء يجتمعون فيه لاتخاذ القرار العظيم، مكانًا لم ينل من الزينة ما يليق بمكانته، بل ترك مهملاً يغص بالعروق والألواح والأساقيل وما إليها من الأخشاب المختلطة التى كانوا يريدون التخلص منها. وبقدر ما خاب رجاؤنا فى هذا المكان، انتعش خيالنا وانشرح صدرنا عندما تلقينا بعد ذلك بقليل تصريحًا بمشاهدة العهد الذهبى أو الصحيفة الذهبية(١٦). التى كانوا يطلعون عليها بعض العظماء من الأجانب عندما يزورون مجلس البلدية.

وكان الصبى يستمتع بشغف كبير إلى ما كان أهله والمتقدمون فى السن من الأقارب والمعارف يرونه ويكررونه من حكايات عن حفلتى التتويج اللتين تتابعتا فى وقت قصير: ولم يكن هناك واحد من أهل فرنكفورت تقدمت به السن لا يعتبر هذين الحادثين وما اتصل بهما ذروة حياته. وإذا كان تتويج كارل السابع قد بلغ شأوا بعيدًا فى الأبهة والعظمة، أقام بمناسبته المبعوث الفرنسى خاصة حفلات عظيمة بما أنفق فيها من مال وما أظهر فيها من ذوق رفيع، فقد كانت العاقبة أليمة بقدر هذه الأبهة، لأن القيصر فشل فى أن يمكن لنفسه فى ميونيخ، واضطر إلى ما يشبه التوسل إلى أهل المدن التابعة للرايخ مباشرة.

وإذا لم يكن تتويج فرانتس الأول قد نعم بما نعم به تتويج كارل السابع من أبهة، فقد أضفى عليه حضور الإمبراطورة ماريا تيريزيا كثيرًا من الروعة، ويبدو أن الأثر الذى أحدثه جمالها فى الرجال كان شبيهًا بالأثر الذى أحدثته طلعة كارل

السابع المهيبة وعيناه الزرقاوان فى النساء. وأيا كان الأمر فقد كان من يحكون للصبى الشغوف عن الشخصيتين من الجنسين يتنافسون فى تصويرهما على هيئة بالغة الرفعة. وكان أصحاب هذه الحكايات وهذه الروايات يسردونها فى هدوء وصفاء، لأن السلام الذى انعقدت أواصره فى مدينة آخن(١٧) كان قد وضع إلى حين نهاية للخصومات والمشاحانات كلها وكما كان الناس يتحدثون مطمئنين عن هذه الاحتفالات، كانوا كذلك يتحدثون مطمئنين أيضًا عن الحروب الغابرة، وعن معركة ديتنجن، وعما امتلأت به السنوات المنصرمة من أحداث غريبة عجيبة. وبدت الأمور ذات الأهمية والخطر – على نحو ما يحدث دائمًا بعد الصلح – كأنما حدثت لتكون مادة يتسلى برواياتها السعداء الهانئون الذين خلا بالهم من كل قلق وهم.

وما يكاد الإنسان يمضى نصف العام فى إطار الأحداث القومية المحلية حتى تعود الأسواق من جديد، وكانت تلك الأسواق تملك على الأولاد نفوسهم وعقولهم، وتملأ رؤوسهم بألوان من الاضطرابات لا سبيل إلى تصويرها. كانت السوق الجديدة تشبه مدينة جديدة تنشأ فى داخل المدينة فى وقت قصير، فتقام الدكاكين، وتشتد الحركة، ويشتغل الناس بإنزال البضائع وتفريغها، وكان هذا كله منذ اللحظات الأولى فضولاً شديدًا لا يُقهر، ورغبة عارمة فى الامتلاك والاقتناء على نحو صبيانى، وأخذ الصبى عندما تقدمت به الأعوام يسعى إلى إرضاء هذه الرغبة بهذه الطريقة أو تلك على قدر ما كان كيس نقوده يسمح له. وتكون لدى الصبى فى الوقت نفسه تصور لما تنتجه الدنيا من أشياء، وما تحتاج إليه من بضاعة وما يتبادله سكان ربوعها المختلفة من طرف.

كانت المدينة تشهد سوقين أو موسمين، وكان هذان الموسمان العظيمان – موسم الربيع وموسم الخريف – يبدءان باحتفالات عجيبة، كانت تبدو مهيبة بما تستحييه من تراث العصور القديمة ومن تقاليدها التى انتقلت إلينا. وكان الشعب يخرج كله فى يوم الموكب، فيتزاحم مندفعًا إلى الحارة والجسر حتى يصل إلى

زاكسناوزن، كذلك كانت النوافذ كلها تغص بالناس على الرغم من أن النهار كان ينقضى دون أن يحدث فيه شيء ذو بال. ويبدو أن جموع الناس لم يكن لها من هدف إلا التزاحم، وأن المتفرجين لم يأتوا إلا ليشاهد بعضهم بعضا فلم يكن الموكب نفسه الذى يتركز حوله الاهتمام يتحرك إلا مع دخول الليل، وما كان الناس يحيطون به إلا ظنًا لا عن رؤية بالعين.

ويرجع تقليد الموكب إلى تلك العصور القديمة المضطربة التى كان فيها كل إنسان يرتكب الظلم على هواه، أو يعين على العدل إذا حلا له ذلك، وكان التجار الذين يذهبون إلى الأسواق يتعرضون لقطاع الطرق، من أهل الخير أو أهل الشر، ويتعرضون للنكال فى رفقة موكب مسلح. ولكن أهل المدن التابعة للرايخ مباشرة كانوا يرفضون الرضوخ لهذا التدخل المسلح ويرفضون ترك مدنهم عرضة له ولهذا كانوا يخرجون لملاقاة القادمين، فتنشب الخلافات وتحدث المصادمات أحيانًا حول المدى الذى ينبغى على الموكب ألا يتجاوزه، وربما حول السماح للقادمين بدخول المدينة. ولم يكن نظام الموكب المسلح يقتصر على التجارة والأسواق فحسب، بل كان يتّبع أيضًا عند قدوم شخصيات رفيعة الشأن فى أيام الحرب أو السلم، وبخاصة فى أيام الانتخابات، وكثيرًا ما كانت الأمور تتخذ طابع العنف عندما يحاول موكب غير مرغوب فيه أن ينفذ إلى المدينة مع سيده، ولهذا جرت منذ وقت بعيد مفاوضات، وعقدت اتفاقات كثيرة تضمنت تحفظات من الجانبين، ولم يفقد الناس الأمل فى التغلب على هذا الخلاف الذى يرجع إلى قرون غابرة، وبخاصة بعد أن أصبح السبب بمرور الوقت سببًا عقيمًا أو على الأقل سببًا واهيًا.

وأيا كان الأمر فإن الفرسان المدنيين كانوا يخرجون فى فرق عديدة على رأسها القادة، ويذهبون إلى البوابات، ويلتقون فى موضع معين بفرسان دول أخرى أو مدن أخرى لها الحق فى الدخول بموكب، ولا يتوقع لها إلا اللقاء بالترحاب والحفاوة وكان هؤلاء الفرسان المدنيون يبقون فى هذا الموضع المعين حتى يوشك المساء أن يحل، ثم يعودون إلى المدينة مرة أخرى فلا يكاد يراهم أحد من الجموع

المنتظرة وربما كان من بين هؤلاء الفرسان المدنيين من يفتقر إلى الدربة، فلا يستطيع أن يتحكم فى حصانه أو لا يستطيع أن يمتطى صهوة الجواد كما ينبغى للفارس. وكانت أهم المواكب القادمة إلى المدينة تأتى من ناحية بوابة الجسر، ولهذا كان الزحام هناك يبلغ أقصى مداه. فإذا جن الليل أتت عربة نورنبرج يصحبها الموكب على الطريقة المعهودة، وتنتشر بين الناس الشائعات بأن العربة تقل بحسب التقاليد امرأة عجوز، ولهذا كان الأولاد يطلقون صرخة صاخبة عند قدوم هذه العربة على الرغم من أن الناظر إليها لم يكن يستطيع أن يميز الجالسين فيها. وكان تزاحم الجموع فى تلك اللحظة من خلال بوابة الجسر، وتدافعهم وراء العربة شيئًا يفوق التصور ويحير العقل. ولقد كان هذا هو السبب الذى جعل المتفرجين يفضلون البيوت القريبة من بوابة الجسر على كل ما عداها.

وكانت المدينة تشهد احتفالاً آخر أكثر غرابة، يثير فضول الجماهير فى وضح النهار، ألا وهو محكمة الزمارين. كان هذا الاحتفال يذكر الإنسان بالعصور القديمة التى حاولت فيها المدن التجارية المهمة أن تحصل على إعفاء من رسوم الجمارك، أو تحصل على الأقل على امتيازات حيال الرسوم الجمركية التى كانت تزيد بقدر زيادة النشاط التجارى والحرفى. ولم يكن القيصر، الذى كان يحتاج إلى هذه الرسوم الجمركية، يعفى منها إلا لعام واحد فى المعتاد، ولهذا كان من الضرورى العمل على تجديد الإعفاء كل عام وكان من يسعون إلى هذا التجديد يقدمون بعض الهدايا الرمزية إلى العمدة المعتمد من القيصر، والذى كان فى أحيان كثيرة يتولى منصب رئيس الجمارك أيضًا، كانوا يقدمونها إليه عند بداية سوق بارتولومى وكانو يتأدبون ويتلطفون فيقدمونها إليه وهو جالس مع المحلفين فى المحكمة. فلما تغير وضع العمدة ولم يعد القيصر هو الذى يعينه، بل أصبحت المدينة هى التى تنتخبه، ظل يحتفظ لنفسه بهذه الامتيازات، وهكذا وصلت إلينا فى عصرنا هذا الإعفاءات الجمركية التى تمنح للمدن التجارية ووصلت إلينا معها الاحتفالات التى كان مندوبو مدينة (ڤورمس) ومدينة (نورنبرج) ومدينة (بامبرج)

القديمة يقيمونها إثباتًا لهذه الإعفاءات. وكانت تلك الجلسة تنعقد فى القاعة القيصرية الكبيرة فى مكان يحاط بالحواجز يجلس حواليه المحلفون، ويتخذ العمدة فى الوسط مقعدًا يرتفع عنهم درجة. أما المحامون الموكلون عن أصحاب القضايا فكانوا يجلسون إلى أسفل ناحية اليمين، ويبدأ كاتب الجلسة فى تلاوة الأحكام المهمة التى كانوا يحفظونها لتتلى فى ذلك اليوم على الملأ، ثم يتقدم المحامون بطلب نسخة من الأحكام أو بطلب الاستئناف أو بما يجدون له ضرورة من إجراءات.

وفجأة تنطلق أنغام موسيقى عجيبة يظن الإنسان أنها تأتيه من أزمان غابرة يؤديها ثلاثة من الزمارين، ينفخ أحدهم فى زمارة قديمة، والثانى فى نفير، والثالث فى ناى أو صفارة. وكان هؤلاء الزمارون يرتدون معاطف زرقاء موشاة بالذهب، ويثبتون النوتة الموسيقية على أكمامهم، ويغطون رؤوسهم بالأغطية، ويخرجون على هذه الهيئة من الفندق، ومن خلفهم المبعوثون وحاشيتهم، فى تمام الساعة العاشرة، ويسيرون بين دهشة أهل البلد والغرباء حتى يدخلوا القاعة. وتتوقف أعمال المحكمة، ويقف الزمارون ومن معهم عند الحاجز، ويتقدم المبعوث على العمدة فيضع بين يديه الهدايا الرمزية التى كانت التقاليد القديمة تحددها تحديدًا بالغ الدقة، وكانت تتكون عادة من بضائع تمتاز بلد المبعوث بالاتجار فيها، أو من الفلفل الذى كان يغنى عن كل البضائع الأخرى. وكان المبعوث يأتى بكأس خشبية مخروطية خرطًا جميلاً، تمتلئ بالفلفل، ويضع على الكأس قفازين فتحا من الجانب فتحة عجيبة، وبطنا ببطانة ووشيا بشراريب من الحرير، علامة على الامتياز المؤكد والقبول التام، وكانت تلك علامة يستعملها القيصر نفسه فى بعض الأحيان. كذلك المبعوث يضع فوق الكأس عصا بيضاء صغيرة، لا شك أن أعمال القضاء والمحاكم فيما مضى كانت تتخذها رمزًا ولا تسير بدونها، ويضع بعض العملات الفضية الصغيرة، وكانت مدينة ڤورمس تقدم قبعة من اللباد تستردها بعد الاحتفال، لتقدمها فى العام التالى، وهكذا شهدت هذه القبعة الاحتفالات سنوات طوالاً.

ويلقى المبعوث كلمته، ويقدم هديته، ويستمع إلى العمدة يؤكد استمرار الامتياز، ثم يخرج من المجلس بين زمر الزمارين، ويعود الموكب من حيث أتى، وتعود المحكمة إلى عملها، وتنتظر قدوم المبعوث الثانى ثم الثالث، وكانوا يتركون فسحة من الوقت بين المبعوث والذى يليه حتى يرتب الزمارون أمورهم، ويتخذوا أماكنهم لأنهم كانوا يرافقون المبعوثين جميعًا، وكانت مدينة نورنبرج هى التى ترعى هؤلاء الزمارين التقليدين، ترعاهم لنفسها وللمدن الشقيقة، وكانت ترسلهم فى كل عام حيث تدعو الحاجة إليهم.

وكنا نحن الأطفال نهتم بهذا الاحتفال اهتمامًا خاصًا، لأننا كنا نحس بغير قليل من الفخر والزهو ونحن نرى جدنا يتبوأ هذا المنصب الجليل، منصب العمدة، ولأننا كنا نزوره فى اليوم نفسه، ونأخذ الكأس الخشبية – التى تكون جدتى قد أفرغت ما فيها من فلفل فى درج بهاراتها – أو نأخذ العصا أو القفازين أو قطعة من العملة القديمة القديمة ارتسمت عليها عجلة ترمز إلى مدينة ماينتس. ولم نطلب إلى أحد أن يفسر لنا هذه الاحتفالات الرمزية التى تحيى تــراث العصور الغابرة، إلا ونسأله أيضًا عن عادات وتقاليد وأفكار الذين كانوا يمثلون من جديد أمامنا، وقد بعثوا من الموت عجبًا فيما نراه من فلفل ومبعوثين ونفحات نستطيع لمسها وامتلاكها.

وكان يتبع هذه الاحتفالات الجليلة، إذا كان الجو جميلاً، مهرجان يقام خارج المدينة فى العراء، كنا نحن الصغار نجد فيه المتعة كل المتعة. وكانت هناك على الشاطئ الأيمن من نهر الراين فى اتجاه المصب، وعلى مسيرة نصف ساعة تقريبًا من البوابة، عين كبريتية أقيم عليها بناء نظيف تحيط به أشجار الزيتون العتيقة، وكان هناك مبنى آخر غير بعيد، أقيم فيما مضى ليكون مستشفى تستغل العين الكبريتية. كانت العادة قد جرت على أن يجمعوا فى يوم بعينه من أيام السنة قطعان البقر من المنطقة المجاورة فيقيم الرعاة وبناتهم مهرجانًا ريفيًا فوق المروج المحيطة، يقدمون فيه ألوانًا من الرقص والغناء، ويخلطون فيما يقدمونه اللهو

والإسفاف. وكان هناك فى الناحية الأخرى من المدينة مكان فسيح آخر، تزينه عين دفاقة، وأشجار زيزفون أكثر جمالاً من الأخرى. كانوا يدفعون إلى هذا المكان فى عيد العنصرة قطعان الغنم، ويسمحون لليتامى المساكين، الذين شحبت وجوههم من طول البقاء بين جدران الملاجئ المقفلة، بالخروج إلى الهواء الطلق: ذلك أن الناس لم يفكروا إلا فى وقت متأخر فى أن هذه المخلوقات التى فقدت الأهل والعائل، والتى أصبح عليها أن تشق وحدها طريقها فى الدنيا، ينبغى أن تتصل مبكرًا بالحياة، بدلا من أن تحبس بين الجدران فى الملاجئ على هذا النحو الأليم، وأن من حقها أن تقوى سيقانها معنويًا وجسمانيًا. وكانت المربيات والخادمات اللائى يعملن فى بيتنا يحببن النزهة، فكن يحرصن منذ وقت مبكر على حملنا أو اقتيادنا إلى مثل هذه الأماكن. وهكذا أصبحت هذه المهرجانات الريفية الرعوية من بين الانطباعات الأولى التى ارتسمت فى ذاكرتى.

وكان البيت قد تم بناؤه فى هذه الأثناء، وفى وقت جد قصير، لأن كل شىء كان قد أعد بالتفكير المتأنى، والتدبير الحسن من قبل خير إعداد، ولأن المال اللازم كان متاحًا. وهكذا اجتمع شملنا من جديد، ونعمنا بالراحة. والحق أن الخطة التى تأتى وليدة تفكير جيد متأن تُنسى الإنسان بعد أن يتم تنفيذها كل ما يمكن أن يكون قد نجم فى أثناء تحقيقيها من متاعب. وجاء البيت، من حيث هو مكان للسكنى، فسيحًا منيرًا بهيجًا، والدرج بارحًا والردهات لطيفة، وأصبح فى مقدورنا أن نتمتع بمنظر الحدائق فى غير شقة، ننظر إليها من خلال نوافذ عديدة. أما التشطيب الداخلى والزخرفة فقد جرى إنجازهما شيئًا فشيئًا على سبيل الهواية والتسلية.

وبدأ الترتيب بمجموعة كتب أبى، فاختيرت من بينها الكتب المجلدة بالجلد تجليدًا كاملاً أو نصفيًا، ووضعت لتزين حيطان الحجرة التى اتخذها أبى للعمل والدرس. وكان أبى يمتلك مجموعة من الطبعات الهولندية الجميلة للمؤلفين اللاتين حرص على أن تكون كلها من القطاع الرباعى حتى يكون بينها انسجام فى الشكل وكانت لديه مؤلفات الأدباء الإيطاليين العظام، وكان يخص (تاسو)[١٨] بإعجاب

كبير، كذلك كان يمتلك أفضل وأحدث كتب الرحلات، وكان يجد متعة فى تصويب واستكمال كتابى (كايسلر)[١٩] و(نيمايتس)[٢٠] وأحاط نفسه بما يناسب هذه الكتب من مراجع مهمة مثل القواميس فى اللغات المختلفة والمعاجم الموسوعية، حتى يرجع إليها عندما يحب، وأحاط نفسه كذلك بغير هذه وتلك من الكتب التى يجد فيها القارئ الفائدة والمتعة. أما النصف الآخر من المجموعة – وكان يتكون من كتب مجلدة تجليدًا جميلاً بالرق كتبت عليها العناوين بحروف جميلة – فقد وضع فى حجرة علوية خاصة. وكان أبى يتابع اقتناء الكتب وتجليدها وتبويبها فى حرص شديد ونظام دقيق، وكان يستعين على ذلك بما يطالعه من مقالات متخصصة تبرز ما فى هذا الكتاب أو ذاك من ميزات. وكانت مجموعة الكتب القانونية لديه تزداد كل عام بما يضيفه إليها من مجلدات جديدة. ثم تناول الترتيب بعد ذلك اللوحات التى كانت مبعثرة فى البيت القديم، فجمعت هنا على حيطان حجرة بهيجة بجانب حجرة المكتب، وأحيطت اللوحات بأطر سود تحليها خطوط بارزة مذهبة. وكان أبى يؤمن بمبدأ كثيرًا ما كان يكرره ويتحمس له، وهو أنه ينبغى على الإنسان أن يسترسم الفنانين الأحياء، وألا يوجه إلى أعمال من ماتوا من الفنانين إلا قدرًا قليلا من اهتمامه، فكثيرًا ما يتاثر تقدير هذه الأعمال بأحكام جامدة لا مبرر لها. وكان يرى أن اللوحات، شأنها شأن أنبذة الراين، تزيد قيمة كلما ازدادت قدمًا وأن كل عام جديد يمكنه أن ينتج نبيذًا عظيمًا يجارى فى العظمة ما أنتجته السنوات السابقة، وما يمضى إلا وقت قليل حتى يتحول النبيذ الجديد إلى نبيذ معتق، تتعاظم قيمته، وقد يفوق مذاقه مذاق ما سبقه. وكان يدعم رأيه هذا ذاهبًا إلى أن العديد من اللوحات القديمة يبدو فى نظر الهواة عظيم القيمة لأنه يزداد اسودادًا ودكنة تجعل لها سمة منسجمة كثيرًا ما ينصب عيها امتداح الممتدحين واستحسان المستحسنين. وكان يقول كذلك إنه لا يشك أدنى شك فى أن اللوحات الجديدة ستزداد بمثل ذلك قيمة.

وطبق أبى هذه المبادئ فاسترسم لسنوات عديدة الفنانين الفرنكفورتيين جميعًا: الرسام هيرت الذى كان يجيد تصوير غابات الزان والبلوط والمناظر

الريفية التى تضم بعض الحيوانات – والرسام تراوتمان الذى اتخذ رمبرانت قدوة له وبرع فى تصوير الأضواء المحددة والمنعكسة براعته فى تصوير اللهب الخاطف، وكان ذلك سببًا فيما مضى فى تكليفه برسم صورة تعارض صورة رمبرانت – والرسام شوش الذى رسم مناظر من منطقة الراين متبعًا منهاج الفنان زاختلين – وكذلك الرسام يونكر الذى كان يجيد رسم الزهور والثمار والحياة الساكنة والأشخاص المنطوين العاكفين الساكنين إجادة عظيمة ويسير فى فنه سيرة الفنانين الهولنديين، وها هى ذى هواية أبى القديمة تنشط من جديد يحفزها الترتيب الجديد والمكان المريح والمعرفة بأحد الفنانين المهرة، ألا وهو الفنان زيكاتس تلميذ برينكمان، رسام بلاط دار مشتاط، الذى أتيح لنا فيما بعد تتبع مهارته وأسلوبه المميز.

وسار العمل على هذا المنوال لإتمام تأثيث الحجرات بحسب الأغراض التى خصصت لها، أصبح الجمال والتنسيق يسودان كل شىء. وجىء بمرايا كثيرة أسهمت إسهامًا كبيرًا فى إشاعة الإضاءة الوضاحة التى افتقر إليها البيت القديم لأسباب عديدة على رأسها نوع النوافذ التى كانت تتكون فى أغلبها من أقراص زجاجية صغيرة متلاصقة. وكان الوالد بادى المرح والسرور لأنه وفق أطيب التوفيق فى كل شىء[٢١]. ولو لم يكن مزاجه يتعكر من حين لآخر لخروج العمال على المواصفات المطلوبة، وتخليهم عن الهمة والدقة، لما كان الإنسان يستطيع أن يتصور حياة أكثر سعادة من حياتنا، مع هذا الخير الكثير الذى كان يعم الأسرة من داخلها وينزل عليها من خارجها.

ثم حدثت حادثة عالمية خارقة للمألوف هزت نفس الصبى لأول مرة فى أعمق أعماقها، ففى أول نوفمبر عام ١٧٥٥ حدث زلزال لشبونه، وبث فى ربوع العالم الذى كان ينعم بالسلام والطمأنينة، رعبًا هائلاً. وقعت الواقعة بغتة على مدينة عظيمة رائعة تعج بالناس وتموج بأنشطة التجارة والملاحة. ارتجت الأرض فجأة ومالت وماجت، وفار البحر وهاج، وتحطمت السفائن، وتهدمت البيوت، وانقضت الكنائس والأبراج، والتهم البحر جانبًا من قصر الملك، وبدت الأرض

المتفجرة كأنها تنفث ألسنة من اللهب، فتصاعد الدخان، وعلت النيران من بين الحطام والركام. وهلك ستون ألفًا من البشر دفعة واحدة، كانوا من قبل لحظة يعيشــون آمنين مطمئنين، وكــان أوفرهم حظًا من لم يتح له وقت ليعى الكارثة أو يحس بها. فلما تأججت النار، وارتفعت ألسنة اللهب، خرجت زُمرٌ من المجرمين من معاقلهم، إذ فتحت الكارثة أبواب السجون، فعاث هؤلاء المجرمون فى الأرض المنكوبة فسادًا، وتعرض من بقى على قيد الحياة من التعساء لكل صنوف النهب والقتل والبشاعات. وهكذا فرضت الطبيعة من كل ناحية إرادتها الصارمة العارمة التى لا تقف عند حد.

وسبقت أخبار هذه النازلة إلى مناطق كثيرة علامات أنبأت بها وإرهاصات دلت عليها، فقد أحس الناس فى أماكن متعددة بهزات أرضية خفيفة، وتوقف انسياب مياه بعض الآبار والعيون وبخاصة تلك التى كانت معروفة بأثرها الشافى، توقفًا مباغتًا خارقًا للمألوف. وأدت هذه العلامات المبكرة والإرهاصات إلى زيادة تأثير الأخبار ذاتها فى الناس، وقد تواترات الأخبار عامة فى البداية، ثم توالت تفصيلاتها الفظيعة بعد ذلك. وخرج المؤمنون بالله على الناس بتأملات دينية، وخرج الفلاسفة عليهم بأسباب للعزاء والسلوان، واسترسل رجال الوعظ فى عظات تتناول الثواب والعقاب وهكذا اجتمعت أسباب كثيرة وجهت الاهتمام حينا من الزمن إلى هذا الموضوع، واستبد الفزع بالناس لما أصاب الآخرين من محنة، وخافوا مثلها على أنفسهم وذويهم، وكان خوفهم يزيد كلما توالت الأخبار وتعقدت الأنباء المنهمرة من كل صوب وحدب عن الكارثة وآثارها وعواقبها. ولعل شيطان الهول لم يبث الرعب فى الأرض فى أى زمن من الأزمنة كما بثه إذ ذاك وبهذه السرعة وهذا العنف.

ولقد سمع الصبى هذا كله المرة تلو المرة دون أن يخبو تأثره. إن الرب، خالق السماء والأرض وحافظ العالمين، الذى تصوره العبارة الأولى من الشهادة حكيمًا رحيمًا، لم ينهج نهجًا أبويًا عندما أنزل النازلة بمن يستحق ومن لا يستحق

وحاولت نفس الصبى بلا جدوى التغلب على هذه الانطباعات وإنما صعب عليها هذا لأن الحكماء وعلماء اللاهوت أنفسهم لم يستطيعوا أن يتفقوا على السبيل الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان فى النظر إلى مثل هذه الظاهرة.

وأتاح الصيف التالى فرصة أقرب لمعرفة (يهوه)[٢٢] الغضوب الذى أوردت التوارة عنه الكثير. فقد هبت على حين بغتة عاصفة بردية تحطمت تحت وطأتها المرايا الجديدة فى الجزء الخلفى من البيت ناحية الغرب، وكانت عاصفة عنيفة بالغة العنف، صحبها رعد وبرق وبرد، وأتلفت الأثاث الجديد وبعض الكتب الثمينة والطرف القيمة، وكان وقعها على الصغار فظيعًا، فقد جرهم الخدم الحيارى إلى دهليز مظلم، وركعوا ظانين أنهم سيردون بهذا الركوع وبما يطلقون من صراخ وعويل غضبة الغضوب. وكان الأب هو الوحيد الذى تمالك نفسه فاقتلع مصاريع النوافذ وأنقذ بهذا بعض ألواحها الزجاجية، ولكنه فى الوقت نفسه أتاح للمطر الذى تبع البرد وانهمر كالسيل طريقا واسعة فامتلأ البيت بالماء، وما أفقنا إلى أنفسنا حتى وجدنا الماء الفياض يحيط بنا فى القاعات والدرج.

ولكن هذه الأحداث، على الرغم مما نجم عنها من إزعاج، لم تكن تعطل نظام تعليمنا إلا بقدر قليل، وكان أبى يقوم على تعليمنا بنفسه، وكان قد تعلم هو فى صباه فى المدرسة الثانوية بكوبورج، وهى واحدة من المدارس الألمانية الممتازة، وحصَّل هناك أساسًا طيبًا فى اللغات وفى المواد الدراسية العلمية، واجتهد بعد ذلك فى دراسة القانون وعلومه فى جامعة (لايپتسج)، ونال الدكتوراه من جامعة (جيسن). وما زالت رسالة الدكتوراه التى كتبها بجد واجتهاد، والتى تحمل عنوان منتخبات فى موضوع حلول الوراثة حسب القانون الرومانى والقانون المدنى" تحظى بالتنويه من قبل أساتذه القانون[٢٣].

والآباء يحدوهم الأمل المخلص فى أن يروا أبناءهم وقد تحقق لهم ما لم يتح لآبائهم، وكأن الآباء يتصورون أنهم يعيشون مرة ثانية فى أولادهم، ويزعمون أن يفيدوا من خبرات حياتهم الأولى إفادة صحيحة. وكان والدى على وعى بما لديه

من معرفة، وعلى يقين مما لديه من دأب خالص. وكان يشك فى كفاءة معلمى هذه الأيام، ولذلك قرر أن يقوم هـو بتعليم أولاده وألا يعتمد إلا عـلى قـدر ما يبدو أن الضرورة تدعو إليه على المدرسين المحترفين. ولساعات محدودة. وكان العصر قد شهد بداية شغف بالتربية وما يتصل بها من أمور. ولعل غطرسة المدرسين العاملين فى المدارس العامة واختلال تفكيرهم هو الذى دفع إلى بروز هذه الظاهرة. كان الناس يبحثون عن حل أفضل من التعليم فى المدارس المحترفة، وكانوا ينسون فى أثناء ذلك مدى العيوب التى تعتور التعليم الذى لا يتولاه أرباب الصنعة.

كانت حياة أبى قد سارت حتى تلك الحين على نحو ما كان يشتهى، وكان المفروض أن أسلك أنا أيضًا نفس الطريق ولكن على نحو أكثر راحة وأكثر اتساعًا. وكان يقدر مواهبى الفطرية كل التقدير ويرى أنه لم يؤت هو نفسه شيئًا منها بل بلغ ما بلغه بالاجتهاد والمثابرة والمران. وكثيرًا ما أكد لى فى ذلك الوقت، وقبله وبعده تارة على سبيل الجد، وتارة على سبيل المزاح، أنه لو أوتى مثل مواهبى لعرف كيف يفيد منها، ولما أبددها كما بددها على هذا النحو المؤسف.

وما مر إلا وقت قصير حتى كبرت بما أوتيت من سرعة فى الفهم والحفظ والإساغة، على التعليم الذى كان أبى والمعلمون الآخرون يقدمونه إلى، دون أن أحصل فى الحقيقة أساسًا متينًا فى أى مادة من مواد الدراسة. كان النحو لا يعجبنى فقد رأيت فيه قانونًا متعسفًا، ورأيت قواعده مضحكة، لأن الاستثناءات الكثيرة التى كان علينا حفظها كانت تلغيها إلغاء. ولو لم أعتمد على الكتاب الأول المنظوم فى اللغة اللاتينية لما تعلمت من اللاتينية شيئًا، وأذكر أننى كنت أحب أن أنشد لنفسى أبياته وأن أترنم بها. كذلك دفعوا إلينا بمنظومة فى الجغرافيا كانت تستعين بأسخف القوافى لتطبع فى ذاكرتنا بقوة ما ينبغى علينا أن نحفظه[٢٤].

مستنقعات أعلى (الأيسل) يا أصحاب

كثيرة، كريهة، بكل حساب.

وأما التراكيب والصيغ اللغوية فكنت أفهمها بسهولة، وكنت أستخرج بسرعة ما يكمن فى النصوص من مضامين، وكنت بارعًا فى الموضوعات البلاغية والإنشائية وما إليها، لا يبزنى فيها آخر، على الرغم من أن نطقى كان معيبًا يضعنى فى المؤخرة. وكانت الموضوعات الإنشائية التى أكتبها تدخل البهجة على نفس أبى، وكان يكافئنى عليها بجوائز مادية عظيمة.

وكان أبى يعلم أختى اللغة الإيطالية فى نفس الحجرة التى كنت أتعلم فيها كتاب سيللاريوس[٢٥]. وأحفظه عن ظهر قلب. ولما كنت أفرغ من المقرر مبكرًا وأجلس بلا عمل، فقد اعتدت أن أتظاهر بالنظر فى كتابى، وأن أنصت إلى دروس اللغة الإيطالية، وهكذا تعلمت اللغة الإيطالية بسرعة كبيرة، وكانت تلوح لى تحريفًا مضحكًا للغة اللاتينية.

أما غير هذا من بوادر الذاكرة القوية والفهم الجيد فكان نصيبى منه نصيب الأولاد الذين يشتهرون فى وقت مبكر. ولقد أدرك أبى ذلك فلم يطق الانتظار وفكر فى إرسالى إلى الجامعة، وقر رأيه على جامعة لايبتسج التى كان يفضلها على كل الجامعات الأخرى، وكان يريد لى أن أدرس القانون فيها مثلما فعل هو من قبل، على أن يكون لى بعد ذلك أن أختلف إلى جامعة أخرى لأحصل منها على الدكتوراه، ولم يحدد لى جامعة بعينها، بل ترك لى الخيار، وإن صارحنى بأنه يكره جامعة (جوتينجن) للأسف ولم يبد لى سببًا لهذه الكراهية، وكانت هذه الجامعة هى التى علقت عليها آمالى الكبار ووضعت فيها كل ثقتى.

كان من رأيه أننى أستطيع أن ألتحق بجامعة (ڤتسلار) أو جامعة (ريجنسبورج)، أو أذهب إلى جامعة ڤيينا أو جامعة من جامعات إيطاليا، وكان لا يفتأ يؤكد أنه ينبغى على الإنسان إذا أزمع السفر إلى إيطاليا، أن يزور باريس أولاً، لأنه عندما يرى إيطاليا لا يجد متعة فى غيرها من البلاد.

وكنت أحب أن أسمع منه وصفه الجميل للمرحلة التالية من سنوات صباى، وكأنه يصف لى شيئًا مما تدور حوله الحكايات الخرافية، خاصة وأنه كان ينتهى دائمًا بحديث عن إيطاليا ووصف لناپلى. كان أبى عندئذ يخرج عما عهدناه فيه من جد وصرامة، ويتحدث بحيوية وحماسة، فيثير فينا نحن الصغار شغفًا شديدًا، ويجعلنا نتوق إلى أن يكون لنا نصيب فى هذا الفردوس الذى يصفه.

أما الحصص الخاصة التى أخذ عددها يتزايد بمضى الوقت فكنت أشترك فيها مع أولاد الجيران. ولكن هذا التعليم المشترك لم يكن يعود علىَّ بالفائدة، لأن المعلمين كانوا مهملين، ولأن رفاقى كانوا يسترسلون فى الحماقات والعبث الشرير ويبثون فى الحصص الهزيلة القلق والسخف والإزعاج. ولم تكن كتب المنتخبات الأدبية التى تتيح تعليمًا مرحًا منوعًا قد وصلت إلينا بعد، بل كنا نستخدم كتاب "كورنيليوس" الذى يتسم بالنسبة للصبية بالجمود، والعهد الجديد الذى يتصف بالبساطة الشديدة بعد أن حولته العظات ودروس الديانة إلى قراءة هينة، وكتاب (سيللاريوس)[٢٦] وكتاب (بازور)[٢٧]، وكانت كلها عاجزة عن أن تثير اهتمامنا. وعلى الرغم من هذا فقد تملكنا شغف بالقوافى والشعر جاء نتيجة لقراءتنا أعمال الشعراء المعاصرين الألمان، وكان هذا الشغف قد استبد بى منذ وقت مبكر عندما أحسست أننى أجد متعة فى الانتقال من التمرينات البلاغية إلى التدرب على قرض الشعر.

واعتدنا نحن الصبية أن نعقد يوم الأحد من كل أسبوع اجتماعًا يطالع فيه كل منا الأبيات التى يكون قد كتبها، وأحسست فى هذه الاجتماعات بإحساس عجيب ظل يؤرقنى حينًا، فقد كنت أميل إلى اعتبار قصائدى، أيا كنت، أفضل من قصائد الآخرين. وكنت ألاحظ أن منافسىَّ الذين كانوا ينشئون قصائد هزيلة، يحسون الإحساس نفسه، ولا يظنون أنهم دونى قدرًا. وكان هناك شىء آخر يسبب لى مزيدًا من القلق، فقد ضمت مجموعتنا صبيًّا طيبًا لا قدرة له على كتابة الشعر، ولكنه كان يأتى إلى اجتماعاتنا بأبيات كتبها له ناظر البلاط، فكان يطالعها ويريد لها أن تعتبر بمثابة أفضل الأبيات، ويؤكد ما وسعه التأكيد أنه صاحبها، وكان

يحدثنى بهذا عندما نخلو بعضنا إلى بعض وكأنه يقول الصدق، وعلى الرغم من ذلك فقد اتصلت بيننا علاقات الود والألفة. ولما كنت أرى الخطأ والخطل أمامى واضحين لا مراء فيهما، فقد خطر ببالى ذات يوم أننى قد أكون فى مثل حاله، وأن تلك القصائد قد تكون فعلاً أفضل من قصائدى، وأننى قد أكون فى نظر الصبية أحمق، كما يبدون لى هم حمقى. وسببت لى هذه الأفكار قلقًا شديدًا استبد بى حينًا، فقد عجزت عن أن أجد دليلاً ظاهريًا أعتمد عليه فى معرفة الحقيقة. وعرف الاضطراب طريقه إلى نفسى، فكنت أتلعثم عندما ألقى أشعارى، حتى جاء اليوم الذى ارتاحت فيه نفسى من جديد، أراحها الطيش والزهو وأراحتها تجربة فرضها علينا معلمونا وذوونا الذين كانوا قد لاحظوا ما نذهب إليه من لهو بالشعر، فطلبوا إلى كل واحد منا أن يرتجل شيئًا من القريض، فنجحت نجاحًا باهرًا وحظيت باستحسان عام.

ولم تكن هناك فى ذلك الوقت مكتبات أقيمت للأولاد خاصة، وكان الكبار هم أنفسهم يفكرون أفكارًا صبيانية، ويجدون من المريح نقل ثقافتهم هم إلى الجيل الجديد وكان كتاب (أموس كومينيوس)[٢٨] العالم المصور هو الكتاب الوحيد من هذا النوع الذى وصلت إليه أيدينا. كذلك قلبنا وأكثرنا من التقليب فى صفحات الطبعة الكبيرة من الكتاب المقدس[٢٩] التى كانت تتحلى بصور حفرها (مريان) على النحاس، وتعلمنا من تاريخ جوتفريد[٣٠] – وهو كتاب كان يزخر هو كذلك بصور من حفر الرسام نفسه – الكثير من وقائع تاريخ العالم العجيبة، وأمدنا كتاب "المبخرة اللغوية"[٣١] بخليط من الحكايات والأساطير والنوادر والغرائب، وتناولت فى وقت مبكر كتاب "التحورات" لأوفيد[٣٢] ودرست الفصول الأولى منه خاصة دراسة المجتهد المتأنى. وهكذا امتلأ مخى الصغير سريعًا بحصيلة وافرة من الصور والوقائع والشخصيات المهمة والشخوص العجيبة والأحداث الفريدة، كنت دائم الاشتغال بها، لا أمل من الاستزادة والإساغة والاستذكار.

وقرأت كتاب "تيليماك" لفينيلون[٣٣] فأحدث فى نفسى تأثيرًا أكثر صلاحًا وأخلاقية من تأثير المؤلفات القديمة التى كان بعضها فجًا خطيرًا، ولقد عرفت

كتاب فينيلون أول ما عرفته فى ترجمة نويكيرشن التى راقت لى على الرغم من أنها لم تكن تنقل الأصل نقلاً كاملا مجردًا من كل عيب. أما أن رواية "روبنسن كروزو" تبعت هذه القراءات فأمر طبيعى، كذلك من السهل أن نتصور أن رواية جزيرة "فيلزنبورج"[٣٤] أخذت دورها، ثم رحلة اللورد أنسون[٣٥] حول العالم التى جمعت بين جلال الحقيقة وخيال الأسطورة، وهكذا أتيح لنا أن نتبع بأفكارنا هذا الرحالة العظيم، وأن نطوف فى قاربه بأرجاء الدنيا البعيدة، وكنا نحاول أن نتبع طريقه على نموذج عندنا للكرة الأرضية. ثم شاء لى القدر أن أقع على مجموعة من الكتب، لا يمكن القول بأنها كانت فى الهيئة التى خرجت عليها كتبًا ممتازة، ولكنها كانت ذات فضل فى تقريب العصور القديمة إلينا على نحو برىء.

كان بيت النشر، أو على الأصح المعمل الذى يخرج هذه الكتب – التى تسمت فيما بعد باسم المصنفات الشعبية أو "الكتب الشعبية"[٣٦] وعرفت بهذا الاسم واشتهرت به – فى مدينة فرنكفورت، وكانت هذه الكتب، نظرًا لكثرة ما ينتج منها تطبع بحروف بارزة على ورق غليظ بشع غاية البشاعة، طباعة سيئة لا يكاد القارئ يستطيع قراءتها، أما نحن الصغار فقد وجدنا أننا من سعداء الحظ إذ ألفينا هذه الآثار الثمينة المنحدرة عن العصر الوسيط، وقد صفت على منضدة بائع الكتب القديمة أمام بيتنا، فكنا نراها فى كل يوم، ونقتنيها لقاء ثمن زهيد. كانت هذه الكتب من "أويلنشپيجل" و"أولاد هايمون الأربعة"، و"ميلوزينه الجميلة" والقيصر أوكتاڤيان" وماجيلونه الجميلة" و"فورتوناتوس" إلى "اليهودى التائه" – فى متناول أيدينا دائمًا، نحصل عليها كلما استبدت بنا الرغبة فى التمتع بها بدلا من الحلوى وما إليها. وكانت أعظم ميزة تمتاز بها هذه الكتيبات هى أننا كنا – بعد أن نفرغ من قراءتها وبعد أن نهلكها تقليبًا وإتلافًا – نستطيع اقتناءها من جديد والتهامها مرة أخرى.

وكما تنقض العاصفة المباغتة على أسرة تقوم برحلة عائلية فى الخلاء صيفًا فتسبب لها الإزعاج، أشد الإزعاج، وتحيل بهجتها إلى نكد وغم، كذلك تفعل أمراض الأطفال التى تأتى فجأة فى أجمل أوقات الحياة. وهذا هو ما جرى لى. كنت قد

اشتريت قصة "فورتوناتوس" صاحب كيس السعد وطاقية تحقيق الأمانى، عندما انحرف مزاجى وأصابتنى حمى، وتبين أن الأعراض التى ألمت بى هى أعراض مرض الجدرى(٣٧). وكان التطعيم ضد الجدرى مسألة يدور حولها الخلاف الشديد فى بلادنا، وعلى الرغم من أن عددًا من العلماء المرموقين كانوا ينصحون بالأخذ بالتطعيم، ويلحون فى التوصية به، فقد ظل الأطباء الألمان يترددون فى اتخاذ هذا الإجراء الذى كان يلوح تدخلاً فى نظام الطبيعة. ولهذا كان بعض الإنجليز من ذوى الجرأة يأتون إلى أوروبا، ويطعمون ضد الجدرى أولاد الموثرين المتحررين من الأفكار البالية ويطلبون لقاء ذلك أجرًا كبيرًا، ولكن غالبية الناس ظلت عرضة لهذا الداء القديم الوبيل. كان مرض الجدرى يحل بالعائلات فيفتك بالأطفال أو يشوههم، وكان القلة من الناس هم الذين يتجاسرون على الالتجاء إلى وسيلة التطعيم التى تأكدت فائدتها فى درء المرض. ودخل الوباء بيتنا، وأصابنى أنا خاصة إصابة شديدة عنيفة، وانتشرت البثرات على جسمى كله، وغطت وجهى، ومكثت في الفراش أيامًا لا أرى شيئًا، وأعانى من آلام شديدة. وحاول ذوىَّ أن يخففوا عنى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ووعدونى جبالا من الذهب إذا أنا صبرت على البلاء، ولم أزده حدة بالحك أو الهرش. وبالفعـــل صبرت وتمكنت من السيطرة على نفسى. وكانوا – على ما جرت به العادة – يدفئوننى قدر الطاقة، وما كانوا يبلغون بذلك إلا زيادة حدة المرض. وأخيرًا، وبعد وقت من المعاناة الأليمة، سقط عنى المرض كما يسقط القناع عن الوجه دون أن يخلف آثارًا واضحة على البشرة، وإن تغير شكلى تغيرًا ملحوظًا. أما أنا فقد فرحت برؤية النور من جديد وبالتخلص من الجلد المبقع شيئًا فشيئًا. وأما الآخرون فكان منهم من لم يثقفوا بى، وظلوا يذكروننى بمنظرى فى أيام المرض، وبخاصة إحدى خالاتى، حلا لها أن تذلنى، وظلت حتى بعد مرور السنوات الطوال، لا ترانى إلا وتقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! كم أصبح شكلك قبيحًا! ثم تحكى فى إسهاب كيف كانت تعبث بى، وكم كانت تصرخ عندما كانوا يحملوننى من مكان إلى آخر. وهكذا تعلمت فى وقت مبكر أن الناس الذين نحقق لهم المتعة، كثيرًا ما يجعلوننا ندفع ثمنها غاليًا من إحساسنا.

ولم تمر الحصبة والجدرى وغيرهما من الأمراض المختلفة الأسماء التى تصيب الصغار دون أن تصيبنى، بل ألمت بى كلها، وكانوا – كلما أصابنى مرض منها – يؤكدون لى أن من حسن حظى أننى أصبت بهذا المرض وانتهى أمرى معه إلى الأبد، ثم ما يلبث المرض الآخر أن يلم بى، وكأنما كان يتربص بى. وأدت بى هذه الحال إلى تأكيد ميلى إلى التأمل، ولما كنت حريصًا على التخلص مما ألم بى من تبرم مؤلم فقد تدربت على التحمل والصبر، وبدت لى الفضائل التى سمعتهم يمتدحونها فى الرواقيين عظيمة القيمة، وبخاصة لأن مذهب المعاناة فى المسيحية يوصى بمثل ما يوصى به الرواقيون.

وما دمت أتحدث عن آلام العائلة فى أثناء مرضنا، فلا بد أن أذكر أخًا لى كان يصغرنى بثلاث سنين، تعرض هو كذلك للعدوى، وقاسى من الآلام مالا يقل عما قاسيته، وكان رقيق البنية، صموتاً وعنيدًا، ولم تقم بينى وبينه علاقة بمعنى الكلمة ولم يمتد به العمر إلا إلى ما بعد سنوات الطفولة بقليل. ولست أذكر من بين العديد من الإخوة والأخوات الذين ولدوا بعدى والذين لم يعمروا طويلاً، إلا بنتا لطيفة، فائقة الجمال واللطف، ما لبث الموت أن اختطفها هى الأخرى. ورأينا، أنا وأختى بعد مرور بضع سنوات، أننا وحدنا اللذين بقينا على قيد الحياة، فارتبط بعضنا بالبعض برباط الود العميق والحب الخالص.

وكانت هذه الأمراض وما عداها من صنوف الإزعاج تؤدى إلى نتائج تضاعف من سيئاتها. كان أبى – على ما يبدو – قد اختط لنفسه خطة فى تربيتنا وتعليمنا، فحرص على تعويض الفاقد وكلف الناقهين بدروس مضاعفة، ولم يكن الوفاء بها أمرًا عسيرًا، ولكنه كان أمرًا مرهقًا، أثقل على نموى الباطنى، وعطله وأحبطه بعد أن تحدد واتخذ وجهة واضحة.

واعتدنا أن نهرب من هذه الضغوط التربوية التعليمية إلى جدينا، وكان بيتهما يقع فى حارة (فريدبرج)، ويبدو أنه كان فيما مضى قلعة، لأن الإنسان كان عندما يقبل عليه، لا يرى إلا بوابة كبيرة ذات فتحات علوية تكتنفها بيوت الجيران

من الجانبين فإذا دلف الإنسان من البوابة سار فى طريق ضيقة إلى فناء فسيح تحيط به مبان مختلفة متفاوتة ضمت مؤخرًا لتكون سكنًا واحدًا. وكنا نهرع عادة إلى الحديقة التى كانت تمتد طويلة بارحة من خلف المبانى، وكانت تحظى بالعناية الفائقة، وكانت طرقاتها جلها محفوفة بالكروم، وكانت تنقسم إلى جزأين، جزء خصص لما يحتاج إليه المطبخ من مزروعات، وجزء امتلأ بالزهور التى تتألق وفيرة منوعة من الربيع إلى الخريف فى أحواض وخطوط. أما الجدار الطويل الممتد صوب الجنوب فقد أفادوا منه بزراعة صف من أشجار الخوخ الجيدة التى كانت ثمارها المحرمة علينا تطل علينا وتسيل لعابنا والنضج يدب فيها ويتزايد. كنا نفضل تجنب هذه الناحية التى حرموا علينا أن نرضى فيها حاجتنا إلى ما لذ وطاب من الثمار، ونتجه إلى الناحية المقابلة التى كان يكتنفها صف لا ينتهى من خمائل عنب الثعلب وعنب الذئب، كان يقدم إلينا من نتاجه اللذيذ الوفير المتجدد ما يرضى نهمنا. وكانت هناك شجرة توت عتيقة عالية، كثيرة الفروع والأغصان، كانت تشد اهتمامنا شدًّا، لا بما تحمله من فاكهة فحسب بل بما كانوا يحكونه لنا عنها من أن دود القز يعيش على أوراقها. وكنا نجد جدنا فى هذا المكان الهادئ عصرًا يشتغل مبتهجًا بتربية الزهور وأشجار الفاكهة، يقوم هو بالعمل الجميل اللطيف، ويترك للبستانى العمل الشاق. ولم يكن جدنا يدع شيئًا مهما كانت أهميته يصده عن هذا العمل النشيط المنوع الذى تتطلبه تربية أصناف جديدة جيدة من زهور القرنفل. وكان هو الذى يقوم بنفسه بربط فروع شجر الخوخ فى التكعيبة على هيئة المروحة حتى يتيح للثمار نموًا وافرًا هادئًا. ولم يكن يترك لأحد مهمة فرز أبصال التوليب والياسنت وما إليها من نباتات الزينة، ولم يكن ينزل لأحد عن مهمة حفظها، بل يقوم هو بنفسه بهذه الأعمال. وما زلت أذكر بالسرور كيف كان ينهمك فى تطعيم الأنواع المختلفة من الورود، وكان يتقى الأشواك، وهو يقوم بهذا العمل، فيلبس القفاز الجلدى العتيق الذى كان يقدم إليه منه فى كل عام ستة أزواج فى أثناء محكمة الزمارين، ولهذا كان لديه دائمًا من هذه القفافيز ما يحتاج. وكان يلبس فى البستان ثوبًا كجلباب النوم، ويضع على رأسه طاقية ذات ثنيات، مصنوعة من

القطيفة السوداء، وهكذا كانت شخصية جدى وسطًا بين شخصية (الكينوس) وشخصية (ليرتس)[٣٨].

كان يؤدى أعمال الحديقة بما يؤدى به أعمال منصبه من نظام ودقة: فلم يكن ينزل من مكتبه قبل أن يفرغ من إعداد جدول أعمال اليوم التالى ومطالعة الملفات. وكان يستقل العربة صباحًا إلى دار البلدية، ثم يتناول الطعام بعد عودته إلى البيت، وينام بعد ذلك جالسًا على كرسيه الوثير الكبير. كان هذا هو نظامه اليومى، يتبعه يومًا بعد يوم، فلا يختلف يوم عن آخر. وكان رجلاً صموتًا، لا يتكلم إلا بحساب ولا يكاشف أحدًا بالعنف، ولا أذكر أننى رأيته يومًا مغتاظًا. وكانت كل الأشياء من حوله قديمة، ولم تكن مكتبته تضم إلى جانب الكتب القانونية شيئًا سوى كتب الرحلات القديمة والكتب التى تتحدث عن الملاحة والكشوف الجغرافية. ولست أذكر أننى رأيت على الإطلاق رجلاً توحى شخصيته إلى الإنسان بمثل ما كانت شخصية هذا الرجل الجليل توحى به من اطمئنان ثابت ودوام خالد. أما ما كان يرفع توقيرنا لهذا الشيخ إلى أعلى مرتبة فكان يقيننا من أنه أوتى القدرة على التنبؤ بالمستقبل وبخاصة فى الأمور التى تتصل به. والحق أنه ما كان يتحدث فى هذا مع أحد مطلقًا سوى جدتنا، ولكننا جميعًا كنا نعلم أنه يرى أحلامًا تكشف له الحجاب عما سيحدث فى المستقبل. ولقد أكد لزوجته، على سبيل المثال، عندما كان واحدًا من صغار المستشارين أنه سيترقى وسينتقل إلى مقاعد المحلفين عندما يخلو فيها مكان. وإذا بصاعقة تنقض على أحد المحلفين وتقتله، وخلا مكانه. وتحدد يوم للانتخاب والقرعة. وفى ذلك اليوم، وقبل أن تعرف النتيجة، أعطى جدى تعليماته بأن تتخذ فى هدوء كل الاستعدادات لاستقبال الضيوف الذين سيحضرون لتهنئته بالمنصب الجديد. فلما أجريت القرعة وقعت الكرة الذهبية عليه فعلاً. ولقد حكى الحلم البسيط الذى علم منه ذلك لزوجته على النحو التالى: قال إنه رأى نفسه فى المنام وسط الاجتماع العادى للمجلس، وكانت الأمور تجرى فيه على النحو المألوف، وفجأة رأى العضو المحلف الذى مات فيما بعد من أثر الصاعقة –

ينهض من مقعده – وينزل، ويقدم إليه بكل أدب آيات التحية والتهنئة، قائلاً له إن عليه أن يشغل المكان الذى خلا، ثم سار إلى الباب وخرج منه.

وحدث له شىء مشابه لذلك عندما مات العمدة وخلا منصبه. وأسرع أهل الحل والعقد فى تدبير الأمر لشغل هذا المنصب، لأنهم كانوا دائمًا يخافون أن يعود القيصر يومًا إلى المطالبة بحقه القديم فى تعيين العمدة. ولهذا خرجت الدعوة فى هذه المرة عند منتصف الليل، لعقد اجتماع طارئ فى صباح اليوم التالى، وتولى ساعى المحكمة مهمة توزيع الدعوات على أصحابها. فلما أوشك نور مصباحه على الانطفاء، وكان فى بيت جدى، التمس عقب شمعة حتى يستطيع استكمال طريقه، فقال جدى للنسوة: ليأخذ شمعة كاملة، فهو يتعب من أجلى. وكانت هذه العبارة إرهاصًا بالفوز الذى تحقق، فقد اختير بالفعل عمدة، وكان الاختيار عجيبًا. كان ترتيب مندوبه فى السحب هو الثالث والأخير، وجرى السحب، وخرجت الكرتان الفضيتان أولاً، وبقيت الكرة الذهبية فى قاع الكيس، فوقع الاختيار عليه(٣٩).

وقد سمعنا عن أحلامه الأخرى فوجدناها من نوع هذا الحلم، وجدناها عادية جدًا وبسيطة وخالية من كل أثر للخيال والإعجاز. كذلك أذكر أننى عبثت فى صغرى بين كتبه ومذكراته ووجدت فى كتابات دونها عن الحديقة كلمات مثل: أتى إلى بالليل ن. ن. وقال لى... وكتب الاسم والنبوءة بالشفرة. كذلك وجدت على النحو نفسه كلمات: فى هذه الليلة رأيت... وكانت بقية العبارة مكتوبة بالشفرة وتأتلف من كلمات وحروف عطف لا يمكن للإنسان أن يستنتج منها شيئًا.

ويجدر بى أن أذكر فى هذا المقام أن الأشخاص الذين لم يؤتوا شيئًا من القدرة على التنبؤ، كانوا يكتسبونه فى حضرته للحظة أو نحوها القدرة على تأويل دلائل حسية أو مشاعر إرهاصية والتنبؤ منها بمرض أو موت أو ما إلى ذلك من أحداث قد تكون جارية فى مكان بعيد. إلا أن هذه القدرة التى وهبها جدى لم تنتقل إلى أحد من أبنائه أو أحفاده. وكان هؤلاء وأولئك على الأغلب أشخاصًا أقوياء مقبلين على الحياة، منصرفين إلى الواقع.

وأنتهز هذه الفرصة لأنوه بهم، وبالخير الكثير الذى نلته على أيديهم فى صباى. فأذكر أننا كنا نجد من التسلية ألوانا منوعة غاية التنوع عندما كنا نذهب لزيارة خالتنا الثانية التى كانت متزوجة من تاجر بقالة يدعى (ميلبر) وكان بيتهم ومحل بقالتهم يقع فى قلب أكثر أجزاء المدينة نشاطًا وازدحاما عند السوق. كنا نتجه إلى النوافذ، فنطل منها، ونتمتع متعة فائقة بالتطلع إلى الجماهير المحتشدة المتزاحمة التى كنا نخشى أن نضيع وسطها. وإذا لم نكن قد اهتممنا فى البداية، من بين البضائع الكثيرة المعروضة فى المحل أسفل البيت، إلا بالربسوس ومكعبات الحلوى الداكنة المصنوعة منه، فإننا ما لبثنا أن عرفنا بالتدريج البضائع الكثيرة التى كانت تدخل المتجر وتخرج منه. وكانت خالتنا هذه أكثر إخوتها وأخواتها نشاطًا وخفة. وإذا كانت أمى قد حرصت فى سنوات شبابها على ارتداء الثياب الجميلة، وممارسة الأعمال النسائية الرقيقة، ومطالعة الكتب، فقد كانت هذه الخالة تفضل التنقل بين الجيران لترعى الأطفال إذا انصرف عنهم أهلهم، فتحملهم وتصفف شعرهم وترعاهم، وكذلك فعلت معى حينا من الزمن. فإذا تهيأت المدينة لاحتفالات عامة، مثل احتفالات التتويج، لم يكن من الممكن حملها بأية وسيلة على البقاء فى البيت. وكانت فى صغرها تهتم بجمع النقود التى تنثر فى هذه المناسبات، وذات مرة اجتمع لها منها مبلغ طيب وضعته وهى فى الشارع على كفها، وأخذت تنظر إليه فرحة مبتهجة، فضرب أحدهم يدها فضاعت الغنيمة فى لمح البصر. وكان لها قصة مع القيصر كارل السابع لا تقل طرافة. فبينما كان يستقل عربته، والشعب كله يقف صامتًا ساكنا على الرصيف، انطلقت هى صائحة "يعيش القيصر"، واضطرته بذلك إلى أن يخلع قبعته لتحيتها تحية كريمة على اهتمامها الجرىء.

وكذلك كان كل شىء فى بيتها ينبض بالحركة والمرح والبهجة، ونحن الصغار مدينون لها بكثير من الساعات البهيجة التى أتاحتها لنا.

وكانت لنا خالة تقيم فى مكان هادئ يتفق مع طبيعتها الهادئة، وكانت متزوجة من القس البروتستانتى (شتارك) واعظ كنيسة القديسة كاتارينه. وكان هذا

القس يعيش فى عزلة شديدة، يدفعه إليها عمله وسعيه إلى الاستجمام، وكان يمتلك مكتبة جميلة، عرفت فيها (هومير) لأول مرة، فى ترجمة نثرية ظهرت فى الجزء السابع من "المجموعة الجديدة لأغرب قصص الرحلات" التى نشرها السيد (فون لون)، وكانت هذه الترجمة تحمل عنوان.. "وصف هومير لغزو الدولة الطروادية"، وكانت تتحلى برسومات من نوع رسومات المسرح الفرنسى. ولقد أفسدت على هذه الرسومات خيالى فظللت حينا من الزمن لا أتصور الأبطال الهوميريين إلا على نحو ما رأيت فى هذه الصورة[٤٠]. ولقد أعجبتنى الأحداث فى مجموعها بدرجة لا أكاد أستطيع إلى التعبير عنها من سبيل، ولكن الكتاب فى مجموعه لم يعجبنى فيه أنه أهمل الحديث عن غزو طروادة، وأنه انتهى نهاية مفاجئة بموت هيكتور. فلما حدثت زوج خالتى عن نقدى أحالنى إلى (ڤرجيل)[٤١] فوجدت فيه ضالتى.

ومن البديهى أننا نحن الصغار كنا نتلقى إلى جانب الدروس الأخرى حصصًا مستمرة فى الدين، كانت تزيد مع الأيام عددًا، ولكن البروتستانتية الكنسية التى كانوا يلقوننا إياها لم تكن فى الحقيقة سوى ضرب من الأخلاقيات الجامدة. فلم يخطر ببالهم أن يقدموا إلينا دراسة غنية بالفكر، فظل ما قدموه إلينا بعيدًا عن أن يؤثر فى الروح والقلب. وهذا هو السبب الذى أدى إلى ظهور فرق انفصلت عن الكنيسة الرسمية، فظهرت فرق الانفصالية والورعية والهرنهوتية والسكونية وما إليها من فرق تتسمى بأسماء كثيرة، وتهدف إلى شيء واحد هو الاقتراب من الرب عن طريق المسيح اقترابًا يزيد عما تتيحه لهم الديانة الرسمية فى تصورهم.

وكان الصبى يسمع من هذه الآراء ما لا ينتهى إلى نهاية، لأن رجال الدين والعامة على السواء كانوا ينقسمون حيالها إلى حزبين، حزب معها وحزب عليها. وكانت هذه الفرق التى انشقت فى كثير أو قليل من أمورها عن الكنيسة الرسمية لا تمثل إلا الأقلية – ولكن مفهومها كان يجذب الاهتمام بما يتميز به من أصالة وإحساس وصلابة واستقلال. وكانت الحكايات التى تتناقلها الألسن عن هذه الميزات ومظاهرها، حكايات كثيرة، أذكر منها خاصة إجابة معلم سمكرى تقى،

سأله أحد رفاقه فى الحرفة بقصد إحراجه، عن الكاهن الذى يذهب إليه للاعتراف، فــرد عــليه ببشاشة الواثق من قضيته: كاهن الاعتراف عندى كاهن عظيم جدًا، لا يقل قدره عن قدر كاهن اعتراف الملك داود(٤٢).

وليس من شك فى أن هذه الحكاية وشبيهاتها أحدثت فى الصبى انطباعها وأنها حضته على الاتجاه بأفكاره وجهة مشابهة. وكان أن فكر فى أن يتقرب مباشرة إلى الرب العظيم، رب الطبيعة، صاحب الخلق والأمر فى السماء والأرض الذى انطوى غضبه القديم فى النسيان منذ زمن طويل، وأفاء علينا بما فى العالم من جمال وخير عميم. ولكن الطريق التى سلكها الصبى إلى ذلك كانت غريبة كل الغرابة.

كان الصبى يتمسك بصفة عامة بمبادئ الإيمان الأولى. وكان الرب الذى يتصل بالطبيعة اتصالا مباشرًا، والذى يحب الطبيعة ويرى أنها هى عمله وصنعته، هو فى نظره الرب الحقيقى الذى يمكن أن يتصل بالإنسان كما يتصل بكل ما عداه، وكان يرى أن الرب يرعاه كما يرعى حركة النوم واختلاف الليل والنهار والفصول والنبات والحيوان. وهناك مواضع فى الإنجيل تذكر هذا المعنى بصريح العبارة. ولم يكن فى مقدور الصبى أن يأتى من عنده بشكل لهذا الجوهر الربانى ولهذا التمسه فى مخلوقاته، وقر رأيه على أن يقيم له هيكلا على طريق التوراة(٤٣). وهداه تفكيره إلى أن يضع على الهيكل أشياء من الطبيعة، يقدمها قربانا يكون كناية عن العالم، وأن يشعل من فوقه لهبا يرمز إلى نفس الإنسان الطامحة إلى خالقها. وانتقى الصبى من مجموعة الأحجار الطبيعية التى وجدها فى البيت، والتى شاءت لها المصادفة أن تزيد وتنمو، أفضل الأنواع والأشكال، وإن شق عليه الاختيار والترتيب. وكان لدى الوالد قمطر للموسيقى جميل المنظر، مطلى باللاكيه المحلى بالزهور المذهبة، وكان هذا القمطر على هيئة هرم رباعى له درجات مختلفة، كانوا يجدونه مريحًا جدًا عند عزف الرباعيات، وإن قل استخدامه فى الفترة الأخيرة قلة تقترب من الندرة. فاستولى عليه الصبى، ورتب على درجاته المتتالية الأشياء الرامزة إلى الطبيعة، فجاء المنظر شديد البهجة عظيم

المعنى فى وقت معًا. وقرر أن يقيم أول صلاة مبكرًا عند الشروق، ولكن الكاهن الصغير لم يستقر على رأى فى كيفية وضع الشعلة التى كان يريد لها أن تبث رائحة عطرة. وأخيرًا خطر بباله أن يجمع بين الحسنيين، بأن يشعل شمعة من شموع البخور، تبث رائحة شذية، فإن لم يصدر عنها لهب، ففى سنا بريقها الكافية. بل عنّ له أن الاحتراق والتحول إلى بخار يعبر عما يجيش فى النفس أكثر مما تعبر عنه الشعلة الملتهبة. وكانت الشمس قد أشرقت منذ حين، ولكن بيوت الجيران حجبت نورها، فلما تبدت الشمس من فوق الأسطح تناول عدسة وأشعل بها شموع البخور التى وضعها فى صحن من الصينى الجميل على القمة. ونجح كل شىء على خير وجه، وصلى صلاته فى ورع كامل. وظل الهيكل فى الحجرة التى خصصوها للصبى فى البيت الجديد حلية طريفة، يظنها الجميع طائفة من الأحجار نسقت تنسيقًا جميلاً، أما الصبى فكان يعرف الحقيقة ويخفيها فى صدره. وظل الصبى يتوق إلى إقامة الشعائر مرة أخرى، ولكن الحظ خانه فى هذه المرة، فعندما بزغت الشمس على أحسن وجه تمناه، لم يجد صحن الصينى فى متناول يده، فوضع شموع البخور فوق السطح العلوى للقمطر مباشرة، وأشعلها، وتملكه ورع شديد حجب عنه الأضرار التى نجمت عن قربانه، ولم يلحظها الكاهن الصغير إلا بعد أن وصلت إلى درجة من السوء لم يعد من الممكن إصلاحها. كانت الشموع قد أتلفت اللاكيه الأحمر والزهور المذهبة الجميلة إتلافًا شديدًا، وخلفت آثارًا لا سبيل إلى محوها أو إصلاحها. ووقع الكاهن الصغير فى حيرة بالغة. وإذا كان قد تمكن من إخفاء التلف، فإنه قد فقد الجرأة على تقديم قرابين جديدة. ولعله أدرك أن هذه الحادثة التى جاءت وليدة المصادفة، كانت بيانا ونذيرًا له بأنه من الخطر أن يعمد الإنسان إلى مثل هذه الطرق للتقرب إلى الله.


محمد خطاب

الكتاب الثانى

يشير كل ما أوردناه حتى الآن إلى حالة السعادة والدعة التى ظلت البلاد تمر بها فى أثناء فترة من السلام طويلة. ولم يكن أحد ينعم بهذا الوقت السعيد ويرتاح إليه أعظم راحة إلا فى المدن التى كانت تشكل حياتها حسب قوانينها الخاصة، وكانت كبيرة المساحة، تستوعب عددًا كبيرًا من المواطنين، وكانت حسنة الموقع تستطيع أن تحقق الثراء من التجارة والسياحة، وكان الأجانب يجدون نفعًا لهم فى الدخول إليها والخروج منها، ويضطرون إلى جلب كل ما فيه فائدة، حتى ينالوا من الفائدة نصيبًا. وكانت المدن – اللهم إلا إذا كانت تسيطر على مناطق واسعة – تستطيع أن تحقق فى داخلها مزيدًا من الرخاء لأن علاقاتها بالخارج، لم تكن تلزمها بمهام غالية أو مشاركات باهظة التكاليف.

وعلى هذا النحو مرت على أهل فرنكفورت فى أثناء طفولتى طائفة من السنوات السعيدة. فما كدت أتجاوز عامى السابع فى ٢٨ أغسطس من عام ١٧٥٦ حتى اشتعلت نيران تلك الحرب الشهيرة التى قدر لها أن تؤثر على حياتى كذلك تأثيرًا كبيرًا فى السنوات السبع التالية. فقد اجتاح فريدريش الثانى، ملك بروسيا، منطقة سكسونيا بـــ ٦٠٠٠٠ رجل، ولم يهىء للغزو بإعلان مسبق للحرب؛ بل سار إلى الغزو مباشرة ؛ ثم أتبعه بمنشور ألفه هو – إذا صح ما تناقلته الألسن – ذكر فيه الأسباب التى حملته على القيام بهذه الخطوة والأسباب التى تبررها. وانقسم العالم – الذى وجد نفسه مطالبًا، لا بأن يقف موقف المشاهد فحسب، بل موقف الحكم أيضًا – إلى حزبين، وكانت أسرتنا صورة مصغرة من هذا الانقسام الكبير.

أما جدى – الذى حمل بصفته مستشارًا ممثلاً لفرنكفورت بساط التتويج فوق رأس فرانتس الأول، وتلقى من الإمبراطورة سلسلة ذهبية ثمينة بها صورتها –

فكان مع بعض بناته وأزواجهن فى جانب النمسا. وأما أبى الذى عينه كارل السابع مستشارًا إمبراطوريًا، والذى ظل متعاطفًا مع هذا العاهل التعيس، فكان يميل - ومعه النصف الصغير من العائلة - إلى جانب بروسيا. وكانت العائلة قد حرصت منذ أعوام طوال على عقد اجتماعات تضم أفرادها فى يوم الأحد من كل أسبوع، وكانت اجتماعات تتسم بالألفة، وإذا هذا الانقسام فى الرأى يصيبها بالاضطراب، ووجدت الخلافات التى تنشب عادة بين الأصهار أسلوبًا جديدًا تفصح به عن نفسها. فكانوا يتشاحنون ويتشاجرون ثم يصمتون، ثم يعودون إلى الشجار من جديد. وبدأ جدى يفقد صبره وما كان فى غير هذا إلا رجلاً هادئًا يكره الشجار. وحاولت النساء تهدئة النيران المتأججة، وآثر أبى بعد عدد من المشاهد السخيفة أن يتجنب الجماعة ولقاءاتها. وبقينا نحن فى بيتنا نفرح على راحتنا بالانتصارات البروسية التى كانت خالتى النشيطة وصاحبة الاتصالات الكثيرة قد اعتادت أن تنقل أخبارها إلينا وكنا نهتم بها اهتمامًا لا يدانيه سواه، وأمضينا بقية العام فى فوران من الانفعالات يسكن ولا يهدأ، وكان حزبنا سعيدًا كل السعادة بالاستيلاء على دريسدن، وباعتدال الملك فى بداية الحرب وسيره بخطى كانت وئيدة ولكنها كانت أكيدة، وانتصاره فى معركة (لوفوزيتس) وأسره السكسونيين.

فإذا وردت أنباء فى صالح الحزب الآخر أنكرها أو هون من شأنها. ولما كان أفراد الأسرة الآخرون يسلكون المسلك نفسه فما كان يمكن أن يلتقوا فى شارع دون أن تجرى بينهم أمور من نوع الأمور التى تطالعنا فى مسرحية "روميو وجوليت".

وهكذا كنت بروسيًا، أو على الأصح فريتسيا[٤٤]. فمن أى وجه كانت بروسيا تهمنا؟ كانت شخصية الملك العظيم هى التى تأخذ بمجامع قلوبنا، وكنت أفرح مع أبى بانتصاراتنا، وأنسخ الأناشيد التى تتغنى بهذه الانتصارات، وأفضل عليها نسخ نصوص الأغانى التى كانت تسخر من غريمنا، على الرغم من أنها كانت شعرًا هزيلاً.

وكنت - باعتبارى أكبر الأحفاد وابن المعمودية - أتناول منذ طفولتى المبكرة طعام الغداء يوم الأحد من كل أسبوع على مائدة جدى وجدتى، وكانت الساعات التى أقضيها هناك من أسعد ساعات الأسبوع كله. فلما قامت الحرب

وانقسم الناس، لم يعد شيء من الطعام الذى يقدم على المائدة يسيغ لى؛ لأننى كنت أسمع برغمى أبشع الإهانات تكال للملك الذى يمثل البطولة فى نظرى. كانت الرياح التى تهب هنا غير تلك التى عهدتها فى بيتنا، وكانت الأنغام التى يسمعونها غير تلك التى نسمعها. فضعف تلقى بجدى وجدتى، بل تضاءل احترامى لهما. ولم يكن لى أن أتحدث عن شىء من هذا فى بيتنا بل كنت أسكت عنه من تلقاء نفسى، وكانت أمى قد حذرتنى أيضًا من أن أجاهر بما أسمع هناك. وأدت بى هذه الحال إلى الانطواء على نفسى. وإذا كنت قد شككت وأنا ابن السادسة فى الرحمة الربانية على نحو ما حدث بعد زلزال لشبونه فقد بدأ اللغط حول فريدريش الثانى يجعلنى أشك فى عدالة الجماهير. وكانت نفسى تميل بطبيعتها إلى الإجلال، ولم يكن إيمانى بشىء جليل ليهتز إلا إذا تعرض لرجة عنيفة.

لقد كان الكبار يحضوننا على التمسك بالخلال الحميدة والسلوك السوى، لا من أجل ذاتها، ولكن من أجل الناس، فكانوا يقولون لنا: "ماذا سيقول الناس إذا..." وكنت أستنتج من ذلك أن الناس يمثلون الخير، وأن لديهم القدرة على التقدير السليم لكل شىء والحكم السليم على كل الأشياء وها هى ذى خبرتى تبين لى العكس. الناس يحتقرون أعظم الخصال، ويقفون منها موقف العداء، والناس ينكرون أعظم الأعمال أو يشوهونها أو ينتقصون منها. كان الظلم القبيح يقع على فريتس، الرجل الوحيد الذى بزّ كل معاصريه، والذى كان يقيم كل يوم الدليل على قدرته على الإنجاز. ولم يكن أصحاب هذا المسلك هم العامة، بل كانوا رجالا ممتازين، وهكذا كنت أعتبر جدى وأخوالى. والحق أن الصبى لم يكن يتصور أن يتفرق الناس إلى أحزاب، ولم يكن يتصور أن يكون هو منضمًا لحزب منها، ولكنه كان يعتقد اعتقادًا وثيقًا أنه على حق فيما يذهب إليه، وبأن من حقه أن يعتبر رأيه أفضل الآراء. وبخاصة لأنه هو والذاهبون مذهبه لم ينتقصوا من الإمبراطورة ماريا تيريزا وجمالها وخصالها، ولم يعيبوا على القيصر فرانتس شغفه بالجواهر

والمال، بل كانوا يعتقدون أن فى استطاعتهم الرضا أحيانًا على وصف الجراف (داون)[٤٥] بـ "النائم على أذنيه" وتبرير هذا الوصف تبريرًا مسئولاً.

وأنا عندما أتأمل هذا الأمر تأملا أعمق، أجد فيه بذور اتجاهى الأول إلى احتقار الجمهور، ذلك الاتجاه الذى لازمنى طويلا ولم أصلحه إلا فى وقت متأخر بفضل الوعى والثقافة. وأيًا كان الأمر فقد تألم الصبى ألما شديدًا وهو يرى الظلم المتعصب، بل ناله منه ضرر ليس بالهين إذ اعتاد أن يبتعد عن أناس كان يحبهم ويقدرهم. ولم تكن أحداث الحرب المتعاقبة ووقائعها المتتالية تترك للحزبين مجالاً للراحة أو السكون، وكنا جميعًا نحس برضاء يشوبه الضجر لإثارة هذه الحماقات المفتعلة، والاسترسال فى المكابرة الفجة وزيادة حدتها، فعكف بعضنا على التنغيص على البعض الآخر، حتى جاء الفرنسيون بعد بضع سنوات وحملوا إلينا الاضطراب الحقيقى ودخلوا به إلى عقر دورنا.

وعلى الرغم من أن غالبية هذه الأحداث التى كانت تجرى بعيدًا عنا لم تكن تعنينا إلا من حيث هى مادة للحديث المضطرب الثائر، فقد كان هناك أناس فهموا خطورة العصر وأحداثه، وخشوا أن يمتد ميدان القتال حتى يبلغ ديارنا إذا دخلت فرنسا طرفًا فى الحرب. وكانت الأسرة تستبقينا فى البيت أكثر مما كانت تفعل فيما مضى، وكانت تسعى بطرق شتى إلى شغلنا وتسليتنا، فنصب مسرح العرائس الذى خلفته جدتى، بحيث كان النظارة يجلسون فى حجرتى ذات السقف المائل، والقائمون بالتمثيل والتدبير والتشغيل يتخذون مكانهم فى حجرة مجاورة ومعهم خشبة المسرح. وسمحت الأسرة لعدد من الصبية بالانضمام إلينا لمشاهدة المسرح، مما أتاح لى أن أجمع حولى الأصدقاء. إلا أن الصخب الذى جبل عليه الصبية حال دون جلوسهم جلسة النظارة الهادئين الصبورين لوقت طويل. فلما أدى صخبهم إلى تعطيل التمثيل، اضطررنا إلى اختيار جمهور من الأطفال أصغر سنًا، كان من الممكن الالتجاء إلى الخادمات والمربيات لإلزامه النظام. وكنا قد حفظنا التمثيلية الأولى التى أعدت لها العرائس عن ظهر قلب، ومثلناها كاملة. ثم ما لبثنا أن

مللناها، فغيرنا الملابس والمناظر، وأقدمنا على تقديم تمثيليات أخرى مختلفة كانت بطبيعة الحال كبيرة على هذا المسرح الصغير. وعلى الرغم من أننا تسببنا بهذه المكابرة فى إفساد العروض المسرحية التى كان يمكننا أن ننتجها فى إطار مسرح العرائس، بل تسببنا فى تحطيمها تمامًا فى نهاية الأمر، فإن هذه التسلية الصبيانية المنوعة غاية التنوع كانت بمثابة الحافز الذى حرك فى وجدانى القدرة على الابتكار والتمثيل وألهب خيالى، ومكننى من التدرب على صنعة معينة، وتحقق لى فى هذا الوقت القصير والمكان الضيق وبهذه التكاليف القليلة ما لم يكن من الممكن تحقيقه على نحو آخر.

وكنت قد تعلمت منذ وقت مبكر معالجة الفرجار والمسطرة، فبدأت نقل ما تعلمته فى دروس الهندسة إلى الواقع العملى، ووجدت فى الاشتغال بالورق تسلية عظيمة ولم أقف فى هذه الممارسة العملية عند حد صناعة الأشكال الهندسية والصناديق وما إليها، بل تجاوزت ذلك إلى تصميم بيوت بهيجة جميلة، كنت أزينها بأعمدة، وسلالم طليقة، وسقوف مسطحة، ولكننى لم أبن منها إلا القليل.

وعملت بتصميم أكبر ومثابرة أشد، مستعينا بخادمنا، وكان خياطًا محترفًا، فى إعداد حجرة تجهيزات مسرحية لخدمة ما اشتقنا إلى تقديمه بأنفسنا من تمثيليات ومآسٍ بعد أن كبرنا على تمثيليات العرائس. كذلك قام رفاقى فى التمثيل بإعداد تجهيزات مشابهة، وكانوا يرون أنها تضارع تجهيزاتى جمالا وجودة. ولم أكن أقف فى هذا المجال عند حد تجهيز شخصية واحدة بل كنت أستطيع أن أزود فريقًا من جيش التمثيل الصغير بمختلف المعدات واللوازم، وهكذا كانت الجماعة تحس بأن حاجتها إلىَّ تتزايد. ومن البديهى أن هذه التمثيليات كانت تؤدى بنا إلى الانقسام والصراع والشجار، بل كانت تنتهى إلى نهاية مؤسفة من الشحناء والكراهية. كانت طائفة من الرفاق، عندما ينشب الشجار، تقف فى صفى، وكان الآخرون يقفون فى الجانب الآخر، وكان من بين الرفاق من يغيرون موقفهم بين الفينة والفينة. وأذكر صبيًا، سأطلق عليه هنا اسم پيلادس، لم يترك حزبى فينضم إلى الغرماء إلا مرة

واحدة، وبتحريض من الآخرين، ولكنه لم يحتمل معاداتى لحظة واحدة، فعاد إلى وتصالحنا، والدموع تنهمر من مآقينا، وظللنا حيناً من الزمن مخلصين كل منا لصاحبه.

وكنت أستطيع أن أدخل البهجة على هذا الصبى وغيره من الأوفياء بحكاية من حكاياتى التى كنت أؤلفها، وكانوا يفضلون من حكاياتى تلك التى تدور حول شخصى أنا، وكانوا يجدون متعة كبيرة عندما يسمعون عن أحداث عجيبة خارقة أقوم بها أو تحدث لى أنا رفيقهم فى اللعب، ولم يكونوا ينكرون علىّ أننى أستطيع أن أجد لنفسى الوقت والمكان لخوض غمار هذه المغامرات، وإن كانوا يعرفون حق المعرفة واقعى وما كنت أعمل وأترك، ويلمون بحلّى وترحالى. وكنت أبتدع لأحداث حكاياتى أماكن، إن لم تكن فى عالم آخر، فهى على الأقل فى بلد غير بلدنا. وما كانت هذه الأحداث تجرى إلا بالأمس أو اليوم. وهكذا كان ينبغى عليهم أن يخدعوا أنفسهم بأكثر مما يمكننى أنا أن أخدعهم مهما بذلت من جهد. ومن الخير أننى تعلمت بالسليقة كيف أحيل هذه الشخصيات الخرافية والأحداث المختلفة إلى أعمال فنية، وإلا لأدى استرسالى فى التخريف والاختلاق إلى عواقب وخيمة.

وإذا ما تأمل الإنسان هذا الدافع تأملاً دقيقًا، فإنه سيرى فيه المكابرة التى يعبر بها الشاعر عن أكثر الأشياء بعدًا عن التصديق، ويطالب بناء عليها كل إنسان بأن يصدق هذه الأشياء التى اختلقها هو وابتدعها، وأتيح لها أن تبدو له صادقة.

ولعل هذا الحديث العام عن التأمل يتضح للفهم ويتجلى للوجدان على نحو أفضل إذا سقنا مثلاً عليه أو نموذجًا يبينه. وهذه حكاية من هذا النوع ما زالت عالقة فى ذاكرتى، ماثلة فى مخيلتى لأننى كثيرًا ما قصصتها على أترابى.

پاريس الجديد

حكاية صبيانية

رأيت فى المنام منذ وقت ليس بالبعيد كأنى أقف فى ليلة أحد العنصرة أمام المرآة أتأمل ملابس الصيف الجديدة التى حبانى بها الوالدان العزيزان بمناسبة العيد. وكانت الملابس تتكون كما تعلمون، من حذاء مصنوع من جلد جميل، تزينه حلقات كبيرة من الفضة وجوارب رقيقة من القطن، وسراويل سوداء من الحرير المخلوط الرقيق، وسترة من الصوف الأخضر لها عراو من خيوط مذهبة. أما الصدرية فكانت من قماش مذهب صنعوها لى من صدرية أبى التى لبسها فى يوم عرسه. وكنت قد صففت شعرى ونثرت عليه المساحيق، ورفعت الخصائل فوق رأسى كالأجنحة. ولكننى لم أستطع أن أفرغ من ارتداء ثيابى، فقد كنت دائمًا أخطئ فى تناول ما أريد، وكان الجزء الذى ألبسه يقع من فوق جسمى عندما أهم بارتداء الجزء الذى يليه. وبينما أنا فى هذه الحيرة، أقبل شاب جميل نحوى، وحيانى أطيب تحية فقلت له: "مرحبًا بك يسرنى أن أراك هنا" فقال الشاب مبتسمًا: "هل تعرفنى"؟ فابتسمت له أنا أيضًا وقلت: "ولم لا؟ إنك عطارد، وقد رأيت صورتك كثيرًا" فقال الشاب: "نعم، أنا عطارد، ولقد أرسلتنى إليك الآلهة فى مهمة لها خطرها. هل ترى هذه التفاحات الثلاث؟" ومد يده إلىّ، وأرانى ثلاث تفاحات لا تكاد الكف تتسع لها، فقد كانت التفاحات كبيرات جميلات رائعات، وكانت الأولى حمراء والثانية صفراء والثالثة خضراء، وكان الناظر إليها يظنها أحجارًا نفيسة اتخذت شكل الثمار. وهممت أن أمد يدى نحوها، فتراجع وقال: "ينبغى أن تعلم أولا أنها ليست لك، وأن عليك أن تقدمها إلى أجمل ثلاثة من الشبان فيجد كل واحد منها، حسب حظه، الزوجة التى يتمناها. خذها الآن وقم بالمهمة خير قيام"

وانصرف بعد أن وضع التفاحات فى يدىَّ المبسوطتين، وبدت لى التفاحات كأنها ازدادت حجما، ورفعتها إلى أعلى ناحية الضوء، فتبينت أنها شفافة كل الشفافية. وما لبثت التفاحات أن طالت وعلت وتحولت إلى ثلاث بنات فائقات الجمال، فى حجم العرائس المتوسطة، وكانت كل واحدة منهن ترتدى ثيابًا على اللون الذى كانت عليه التفاحة. وانزلقت الحسناوات من فوق أصابعى، فمددت يدى إليهن حتى أمسكهن، إلا أنهن كنَّ قد طرن عاليًا، ولم يعد فى مقدورى إلا أن أتابعهن ببصرى. ووقفت مدهوشًا جامدًا فى مكانى ورفعت يدى إلى أعلى وتطلعت إلى أصابعى، وكأننى ظننت أننى أستطيع أن أرى عليها شيئًا. وفجأة رأيت على أطراف أصابعى بنتًا رائعة الحسن، أصغر قامة من الأخريات، ولكنها كانت لطيفة ظريفة. ولما لم تطر مثل الأخريات، بل بقيت تتراقص وتتلوى تارة فوق طرف هذا الإصبع، وتارة فوق طرف الإصبع الآخر، فقد ظللت حينًا أتطلع إليها وقد استبدت بى الدهشة. ومادامت قد أعجبتنى، فقد اعتقدت أننى أستطيع أن أمسك بها، وخطر ببالى أن أتوسل إلى ذلك بالحيلة، وبينما أنا أفكر على هذا النحو، إذا بضربة تنهال على رأسى، وقعت من أثرها مغشيًا علىَّ، ولم أفق من غشيتى إلا بعد أن حل موعد ارتدائى ملابسى للذهاب إلى الكنيسة.

وظللت فى أثناء الصلاة أقلب فى خاطرى هذه الصورة، وكذلك كنت أفعل عندما جلست إلى مائدة جدى وجدتى لتناول طعام الغداء. وذهبت عصر ذلك اليوم لزيارة بعض الأصدقاء؛ لأننى كنت أريد أن يرانى الناس فى ثيابى الجديدة، وقد وضعت القبعة تحت إبطى، والسيف إلى جنبى، ثم إننى كنت مدينًا لهؤلاء الأصدقاء بالزيارة. ولم أجد أحدًا منهم فى البيت، وعلمت أنهم فى الحديقة، ففكرت فى أن أذهب إليهم وأن أقضى معهم أمسية بهيجة. وبدأت السير، فإذا طريقى يؤدى بى إلى ساحة "تسقينجر"[٤٦]، ووصلت إلى المنطقة التى يسمونها بحق "الحائط القبيح" ففيها حائط لا ترتاح إليه النفس مطلقًا. وسرت بخطوات وئيدة وأنا أفكر فى ربّاتى الثلاث، وفى الصغيرة الظريفة بخاصة، وكنت من حين إلى حين أرفع أصابعى

يحدونى الأمل فى أن تتكرم علىَّ وتتراقص فوقها. وبينما أنا أسير مشغول الفكر، لمحت إلى اليسار فى الحائط بابًا صغيرًا لا أذكر أننى رأيته من قبل، ولاح لى هذا الباب منخفضًا، ولكن حنيته كانت تسمح حتى لأطول الرجال قامة بالمرور منه، وكانت أحجار الحنية والحيطان مزخرفة ومنحوتة على نحو بديع، أما الباب نفسه فقد ملك علىَّ انتباهى، فقد كان مصنوعًا من خشب داكن عتيق، قليل الزخرف تُكَفِّتُهُ شرائط برونزية مشغولة بزخارف غائرة وبارزة معًا، وعجبت كل العجب للأغصان والطيور الممثلة فى هذه الزخارف تمثيلاً يحاكى الطبيعة. أما أعجب شىء بدا لى فهو أن الباب لم يكن له ثقب للمفتاح، ولم يكن له مقبض أو مطرقة، واستنتجت من هذا أن الباب لا يفتح إلا من الداخل. وسرعان ما تبينت أن استنتاجى كان صحيحًا، فما إن اقتربت لأتحسس الزخارف حتى انفتح الباب إلى الداخل، وظهر رجل كانت ثيابه تتسم بشىء من الطول والسعة والغرابة. كانت له لحية جليلة تحيط بذقنه كالسحاب، فظننته من اليهود، وكأنما قرأ الرجل أفكارى، فرسم الصليب مبينًا لى أنه مسيحى كاثوليكى. وقال لى بصوت رقيق وحركة تتسم بالود: "كيف أتيت يا أيها الشاب إلى هنا ؟ ماذا تعمل هنا؟" فقلت له: "إننى معجب بزخارف هذا الباب ولم أر من قبل فى حياتى مثيلاً لها، وكان الأحرى أن تتحلى بها الطرف فى مجموعات التحف الفنية لدى الهواة". فأجاب قائلاً: "يسرنى أنك تحب مثل هذا العمل الفنى. فاعلم أن الباب من الداخل أكثر جمالا: ادخل إن شئت". ولم تكن نفسى مرتاحة لما حدث، بل كان الانقباض قد تملكنى حيال ملابس البواب الغريبة، والمكان السحيق، وشىء غامض مبهم أحسست كأنه كان يخيم على الجو. ولهذا بقيت فى الخارج، وتعللت بأننى أريد أن أطيل النظر إلى الناحية الخارجية من الباب، واختلست نظرة إلى الحديقة التى امتدت أمام بصرى، ورأيت خلف الباب مكانًا ظليلاً فسيحًا كانت تقوم فيه أشجار زيزفون عتيقة على مسافات منتظمة تغطيه• تمامًا بأغصانها المتداخلة الكثيفة، وتتيح لجماعات كثيرة من الناس أن تتمتع تحتها بالظل الظليل فى أشد أوقات القيظ. واقتربت حتى وصلت إلى العتبة، وعرف الشيخ كيف يغرينى على التقدم خطوة بعد خطوة. ولم أقاوم الإغراء مقاومة حقيقية؛

لأنني كثيرًا ما سمعت أنه لا ينبغي للأمير أو السلطان أن يسأل في مثل هذه المواقف هل سيتعرض للخطر، أضف إلى هذا أنني كنت أتمنطق بسيفي. وهل كان من الممكن أن أعجز عن ردع الشيخ إذا أظهر لي العداء؟ فدخلت مطمئنا. وضغط البواب على الباب فأغلقه، ولم يصدر عن انغلاقه إلا صوت خفيض لم أكد ألحظه. وأراني الشيخ الزخارف في الناحية الداخلية من الباب، وكانت بالفعل أكثر فنًا. وشرح لي معناها مبينًا بذلك أنه يكن لي الود العميق. فلما اطمأنت نفسي كل الاطمئنان، سرت إلى المكان الظليل عند الحائط الدائري ووجدت بالحائط أشياء كثيرة جديرة بالإعجاب. كانت هناك تجويفات مزدانة بالصدف والمرجان، ودرجات معدنية ينساب بها الماء وفيرًا من أفواه آلهة البحر المسماة تريتون، والتي كانت على هيئة الأسماك، إلى أحواض من المرمر، وقد وضعت بينها أقفاص للطيور وأقفاص يلعب فيها السنجاب وخنزير البحر وغيرها من الحيوانات اللطيفة التي تشتهي العين رؤيتها. فلما مررنا بالطيور صاحت فينا وشدت من أجلنا، وغنت لنا طيور الزرزور بخاصة غناء رائعًا مذهلاً، وكان بينها طائر أخذ ينادي: يا پاريس يا پاريس(٤٧) وطائر آخر ينادي: يا نرجس. يا نرجس(٤٨). وكان صوتهما واضحًا دونه وضوح نطق تلاميذ المدارس الذين دربوا على النطق الصحيح. وخيل إليّ أن الشيخ أخذ ينظر إلي عابسًا، كلما صاحت الطيور هذه الصيحات، ولكنني لم أظهر له أنني لاحظت شيئًا، ولم يكن لدي في الحقيقة من الوقت ما يتيح لي أن أنتبه إليه، فقد اتضح لي أننا نسير على خط دائري، وأن هذا المكان الذي يتخذ شكل دائرة كبيرة يحيط بمكان آخر أكثر منه خطرًا. وكنا قد عدنا في هذه الأثناء إلى الباب الصغير، وبدا على الشيخ كأنه يريد أن يخرجني، ولكن عيني ثبتتا على سياج من الذهب بدا لي أنه يحيط بقلب هذه الحديقة العجيبة، أتيحت لي في أثناء سيرنا فرصة التطلع إليه، على الرغم من أن الشيخ كان يبذل جهده ليقربني من الجدار، وليبعدني عن قلب الحديقة ما استطاع. فلما اتجه إلى الباب قلت له وقد انحنيت في أدب: "لقد غمرتني من الود العظيم بما يشجعني على أن أتقدم إليك برجاء قبل أن أنصرف. ألا أستطيع أن أتطلع إلى هذا السياج الذهبي الذي يبدو أنه يصنع دائرة

واسعة تحيط بقلب الحديقة ؟ فأجاب الشيخ: "حبًا وكرامة. ولكن عليك أن تقبل الشروط ". فسألته متعجلاً: "وما هى هذه الشروط؟" فقال: "عليك أن تترك هنا قبعتك وسيفك ولا ينبغى لك أن تترك يدى وأنا أرافقك". فقلت: "لك هذا". ووضعت من فورى القبعة والسيف على أول مقعد حجرى ألفيته. فأمسك بيمناه يسراى، ودفعنى إلى أمام فى شىء من العنف. فلما بلغنا السياج تحولت دهشتى إلى إحساس عجيب: حقًا لم تر عيناى من قبل شيئًا من هذا القبيل. كانت هناك رمـــاح وحراب لا حصر لها، صفت على قاعدة عالية من المرمر، وكانت أطرافها المحلاة بالزخارف العجيبة تتقارب فتكون دائرة كاملة. وتطلعت من خلال الثغرات بين الرماح والحراب، فرأيت المياه تنساب رقراقة، يحجزها من الجانبين حاجز من المرمر، ورأيت فى أعماقها الصافية أسرابًا من الأسماك الذهبية والفضية، كانت تتحرك هنا وهناك، تارة فى سرعة، وتارة فى بطء، تارة متفرقة، وتارة مجتمعة، وتمنيت أن أتطلع إلى الناحية الأخرى من الجدول لأرى قلب الحديقة كيف يكون. ولكننى لسوء الحظ اكتشفت أن المياه يسترها من الناحية الأخرى سياج مشابه أقيم على طراز فنى، بحيث قابلت الفُرجُ من هذه الناحية الرماح والحراب فى الناحية الأخرى، فحجبت الرؤية، وتوارت الزخارف، واستحال على أن أبصر بشىء مهما غيرت مكانى. أضف إلى هذا أن الشيخ كان قابضًا على يدى، وكان يحول بينى وبين الحركة على سجيتى وزاد ما شاهدته شوقى إلى رؤية المزيد، فجمعت شجاعتى وسألت الشيخ: "هل يمكن أن نعبر إلى الناحية الأخرى " فأجاب "ولم لا ؟ ولكن عليك أن تقبل شروطًا جديدة " فلما سألته عن هذه الشروط، أفهمنى أنه ينبغى على أن أغير ملابسى، فقبلت راضيًا كل الرضا. فردنى إلى الجدار، وأدخلنى قاعة صغيرة جميلة كانت الملابس المختلفة معلقة على حيطانها، وكانت هذه الملابس كلها على ما يبدو شرقية الطابع(٤٩). وغيرت ثيابى بسرعة، وألبسنى الرجل فوق شعرى شبكة مزركشة، بعد أن مسح ما كنت قد نثرته عليه من مساحيق الزينة، فاستأت لذلك غاية الاستياء. ولكننى نظرت فى المرآة، فوجدت منظرى جميلاً فى هذا الملبس التنكرى استحسنته استحسانًا يفوق استحسانى لثياب الأحد الجامدة التى

كنت أرتديها. وشرعت أنط وأقفز وأتحرك حركات ترقصين على مسارح الأسواق وعدت أنظر فى المرآة، فتبيت بالمصادفة صورة كوة ورثى. كانت بها ثلاثة أحبال صغيرة خضراء تتدلى على خلفية بيضاء وكانت الأحبال معقودة معًا على نحو لم أستطع إدراكه من بعيد فاتجهت بسرعة إلى الشيخ وسألته عن الكوة والأحبال، فتناول متلطفًا واحدًا منها وأرانى إياه. فإذا هو حبل من الحرير الأخضر، متوسط السمك، عقد طرفاه إلى قطعتين من الجلد الأخضر المشقوق على نحو يجعل الحبل يبدو كأنه أداة تستعمل فى شيء كريه. وثارت فى نفسى أحاسيس الشك والقلق فسألت الشيخ عن الحبل، فرد على هادئًا طيبًا بقوله: "إن هذا الحبل أعد لعقاب أولئك الذين يسيئون استخدام الثقة التى تمنحهم إياها عن طيب خاطر." ثم أعاد الحبل إلى مكانه وطلب إلى أن أتبعه، ولم يمسك يدى فى هذه المرة بل تركنى أسير بجواره حرًا طليقًا.

وكنت شديد الشوق إلى معرفة مكان الباب أو الجسر الذى يتيح للإنسان العبور من خلال السياج واجتياز الجدول: ولم أكن قد اكتشفت حتى هذه اللحظة شيئًا من هذا القبيل. ولهذا أمعنت النظر فى السياج الذهبى الذى كنا نسرع إليه الخطى. وانبهرت لحظة لم أر فيها شيئًا: فقد بدأت الرماح والحراب والسهام تهتز وترتج، وانتهت هذه الحركة العجيبة بأطراف الرماح والحرب والسهام ترتمى بعضها فوق البعض، وكأنما كان هناك فريقان من المحاربين القدامى المسلحين يتأهبان للالتحام. واشتد التراشق حتى لم تعد العين تحتمل رؤيته، وعلا الصليل حتى لم تعد الأذن تحتمل الاستماع إليه، وفجأة تحول المشهد على نحو دهشت له كل الدهشة، فقد ارتكنت الأسلحة كلها على الأرض، وغطت دائرة الجدول، وكونت أروع جسر يمكن أن يتصوره الإنسان، وامتدت أمامى حديقة لم تر عين أبدع من ألوانها. وكانت الحديقة مقسمة إلى أحواض متداخلة، إذا شملها الإنسان ببصره رآها تؤلف تيها من الزخرف. كانت الأحواض كلها محاطة بأطر من نباتات منخفضة خضراء، لها هيئة الصوف، لم أر لها شبيهًا من قبل. وكانت كلها مليئة

بالزهور، قد وزعت بحسب ألوانها، لكل قسم لونه الذى يختلف عن لون القسم الآخر، وكانت الزهور كلها منخفضة تتيح للناظر إليها تتبع الرسوم الموضوعة فى سهولة ويسر. وخطف بصرى هذا المنظر البهيج الذى تمتعت بالنظر إليه فى ضوء الشمس الوضاح. وسرت لا أكاد أعرف أين أضع قدمى، فقد زينت الممرات الملتوية بالرمل الأزرق الذى بدا كأنه يكوّن على صفحة الأرض سماء معتمة أو سماءً انعكست صورتها على الماء. وهكذا سرت حينًا بجانب دليلى لا أنظر إلى الأرض، حتى تبينت أن هناك فى وسط هذه الدائرة من الأحواض والزهور دائرة كبيرة من أشجار السرو أو من أشجار من نوع الحور لم يكن فى استطاعة الإنسان أن ينفذ ببصره فيها، لأن غصونها السفلية كانت كأنما تصعدت من الأرض. واقتادنى دليلى، دون ما حاجة إلى إكراهى على سلوك أقصى الطرق إلى هذا الجزء الأوسط، وكم كانت دهشتى، وأنا ألج دائرة الأشجار الباسقة، عندما رأيت بهوًا ذا أعمدة فى بناء بديع يبدو أنه كانت له من النواحى الأخرى واجهات ومداخل مشابهة. أما ما أذهلنى أكثر من هذا البناء المعمارى العظيم فكانت أنغام رائعة انطلقت من داخله. واعتقدت تارة أننى أسمع عزفًا على العود، وتارة على الهارپ، وتارة على القانون، وتارة نغمات رنانة لا تخرجها آله من تلك الثلاث. وانفتح الباب الذى سعينا إليه عندما لمسه الشيخ لمسًا رقيقًا وكم كانت دهشتى عندما رأيت أن الفتاة التى انفرج عنها الباب تشبه تمام الشبه الفتاة اللطيفة التى رقصت فى المنام على أصابعى. وحيتنى الفتاة تحية توحى بأننا نعرف بعضنا بعضًا، ورجتنى أن أدخل. وبقى الشيخ حيث كان، وتمشيت أنا معها خلال ممر تعلوه قبة، وتزينه الزخارف، حتى بلغنا القاعة الوسطى التى راعنى فيها ارتفاعها ارتفاعًا يحاكى الكنائس الشاهقة، ولكن بصرى لم يقف طويلاً، فقد شده مشهد رائع خلاب. رأيت ثلاث فتيات يجلسن على سجادة فى قلب القاعة، تحت سمت القبة، على هيئة المثلث، وقد لبسن ثيابًا مختلفة الألوان، ارتدت إحداهن ثوبًا أحمر، والثانية ثوبًا أصفر، والثالثة ثوبًا أخضر، وكانت الكراسى الوثيرة التى جلسن عليها مذهبة، وكانت السجادة من تحتها أشبه شىء بحوض من الزهور اليانعة. كانت الفتيات

تحملن الآلات الموسيقية التى سمعت أنغامها من الخارج. فلما رأيننى توقفن عن العزف وكأنما أزعجهن دخولى عليهن. وقالت الوسطى التى كانت تجلس موجهة وجهها إلى الباب وكانت تلبس الثوب الأحمر وتعزف الهارب: مرحبا بك اجلس بجانب (أليرته) واستمع إلى العزف إن كنت من عشاق الموسيقى. وهنا رأيت فى تلك الناحية أريكة رقيقة طويلة عليها آلة ماندولين، تناوبت نقرات لطيفة. وجلست على الأريكة وشدتنى لأجلس بجانبها ورحت أتأمل الفتاة الثانية الجالسة إلى يمينى: كانت تلبس ثوبًا أصفر وتمسك آلة القانون. كانت عازفة الهارب رشيقة القوام، حلوة التقاطيع، مهيبة المسلك، أما عازفة القانون فكانت خفيفة الظل مرحة باشة وكانت لينة القد، شقراء الشعر، بينما كانت الأخرى داكنة الشعر. ولم تكن موسيقاهما المنوعة المنسجمة تصرفنى عن تأمل الحسناء الثالثة ذات الثوب الأخضر الذى كان ما تؤديه من عزف على العود يؤثر فى وجدانى ويلفت اهتمامى فى وقت معًا. وكانت هذه الفتاة هى أكثر الفتيات اهتمامًا بى، ويبدو أنها كانت تُحيِّنى بعزفها. ولقد حاولت أن أفهمها، فلم أوفق: فقد كانت تلوح لى تارة رقيقة، وتارة عجيبة، تارة صريحة، وتارة عنيدة، على قدر ما كانت تغير تعبير وجهها وأسلوب عزفها. وكانت تارة تبدو كأنها تريد استعطافى، وتارة تبدو كأنها تريد مشاكستى. ولكن جهودها كلها لم تمكنها من اجتذابى إليها، لأن جارتى الصغيرة التى كنت أجلس إليها مرفقًا إلى مرفق، كانت قد استحوزت علىَّ لنفسها. ولما كنت قد أيقنت من أن الفتيات هن ربات الهواء اللاتى رأيتهن فى المنام، ورأيت ألوان التفاحات وعرفتها، فقد أدركت أننى لا أملك سببًا للإمساك بهن. ولكم تمنيت أن أمسك بالصغيرة اللطيفة، ولكننى كنت أذكر الضربة التى سددتها إلىَّ فى المنام. ولقد كانت حتى هذه اللحظة ساكنة لا تعزف على ماندولينها، فلما كفت سيداتها عن العزف، أمرنها بأن تعرض شيئًا من فنونها المرحة، وما عزفت إلا القليل من الألحان الراقصة المثيرة حتى هبت من مكانها، وقفزت إلى أعلى، ففعلت مثلما فعلت. واسترسلت فى العزف والرقص، وأحسست بشيء يدفعنى إلى اصطناع خطوات تتابع خطواتها، وأدينا معًا مشهدًا قريب الشبه من باليه صغير سعدت به

الفتيات، على قدر ما بدا لى، لأننا ما كدنا ننتهى حتى أمرن البنت الصغيرة بأن تأتى إلىّ بوجبة خفيفة تمنحنى شيئًا من النشاط إلى أن يحين موعد تناول طعام العشاء. والحق أننى كنت قد نسيت أن الكون يمكن أن يكون فيه مكان آخر غير هذه الجنة وأشارت إلى (أليرته) أن أتبعها، فعدنا إلى الممر الذى سلكته عندما دخلت، وكان للبنت فى جانب منه حجرتان مؤثثتان تأثيثًا جميلاً، فقدمت إلى فى إحدى الحجرتين، وهى الحجرة التى كانت تتخذها للجلوس، البرتقال والتين والخوخ والعنب، وتمتعت بفاكهة البلاد الغريبة، وبفاكهة بلادنا فى غير أوانها، وأكلت منها بشهية كبيرة. ثم قدمت إلى من الحلوى الشىء الكثير، وصبت لى فى كأس من البلور الصقيل خمرًا. يعلوها الزبد: ولكننى لم أكن بحاجة إلى شراب، لأننى كنت قد طعمت من الفاكهة بما أطفأ غلتى.

وقالت: "هيا بنا نلعب"، واقتادتنى إلى الحجرة الثانية. وإذا هى حجرة تشبه سوق عيد الميلاد وإن لم تكن الأشياء الثمينة الجميلة التى ذخرت بها قد لاحت لعين إنسان من قبل بكل صنوف ثياب العرائس من مطابخ وحجرات مؤثثة ومحلات وألعاب متفرقة لا يحصيها العد. ودارت بى على الدواليب الزجاجية التى كانت هذه الطرف الفنية محفوظة فيها، ثم عادت وأغلقت الدواليب كما كانت، وقالت: "أنا أعرف أن هذه الأشياء لا قيمة لها بالنسبة إليك. لكن انظر هنا. هنا يمكننا أن ننشئ منها مدينة كبيرة. إلا أننى لا أجد فى هذه الأشياء تسلية أسعد بها. فلنلتمس شيئًا آخر نجد فيه المتعة كلانا، أنت وأنا على السواء".

وهنا أخرجت صندوقين رأيت فيهما دُمى هى نماذج مصغرة من الجنود صفت بعضها فوق البعض الآخر، ولم يكن بد من أن أعترف توا بأننى لم أر من قبل قط شيئًا فى مثل جمال هذه الدمى. ولم تدع لى وقتًا لأتأمل القطع تفصيلاً بل حملت صندوقًا تحت ذراعها، وحملت أنا الصندوق الآخر، وقالت: "هيا بنا نذهب إلى الجسر الذهبى، فهو أفضل مكان نلعب فيه بالعساكر، وهناك أسنة الرماح، تبين لنا الاتجاه الذى نتبعه حتى يقف الجيشان وجهًا لوجه".

وصلنا إلى الأرضية المتأرجحة للجسر الذهبى. وسمعت من تحتى خرير الماء، وانتفاض السمك عندما ركعت لأصف جنودى، وتبينت أن جنودى كلهم من الفرسان. أما الفتاة فقالت مفاخرة إن لديها ملكة الأمازونات تتولى قيادة الجيش النسائى[٥٠]. وأما أنا فكان لدى (أخيل) وفيلق ضخم هائل من فرسان الإغريق[٥١]. وسرعان ما وقف الجيشان متواجهين، وكان منظرهما جميلاً لم تر العين أجمل منه. فلم يكن الفرسان من الرصاص المطروق مثل فرساننا، بل كانوا – سواء فى ذلك الفارس والفرس – على هيئة مجسمة دقيق التصوير، ولم يكن من اليسير على الإنسان أن يفهم كيف كان الفرسان يقفون ثابتين لا يختل لهم توازن، كانوا يقفون وحدهم دون قاعدة تحت أقدامهم.

كنا قد نظرنا كلانا راضيين أعظم الرضا إلى قواتنا، عندما أعلنتنى الفتاة ببدء الهجوم. وكنا قد وجدنا فى صندوقنا القنابل، حيث وجدنا علبًا مليئة بالكريات الصغيرة الصقيلة المصنوعة من العقيق اليمانى. وكان المفروض أن نتحارب عن بعد محسوب شريطة ألا يقذف أحدنا الكريات بقوة أكثر مما يلزم لإيقاع الدمى، فما كان ينبغى إتلاف أى منها. وتبادلنا القصف المدفعى الذى جرى فى البداية على نحو رضينا به كلانا. حتى إذا لاحظت غريمتى أننى أصوب أفضل منها، وأننى سأنتهى إلى إحراز النصر الذى يحسب على قدر عدد الدمى التى تظل واقفة لا تقع، زادت من اقترابها وحققت بقصفها البناتى النجاح المرجو، فأوقعت عددًا كبيرًا من خيرة قواتى، فاحتججت، وكلما زاد احتجاجى شدة، زاد قصفها عنفًا. فتملكنى الغضب، وصارحتها بأننى سأفعل مثلما تفعل. وبالفعل اقتربت من قواتها، ولم أكتف بالاقتراب، بل زدت قصفى عنفًا فى غمرة من الغضب العارم، وما لبثت طائفة من القنطورات[٥٢] الصغيرة أن تهشمت وتناثرت. ولم تلحظ البنت ما حدث على الفور من فرط حماسها.

ووقفت كالمتحجر فى مكانى عندما رأيت الدمى الصغيرة المهشمة تلتئم من تلقاء نفسها، والأمازونات تعود فتلتحم بالخيول، وتدب فيها الحياة من جديد، ثم

اندفعت راكضة من فوق الجسر الذهبى إلى شجر الزيزفون، وظلت تعدو جيئة وذهابًا، ثم اندفعت نحو السور، لا أعلم كيف، واختفت. وما كادت غريمتى ترى ما حدث حتى انفجرت فى بكاء صاخب، وأخذت تولول وتصيح فىّ قائلة إننى السبب فى هذه الخسارة الفادحة التى منيت بها، وإنها لأفدح من أن تستطيع وصفها بكلام. أما أنا فقد تهللت بعد حنق، وفرحت بإيذائها، فقذفت ببعض الكريات التى تبقت معى قذفًا عشوائيًا عنيفًا صوب قواتها، فأصبت – لسوء الحظ – الملكة التى كنا فى أثناء اللعب قد استثنيناها من الضرب، فتهشمت، وتمزقت أشلاء، وتحطمت معها أقرب المحيطين بها، ثم ما لبثوا أن التأموا من جديد، واندفعوا كالسابقين، يركضون على نحو ممتع كل الإمتاع، متجهين نحو أشجار الزيزفون ثم السور حيث اختفوا.

واسترسلت غريمتى فى الشتم والتوبيخ، أما أنا فما وصلت إلى الممر حتى انحنيت لألتقط بعض الكريات التى كانت تتدحرج على الأسنة الذهبية، وقد تملكتنى رغبة حانقة فى أن أفتك بجيشها كله. ولم تركن الفتاة إلى السكوت، بل انقضت علىَّ وصفعتنى صفعة امتلأ رأسى من جرائها طنينًا. ولما كنت قد سمعت الناس يقولون إن الصبى لا يرد على صفعة البنت إلا بقبلة عارمة، فقد أمسكت الفتاة من أذنيها وقبلتها مرارًا. فصرخت صرخة مدوية، فزعت لها، وتركتها تنصرف إلى حال سبيلها: وكان فى ذلك خير لى، لأننى فى تلك اللحظة غفلت عما كنت أتعرض له، فهذه هى الأرض قد بدأت ترتج وتصطك تحت قدمى، وهذه هى الحواجز قد تحركت من أماكنها، ولم يكن لدى وقت للتفكير والتدبير، ولم يكن فى مقدورى أن أضع قدمى حيث أستطيع الفرار، وخشيت أن أعاقب بالخازوق بين لحظة وأخرى، لأن الرماح انتصبت ومزقت ملابسى. والخلاصة أننى لم أكن أعرف ما يحدث لى، وقد زاغ سمعى وبصـــرى، ولم أفق من تيهى ومن فزعى إلا عند جذع شجرة زيزفون قذفنى إليه الحاجز عندما انتقض من مكانه. وما أفقت إلى نفسى حتى تحركت فىَّ نزعة الشر، وأخذت تتعاظم وتشتد عنفًا عندما سمعت غريمتى عن بعد تضحك وتوجه إلى كلمات تعبر عن التهكم والسخرية، ولا بد أنها قد انطرحت

أرضًا إلى الناحية الأخرى، ولكن على نحو أخف. ولهذا هببت واقفًا. فرأيت الجيش الصغير مشتتًا، وفيه قائده أخيل، وقد قذفه الحاجز معى إلى هذه الناحية. فأمسكته ورميت به صوب شجرة، وسعدت سعادة فائقة عندما عاد إلى الحياة ولاذ بالفرار، لأن نزعة التشفي التي تملكتنى أتاحت لى أن أرى أظرف منظر فى الدنيا، وخطر ببالى أن ألقى وراء أخيل بباقى الإغريق جميعًا، وأوشكت أن أفعل. عندما رأيت المياه الهادرة تنهمر من كل حدب وصوب، من الصخور والأسوار، من الأرض ومن فروع الشجر، ومن كل جهة توجهت إليها، رأيتها تتدفق نحوى متواصلة، متقابلة تصطك وتحدث خريرًا. وسرعان ما تشبع ثوبى الخفيف بالماء كل التشبع، وكان ثوبى قد تمزق فنزعته عن جسمى، وألقيت بحذائى الخفيف بعيدًا، وهكذا تخففت من كل ما كنت أرتديه شيئًا فشيئًا، وبدأت أنعم فى ذلك اليوم الحار بتيار متدفق غمرنى رحبت به، وظننت أننى سأنعم به إلى حين. وخفت حرارة غضبى، وأصبحت لا أتمنى شيئًا من التصالح مع غريمتى الصغيرة.

وفجأة كفت المياه عن الانهمار، ووقفت مبتلا على أرض تشبعت بالماء وإذا بـــرجل مسن يقبل نحوى، فلم أرحب قط بمقدم إنسان على غير انتظار، وتمنيت لو استطعت الاختفاء عن الأنظار أو ستر عورتى على الأقل. واضطرنى الخجل والارتعاد والسعى إلى الالتحاف بأى شيء إلى الظهور في صورة مؤسفة إلى أقصى حد؛ وانتهز الشيخ اللحظة ليكيل لى اللوم أشد اللوم، فصاح فى قائلاً: "ما الذى يمنعنى من أن أتناول حبلاً من الحبال الخضراء وأنهال على رقبتك أو ظهرك".

ووقع هذا التهديد منى موقعًا سيئًا أشد السوء، وصحت فيه قائلاً: "حذار من التفوه بهذه الكلمات، بل حذار من مجرد التفكير فى هذه الأفكار، فإنك إن فعلت ضعت أنت ومن تأتمر بأمرهن." فسألنى مكابرًا: "ومن أنت حتى يكون لك أن تتكلم؟" فقلت: "أنا واحد من أحباء الآلهة، فى يده الحكم فى أمر هذه الفتيات، فإما أن يتيح لهن أزواجًا لائقين فيعشن معهم حياة سعيدة، وإما أن يسلمهن للمعاناة والهرم فى ديرهن السحري الذى يقمن فيه حتى النهاية". وتراجع الشيخ بضع

خطوات، وسألنى مندهشًا ومرتابًا: "ومن الذى أوحى إليك بهذا؟" فقلت: تلقيت الوحى من ثلاث تفاحات، من ثلاث جواهر. وصاح فى قائلاً: "وما هو الأجر الذى تطلبه لقاء ذلك؟" فأجبته قائلاً: "أريد أولا وقبل كل شىء آخر هذه المخلوقة الصغيرة التى وضعتنى فى هذا الموقف اللعين" وركع الشيخ أمامى دون أن يخشى الأرض التى كانت لا تزال مبتلة موحلة، ثم وقف دون أن يصيبه شىء من البلل، وأمسك بيدى فى مودة، وأخذنى إلى القاعة نفسها، وكسانى بسرعة من جديد، وسرعان ما أصبحت كمـــا كنت، أنيق المظهر مصفوف الشعر، ولم ينطق البواب بكلمة أخرى، ولكنه – قبل أن يدعنى أتجاوز العتبة – أوقفنى ونبهنى إلى بعض الأشياء عند السور وراء الطريق، ثم أشار فى الوقت نفسه إلى الباب الصغير من خلفه. وفهمت مقصده تمامًا: كان يريد أن يقول لى إن علىّ أن أسجل الأشياء فى ذاكرتى حتى أستطيع أن أعثر على الباب الصغير مرة أخرى دون أن يلتبس على أمره، وانقفل الباب من خلفى دون أن أفهم لذلك سببًا. ووعيت كل ما كان أمامى، كانت فروع أشجار بندق عتيقة ترتفع من فوق جدار عالٍ، وتغطى جزءًا من الإفريز الذى ينتهى به الجدار، أما الأغصان فكانت تصل إلى لوحة حجرية تبينت إطارها الزخرفى، ولكننى لم أستطع أن أقرأ الكتابة المنقوشة عليها. كانت اللوحة ترتكز على قاعدة تجويف فى الجدار، اتخذت فيه نافورة فنية ينساب الماء فيها من صحن إلى صحن ليصل إلى حوض فى الأرض على هيئة البركة الصغيرة. وكانت النافورة والكتابة المنقوشة وأشجار البندق مركبة بعضها فوق بعض: ولكم وددت لو استطعت رسمها كما رأيتها.

ومن الممكن أن نتصور فى يسر كيف أمضيت تلك الأمسية، وأيامًا بعدها، وكيف كنت أردد هذه الحكايات التى لم أكن أنا نفسى أكاد أصدقها. وما سنحت لى فرصة حتى ذهبت إلى السور اللعين، على الأقل لكى أوقظ فى ذاكرتى ما خبا من علامات، وأتطلع إلى الباب النفيس. وكم كانت دهشتى عندما وجدت كل شىء قد تغير. كانت أشجار البندق حقيقة تبرز من فوق السور، ولكنها لم تكن تجاور بعضها البعض، وكانت هناك لوحة فى البناء، ولكنها كانت بعيدة عن أشجار البندق إلى اليمين، دون زخرف، وكانت الكتابة المنقوشة قابلة للقراءة، كان التجويف ذو النافورة بعيدًا إلى اليسار، ولم تكن النافورة تشبه فى شىء النافورة التى كنت قد

رأيتها حتى كدت أعتقد أن المغامرة الثانية حلم كالمغامرة الأولى، فلم يكن هناك أدنى أثر للباب الصغير. لم يعزينى إلا بشىء واحد هو ملاحظتى أن الأشياء الثلاثة كانت على ما يبدو تغير مكانها على الدوام، فقد ظننت فى زياراتى المتكررة للمنطقة أننى لاحظت أن أشجار البندق تتقارب بعضها من البعض الآخر، وأن اللوحة والنافورة كانتا على ما يبدو تقتربان أيضًا. وأغلب الظن أن الباب سيظهر من جديد عندما تتلاقى هذه الأشياء على خط رأسى مرة أخرى، وسأفعل كل ما أستطيع لأستأنف مغامرتى ولست أعرف هل لى أن أحكى لكم ما حدث لى بعد ذلك أم أنه قد حرم على تحريمًا؟

* * *

وحظيت هذه الحكاية – التى عقد أترابى العزم أصدق العزم على التثبت من صدقها – بالاستحسان الشديد، فذهبوا فرادى، دون أن يكاشفونى أو يكاشفوا الآخرين بمقصدهم إلى المكان المرسوم، ووجدوا أشجار البندق واللوحة والنافورة، ولكنهم وجدوها بعيدة بعضها عن البعض الآخر لا تتقارب، ولقد تحدثوا فى النهاية عما رأوا، لأن الإنسان فى تلك السنوات من عمره لا يحب كتمان الأسرار، فذكر لى أحدهم أن الأشياء لم تتحرك من موضعها، وظلت متباعدة لا تتقارب، وأكد لى الثانى أنها تحركت ولكنها تباعدت ولم تتقارب، واتفق الثالث مع الثانى فى تأكيد حركة الأشياء، ولكنه ذهب إلى أنها تقاربت ولم تتباعد، وادعى الرابع أنه رأى ما هو أكثر غرابة: رأى أشجار البندق فى الوسط ورأى النافورة واللوحة على جانبها ولكن كل منهما كان فى ناحية غير التى ذكرتها. كذلك اختلفت آراؤهم حول الباب الصغير. وهكذا قدموا إلى مثلا مبكرًا على أن الناس يذهبون فى أمر الموضوع الواحد البسيط الذى يسهل فهمه ومناقشته مذاهب متعارضة يؤكدونها تأكيدًا.

فلما امتنعت فى إصرار عن إكمال الحكاية ألحوا على أن أعيد عليهم هذا الجزء الأول، وتكرر إلحاحهم، فاستجبت لهم، وحرصت على ألا أغير كثيرًا فى الموقف، فأصبحت الخرافة الحقيقية فى نفوس المستمعين، لأننى سرت فى روايتها على منوال واحد.

وجدير بالذكر أننى كنت أنفر من الكذب والتخريف، كذلك لم أكن صبيًا أرعن بحال من الأحوال، بل على العكس، كان الجد الكامن فى أعماقى، والذى كنت آخذ به نفسى منذ وقت مبكر وأنا أتأمل ذاتى والعالم من حولى، يلوح على مظهرى، وكان الناس يتحدثون فى ود أحيانًا، وفى سخرية أحيانًا أخرى، عن نوع من المهابة كنت ألزمه. وعلى الرغم من أننى لم أكن أفتقر إلى صفوة من خيرة الأصدقاء فقد كانت جماعتنا صغيرة كالأقلية بالقياس إلى أغلبية تتكون من أولئك الذين كانوا يجدون متعة فى اللجوء إلى الغلظة عند التصدى لنا، ويتوسلون بوسائل خشنة ليوقظونا من تلك الأحلام الناعمة التى كان يحلو لنا أن نذوب فيه، أنا بإبداعى وأترابى بمشاركتهم وأدركنا أنه ينبغى علينا، بدلاً من الاستسلام إلى النعومة والمتع الخيالية، أن ندرب أنفسنا على الصلابة حتى نتحمل ما لا فكاك منه من أذى، أو نتجاوز التحمل إلى التصدى له.

وهكذا كان احتمال الآلام الجسمانية من بين التدريبات الرواقية(٥٣) التى مارستها بأكثر ما يستطيع الصبى من الجدية، فكثيرًا ما كان مدرسونا يعاملوننا بغلظة شديدة وخشونة فظة، فيضربوننا ويلكزوننا، وكنا نواجه الأذى فنزيد من صلابتنا وقوة تحملنا، لأن المقاومة أو الرد كانا من الأمور المستهجنة المقيتة. ويعتمد الكثير من عبث الصبية على التنافس فى تحمل مثل هذه الآلام. فيتبادل الصبية الضرب بإصبعين أو باليد كلها إلى أن تفقد الإحساس، أو يتحمل الصبى الضرب الذى يحكمون به عليه فى بعض الألعاب فيظل صابرًا رابط الجأش، أو يتحمل الصبى – عندما يغلب فى غريمه فى المصارعة أو العراك – قرص المغلوب له، فلا يدع هذا القرص يشتت ذهنه، أو يكتم للصبى آلامه التى يحدثها فيه عبث الآخرين، أو يصبر على الدغدغة وكأنها لا تحرك فيه ساكنًا والصبى الذى يحتمل الآلام يحقق تفوقًا كبيرًا لا يمكن للآخرين أن يجردوه منه بسرعه.

ولما كنت قد جعلت من معاندة الآلام على هذا النحو ما يوشك أن يكون مذهبى فى الحياة فقد تسبب ذلك فى زيادة استفزاز الآخرين لى. ولقد تجاوزوا حدود البشاعة، فأخرجونى عن حدودى. وسأكتفى برواية حادثة واحدة من حوادث

كثيرة تعرضت لها. كان المدرس قد غاب عن الفصل ساعة، فاسترسلنا نحن الصغار فى حديث ودى، طالما كان أصدقائى الطيبون معنا. فلما انصرف عنى الصبية الأخيار بعد طول انتظار، وبقيت وحدى مع ثلاثة من الأشقياء، فقد فكر هؤلاء فى أن يؤذونى ويخجلونى ويطردونى وتركونى لحظة وحدى فى الفصل، ثم عادوا يحملون العصى التى اتخذوها بسرعة من مقشات مهملة. وعرفت نيتهم، وكنت أعتقد أن جرس الحصة سيدق بعد قليل، فقررت تلقائيًا ألا أقاومهم حتى يدق الجرس وتنتهى الحصة. وأخذ الصبية يضربونى ضربًا مسرفًا فى البشاعة على ساقى ورجلى، لا تأخذهم بى شفقة أو رحمة. وظللت ساكنًا لا أتحرك، وما لبث أن تبينت أننى أخطأت الحساب، وأن الآلام التى حاقت بى أطالت الدقائق الباقية من الحصة إطالة مسرفة، وكلما أطلت صبرى، تعاظم حنقى، حتى إذا دق الجرس دقته الأولى، اندفعت إلى أحد الصبية، وكان أقلهم توقعًا لردى، وأمسكت بشعره المتدلى على قفاه، وطرحته أرضًا بلكزة من ركبتى فى ظهره، واتجهت إلى الثانى الذى كان يهاجمنى من الخلف، وكان أصغر سنًا وأكثر ضعفًا، فطوقت رأسه بذراعى وشددته إلىَّ حتى كدت أخنقه، وبقى الثالث، ولم يكن أضعف، وكانت يدى اليسرى هى وسيلتى الوحيدة للدفاع عن نفسى، فأمسكت بثيابه، وتحركت حركة بارعة، بينما تحرك هو حركة متعجلة، فطرحته أرضًا، ومرغت وجهه فى الأرض ورد الصبية بالعض والخمش والضرب بالأرجل، ولكننى لم آبه لذلك لأن الانتقام كان صادرًا من عقلى لا من بدنى، ثم إننى كنت متفوقًا عليهم، فأمسكت بهم وضربت رؤوسهم بعضها فى البعض الآخر حتى رفعوا عقائرهم بالصراخ الهائل، وأتى كل من بالدار فأحاطوا بنا. وشهدت العصى المبعثرة لصالحى، كما شهدت ساقاى اللتان خلعت عنهما الجوارب، ولكن الكبار توعدونى، على الرغم من ذلك، بالعقاب، وأخرجونى من الدار، وأعلنت على الملأ أننى لن أتورع فى المستقبل عن فقء عين من يهيننى – سواء كان واحدًا أو أكثر من واحد – بل سأقطع أذنيه وأخنقه خنقًا.

وأيا كان أمر هذه الحادثة التى نسيتها شأنها شأن الأحداث الصبيانية الأخرى، أو أصبحت أضحك منها، فإنها كانت السبب فى أن تلك الدروس الجماعية التى رتبت لنا مع الصبية قلت شيئًا فشيئًا حتى توقفت فى النهاية تمامًا. وعدت إلى المنفى فى البيت كما كنت، حيث وجدت فى أختى كورنيليا، التى تصغرنى بعام واحد، أنيسة لطيفة تزداد مع الأيام لطفاً.

ولا أود أن أترك هذا المقام دون أن أروى بعض الحكايات عن بعض المكاره التى تعرضت لها على يدى أترابى، والدرس الذى نخرج به من هذه الحكايات التى تتصل بالناحية الأخلاقية فى الإنسان، هى أنها تتيح لنا أن نعرف ما قد جرى للآخرين وما ينتظرنا فى الحياة، وأن علينا أن نفكر فى أن هذه الأمور تجرى علينا لأننا بشر، وأنها لا شأن لها بالحظ أو النحس. فإذا لم نفد من هذه المعرفة شيئًا يعيننا على اجتناب الشر، فإنها ستنفعنا يقينًا نفعًا كبيرًا فى التعرف إلى المواقف وتصورها واحتمالها والتغلب عليها.

وثمة ملاحظة عامة أخرى أرى أن هذا المكان يناسبها، وهى أن الأولاد الذين ينتمون إلى الطبقات المهذبة يواجهون فى أثناء نموهم تناقصًا كبيرًا، وأعنى بهذا التناقص أن آباءهم ومعلميهم يحضونهم على أن يسلكوا سلوكًا معتدلاً حكيمًا عاقلاً، وعلى ألا يحدثوا بأحد أذى من عمد أو سرف، وأن يكتبوا كل التصرفات الكريهة. وبينما الأولاد يسلكون هذا السلوك إذا بهم يعانون من الآخرين الأشياء التى لو فعلوها لتعرضوا للتوبيخ والاستهجان الشديد. وهكذا يقع الأولاد المساكين فى مأزق مؤسف، بين نزعة الطبيعة ونزعة الحضارة، ويتحولون، بحسب شخصيتهم، إما إلى الخبث وإما إلى الهياج العنيف، إذا تحملوا إلى حين.

والعنف لا يقصيه على الأحرى إلا العنف. ولكن الصبى الطيب الميال إلى الحب والتعاطف لا يعرف كيف يواجه الاستهجان وسوء النية فى أقل الحالات. وإذا كنت قد استطعت إلى حد ما أن أوقف أعمال رفاقى، فإننى عجزت عن التصدى لكلامهم القارص وحديثهم القبيح، ومن يقف موقف المدافع نفسه يخسر

حتمًا. كنت أتصدى لمثل هذه الهجمات، إذا أثارت حفيظتى، بالقوة الجسمانية، وإن كان من بين هذه الهجمات ما دفعنى إلى التأمل، وكانت تأملاتى عجيبة مثمرة. كان الحاقدون ينكرون علىَّ من بين امتيازاتى أننى كنت أنعم بظروف ترجع إلى ما عاد على أسرتى من شغل جدى لمنصب العمدة: فقد كان جدى صاحب المركز الأول بين أقرانه، وكان لهذه الرفعة أثرها على أهله وذويه. وحدث ذات مرة، بعد انعقاد محكمة الزمارين، أننى - على ما يبدو - تصورت جدى على رأس مجلس المحلفين، يحتل درجة أسمى من درجات الآخرين، وتخيلته جالسًا على ما يشبه العرش تحت صورة القيصر. وهنا قال لى أحد الصبية ساخرًا: إن على أن أفعل كالطاووس الذى ينظر أيضًا إلى رجليه، بل أن أنظر أيضًا إلى جدى لأبى فما كان إلا صاحب حانة ڤايدنهوف، وما كان يطمح فى عروش أو تيجان. فرددت عليه قائلاً إننى لا أجد فى ذلك ما يخجلنى بحال من الأحوال، لأن الشىء العظيم الجليل فى مدينـــتنا يتمثل فى أن المواطنين جميعًا لهم الحق فى اعتبار أنفسهم سواسية، وأن لكل منهم أن يتوسل بجهده وكده إلى التقدم والرفعة. وقلت إننى آسف لأن الرجل العظيم قد مات منذ وقت طويل، لأننى طالما تمنيت أن أراه وأن أتحدث إليه، وكثيرًا ما تأملت صورته، ووقفت على قبره، وسعدت بالكتابة المنقوشة على القبرية، على ذلك الأثر البسيط الذى بقى بعد حياته التى أرى حياتى مدينة لها.

وانتحى أكثر الحادقين خبثًا بالحاقد الأول جانبًا، وهمس فى أذنه بشىء ونظر كلاهما إلىَّ شذرًا. فاشتد بى الغيظ، وطالبتهما بأن يرفعا صوتيهما. فقال الأول: "هه. أنت وشأنك. مادمت تريد أن تعرف لقد قال لى هذا الصبى إنه ينبغى عليك أن تلف وتدور وتبحث وتتقصى لكى تعرف جدك الحقيقى" وهددتهما وتوعدتهما بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يعبرا بوضوح عما يريدان قوله. فخرجا علىَّ بحكاية ادعيا أنهما سمعاها سرًا من ذويهما، وخلاصتها أن أبى الحقيقى ابن رجل من العظماء وأن هذا المواطن الطيب الذى أظنه جدى قَبِلَ أن يقوم شكليًا مقام الأب الشرعى. وأفحش الصبيان فحشًا بعد فحش فقدما إلى الكثير

من الحجج والأسانيد من بينها مثلا أن ما اجتمع لنا من ثروة أتت إلينا من الجدة وحدها، وأن أقاربنا الآخرين الذين يعيشون فى فريد برج وغيرها لا حظ لهم من ثراء، وذكروا أسبابًا أخرى لا تستند إلا إلى سوء النية وخبث الطوية. وأنصت إليها فى هدوء يفوق ما كانا يتوقعان، ورأيت أنهما يتأهبان للفرار عندما تبدو علىَّ أول بادرة للإمساك بشعرهما. ورددت عليهما فى تأن وتؤدة قائلاً إننى لا أجد فى كلامهما غضاضة، وإن الحياة فى حد ذاتها جميلة جمالاً يستوى معه أن يكون هذا الرجل أو ذاك هو الذى أنجبنا وأخرجنا إليها، لأن واهب الحياة أصلاً هو الله، ونحن أمامه سواسية. هكذا بهتا، وتركا الموضوع وشأنه وقد أدركا أنهما لن يبلغا فيه شيئًا واستأنفنا لعبنا معًا. وسيظل اللعب دائمًا وسيلة التصالح الأكيدة لدى الأطفال.

إلا أن هذه الكلمات الخبيثة أصابتنى بنوع من المرض الأخلاقى تغلغل فى كيانى فى سكوت شيئًا فشيئًا. فذهبت فى تفكيرى إلى أننى لا يجب أن أجد غضاضة فى أن أكون حفيد رجل من العظماء حتى وإن لم يكن ذلك فى إطار الشرعية المطلقة. وتحركت نزعتى إلى الاستقصاء فى هذا الاتجاه، وتأجج خيالى وانشحذ حسى.

فبدأت أفحص المعلومات التى ذكرها لى الصبيان، وجمعت أو اختلقت أسبابًا جديدةً تدعم هذا الاحتمال. حدثت نفسى بأننى لم أسمع عن جدى إلا القليل، ولم أعلم من أمره إلا أن صورته وصورة جدتى كانتا معلقتين فى حجرة من حجرات الضيوف بالبيت القديم، فلما ابتنى البيت الجديد، حفظت الصورتان فى حجرة من الحجرات العلوية. وأغلب الظن أن جدتى كانت فى صباها امرأة رائعة الجمال، وأنها كانت فى مثل سن جدى. كذلك تذكرت أنى رأيت فى حجرة جدتى صورة مصغرة لرجل وسيم يلبس حلة رسمية ويتحلى بنجمة ووسام، وقد ضاعت هذه الصورة مع أشياء صغيرة أخرى بعد وفاتها، فى أثناء عملية تعديل بناء البيت التى قلبت كل شىء رأسًا على عقب. وهكذا جمعت هذه الأشياء وغيرها فى رأسى

الصبيانى، ومارست فى وقت جد مبكر تلك الموهبة الشعرية الحديثة التى تسعى إلى الاستحواذ على مشاركة العالم المتحضر كله عن طريق ربط أحوال الحياة الإنسانية المهمة برباط المغامرة.

ولما لم أكن أجرؤ على البوح بهذا الموضوع إلى أحد، أو حتى على مجرد السؤال من بعيد، فقد عكفت على العمل فى السر لعلى أقترب من الحقيقة. وكنت قد سمعت النـــاس يؤكدون أن الأبناء كثيرًا ما يشبهون آباءهم أو أجدادهم شبهًا واضحًا لا لبس فيه. وكان العديد من أصدقائنا، وبخاصة المستشار (شنايدر)(٥٤)، صديق العائلة، على علاقة عمل بكل أمراء وأشراف المنطقة المجاورة، سواء منهم الحاكمون أو أبناء الحاكمين وهم كثرة فى منطقة نهر الراين ونهر الماين، وما بينهما، وكان هؤلاء الأمراء والأشراف يعبرون للمستشار شنايدر، القائم بأعمالهم على خير وجه، عن رضائهم بأن يهدوه صورهم. ولقد رأيت هذه الصورة منذ نعومة أظفارى مرارًا معلقة على الحيطان، فعدت أتفرس فيها وأتفحصها باهتمام مضاعف، باحثًا فيها عن سمة شبه بأبى أو بى أنا. وكان ما وجدته من سمات الشبه شيئًا كثيرًا حالت بينى وبين اليقين. وقفت تارة عند عينى هذا وتارة عند أنف ذاك، وظننت أن هذه أو تلك توحى بشىء من القرابة. وهكذا راحت بىَّ هذه السمات وجاءت مضللة لى هنا وهناك. وعلى الرغم من أننى انتهيت فى آخر المطاف إلى اليقين من أن كلام الصببيين كان خرافة محضة، فقد ظل الانطباع عالقًا فى ذهنى، ولم أستطع فيما بعد أن أمنع نفسى من العودة من حين لآخر إلى النظر فى سكون، عندما أخلو إلى نفسى، إلى وجوه هؤلاء العظماء الذين ارتسمت صورهم فى خيالى واضحة جلية، وأدقق تدقيقًا. والحقيقة أن كل هذه الأشياء التى تدعم فى الإنسان أوهامه، وترضى غروره الكامن، أشياء تهش إليها نفسُه وتحبها كل الحب، حتى إنه لا يسأل عما إذا كانت تشرفه أو تزريه على نحو ما.

وبدلاً من أن أخلط هنا تأملات طابعها الجد وتأملات طابعها اللوم، أفضل أن أصرف النظر عن هذه الأوقات الجميلة: فمن هذا الذى أوتى القدرة على أن يتحدث

الحديث المناسب عن ثراء الطفولة. إننا لا نستطيع أن ننظر إلى المخلوقات الصغيرة التى تسير حوالينا بإحساس غير السرور أو الإعجاب: فهم فى أغلب الأحيان يعدون بأكثر مما يوفون، ويبدو أن الطبيعة فيما تلعبه بنا من ألاعيب ماكرة أخذت على نفسها أن تلعب بنا فى أمر الأطفال لعبتها الكبرى. فالوسائل التى تمنحها الطبيعة للأطفال عندما ينزلون إلى الدنيا تتفق مع الوضع القريب المباشر للمخلوق والطفل يستخدمها بلا تصنع وبلا تطلع إلى أهداف بعيدة استخدامًا عظيم المهارة لتحقيق أهدافه. والطفل، إذا نظرنا إليه فى حد ذاته، مع أترابه، وفى علاقاته المطابقة لإمكاناته، يبدو صاحب فهم وصـــاحب عقــل إلـــى درجة فائقة لا تعلوها أخرى، ويبدو فى الوقت نفسه طليقًا باشا حاذقًا، لا يراه الإنسان حتى يتمنى له المزيد من النماء. ولو نما الأطفال على النحو الذى تبدو عليهم بوادره، لصاروا جميعًا من العباقرة. ولكن النمو ليس مجرد تطور، فالأجهزة العضوية المختلفة التى تكوِّن إنسانًا ما، تتباعد وتتابع ويغيرٌ بعضها البعض، وينبذ بعضها البعض، بل يلتهم بعضها البعض، فلا يكاد يبقى بعد حين من الزمن أثر لبعض القدرات والإمكانات. وعلى الرغم من أن المواهب الإنسانية تتخذ فى مجموعها اتجاهًا معينًا محددًا، فإن أكبر العلماء وأكثرهم خبرة وحنكة يصعب عليهم أن يتنبأوا لك بما ستكون عليه فى المستقبل يقينًا، ولكن الإنسان عندما يكبر ويعود بذاكرته إلى الوراء يستطيع أن يتبين الأشياء التى كانت تنبئ بما حدث فيما بعد.

ولست أنوى بحال من الأحوال أن أختم فى هذه الفصول الأولى الحديث عن ذكريات الصبا نهائيًا بل سألتقط فيما بعد الخيوط التى مرت بسنوات صباى الأول خفية، لأستكملها. وأرى لزامًا على فى هذا المقام أن أذكر الأثر الكبير الذى أحدثته الحرب فى أفكارنا وأسلوب حياتنا.

والمواطن الهادئ تقوم بينه وبين أحداث العالم الكبيرة علاقة عجيبة. فهى تثيرة من بعيد، وتقلقه. ولا يستطيع – حتى إن لم تكن هذه الأحداث تمسه – أن يمنع نفسه من الحكم عليها والمشاركة فيها. وسرعان ما يدخل فى حزب من

الأحزاب بحسب مزاجه أو بحسب الظروف الخارجية. فإذا اقتربتَ منه الأحداث المصيرية والأحداث المهمة، فإن قلقه الداخلى إزاء بعض المنغصات الخارجية يظل قائمًا أو يتضاعف، وكثيرًا ما يدعم الشر، وينسف الخير الذى كان حتى ذلك الحين ممكنا. وينتهى الأمر به إلى حيث يعانى من الجميع، من الأصدقاء أكثر من الأعـــداء، ولا يعــرف السبيل لا إلى الحفاظ على وجهته ولا إلى الحفاظ على صالحه.

وهكذا قضينا عام ١٧٥٧ فى سكينة برجوازية كاملة، ولكننا كنا على الرغم من ذلك نعانى من توتر نفسى كبير. ولم يكن هناك. فيما أعتقد، عام امتلأ بالأحداث مثلما امتلأ هذا العام، ففيه تلاحقت الانتصارات، والأحداث المهمة والمآسى ومحاولات التصحيح، وتشابكت، وبدا عليها كأنها تلغى بعضها بعضًا. ولكن صورة فريدريش واسمه، أو باختصار شهرته، ظلت قائمة فى مكانها العالى. وتعاظم حماس المعجبين به، واشتد قوة، كما زادت كراهية أعدائه له مرارة، وأسهم اختلاف الرأى حوله، وقد شطر العائلات نفسها، إسهامًا غير قليل فى زيادة عزلة المواطنين الذين كانوا من قبل منفصلين بعضهم عن البعض على هذا النحو أو ذاك. ففى مدينة مثل فــرنكفورت، حيث تقسم أديان ثلاثة الأهالى إلى ثلاث طوائف متفاوتة(٥٥)، وحيث لا يصل إلى المناصب الحكومية، حتى من بين علية القوم، إلا القليل من الرجال، نجد حتمًا نفرًا من الأغنياء وأرباب العلم والخبرة يعتزلون الناس ويصنع الواحد منهم لنفسه بدراسته وهواياته حياته الخاصة المنعزلة. وسأتحدث الآن عن عدد من هؤلاء، وسنعود فيما بعد إلى الحديث عنهم عندما أتعرض لتصوير السمات الخاصة المميزة للمواطن الفرنكفورتى فى ذلك العصر.

كان أبى، بعد أن عاد إلى فرنكفورت من رحلاته، قد فكر، بناء على ميوله الخاصة، فى أن يتيح لنفسه فرصة لخدمة المدينة بأن يتولى منصبًا من المناصب الثانوية، وعرض على أصحاب الحل والعقد أن ينزل عن الراتب إذا منحوه المنصب دون التجاء إلى القرعة. وكان يعتقد، انطلاقًا من فكره الخاص ومن صورته عن ذاته، ومن يقينه من نيته الخالصة، أنه يستحق هذا التقدير الذى لم

يجر به حتى ذلك الحين قانون أو عرف. فلما رفض طلبه تملكه الغضب والحنق، وأقسم على ألا يتولى منصبًا أيا كان هذا المنصب أبدًا، ولكى يقفل الطريق على مثل هذا المنصب حصل على لقب مستشار قيصرى، وهو اللقب الذى كان العمدة وقدامى المحلفين يحملونه كألقاب شرفية خاصة. ذلك أنه، وقد حصل على هذا اللقب، وضع نفسه فى مصاف أصحاب المناصب العليا، ولم يعد من الممكن أن يبدأ من تحت، من المناصب الدنيا. ودفعه السبب نفسه إلى الزواج بالابنة الكبرى للعمدة، وبهذا سد على نفسه من هذه الناحية أيضًا السبيل إلى دخول المجلس. وهكذا دخل فى عداد المعتزلين الذين لم يكونوا بحال من الأحوال يكونون جماعة مؤتلفة، بل كانوا يقفون بعضهم من البعض الآخر ومن المجموع موقف المعتزلة، وبخاصة لأن سمة الذاتية تزداد حدة فى هذه العزلة. ولا بد أن أبى كون لنفسه فى أثناء رحلاته وفى ربوع العالم الحر الذى رآه تصورًا عن أسلوب للحياة أكثر تحررًا وأناقة، ربما لم يكن مألوفًا لمواطنيه، وإن سبقه إلى مثل ذلك التصور آخرون، وشاركه الرأى فى وقته عدد من الناس.

واسم (فون أُوفبناخ) اسم معروف. وكان أحد المحلفين ممن يحملون هذا الاسم يعيش فى زماننا، وكان رجلا له مكانته المرموقة. كان قد أقام حينًا فى إيطاليا وشغف بالموسيقى ودرب صوته على الغناء بصوت التينور الجميل، وأتى معه بمجموعة طيبة من النوتات والآلات الموسيقية، وحرص على إقامة حفلات للمعزوفات والأناشيد الموسيقية. وكان يغنى فيها بنفسه، ويرعى الموسيقيين ويحابيهم، وكان الناس يرون أن مسلكه هذا ينتقص من كرامته، وكان ضيوفه وغيرهم من الأهالى يسمحون لأنفسهم بالسخرية منه والتعليق على تصرفاته بتعليقات مضحكة.

كذلك أذكر فى هذا المقام البارون (فون هِيكل)، وكان واحدًا من النبلاء الموسرين، تزوج ولم يرزق أولادًا وكان يقيم فى بيت جميل فى حارة أنطونيوس، أثثه بكل ما يلزم للحياة الرفيعة الكريمة من أثاث، وكان يمتلك مجموعة من

اللوحات الفنية الجيدة والرسوم التى رسمت بالحفر عى النحاس، ومجموعة من الأشياء الأثرية وأشياء أخرى يحبها هواة المجموعات وأصحاب التحف. وكان من حين لآخر يدعو علية القوم إلى الغذاء، وكان كريمًا يسلك فى كرمه مسلكًا خاصًا جديرًا بالتقدير، فكان يدعو الفقراء إلى بيته فيكسوهم، ويأخذ أسمالهم البالية، وينقدهم صدقات أسبوعية، ويشترط عليهم أن يأتوا إليه لاستلامها لابسين الملابس النظيفة المهندمة التى أعطاهم إياها. وإذا لم تكن تفاصيل صورة الرجل قد بقيت واضحة فى ذهنى، إلا أننى لا أزال أذكره رجلاً لطيف الشمائل، واسع الثقافة. ولكننى أذكر بوضوح المزاد الذى كان يقيمه، وكنت أحضر هذا المزاد من بدايته إلى نهايته، وأشترى – تارة بأمر من أبى، وتارة من تلقاء نفسى – أشياء ما زالت فى مجموعاتى.

واشتهر فى فرنكفورت من قبل، فى وقت لم أشهد إلا أواخره، (يوهان ميشائل فون لون)، كان اسمه ذائعًا فى عالم الأدب فى فرنكفورت، وإن لم يكن من مواليد هذه المدينة، ولكنه نزح إليها وأقام فيها، وتزوج أخت جدتى تكستور، وكان اسمها قبل الزواج (لينهايمر)، كان يوهان ميشائل فون لون معروفًا فى أوساط القصور، وبين رجالات الدولة، وكان يحمل لقبا من ألقاب النبلاء الجدد، وإنما ذاع صيته، لأنه كان رجلاً شجاعًا تدخل فى أحداث مختلفة جرت على الكنيسة والدولة، وله رواية اسمها "الجراف فون ريڤيرا" وهى رواية تعليمية، يتضح مضمونها من عنوانها الثانى وهو "أو الرجل الصدوق فى البلاط" لقيت قبولاً حسنًا، لأن التمسك بأهداب الأخلاق كان أمرًا مطلوبًا حتى فى القصور التى استأثرت المهارة على أسلوب الحياة فيها، ومن هنا استحسنوا كتابه وقدروه. ونشر كتابًا آخر جر عليه الوبال فيما بعد هو كتاب "الدين الحق الوحيد" أراد به تشجيع التسامح وبخاصة بين اللوتريين والكالڤينيين، فثار الجدل بينه وبين رجال اللاهوت، وكتب الدكتور (بينَّر) فى مدينة (جيسن) نقدًا شديد اللهجة، فرد عليه فون لون ردًا حادًا، واحتدم الصراع، واصطبغ بصبغة شخصية، وأدت السخافات التى تولدت عن هذا الصراع

إلى اضطرار فون لون إلى النزوح عن فرنكفورت، حيث قبل منصبًا رئاسيًا فى مدينة لينجن عرضه عليه فريدريش الثانى، وكان فريدريش يقدر فى هذا الرجل تنوره وتحرره من الحكام المسبقة وميله إلى نزعات التجديد التى حققت فى فرنسا تقدما أعظم بكثير مما حققته فى ألمانيا. وكان الرأى الشائع بين الفرنكفورتيين، مواطنيه القدامى الذين تركهم وفى قلبه شىء من غضاضة، أن الحياة لم تطب له فى لينجن وأنه لا يمكن أن يرضى نفسًا هناك، لأن لينجن لا تقارن بفرنكفورت بحال من الأحوال كذلك كان أبى يشك فى أن الحياة راقت لفون لون فى لينجن، وكان من رأيه أن هذا العم الطيب كان الأحرى به ألا يدخل فى رباط مع الملك، فهناك، بصفة أساسية خطورة عامة على الإنسان الذى يتقرب من هذا الملك مهما كان فذا، ولقد شهد الناس كيف عامل فريدريش الثانى ڤولتير فأهانه، وأمر المقيم البروسى فرايتاج فى فرنكفورت بأن يقبض عليه، وكان ڤولتير من قبل، ينعم بحظوة كبيرة لديه، وكان يعتبر معلم الملك فى الشعر الفرنسى[٥٦] ولم يكن أبى فى مثل هذه الظروف يتحدث فى إيجاز، بل كان يسهب فى عرض تأملاته وأمثلته ليحذر من القصور ومن خدمة الأمراء والملوك، وهى أمور ما كان الفرنكفورتى القح يستطيع أن يكون عنها صورة إلا فى أضيق الحدود.

وأود أن أنوه هنا برجل عظيم هو الدكتور (أورت) ولست هنا فى معرض إقامة نصب تذكارى للعظماء من أهل فرنكفورت. ولكنى أذكر منهم أولئك الذين أثرت فى شهرتهم أو شخصيتهم على نحو ما فى سنوات حياتى المبكرة. كان الدكتور أورت رجلاً من الأثرياء يدخل فى عداد أولئك الذين لم يشاركوا قط فى الحكومة على الرغم من أن علمه وآراءه كانت تؤهله لذلك. وآثار ألمانيا – وبخاصة فى منطقة فرنكفورت – تدين له بالكثير، فقد نشر "ملاحظات" على ما أسماه بـــ "الإصلاح الفرنكفورتى" وهو كتاب يعتبر سجلاً للتماثيل الموجودة فى منطقة فرنكفورت وقد درست الأبواب التاريخية فى هذا الكتاب دراسة جيدة فى سنوات صباى.

أما (فون أوكسنشتاين) – أكبر الإخوة الثلاثة الذين ذكرتهم من قبل فى حديثى عن جيراننا – فكانت له طريقته الخاصة فى الاعتزال، لم تظهر عجائبها فى حياته، بل بعد مماته، إذ ترك وصية طلب فيها أن يحمل بعض العمال جثمانه إلى القبر فى الصباح الباكر دون موكب أو مسيرة. وقد نفذت الوصية بالفعل، ولكن مسلك الرجل لاكته الألسن فى فرنكفورت حيث كان الناس معتادين على الجنازات الحافلة. وإنما ثار على هذه البدعة التى ابتدعها فون أوكسنشتاين كل أولئك الذين كانوا يحققون نفعًا تقليديًا من الموت وما يحيط به من ظروف. ولقد وجد هذا المواطن المرموق الجرىء لبدعته أتباعًا فى كل الطبقات أخذوا بها – وعلى الرغم من أن البعض تهكموا على هذا النوع من الجنازات وأسموها "جثث الثيران" نسبة إلى أوكسنشتاين وهى لفظة تعنى حرفيًا حجر الثيران – فإن هذا النوع من الجنازات انتشر وبخاصة فى أوساط الأسر قليلة الثراء، وقل الاهتمام بالجنازات الحافلة شيئًا فشيئًا. وأنا أذكر الموضوع، لأنه يمثل ظاهرة من الظواهر المبكرة لنزعات التواضع والمساواة التى لاحت بوادرها فى النصف الثانى من القرن الماضى على نحو ما فى الأوساط العالية وأحدثت آثارًا غير متوقعة.

كذلك لم تخل فرنكفورت من هواة الآثار، بل نشأت فيها متاحف تضم اللوحات الفنية، ومجموعات الصور المحفورة على النحاس، وحرص الهواة على جمع الآثار القومية خاصة، كانوا يجمعونها فى حماس ويحفظونها، كذلك كانوا يبحثون وينقبون عن الوثائق القديمة من لوائح ومراسيم خاصة بالمدنية لم تكن قد جمعت بعد، فجمعوها، سواء منها المطبوعة أو الخطية، ونظموها زمنيًا بحسب تواريخها، وأكبروها من حيث هى تراث للتشريع والتأصيل كذلك ضم المتحف قسمًا خاصًا وضعت فيه صور الفرنكفورتيين الكثيرة التى جمعوها هى أيضًا.

ويبدو أن أبى اقتدى بمثل هؤلاء الرجال، فلم تكن تنقصه صفة من صفات المواطن الحق المرموق الحريص على التراث. فما أتم بناء البيت، حتى قام هو

أيضًا بتنظيم مقتنياته المنوعة كل التنوع: كانت لديه مجموعة ممتازة من خرائط (شنك) وغيرها من اللوحات الجغرافية ذات القيمة الرفيعة فى ذلك الوقت، كذلك كانت لديه مجموعة من اللوائح والمراسيم التى أشرت إليها من قبل، ومجموعة من الصور، وخزانة تمتلئ بالأسلحة، وخزانة تضم قنينات زجاجية ڤينيسية عجيبة وأكوابا وكؤوسًا وأحجارًا وطرائف من العاج والبرونز ومئات من الأشياء الأخرى، رتبها كلها وعرضها على طريقة المتاحف. ولم أكن أتردد عندما تقام المزادادت فى أن أطلب إليه فى كل وقت أن يكلفنى بالذهاب إليها لزيادة مقتنياته الأثرية.

وثمة عائلة مرموقة أرى لزامًا على أن أنوه بها، وهى عائلة سمعت غرائب عنها منذ طفولتى الأولى، وشهدت بنفسى من بعض أفرادها تصرفات عجيبة، وأعنى بها عائلة (زنكنبرج). كان الأب رجلاً من الميسورين – ولست أعرف عنه غير ذلك إلا القليل – وكان له ثلاثة أبناء تميزوا فى صباهم بالغرابة؛ والإنسان الذى يسلك مسلكًا يتسم بالغرابة فى مدينة محدودة لا يجوز فيها لأحد أن يخرج على المألوف خيرًا أو شرًا لا يلقى من الناس استحسانًا، وتكون النتيجة فى أكثر الأحوال أنهم يطلقون عليه أسماء تهكمية ساخرة، ويبتدعون عنه حكايات عجيبة تظل زمنًا طويلاً عالقة فى الأذهان. كان الأب يسكن فى بيت على ناصية هازنجاسه – أى حارة الأرانب – التى اتخذت اسمها من رمز البيت المتمثل لا فى أرنب واحد بل فى ثلاثة أرانب. ولهذا أطلق الناس على الإخوة الثلاثة اسم الأرانب الثلاثة، وظل الاسم السخيف كنية لا يستطيعون إلى الخلاص منها من سبيل. وإذا كانت السمات للإنسان كثيرًا ما تظهر فى الصبا على هيئة عجيبة، فالإخوة الثلاثة يقومون شاهدًا على صحة هذه الملحوظة، فقد أصبح الأخ الأكبر فيما بعد مستشارًا إمبراطوريًا، ودخل الثانى فى سلك الإدارة وكانت له مواهبه الممتازة التى استغلها فيما بعد بالتلاعب على نحو مزر، إن لم يكن للإضرار بمدينته، فعلى الأقل للإضرار بزملائه. وكان الأخ الثالث طبيبًا، يتسم بالاستقامة كل الاستقامة، ولكنه

لم يكن يمارس الطب إلا قليلاً، ولا يمارسه إلا فى البيوتات المرموقة دون سواها، وكان يتخذ حتى شيخوخته المتأخرة هيئة عجيبة كان يتأنق فى ثيابه غاية التأنق، فلم يره أحد يسير فى الشارع إلا وهو يلبس الحذاء والجوارب، ويزين رأسه بباروكة ملفوفة الخصائل نثر عليها أفضل المساحيق، وتحت إبطه القبعة. وكان يسير بخطى سريعة متعجلة، ويتأرجح على نحو عجيب فى طريقه، فهو تارة على هذا الجانب من الطريق، وتارة على الجانب الآخر، يصنع بخطاه خطأ متلاحق الالتواء. وكان أصحاب الألسنة الساخرة يقولون عنه إنه يسعى بخطواته الملتوية إلى تفادى أرواح الموتى التى كانت تطارده فى خط مستقيم، وإنه يسلك مسلك أولئك الذين يخافون من أن يصادفهم تمساح فى الطريق. إلا أن هذا العبث الساخر والتقول المتهكم عليه تحول فيما بعد إلى احترام كبير له عندما أوقف على المدينة بيته الكبير بفنائه وحديقته وكل متعلقاته فى حارة (أيشنهايمر جاسه)، ليكون مؤسسة طبية فيها مستشفى خصص لمواطنى فرنكفورت وحدهم، وحديقة نباتات، ومتحف تشريح، ومعمل كيمياء، ومكتبة قيمة، ومقر للمدير، مؤسسة طبية تطاول أية أكاديمية لها احترامها.

وهناك رجل عظيم آخر كان لشخصيته ونشاطه حولنا ولمؤلفاته أيضًا تأثير مهم جدًا على، هو (كارل فريدريش فون موزر) الذى لا يزال الناس يذكرونه فى منطقتنا ويذكرون نشاطه الجم. كان رجلاً على خلق قويم، أرهقته عيوب الطبيعة البشرية على ما يبدو فدفعته أخلاقه إلى زمرة من يسمون بالأتقياء[٥٧]، وكان مثله مثل فون لون، يريد أن تقوم الحياة فى قصور الأمراء والحياة فى عالم الإدارة على مبادئ الأخلاق، فيتبع الناس أسلوبًا عامرًا بالضمير الحى. وكان عدد كبير من القصور الألمانية الصغيرة يأتلف من طائفة من السادة وطائفة من الخدم، السادة يطالبون بالطاعة المطلقة والخدم يطالبون فى أكثر الأحيان بألا يخدموا ويعلموا إلا طبقًا لقناعتهم وكانت النتيجة أن احتدم الصراع الدائم ونشبت تغيرات سريعة، وحدثت انفجارات لأن آثار العمل القهرى تظهر فى المجالات الصغيرة واضحة

ضارة بأسرع مما تظهر فى المجالات الكبيرة. وغرقت قصور كثيرة فى الديون، وعينت لها لجان ديون قيصرية، واقتربت قصور أخرى بخطى سريعة أو بطيئة من هذا المصير، فمن الخدم من حقق دون وازع من الضمير نفعًا لنفسه، ومنهم من تمسك بالضمير فأصبح ممجوجًا مكروهًا وقرر موزر أن يعمل فى سلك الدولة والإدارة، ومكنته موهبته الموروثة التى نماها إلى درجة الاحتراف، من تحقيق عائد أكيد. وكان فى الوقت نفسه يريد أن يكون له عمله حيث هو إنسان ومواطن، وألا يفعل شيئًا يمس كرامته ومبادئه الأخلاقية إلا فى أضيق حد ممكن. وتصور كتبه "سيد وخادم" و"دانييل فى عرين الأسد" "وآثار مقدسة الأوضـــاع التى كـــان يحس فيها، لا تقول بالعذاب، ولكن بالضيق. تشير كل هذه الكتب إلى اندفاع إنسان إلى موقف له ظروف لا يمكن للإنسان أن يتكيف معها، ولا يمكن له فى الوقت نفسه أن يتخلص منها وكان كارل فريدريش فون موزر يعبر عن أمور عاناها بنفسه؛ وكان يلتزم فى فكره وحسه ومسلكه بمبادئه الأخلاقية. ولهذا اضطر إلى التقلب بين الأعمال المختلفة مرارًا، كان يترك العمل الذى لا يرضيه، ويبحث عن أعمال أخرى، وكان يجدها بما أوتى من مهارة فائقة وأنا أذكره رجلاً لطيفًا مرنًا رقيقًا.

وأتانا عن بعد اسم (كلوپشتوك) فأثر فينا أثرًا عظيمًا. وقد دهشنا فى البداية لهذا الرجل الممتاز كيف يتسمى بمثل هذا الاسم العجيب – كلوپشتوك = هراوة – ثم ما لبثنا أن ألفنا الاسم، ولم نعد نفكر فى معناه الحرفى. وكنت قد وجدت فى مكتبة أبى أعمال الشعراء السابقين، الذين ظهروا واشتهروا فى زمانه شيئًا فشيئًا، ولم أجد لديه سواها. وكان هؤلاء الشعراء جميعًا يكتبون الشعر المقفى، وكان أبى يعتبر القافية ركنًا ركينًا من أركان العمل الشعرى. وهكذا وجدت فى مكتبته أعمال (كانيتس) و(هاجيدورن) و(درولينجر) و(جيللرت) و(كرويتس) و(هاللر) فى مجلدات جميلة مصفوفة صفًا واحدًا، وبجانب ترجمة نويكيرش) لكتاب لتيليماك، وترجمة كوبن (لأورشليم المحررة) وغيرها من الترجمات، وقرأت هذه المجلدات

كلها منذ الصبا قراءة متعمقة، وحفظت منها ما حفظت، ولهذا كانوا كثيرًا ما يدعوننى لأتلو على الضيوف شيئًا مما أحفظ على سبيل التسلية. وبدأ بالنسبة إلى أبى عصر ثقيل على النفس عندما حظيت "ملحمة المسيح" لكلوپشتوك بالإعجاب العام، وكان الرأى عنده أن شعرها غير المقفى ليس بشعر، وصمم على ألا يشتريها. إلا أن صديق أسرة المستشار شنايدر قدمها إلى والدتى خلسة فطالعناها. وكانت "ملحمة المسيح" لكلوپشتوك(٥٨) قد أحدثت أثرًا قويًا فوريًا في المستشار شنايدر الذى كان رجلاً مشغولاً بأعمال الإدارة لا يقرأ إلا قليلا. ملكت عليه نفسه هذه الأحاسيس التقية التى عبر عنها الشاعر تعبيرًا يتسم بالسلاسة، ويتسم فى الوقت نفسه بالتسامى الجميل، وأخذت بمجامع قلبه لغة الملحمة الأخاذة حتى، إذا اعتبرها الإنسان نثرًا منسجمًا، ملك كل هذا على الرجل الموظف الإدارى، الذى عرف عنه صرامة الطبع، حسه ووجدانه، حتى إنه اعتبر الأنشودات العشر الأولى – وهى التى يعنيها الناس عندما يتحدثون عن "ملحمة المسيح" لكلوپشتوك – بمثابة أروع كتاب تسمو به النفس إلى خالقها، فكان يعتكف فى كل عام طول أسبوع الآلام، يترك الإدارة وشئونها، ويقرأ أنشودات كلوپشتوك، فيرتاح إليها، ويستقى منها متعة ينعم بها طوال العام. ولقد فكر فى البداية أن يحدث أبى، صديقه القديم، عن أحاسيسه هذه، ولكنه ذهل أشد الذهول عندما وجد منه هذا النفور المطبق المستحكم المستعصى من هذا العمل ذى المضمون القيم، لا لسبب إلا الناحية الشكلية التى لم يكن يعلق عليها أهمية قط. ويمكننا أن نتصور أن الاثنين عادا إلى الحديث حول هذا الموضوع مرارًا، ولكنهما كانا يزدادان تباعدًا، وكان حديثهما يصطبغ بصبغة العنف، حتى رضى الرجل اللين بالسكوت على كتابه الحبيب حتى لا يفقد صديق الصبا وحتى لا يضيع على نفسه حساء شهيًا ينعم به يوم الأحد من كل أسبوع.

وكل إنسان يتوق بطبيعته إلى أن يكون له أتباع، ولكم فرح صديقنا وأحس فيما بينه وبين نفسه بأنه نال مكافأة عندما اكتشف أن قديسه قد لقى من بقية الأسرة قلوبًا مفتوحة، فترك لنا نسخته، التى لم يكن يحتاج إليها إلا أسبوعًا فى كل عام بقية الوقت. وأخفتها والدتنا عن أبى، وكنت أنا وأختى نستولى عليها كلما استطعنا إليها من سبيل، ونتوارى فى ركن ما، ونحفظ عن ظهر قلب وبأقصى سرعة ممكنة أبرز الأجزاء وبخاصة أكثر المواضع عنفًا.

وكنا نتنافس فى تلاوة النص الذى يصور منام بورتيا، ونتبادل إلقاء الحوار اليأس الصارخ بين الشيطان وأدرملك(٥٩) اللذين هويا إلى البحر الميت، حيث كنت أتولى الجزء الأعنف من الحوار، وتتولى أختى الجزء الأقل عنفًا، وكنا نجد اللعنات المتبادلة حسنة الجرس تنساب فى يسر من شفاهنا، ولهذا كنا ننتهز كل فرصة ليوجه أحدنا إلى الآخر هذه العبارات الجهنمية.

وحدث مساء يوم سبت فى الشتاء، وكان أبى يجلس إلى الحلاق فى ضوء المصباح، ويعد نفسه مبكرًا، حتى يكون لديه صباح الأحد وقت كاف ليلبس ثيابه فى غير عجلة ويذهب إلى الكنيسة. وجلسنا أنا وأختى على أريكة منخفضة خلف المدفأة، وبينما كان الحلاق ينشر رغوة الصابون على وجه أبى، أخذنا نحن نتبادل اللعنات المألوفة. وجاء الموضع الذى كان فيه أدرملك يمسك الشيطان بيدين فولاذيتين، فأمسكتنى أختى مسكة عنيفة وأخذت تتلو بصوت خفيض، ولكن بحماس متزايد:

أعنِّى، أتوسل إليك، سأصلى إليك إذ طلبت منى الصلاة

أيها البشع. أعنى أيها المنبوذ، أيها المجرم البهيم.

إننى أعانى سكرات الموت الأبدى الناقم.

لقد كنت فيما مضى أستطيع أن أكرهك كرهًا عنيفًا مستعر الأوار.

أما الآن فلم أعد أستطيع إلى كرهك من سبيل. فواحسرتاه.

وسار كل شيء سيرًا مقبولاً حتى هذه الكلمات، وإذا بأختى ترفع صوتها وتقول بنبرة كلها رهبة:

آه، لقد تحطمت.

وفزع الحلاق الطيب، وسكب آنية الصابون على صدر أبى. وحدثت ثورة عارمة، وجرى تحقيق دقيق، أخذ فى الاعتبار أن مصيبة كان يمكن أن تحل بأبى لو أن الحلاق كان ممسكًا بالموسى لا بآنية الصابون. واعترفنا بدورينا الشيطانيين حتى ندفع عن نفسنا شبهة القصد السيئ، فاتضحت الطامة الكبرى التى تسبب فيها الشعر الموزون من البحر السداسى وضوحًا أغنى عن العودة إلى استتكارها ولفظها.

وهكذا يحول الأولاد والعامة الأشياء العظيمة الجليلة إلى عبث أو مهزلة، فلم يكن أمامهم وسيلة أخرى للتحمل بها والصبر عليها.

الكتاب الثالث

كان عيد رأس السنة عندما يحل فى ذلك الوقت يملأ المدينة بالحياة والحركة، لأن الناس كانوا يحرصون على التزاور لتبادل التهنئة شخصيًا. فمن استطاع خرج للتهنئة، ومن لم يسهل عليه الخروج لبس أفخر ثيابه وجلس ينتظر الأصدقاء وأصحاب الفضل الذين كان يتلقاهم بما ينبغى من اللياقة والود. وكنا، نحن الأولاد، نرى فى الاحتفال الذى يقام فى بيت الجد فى ذلك اليوم متعة نتمناها على أحر ما يكون التمنى. وكان الأحفاد يجتمعون هناك منذ الصباح مبكرين ما استطاعوا، حتى يسمعوا الطبول ومزامير (الأوبوا) و(الكلارينيت) وأنواع النفائر المسماة (پوزاونه) (وتسينكه) التى كان أفراد الموسيقى العسكرية وعازفو موسيقى المدينة وغيرهم يعزفونها. وكان الأولاد يقومون بتوزيع هدايا رأس السنة – الملفوفة والمختومة بالشمع والمعنونة – على صغار المهنئين، فإذا تقدم النهار زاد عدد المهنئين من أصحاب المقامات الرفيعة. كان المقربون والأقارب يأتون أولا، ثم يأتى من بعدهم الموظفون الصغار، كذلك لم يكن السادة من أعضاء المجلس يتقاعسون عن تهنئة عمدتهم، وكانت الصفوة منهم تستضاف مساءً فى حجرات كانت تظل طوال العام مغلقة لا تكاد تفتح. وكانت التورتات وفطائر البسكويت وعجائن اللوز والنبيذ المحلى تخلب ألباب الأولاد وتمتعهم غاية المتعة. وكان العمدة – وكذلك سيدا الحصن – يتلقى من بعض المؤسسات الوقفية فى كل عام هدية مصنوعة من الفضة كان يعطيها لأحفاده وشبائنه على سبيل التكريم، يعطيها للواحد تلو الآخر عامًا بعد عام بحسب ترتيب معين. وهكذا لم يكن هذا الاحتفال الصغير يفتقر إلى شىء مما يضفى الروعة على الاحتفالات الضخمة.

وأقبل عيد رأس السنة ١٧٥٩، كنا قد تمنينا قدومه نحن الأولاد، وابتهجنا به ابتهاجًا بالأعياد الماضية، ولكن الكبار كانوا يحسون بالقلق ويتوقعون الشر. كان الناس قد ألفوا منظر مواكب القوات الفرنسية، وقد تكررت وتعددت ثم كثرت كثرة كبيرة فى الأيام الأخيرة من العام المنصرم. وكان هناك تقليد قديم من تقاليد المدينة الإمبراطورية ينص على أن ينفخ حارس البرج الرئيسى فى النفير كلما أقبلت قوات، وإذا هو فى عيد رأس السنة لا يكف عن النفير، وكان ذلك يدل على تحرك قوات كبيرة، وبالفعل مرت قوات كبيرة فى كتائب كثيفة خلال المدينة، وهرع الناس إليها ليشاهدوها، وكانوا قد ألفوا أمثالها تمر فى مجموعات صغيرة، وإذا هم يرون المجموعات تزداد عددًا شيئًا فشيئًا، دون أن يستطيع أحد أن يمنعها، أو دون أن يقر قرار أحد على منعها. وفى يوم الثانى من يناير مر طابور خلال (زاكسنهاوزن)، ثم عبر الجسر واجتاز حارة (فارجاسه) ووصل إلى مقر حرس المدفعية، ثم توقف، وقهر فرقة الحرس الصغيرة، واستولى على مقرها، وأنزل العلم، واستسلمت فرقة الحرس الرئيسية بعد مقاومة قليلة. وتحولت الشوارع المسالمة إلى ميدان للقتال، فاحتلت القوات الغازية المقر وعسكرت فيه إلى أن يتم تدبير أماكن منتظمة لها.

وأزعج هذا العبء المفاجئ الذى لم يسمع به أحد منذ سنوات كثيرة المواطنين الوادعين، ولم يثقل هذا العبء على أحد بقدر ما أثقل على أبى الذى أجبر على إيواء سكان عسكريين غرباء فى بيته الجديد، وعلى فتح حجراته الفاخرة الأنيقة – التى كانت تظل أغلب الوقت مغلقة – ليستقروا فيها، وعلى تعريض مقتنياته الثمينة التى نظمها وبوبها بدقة ما بعدها دقة إلى نزوات الآخرين. وأصبح عليه، وهو الرجل الذى كان يفكر تفكيرًا بروسيا أن يرى الفرنسيين يحتلون حجرات بيتة، وكان هذا أنكى حدث يمكن أن يحدث لإنسان يفكر على طريقته. ولو أنه استطاع أن يأخذ الموضوع بشىء من البساطة – فقد كان يجيد اللغة الفرنسية ويعرف كيف يتصرف فى الحياة تصرف الرجل العزيز اللطيف – لوفر على نفسه

الكثير من ساعات الضجر: فقد أنزلوا فى بيتنا الملازم الملكى، وكان رجلا عسكريًا، ولكنه كان مكلفًا بتسوية الحوادث المدنية والمشاجرات التى تنشب بين الجنود والمواطنين وقضايا الديون والمنازعات. كان هذا الملازم هو الكونت تورانك، من مواليد مدينة جراس فى البروڤنس غير بعيد عن أنتيب، وكان رجلاً طويل القامة، نحيل البدن، جاد الطبع، شوه الجدرى وجهه أى تشويه، وكانت عيناه سوداويين ثاقبتين، وكان متحفظًا مهيبًا فى مسلكه، وهكذا كان من هذه الناحية مناسبًا لرب البيت. وجرى الحديث بينهما عن الغرف المختلفة التى سيأخذ بعضها ويترك للعائلة بعضها الآخر. وما سمع الكونت عن حجرة اللوحات حتى طلب على الفور، على الرغم من أن الوقت كان ليلاً، أن يراها على الأقل رؤية عابرة فى ضوء الشموع، وبدا عليه فرح غامر بما رأى، وشكر أبى الذى كان يرافقه شكرًا فائقًا. وما علم الكونت أن أغلب الفنانين الذين رسموا هذه اللوحات على قيد الحياة وأنهم يقيمون فى (فرنكفورت) أو على مقربة منها، حتى أكد أنه لا يتمنى شيئًا أكثر من أن يتعرف إليهم فى أقرب وقت ممكن، وأن يسترسمهم.

إلا أن هذا التقارب على صعيد الفن لم يفلح فى تغيير فكر أبى والتأثير على شخصيته، فقر رأيه على أن يترك الأمور التى لا يستطيع تغييرها تسير سيرها، ووقف على بعدٍ قوامُه السلبية، ولكنه لم يكن يحتمل الأشياء الخارجية عن المألوف التى كانت تجرى حوله، مهما كانت هينة.

أما الكونت توارنك فكان فى مسلكه نموذجيًا، فلم يسمح لنفسه بأن يثبت خرائطه على الحيطان حتى لا يتلف ورق الحائط الجديد، كذلك كان رجاله يمتازون بالكياسة والهدوء والاستقامة. ولكن عمله لم يكن بطبيعة الحال يهدأ ليلاً أو نهارًا، لأن أصحاب الشكايات كانوا يتقاطرون الواحد تلو الآخر، والمقبوض عليهم يساقون داخلين أو خارجين، والضباط والأمناء يستدعون للحضور، ولأن الكونت كان فى كل يوم يستقبل ضيوفًا على مائدته. ولهذا امتلأ البيت بالحركة والطنين، وأصبح أشبه شىء بخلية النحل، على الرغم من أن كل شىء كان يجرى

فيه فى اعتدال شديد وبجدية ونظام، فقد كان البيت متوسط السعة. أقيم لأسرة واحدة وبنى له سلم واحد مفتوح بين الطوابق كلها.

وتولى التوفيق بين رب البيت المغيظ، الذى كان حنقه وكآبته وغيظه يتزايد ويتزايد يومًا بعد يوم، والضابط الفرنسى الذى كان حسن النية. ولكنه كان رجلاً عسكريًا عبوسًا دقيقًا، مترجمٌ لطيفٌ، كان لحسن الحظ رجلاً بشوشًا جميل التقاطيع، يميل إلى البدانة. كان هذا المترجم من أهل فرنكفورت. يجيد الحديث بالفرنسية، ويحسن التصرف فى كل الأمور، ويقلب المنغصات الصغيرة إلى مادة للمزاح والفكاهة.

ولجأت أمى إلى هذا الرجل، وكلفته بأن يصور للكونت وضعها الحرج إزاء حالة زوجها النفسية. فصور المترجم للكونت الوضع بكياسة، فحدثه عن البيت الجديد الذى لم يكتمل تأثيثه بعد، وعن نزوع رب البيت بطبعه إلى العزلة، واشتغاله بتعليم أسرته، وما إلى ذلك من أمور تقال فى هذا المقام. حتى إن الكونت – وكان فى موضعه يعتد أشد الاعتداد بأقصى درجات العدالة والاستقامة والسلوك الشريف، حرص على أن يسلك فى البيت سلوكًا نموذجيًا، وتمسَّك طوال سنوات إقامته، تحت مختلف الظروف، بالوعد الذى أخذه على نفسه، ولم يحنث فيه قط.

وكان لأمى معرفة باللغة الإيطالية، تلك اللغة التى لم تكن غريبة على أحد من أفراد أسرتنا، فقررت أن تتعلم الفرنسية، وأعانها على ذلك المترجم ردًا لجميلها. فقد حضرت فى هذه الظروف العاصفة تعميد ابنته شبينةً لها، فأصبح يحس بارتباط مزدوج بالبيت وأهله، ومنح أمى، شبينة ابنته. كل لحظة من لحظات فراغه – وكان لحسن الحظ يقيم فى بيت مقابل لبيتنا – وعلمها بصفة خاصة العبارات التى كانت تريد أن تقولها للكونت بنفسها. فوقع تصرفها هذا من الكونت موقعًا ممتازًا. وقدر الكونت الجهد الذى بذلته ربة البيت فى سنها المتقدمة، وكان بطبعه يحرص على التودد المتحفظ إلى النساء. فاتصلت بينهما علاقة ممتازة، وتمكنت أمى وحليفها المترجم من الحصول على كل ما كانا يريدان.

ولو أتيحت لنا القدرة، كما قلت، على التخفيف عن أبى، لقل ما تسبب فيه الوضع الجديد من ضيق. وكان الكونت رجلاً نزيهًا، يحرص كل الحرص على النزاهة، فكان يرفض الهدايا حتى تلك التى كان مركزه يعطيه الحق فى قبولها، وكان يرد أى شىء مهما قل إذا شابته شبهة الرشوة، ويغضب ويعاقب من يقدم عليه. وأصدر الكونت إلى رجاله أوامر مشددة بألا يتسببوا لرب البيت فى أية نفقات قلت أو كثرت وكان على عكس ذلك كريمًا معنا نحن الأولاد يغدق علينا من الحلوى كل الإغداق. وينبغى أن أذكر فى هذا المقام، لكى أعطى صورة عن براءة الناس فى تلك الأزمة، إن أمى كدرتنا أشد التكدير ذات يوم عندما منعتنا من أكل الـچيلاتى الذى أرسله إلينا الكونت من مائدته، ورمته، ظنًا منها أن المعدة لا يمكن أن تحتمل ثلجًا حقيقيًا وبخاصة إذا تشبع بالسكر.

كنا على أية حال نتمتع بهذه الأشياء اللذيذة التى تعلمنا تدريجيًا أن نسيغها، وأدى هذا التحول فى البيت إلى أمر آخر سعدنا به، نحن الأولاد أيضًا ألا وهو التحلل نوعًا ما من حصص التعليم المحددة والتربية المنظمة. ولكن أبى زاد لهذا كدرًا، ولم يستطع أن يرضى بما لا سبيل إلى تجنبه – وما أكثر ما شق على نفسه وعلى أمى والمترجم وأعضاء المجلس جميعًا أنه فعل ما استطاع، بغية الوصول إلى غرض واحد هو التخلص من الكونت. وعبثًا حاول الناس إقناعه بأن وجود مثل هذا الرجل فى بيته فى هذه الظروف يعد نعمة حقيقية، وأن الكونت لو خرج لتبدل على البيت ضباط ومدنيون آخرون يحل بعضهم محل البعض الآخر محدثين ارتباكًا دائمًا. ولكن أبى لم يكن ليقبل أمثال هذه الحجج، وكان متمسكًا بأن الوضع الراهن وضع لا يحتمل، وكان النكد الذى استبد به يقف حائلا دون إدراكه الأشياء الأسوأ التى كان يمكن أن تحدث.

وهكذا أصيب نشاطه، وبخاصة فيما يتصل بنا بالشلل، وأصبح إذا كلفنا بواجبات دراسية لا يحرص على ما كان يحرص عليه من قبل من دقة، وكنا نحن نسعى قدر الطاقة إلى إرضاء فضولنا بتتبع الأحداث العسكرية والأحـــداث العامة،

لا التى تجرى فى بيتنا فحسب، بل وفى الشوارع أيضًا، وقد سهل علينا هذا الأمر، لأن باب البيت ترك مفتوحًا طــوال الليل وطــوال النهــار، وعين عليه حارسان لا يهتمان بجرى الأولاد الأشقياء خروجًا أو دخولاً.

وكانت القضايا التى تتم تسويتها أمام الملازم الملكى الفرنسى، وقد جلس مجلس القاضى، تستهوينا على نحو خاص، لأنه كان يحرص على أن يضيف إلى أحكامه ملاحظات طريفة ألمعية تثير الضحك. كان الملازم يتحرى العدل والقسطاس فى كل أمر يصدره، ولكنه يستخدم فى صياغته أسلوبًا همازًا حادًا، ويبدو أنه كان فى هذا يقتدى بأمير (أوزونا)[٦٠] ولم يكن يوم يمر تقريبًا دون أن يحكى لنا المترجم عن أحكام الملازم حكاية نضحك لها، نحن الأولاد وأمنا، وهكذا اجتمع لهذا الرجل المرح مجموعة من الأحكام الشبيهة بأحكام النبى سليمان، ولازالت إلى اليوم أذكر هذا الانطباع العام عنها، وإن لم تحفظ ذاكرتى قصة بعينها.

وازددنا معرفة بشخصية الكونت الرائعة شيئًا فشيئًا. كان هذا الرجل يدرك أوضح الإدراك ما تتسم به من سمات صعبة متفردة، وكان على الأرجح يتعرض لأزمات يحل به فيها الاكتئاب أو الحزن أو ما يمكن أن يسمى بالشيطان القبيح، وكــان فــى تلك الساعات التى قد تطول إلى أيام يعتزل الناس، ويبقى فى حجرته لا يدخل عليه سوى خادمه الخاص، ولا يرضى باستقبال أحد مهما كان السبب ملحًا. فإذا تولى عنه هذا الشيطان القبيح، عاد حليمًا نشيطًا باشا كما كان. ولقد فهمنا من كلام خادمه سان چان – وكان رجلاً قصير القامة نحيل البدن طيب القلب مرح الطبع – أن سيده كان فيما مضى، إذا استبدت به هذه الأزمة النفسية، ارتكب أفعالا بشعة، ولهذا آلى على نفسه أن يحترس من التردى إلى مثل هذه المخاطر التى لا تتفق مع منصبه المرموق الذى يتعرض فيه لنظرات العالم كله.

واستقدمنا الرسامين الفرنكفورتيين جميعًا – مثل (هيرت) و(شوتس) و(تراوتمان) و(نوتناجل) و(يونكر) – لمقابلة الكونت فى الأيام الأولى لحضوره مباشرة، وعرضوا عليه لوحاتهم الجاهزة، فاشترى منها ما خصصوه للبيع، ثم

جهزت حجرتى الجميلة المنيرة أعلى البيت لتكون متحفًا ومرسمًا، فقد قرر الكونت أن يسترسم فيها الفنانين جميعًا إلى حين، وبخاصة (زيكاتس)، وكانت ريشة رسام درمشتات هذا فى تصوير المناظر الطبيعية والبسيطة قد أعجبته إلى أقصى حد. وتلقى الكونت من (جراس) حيث كان أخوه يمتلك سكنًا جميلاً مقاييس كل الحجرات أو القاعات، وتشاور مع الفنانين حول تقسيم الحيطان، وحدد معهم أحجام اللوحات الزيتية المطلوبة المناسبة لها، لا لتوضع فى براويز بل لتثبت فى الحيطان جزءًا من زخرفيا وبدأ العمل وسار سيرًا نشيطًا فتولى (زيكاتس) رسم مناظر ريفية فيها كهول وأطفال، نقلها عن الطبيعة، ونجح فيها نجاحًا عظيمًا، ولكنه لم يوفق فى رسم الصبية فجاءت وجوههم نحيلة فى أغلبها، ولم يوفق تمامًا فى رسم النساء فجعلهن بدينات على عكس الصبية، فقد كان (زيكاتس) متزوجًا من امرأة طيبة لطيفة، ولكنها كانت قصيرة بدينة، ولم تكن تسمح له بأن يتخذ غيرها موديلا، ولهذا لم تكن النتيجة مفرحة. ثم إنه كان يضطر إلى تجاوز مقاييس شخصياته. أما الأشجار التى رسمها فكانت مطابقة للواقع، وإن بدت أوراقها صغيرة. وكان (زيكاتس) من تلاميذ (برينكمان) الذى كانت له ريشته المتمكنة فى رسم اللوحات.

أما (شوتس)، رسام المناظر الطبيعية، فلعله كان أوفر الرسامين حظًا فيما رسم، فقد كان متمكنًا كل التمكن من تصوير مناظر منطقة حوض نهر الراين، متمكنًا من النغمة المشرقة التى تضفى عليها عندما يصفو الجو، ولم يكن جديدًا عليه أن يطلب منه رسم لوحات كبيرة، فأجاد التنفيذ وأبدع التنسيق، وجاءت لوحاته مشرقة باهرة.

ورسم تراوتمان على طريقة رمبرانت مشاهد تصور بعض معجزات البعث التى وردت فى الإنجيل، وأحاطها بالقرى والطواحين. وكانت اللوحات التى كلف برسمها مخصصة لقاعة بعينها من قاعات بيت الكونت، وكان ذلك واضحًا من التخطيطات التى رأيتها كذلك رسم (تراوتمان) بعض غابات البلوط والزان، وكانت قطعان الأغنام التى رسمها موضع التقدير والتقريظ. أما الرسام (يونكر) الذى كان معتادًا على تقليد الفنانين الهولنديين الحريصين على أدق التفصيلات فكان أقل

الرسامين قدرة على اصطناع أسلوب زخرفة الحيطان، ولكنه قبل راضيًا لقاء أجر طيب أن يرسم زهورًا وفاكهة لتزيين بعض التقسيمات.

ولما كنت أعرف هؤلاء الفنانين منذ نعومة أظفارى وأتردد عليهم فى مراسمهم، ولما كان الكونت يأنس إلي ويحب أن أكون بجواره، فقد رأيته وهو يتشاور مع الفنانين ويتفق معهم، ورأيته وهو يتسلم اللوحات المنجزة، وكنت أسمح لنفسى - وبخاصة عند عرض التصميمات المبدئية والمقترحات - بالتعبير عن رأيى وكنت قد اكتسبت منذ وقت مضى من اختلافى إلى هواة اللوحات وترددى على المزادات، قدرة مشهودة على معرفة الموضوع الذى تمثله أية لوحة تاريخية على الفور، سواء كان الموضوع متصلاً بالكتـاب المقـدس أو بالتـاريخ العـام أو بالميثولوجيا. وعلى الرغم من أننى لم أكن فى كل الأحوال أكتشف مضمون الصور الرمزية على نحو كامل، فقد كان من النادر أن يتفوق على فى فهمها آخر. ولهذا فكثيرًا ما كنت أقترح على الرسامين موضوعات للوحاتهم، وكانت هذه الفرصة التى سنحت لى، فرصة مواتية استخدمت فيها قدراتى عن حب ورغبة. ولازلت أذكر أننى كتبت مقالا مفصلاً وصفت فيه اثنتى عشرة لوحة تمثل تاريخ يوسف الصديق، ونفذ الرسامون بعضها بالفعل.

تحدثت عن الأعمال التى تحمد للصبى فى مخالطته الفنانين، فلأذكرن بعدها حادثة حدثت لى فى وسط الفنانين سببت لى شيئًا من الخجل. كنت قد عرفت بمرور الوقت كل الصور التى وضعوها فى الحجرة الواحدة بعد الأخرى، لأن فضولى الصبيانى لم يكن يدعنى أعبر على شيء دون أن أراه وأتفحصه. وألفيت ذات مرة وراء المدفأة صندوقًا صغيرًا أسود اللون، فلم أتردد فى البحث عما يخفيه بداخله. ولم أفكر طويلا بل سارعت إلى فتحه. وكانت الصورة التى يحبونها بطبيعة الحال من النوع الذى لا يعرضه الناس لكل العيون عادة فأسرعت فى إغلاق الصندوق، ولكننى لم أسرع بما فيه الكفاية، إذ دخل الكونت وفاجأنى وقال لى وقد انطبع وجهه بطابع الملازم الملكى الصارم: "من الذى سمح لك بأن تفتح هذا الصندوق؟" ولم يكن لدى كلام كثير أقوله ردًا على السؤال الذى وجهه إلى،

فقطب جبينه وعاقبنى قائلاً: "لن تدخل هذه الحجرة ثمانية أيام متتالية؟" فانحنيت وخرجت، واتبعت أمره بدقة متناهية، مما سبب للرسام (زيكاتس) الطبيب الذى كان يعمل فى الحجرة الضجر الشديد، لأنه كان يحب أن أكون معه ولقد بالغت فى الطاعة عامدًا متعمدًا فكنت أضع لزيكاتس قهوته على عتبة الباب بدلاً من أن أحملها إليه فى الحجرة كما كنت أفعل. وكان يضطر إلى ترك العمل والسير إلى الباب ليأخذها، ولقد ثقل عليه ذلك حتى كاد أن يغضب منى.

وقد يكون ضروريًا أن أذكر الآن تفصيلاً، وأن أوضح كيف كنت فى تلك الظروف أستخدم اللغة الفرنسية بسهولة نسبية على الرغم من أننى لم أتعلمها. فقد اعتمدت على مواهبى الفطرية فى إدراك صوت اللغة ونغمتها وحركتها ونبرتها وما إلى ذلك من سماتها الشكلية فى سهولة ويسر. وتوسلت باللغة اللاتينية لمعرفة كلمات فرنسية كثيرة، ثم أعانتنى اللغة الإيطالية على معرفة المزيد من الألفاظ، فما خالطت الخدم والجنود والحرس والزوار حتى استخلصت منهم فى وقت قصير حصيلة لغوية مكنتنى، لا أقول من المشاركة فى الحديث، ولكن من تبادل الأسئلة والأجوبة المتفرقة. على أن الحصيلة اللغوية التى جمعتها على هذا النحو كانت قليلة نسبيًا إذا قيست بما أفدته من المسرح. فقد أعطانى جدى تذكرة مجانية لدخول المسرح كنت أستخدمها يوميًا، تساعدنى على ذلك أمى ويعارضنى أبى، كنت أجلس فى صالة المسرح أمام مسرحيات أجنبية فأركز اهتمامى خاصة على الحركة والإيماء والتعبير، لأننى لم أكن أفهم شيئًا، أو لم أكن أفهم إلا القليل مما يقوله الممثلون على خشبة المسرح انحصرت إذن متعتى فى مشاهدة الحركات، ومتابعة نغمة اللغة، فلما بدأت أفهم، لم أفهم من الكوميديا إلا الشىء الضئيل كل الضآلة، لأن كلامها سريع ولأنها تدور بتلميحاتها حول أمور الحياة العادية التى لم أكن أعرف تعبيراتها قط، أما المسرحيات التراجيدية التى كانوا يقدمونها نادرًا، فكانت أقرب إلى فهمى، لأن خطواتها محسوبة، وإيقاع الشعر فيها منضبط على البحر السكندرى وتعبيرها يتسم بالعمومية. وما لبث اهتمامى أن تناول أعمال

(راسين) التى وجدتها فى مكتبة أبى، وأخذت أتلو المسرحيات بطريقة مسرحية معتمدًا على جهازى السمعى وجهازى اللغوى المجاور له، دون أن تكون لدى القدرة على فهم عبارة كاملة فى مجموعها بل إننى حفظت مقاطع بأكملها عن ظهر قلب، وأخذت أرددها كببغاء مدرب، وكان هذا شيئًا يسيرًا علىّ لأننى فى طفولتى حفظت نصوص الكتاب المقدس التى استغلقت على عقلى الصغير عن ظهر قلب، واعتدت أن أتلوها على طريقة الكهان عندما يلقون العظات.

وكانت الكوميديا الفرنسية المنظومة محبوبة جدًا فى ذلك الوقت، وكانت المسارح كثيرًا ما تعرض أعمال (ديتوش) و(ماريفو) و(لاشوسية)، ولازلت أذكر بوضوح بعض شخصيات هذه المسرحيات الكوميدية المميزة. أما مسرحيات موليير فلم يبق فى ذاكرتى مما عرض منها آنذاك إلا الشىء القليل. وأما المسرحية التى تركت فى نفسى أعظم انطباع فمسرحية "هيبرمنسترا" تأليف لوميير، فقد أديت على المسرح بعناية فائقة، لأنها كانت مسرحية جديدة، وتكرر عرضها بعد ذلك. كذلك الانطباع الذى تركته فى نفسى مسرحيات "عراف القرية" و"روز وكالا" و"أنيت ولوبان" انطباعًا لطيفًا إلى أقصى حد، ولازلت أستطيع إلى الآن أستعيد فى ذاكرتى صورة الصبية والبنات فى حركاتهم وزينتهم ذات الأشرطة الجميلة[٦١].

وما مر وقت ليس بالطويل حتى تحركت فى نفسى الرغبة فى أن أنظر إلى ما يجرى فوق خشبة المسرح نفسها، وأتيحت لى الفرصة لتحقيق الرغبة. كنت لا أصبر دائمًا على الإنصات إلى مسرحية من أولها إلى آخرها، بل كنت أمضى بعض الوقت فى العبث فى الممرات، أو – إذا كان الجو معتدلا – أمام باب المسرح، مع أولاد آخرين من سنى، وانضم إلينا صبى جميل نشيط من أسرة المسرح، رأيته عابرًا يمثل بعض الأدوار الصغيرة. تبين هذا الصبى أنه يستطيع التفاهم معى أكثر مما يستطيع التفاهم مع الآخرين، وأعاننى على ذلك علمى باللغة الفرنسية، ودفعه إلى التعليق بى أنه لم يكن يجد فيمن حوله من الناس صبيًا من سنه ومن بنى جلدته، لا فى أسرة المسرح ولا فى غيره. كنا فى غير أوقات

المسرح نخرج معًا، وكان يلازمنى ولا يتركنى حتى فى أثناء العروض المسرحية، وكان هذا الصبى فشارا صغيرًا يمتعنى بحديثه اللذيذ وثرثرته الخلابة، فيحكى لى عن مغامرات وأحداث طريفة وعجائب ويسلينى تسلية تفوق المألوف. وتعلمت من مخالطتى إياه فى أربعة أسابيع من اللغة والتعبير ما يفوق التصور، حتى إن الناس دهشوا عندما رأونى فجأة وقد تحرك لسانى باللغة الفرنسية وكأنما تلقيتها بما يشبه الوحى والإلهام.

وجرنى هذا الصبى منذ الأيام الأولى لتعارفنا إلى خشبة المسرح، وأخذنى بخاصة إلى المكان الذى يجتمع فيه الممثلون والممثلات، ويغيرون فيه ملابسهم، ولم يكن مكانًا مناسبًا مريحًا، لأن القاعة التى دس فيها المسرح دسًا كانت أصلاً قاعة مخصصة للحفلات الموسيقية، ولهذا لم يكن وراء خشبة المسرح أماكن خاصة للممثلين؛ كانت الحجرة تستخدم من قبل لعزف الموسيقى، ويبدو أنهم لم يكونوا يستحون بعضهم من البعض الآخر، ولا منا نحن الصبية، عندما كانوا يغيـرون ملابسهم، وما كانوا فى أثناء ذلك يحرصون على تجنب ما يخدش الحياء ولم يكن لى عهد بشىء من هذا القبيل، فدهشت له أولاً ثم وجدته بعد تكرار الزيارة والاعتياد شيئًا عاديًا.

وما مر وقت ليس بالطويل حتى تحرك فى نفسى اهتمام من نوع خاص عن طريق هذا الصبى الذى توطدت علاقتى به، والذى سأسميه (ديرون) صبيًا حسن السلوك والأخلاق إذا استثنينا استرساله فى الفشر. فقد عرفنى (ديرونس) بأخته وكانت تكبرنا بعدة سنوات، وكانت بنتًا لطيفة، حسنة الخلقة، معتدلة القد، سمراء البشرة، سوداء الشعر والعينين، وكان فى مسلكها شىء من السكون بل من الحزن. وسعيت إلى التقرب منها وإرضائها بكل وسيلة، ولكننى لم أستطع جذب انتباهها إلىَّ، فالبنت تتصور نفسها أكثر نضجًا من الصبى، فإذا أظهر لها صبى ميله الأول، نظرت إليه نظرة المرأة الناضجة وكأنها عمته أو خالته.

وكنا أحيانًا إذا ذهبت أمهما إلى البروفات أو إلى اجتماع، نلتقى فى بيتهما ونلعب أو نتسامر ولم أكن أذهب إلى بيتهما دون أن أقدم إلى البنت الحسناء زهرة أو شيئًا من الفاكهة أو ما شابه ذلك، وكانت تتقبله بقبول حسن. وتشكرنى عليه فى أدب جم. ولكننى لم أر نظرتها الحزينة ترتسم عليها البهجة قط، ولم أر على وجهها تعبيرًا يدل على أنها تنبهت إلىّ أو أننى لفت نظرها. وأخيرًا اعتقدت أننى اكتشفت سرها الدفين. فقد أطلعنى الصبى خلف سرير أمه – وكان سريرًا يزدان بستائر حريرية أنيقة – على صورة مرسومة بالألوان المائية لرجل جميل المحيا، وعلق عليها – وقد اتخذ وجهه تعبيرًا ماكرًا قائلاً ليس هذا بابا، ولكنه فى مقام بابا. وراح يمتدح الرجل، ويحكى عنه حكايات كثيرة بطريقته المبالغة الفجة، ولعلى أكون قد أصبت إذا فهمت أن البنت هى ابنة الأب الحقيقى، وأن الصبيين ابنا الصديق. بهذا التفسير فسرت لنفسى مسحة الحزن التى ترسم على وجهها، وزاد حبى لها.

وأعاننى شغفى بالبنت على تحمل أخيها الذى لم يكن يقف فى الثرثرة عند حد، كان على أن أتحمل الحكايات الطويلة العريضة عن بطولاته، وكيف أنه تشاجر كثيرًا، لا رغبة منه فى إيذاء الآخرين، ولكن حفاظًا منه على كرامته ولا شىء غيرها، ولقد كان دائمًا يعرف كيف يجرد غريمه من سلاحه ثم يعفو عن مقدرة، وقال لى إنه يتقن المبارزة إتقانًا أوقعه هو نفسه ذات مرة فى مأزق كبير، فقد طير سيف غريمه فوقع على شجرة عالية ولم يكن من السهل إنزاله من فوقها.

كان التصريح المجانى الصادر من العمدة يسهل علىّ التردد على المسرح، ويفتح أمامى السبيل إلى كل الأماكن ومن بينها مقاعد الجورة.

وكانت الجورة قد أعدت على الطريقة الفرنسية منخفضة أشد الانخفاض على جانبى خشبة المسرح، وكانت المقاعد مرتبة فى صفوف متعددة لا ترتفع مقاعد الصف الأول على خشبة المسرح إلا قليلا. وكانت فى مجموعها تعتبر أماكن التشريف الممتازة، فلم يكن يجلس عليها إلا الضباط، على الرغم من أن

الاقتراب الشديد من الممثلين يبدد الإيهام المسرحى كلية، بل يحرم المشاهد من أى نوع من أنواع المتعة. وهكذا أتيح لى أن أشهد عن خبرة هذا الوضع، أو على الأصح هذا الوضع السيئ الذى شكا منه ڤولتير شكوى ملحة. وكان القائمون على المسرح، إذا امتلأ بالمتفرجين، ثم حل وقت مرور مواكب عسكرية، ونزل المدينة ضباط مرموقون، وأتى هؤلاء يسعون إلى الأماكن التشريفية الممتازة، فوجدوها مشغولة كالعادة، كان القائمون على المسرح يضعون صفوفًا أخرى من المقاعد فى الجورة، بل وعلى خشبة المسرح نفسه، فلا يبقى لأبطال وبطلات المسرحية إلا مكان متواضع أشد التواضع ليعرضوا فيه، فهم يمثلون بين البدل الرسمية والنياشين. ولقد شاهدت مسرحية "هيپرمنسترا"[٦٢] تعرض على هذا النحو.

ولم يكن الستار ينزل بين فصول المسرحية.

كذلك أذكر تقليدًا عجيبًا لم يكن بد من أدهش له وأن أعتبره – وأنا الصبى الألمانى الطيب – شيئًا لا يحتمل على الإطلاق، لمنافاته للفن. فقد كان المسرح يعتبر أعظم الأقداس، وكان من الضرورى أن يستهجن الخطأ الذى يحدث فوقه، لأن هذا الخطأ جريمة فى حق جلالة الجمهور. جرى هذا التقليد العجيب علىٍ أن يقف جنديان مسلحان، جنبًا سلاح، عند عرض المسرحيات الكوميدية، على جانبى الستار الخلفى لخشبة المسرح، يراهما الجمهور، ويريان هما كل ما يجرى فى داخل الفرقة المسرحية. ولما لم يكن هناك ستار بين الفصول، كما ذكرت، فقد كان تغيير الجنديين يتم أمام أعين الناس: فبينما الموسيقى تعزف بين الفصل والذى يليه يدخل جنديان من وراء الكواليس، يسيران بخطوة عسكرية، ويقفان فى مواجهة الاثنين السابقين، فيتحرك هذان للانصراف بنفس الخطوة العسكرية. كانت هذه الحركة تنضوى على كل ما يبدد ما يسمى بالإيهام المسرحى، وكانت علاوة على هذا تشد الأنظار إليها، لأنها كانت تجرى فى الوقت الذى كان فيه (ديديرو) يبشر بمبادئ ونماذج يطالب فيه بالطبيعة كل الطبيعة على المسرح ويؤكد أن الإيهام الكامل هو أخص هدف يسعى إليه الفن المسرحى.

كان هذا التقليد العجيب يتبع عند عرض المسرحيات الكوميدية، أما المسرحيات التراجيدية فكانت معفاة من هذا الإجراء العسكرى، فقد تركوا لأبطال العصور القديمة الذين يظهرون فيها، الحق فى أن يحرسوا أنفسهم بأنفسهم، وإن ظل جنود الحرس المسلحون يقفون فى مكان قريب خلف الكواليس.

وأحب أن أذكر فى هذا المقام أننى رأيت مسرحية "رب الأسر تأليف "ديديرو، ومسرحية "الفلاسفة" تأليف پاليسو[٦٣]. ولا زلت أذكر فى المسرحية الأخيرة شخصية الفيلسوف الذى يسير أربع على ويلوك فى فمه أوراق الخس الأخضر.

ولم يكن هذا النشاط المسرحى المنوع يستطيع أن يلزمنا بالبقاء فى المسرح يومًا بعد يوم، بل كنا إذا تحسن الجو نلعب أمام المسرح أو بجانبه، ونسترسل فى كثير من العبث الذى لم يكن يتناسب مع ثيابنا القشيبة، وبخاصة فى أيام الآحاد والأعياد، حيث كنت – مثلى مثل الآخرين – ألبس ثيابًا كالتى وصفها فى الحكاية، وأحمل قبعة تحت إبطى، وأتمنطق بسيف صغير يتحلى مقبضه بفيونكة حريرية كبيرة. وذات مرة استرسلنا فى العبث، وانضم إلينا (ديرونس) الذى خطر بباله أن يدعى أننى أهنته وأن علىَّ أن أرد شرفه. ولم أفهم السبب الذى دعاه إلى ذلك، ولكننى سكت على استفزازه، وهممت بالانصراف. فأكد لى أن المألوف فى مثل هذه الحالات أن يذهب المختصمون إلى أماكن خالية ليفصلوا فى الأمر بسهولة ويسر. فذهبنا إلى مكان خلف الصوامع، واتخذنا وضع المبارزة، وتبارزنا بطريقة شبه مسرحية، وتقارعنا بالسيوف، حريصين على ألا يصيب أحدنا الآخر، ولكن الحمية أخذته، فأصاب فيونكة مقبض سيفى، واشتبك طرف سيفه فيها وخرقها، وهنا قال لى: إنه هكذا استرد شرفه تمامًا، وعانقنى على نحو مسرحى أيضًا، وذهبنا إلى أقرب مقهى فشربنا كوبًا من لبن اللوز سكنت به نفوسنا الثائرة، وعاد رباط الصداقة بيننا أقوى مما كان. وأود أن أحكى هنا عن مغامرة مرت بى فى المسرح، على الرغم من أنها حدثت فى وقت تال. كنت أجلس مع بعض أترابى فى الصالة هادئين نشاهد فى متعة رقصة منفردة يؤديها صبى جميل فى مثل سننا

تقريبًا، أداءً تميز بالمهارة والطلاوة، وكان هذا الصبى ابن أستاذ فرنسى متخصص فى الرقص، وكان فى ذلك الوقت يقوم - بجولة فنية. وكان الصبى يلبس على هيئة الراقصين صدرية قصيرة من الحرير الأحمر تتصل بجونيلة قصيرة تشبه المريلة، تتدلى هفهافة على ركبتيه. وعبرنا مع الجمهور الحاضر كله لهذا الفنان عن استحساننا، وإذا ابى يخطر ببالى لسبب لا أعرفه أن أعبر عن فكرة من قبيل الحكمة الأخلاقية، فقلت لصاحبى "كم كان هذا الصبى جميل الهندام، جميل المنظر. ولكن من يعلم فى أى ثوب ممزق سيأوى هذه الليلة إلى فراشه". وكان النظارة جميعًا قد وقفوا، ولكن الزحام حال بيننا حينًا وبين التقدم إلى الأمام. وتصادف أن كانت المرأة التى جلست بجانبى تمامًا هى أم الفنان الصغير، فسمعت تعليقى ووجدت فيه إهانة لها، فقد شاء سوء الطالع أن تكون لها معرفة بالألمانية تكفى لفهم عبارتى، وتمكنها من الحديث بها ومن توبيخى وتقريعى. فأوسعتنى توبيخًا، متساءلة: من أكون لأسمح لنفسى بأن أتشكك فى ثراء الصبى وحسبه ونسبه، وهى لا ترى إلا أنه يساوينى، وأن له من المواهب ما يؤهله لمستقبل باهر لا يمكننى أن أحلم به. ألقت المرأة علىّ هذه العظة العقابية وسط الزحام، وسمعها كل من حولى، وتساءلوا مندهشين فيما بينهم وبين أنفسهم عن الفعلة الشنعاء التى ارتكبتها. ولم أكن أستطيع أن أعتذر لها أو أن أبتعد عنها، فقد استبدت بى الحيرة، فلما سكتت المرأة لحظة قلت لها دون أن أفكر فى شىء محدود: "ما هذه الضجة؟ اليوم حمر الخدود، وغدًا موتى اللحود". فلما سمعت المرأة هذا الكلام صمتت ونظرت إلىّ، وأخذت تبتعد عنى ما استطاعت إلى ذلك من سبيل. ولم أفكر بعد ذلك فى كلماتى، ثم تذكرتها ذات يوم عندما توقف الصبى عن الظهور على المسرح، فقد مرض مرضًا خطيرًا، ولا أعرف هل مات من جرائه أم لا؟

ولقد كان القدماء يقيمون وزنًا للنبوءات التى تخرج من أفواه الناس على غير تدبير وبغير تقدير، ودون ما تحديد، ولقد ظلت أشكال الإيمان وأشكال الخرافة دائمًا هى هى لدى كل الأمم، وفى كل الأزمان، وستبقى من الأمور العجيبة الخارقة.

لم تكن مدينتنا منذ الأيام الأولى لاحتلالها تفتقر إلى وسائل التسلية الدائمة التى ينعم بها الصبية والشباب خاصة. كانت هناك عروض المسرح وحفلات الرقص، وكانت المهرجانات والمراكب العسكرية تشد انتباهنا هنا وهناك، وكانت المواكب العسكرية تتزايد، وكنا نرى حياة الجنود بهيجة ممتعة.

وأتاحت لنا إقامة الملازم الملكى الفرنسى فى بيتنا فرصة رؤية كل الشخصيات المهمة بالجيش الفرنسى الواحد بعد الآخر، وأتاحت لنا بصفة خاصة فرصة النظر عن كثب إلى الرجال المبرزين الذين كانت أسماؤهم اللامعة قد بلغت مسامعنا من قبل.

كنا ننظر وراء الدرج ومن فوق الأعتاب وكأننا كنا ننظر من خلال الشرفات، فنرى فى سهولة ويسر القواد يمرون علينا فى بيتنا. وأنا أذكر بخاصة الأمير (سوبيز)[٦٤] وأذكر أنه كان جميل الطلعة، حلو الشمائل، وأذكر بكل الوضوح المارشال فون بروليو[٦٥]، شابًا حسن البنيان، متوسط القامة، نشيط الحركة، واثق الخطى، لماحًا، سريع البديهة.

وتعددت زيارات المارشال فون بروليو للملازم الملكى، وكان من الواضح أن الحديث بينهما كان يتناول أمورًا مهمة. وما كدنا نعتاد فى غضون الربع الأول من العام وجود الجنود الفرنسيين فى بيتنا، ونألف الوضع الجديد، حتى انتشر خبر فى غموض يقول: إن الحلفاء شرعوا فى السير، وإن الأمير فرديناند فون براونشڤايج قادم لطرد الفرنسيين من منطقة الماين. ولم يكن الفرنسيون يتمتعون فى أمور الحرب بشهرة فائقة، ولم يكونوا يعرفون لهم نصرًا باهرًا يتفاخرون به، وكان الاعتقاد السائد منذ معركة (روسباخ)[٦٦] أنهم حقيقون بأن يستهان بهم إذا دارت رحى الحرب، ولهذا وضع الناس ثقتهم الكبرى فى الأمير فرديناند، وأصبح كل المؤمنين بالفكر البروسى وقد اشتد شوقهم إلى التحرر من الإصر الذى أنقض ظهورهم. وانفرجت أسارير أبى وارتسم عليها شىء من البشاشة، أما أمى فقط انقبضت أساريرها وابتأست، لأنها كانت من الحكمة بحيث أدركت أن الشر القليل

الحاضر قد يتبعه شر مستطير، فقد اتضح بجلاء أن الفرنسيين لا يعدون العدة للسير إلى الأمير، بل خططوا لانتظار الهجوم على مقربة المدينة. وكان أبى وأمى يستسلمان لخيالهما الحائر فيتصوران هزيمة الفرنسيين، وهروبهم من الميدان وتمسكهم بالمدينة، والدفاع عنها على الأقل لتغطية انسحابهم، ويتصوران تشبث الفرنسيين بالجسر، وعمليات الضرب بالقنابل، وأعمال السلب والنهب، فيستبد بهما القلق. ولما كانت أمى تستطيع أن تحتمل كل شىء إلا القلق، فقد طلبت إلى المترجم أن ينقل مخاوفها إلى الكونت، فتلقت الإجابة المألوفة فى هذه المواقف، وهى أن عليها أن تطمئن كل الاطمئنان، فليس هناك ما يدعو إلى الخوف، وما عليها إلا أن تلزم السكون والهدوء وألا تتحدث مع أحد فى هذا الموضوع.

واجتازت بعض القوات الفرنسية المدينة وقيل: إنها ستعسكر عند (برجن)[٦٧]، وزادت الحركة جيئة وذهاباً، وركضًا وعدوًا، وامتلأ بيتنا بالهرج والمرج آناء الليل وأطراف النهار. ورأيت المارشال بروليو مرارًا فى هذه الأيام، كان دائمًا منبسط الأسارير، سويًا فى حركاته وفى مسلكه، ولقد سعدت فيما بعد عندما رأيت التاريخ قد مجد هذا الرجل الذى أحدثت فىّ شخصيته أثرًا طيبًا لا ينمحى.

وأخيرًا، وبعد أسبوع الآلام المضطرب فى عام ١٧٥٩، حل يوم الجمعة الحزينة وآذن السكون الكبير بقرب العاصفة. أما نحن الأولاد، فقد منعونا من مغادرة البيت، وأما أبى فلم يحتمل السكون وخرج. وبدأت المعركة، وصعدت إلى سندرة السقف العلوى ونظرت من الطاقة، فلم أر ميدان القتال، ولكننى سمعت هدير المدافع، وأزير الأسلحة الخفيفة الكثيفة. وما انقضت ساعات حتى رأينا الآثار الأولى للمعركة متمثلة فى عدد من العربات مرت من أمامنا محملة بجرحى مصابين بتشوهات مؤسفة مختلفة، كانوا يأتون بحركات يمتلئ لها القلب حزنًا وأسفًا. وكانت العربات تنقلهم إلى دير السيدة العذراء وقد تحول إلى مستشفى عسكرى. وسرعان ما هاجت الرحمة فى قلوب المواطنين فحملوا البيرة والنبيذ والخبز والمال إلى من كانت حالتهم تسمح بقبولها. فلما رأى الناس بعد قليل عددًا من الجرحى والأسرى الألمان تحملهم

العربات فيمن تحمله، تعاظم إحساسهم بالشفقة إلى غير حد، وبدا على الناس كأنما أراد كل واحد منهم أن يتخفف من كل ما لديه من متاع، ويعطيه لمواطنيه فى محنتهم.

وكان ظهور الأسرى الألمان علامة على أن المعركة لا تسير فى صالح الحلفاء وكان أبى فى تحيزه للحلفاء يوقن كل اليقين من أنهم سينتصرون، ولهذا ترك لخسارته العاطفية العنان، وجاهر باندفاعه نحو المنتصرين المأمولين دون أن يفكر فى أن عليه أن ينتظر أولا حتى يرحل المنهزمون. وذهب أبى أولا إلى حديقته عند بوابة فريدبرج ووجد هناك كل شىء هادئًا ووجد المنطقة كالمهجورة، ثم تشجع واتجه نحو مرج بورنهايم، حيث رأى فلولا من جنود وعمال التموين مبعثرين يتلهون بإطلاق النار على أحجار الحدود، ودوى رصاصهم من حول رأسه فى أثناء جولته الفضولية. هناك رأى أن من الكياسة أن يعود أدراجه، وأخذ يسأل ويتقصى حتى علم ما كان ينبغى أن يعلمه من دوى الطلقات النارية. وهو أن كل شىء فى صالح الفرنسيين، وأنه لا سبيل إلى التفكير فى أن الوضع قد يتغير. وعاد إلى البيت حسيرًا، فقد فقد رباطة جأشه المعهودة تمامًا عندما رأى بنى جلدته بين جرحى وأسرى، وفعل ما فعله الآخرون فقد قدم للعابرين بعض التبرعات مصممًا على ألا ينالها إلا الألمان، ولم يكن الالتزام بهذا الشرط ممكنًا فى كل الأحوال، لأن القدر جمع الأصدقاء والأعداء معًا.

أما أمنا ونحن، وقد آمنا بكلمة الكونت، وقضينا اليوم فى هدوء وسكون قدر الطاقة، فقد سعدنا كل السعادة، وأحست الأم بسلوى مضاعفة، لأنها كانت قد استنبأت صندوق الطالع بوخزة من الإبرة، وتلقت نبوءة مطمئنة غاية الاطمئنان تنسحب على الحاضر والمستقبل جميعًا. وأما أبونا فكنا نتمنى أن يؤمن بما آمنا به، وأن يفكر كما نفكر وتودَّدنا إليه قدر استطاعتنا، ورجوناه أن يتناول شيئًا من طعام وقد صام طوال النهار، ولكنه رد تلطفنا معه، ورفض أن يأكل شيئًا، ولزم حجرته.

لم يتعكر صفونا وقد حسم الأمر على هذا النحو. وعاد الملازم الملكى على غير العادة، قد قضى سحابة نهاره ممتطيًا صهوه حصانه، وكانت حاجتنا إلى وجوده عند ذاك أشد منها فى أى وقت مضى، واندفعنا نحوه، وقبلنا يديه وعبرنا له عن ابتهاجنا، فبدا عليه الرضا كل الرضا. وقال على نحو أكثر ودًا من المألوف: "حسنا. إننى مسرور من أجلكم أيضًا يا أولاد". وأصدر على الفور أمرًا بإعطائنا الحلوى والنبيذ المحلى، وأجمل الأشياء، وسار إلى حجرته يحيط به حشد كبير من أصحاب الحاجات الملحة والطلبات والالتماسات.

ونعمنا بما لذّ وطاب، وأسفنا لأن أبانا لا ينال من هذه الطيبات اللذيذة شيئًا، وألححنا على أمنا أن تدعوه، ولكنها كانت أكثر منا كياسة، وكانت تعلم أن هذه الأشياء الحلوة فى هذا الوقت ستثير حنقه. وكانت أمنا قد أعدت فى هذه الأثناء شيئًا لطعام العشاء، وفكرت فى أن ترسل إلى أبى نصيبه فى حجرته، ولكنه لم يكن يرضى بالخروج على النظام مطلقًا وتناول الطعام فى غير حجرة الطعام مهما كانت الأسباب. ونحينا الحلوى جانبًا، وحاولنا أن نقنعه بأن ينزل إلى حجرة الطعام، وألححنا عليه فقبل على مضض، ولم نكن نتصور المصيبة التى ستحيق به وبنا من جراء تصرفنا هذا. كان السلم الداخلى يمر بكل الحجرات الخارجية، ولهذا كان على الأب أن يمر فى أثناء نزوله أمام حجرة الكونت، وكان الصالون المؤدى إليها قد امتلأ بالناس، مما حدا بالكونت أن يخرج إليهم لينجز شئون أكثريتهم دفعة واحدة، وحدث هذا فى اللحظة التى نزل فيها أبى، فأقبل الكونت نحوه وحياه وقال: "إذن فإنك مهنئنا ومهنئ نفسك على النهاية السعيدة التى انتهى إليها هذا الأمر الخطير". ورد عليه أبى حانقًا: "لا، لا على الإطلاق، بل لقد كنت أتمنى أن تحل بكم نكبة من الشيطان حتى ولو حلت بى معكم" وصمت الكونت لحظة ثم قام صارخًا وقد استبد به الغيظ: "ستدفع ثمن هذا، فلن تمر مثل هذه الإهانة التى ألحقتها بالقضية العادلة وبى دون عقاب."

ونزل الأب رابط الجأش، وجلس إلينا وقد بدا أكثر بشاشة. وشرع يأكل وسعدنا بذلك دون أن نعلم الطريق الخطير الذى سلكه ليخفف من الحسرة التى ملكت عليه قلبه. وما مرت برهة حتى أتى من استدعى الأم، فذهبت، ووجدنا متعة كبيرة فى مكاشفة أبينا بما قدمه إلينا الكونت من حلوى. ولم تعد الأم، وأخيرًا بعد طول انتظار، دخل علينا المترجم، وأشار إلى الأب إشارة ليرسلنا إلى فراشنا. وكان الوقت قد تأخر فأطعنا راضية نفوسنا بالطاعة. وقضينا ليلتنا فى نوم هادئ، فلما صحونا علمنا بالنازلة التى رجت أركان البيت مساء. فقد أصدر الملازم الملكى على الفور أمرًا باقتياد أبى إلى المخفر. وكان العاملون تحت إمرته يعلمون أن أوامره لا ترد بحال من الأحوال، ولكنهم كانوا فى بعض الأحيان يحسنون صنعًا، ويفعلون ما يستوجب الثناء، عندما يتريثون فى التنفيذ. ولقد نجح المترجم، بفضل بديهته الحاضرة التى لا يمسها فتور، فى أن يحثهم حثًا قويًا على أن يتريثوا. ولقد كان الهرج والمرج فى هذا الوقت يسمحان بستر هذا التباطؤ فى التنفيذ ويبررانه. وهكذا استدعى المترجم أمى ووضع مساعد الملازم بين يديها – إن صح هذا التعبير – لكى تتوسل إليه بالرجاء والتبرير أن يؤجل التنفيذ. وأسرع هو إلى الكونت – الذى كان قد سيطر على نفسه سيطرة عظيمة ولزم حجرته، وفضل أن يوقف أعماله الملحة لحظة، على أن يصب ما هاج فيه من غضب على رجل برىء، وأن يتخذ قرارًا يمس كرامته.

ولقد أعاد علينا صاحبنا المترجم البدين، المرة تلو المرة، الكلام الذى قاله للكونت والحوار الذى دار بينهما، ولم يقتر فى تعظيم نفسه وتمجيد ذاته على النجاح الذى حققه ببراعته، حتى إننى لا زلت أستطيع أن أسجل كلامه من الذاكرة.

جمع المترجم أطراف شجاعته وفتح باب مكتب الكونت ودخل عليه، وكان الكونت يكره هذا المسلك كل الكراهية، لذلك صاح مغضبًا: "ماذا تريد ؟ اخرج ليس لأحد سوى سان چان أن يدخل علىّ"

فأجاب المترجم: "فاعتبرنى سان چان لحظة واحدة".

إنما يتطلب هذا خيالا خصبًا. إن اثنين من نوع سان چان لا يعدلان رجلا فى مثل بدانتك. ابعد"

"يا سيدى الكونت، لقد خصتك السماء بموهبة عظيمة، وإنى لمناشدها."

"إنك تسعى إلى تملقى، فهل تظن أنك ستنجح فى ذلك؟"

"إنك يا سيدى الكونت، حتى فى لحظات الانفعال، ولحظات الغضب، تملك بزمام موهبة عظيمة ألا وهى الإنصات إلى أفكار الآخرين."

حسنًا. حسنًا. ولكنك ستتحدث بأفكار كثيرًا ما بلغنى. إننى أعلم علم اليقين أن الناس هنا لا يحبوننا، وأن هؤلاء المواطنين ينظرون إلينا شذرا."

"ليس كلهم"

"عدد كبير منهم. هه، أهل هذه المدينة يريدون أن يكونوا مواطنى مدينة إمبراطورية؟ لقد رأوا إمبراطورهم ينتخب ويتوج بين ظهرانيهم، فإذا تعرض لهجوم ظالم، وأوشك أن يفقد بلاده، وأن ينهزم أمام دخيل ينازعه سلطانه، ووجد لحسن الحظ حلفاء مخلصين يبذلون المال والدم لصالحه، فإنهم لا يرضون باحتمال العبء الهين الذى يقع عليهم عندما يذل عدو الإمبراطورية."

"إنك بطبيعة الحال تعرف هذه الأفكار منذ وقت طويل، ولقد صبرت عليها صبر الحكيم، وهى أفكار القلة القليلة من الناس. قلة قليلة بهرتها صفات العدو البراقة، ذلك العدو الذى تقدره أنت نفسك، وتصفه بأنه رجل فذ. وقلة قليلة كما تعلمون." قال: "نعم. لقد عرفت ذلك منذ وقت طويل وصبرت عليه، ولو لم أفعل لما تجرأ هذ الرجل فى هذه اللحظات العظمى بأن يلقى فى وجهى بهذه الإهانات. ومهما يكن عدد هؤلاء، فسيعاقب ممثلهم الجرىء حتى يعرفوا المصير الذى ينتظرهم."

"فالتأجيل، التأجيل، يا سيدى الكونت"

"هناك أمور تحتاج إلى الحسم الفورى، لا يكاد الإنسان يستطيع أن يسرع فى حسمها على النحو الكافى".

"تأجيل بسيط فقط".

"يا صاحبى، إنك تريد أن تغرينى باتخاذ خطوة خاطئة، ولن تنجح فى ذلك".
"إننى لا أفكر فى إغرائك على اتخاذ خطوة خاطئة، ولا فى ردك عن خطوة خاطئة. إن قـــرارك قرار عـــادل، وهو حقيق بالإنسان الفرنسى، وبالملازم الملكى، ولكن لا تنس أنك الكونت تورانك."

"ليس لهذا دخل فى الموضوع".

"إنما ينبغى الاستماع إلى الرجل".

"هه، وما عساه قائل؟"

"لطالما صبرت يا سيادة الملازم على أناس غامضين مكابرين حمقى، أساءوا ولم يسرفوا، أما هذا الرجل فقد أساء وأسرف بطبيعة الحال. ولكن عليك بالحلم يا سيادة الملازم الملكى، وسيمدحك على الحلم كل إنسان"

"إنك تعرف أننى أحب أحيانًا ألاعيبك المضحكة. ولكن لا تبالغ فى استغلال حسن نيتى. ماذا حدث لهؤلاء الناس؟ هل عموا تمامًا؟ هب أننا خسرنا المعركة، ماذا كانوا سيفعلون؟ فى تلك الحال كنا سنتقابل حتى أبواب المدينة، ونغلق البوابات ونصمد، وندافع عن أنفسنا لنغطى انسحابنا فوق الجسر. وهل تظن أن العدو كان سيقف مكتوف الأيدى؟ كان سيلقى بالقنابل، وبكل ما تصل إليه يداه، ويشعل النار حيثما استطاع. وماذا عن صاحب هذا البيت؟ له أن يتصور قنبلة حارقة سقطت على هذه الحجرات، وتلتها أخريات من خلفها. هذه الحجرات التى حافظت على ورق حائطها البكينى اللعين، وخجلت من أن أعلق عليها خرائطى. كان الأحرى بهم أن يركعوا شكرًا طوال النهار."

"ما أكثر الذين فعلوا هذا".

"كان الأحرى بهم أن يصلوا داعين لنا بالخير والبركة، وأن يرفعوا إلى الجنرالات والضباط آيات التكريم والابتهاج، وأن يقدموا إلى العامة المرهقين ما يرد إليهم نشاطهم بدلاً من أن يتصرف هذا المتعصب على هذا النحو، ويأتى بسمه فيفسد علىّ أجمل، وأسعد لحظات حياتى التى بلغتها بالكثير من الكد والكفاح".

"إنه رجل متعصب، ولسوف يزيده العقاب تعصبًا وسيصمكم أشياعه بالطغيان والبربرية. وسيعتبرونه شهيدًا عانى من أجل قضية عادلة، بل إن أصحاب الأفكار الأخرى الذين يقفون منه موقف المعارضة سيرون فيه واحدًا من مواطنيهم وبنى جلدتهم وسيعطفون عليه، وسيجدون أنك قسوت عليه، وإن كان الحق معك".

"ما أرى إلا أنك قد أطلت علىَّ، فانصرف الآن".

"بل اسمع منى كلمة أخيرة. فكر فى أن هذا العقاب هو أفظع ما يمكن أن يحل بهذا الرجل، بل بهذه الأسرة. وأنت لست بحاجة إلى الاطمئنان إلى حسن نية صاحب البيت. لقد عهدت صاحبة البيت تسارع إلى تحقيق كل رغباتك، وكان الأولاد يعتبرونك فى مقام عمهم أو خالهم. إنك بهذه الضربة الواحدة تحطم إلى الأبد روح السكينة والسعادة فى هذا البيت. نعم إننى أستطيع أن أؤكد لك أن القنبلة لا يمكن أن تحدث من التخريب أكثر مما سينجم عن عقابك. وأنا طالما أعجبت برباطة جأشك يا سيدى الكونت، فأتح لى هذه المرة فرصة لأرفع إعجابى بك إلى درجة العبادة. والمحارب الذى يأخذ نفسه بالكرم حتى فى بيت عدوه محارب شريف. واعلم أن هذا الرجل ليس من الأعداء، بل هو من الضالين. فاملك نفسك تصب شهرة لا تبلى مع الأيام"

وأجاب الكونت مبتسمًا: "ما أرى إلا أن تصرُّفى سيكون شيئًا عجيبًا".

فرد المترجم قائلاً: "بل سيكون شيئًا طبيعيًا. إننى لم أرسل السيدة والأولاد ليرتموا عند قدميك، لأننى أعلم أنك تبتئس لتلكم المشاهد. ولكننى أود أن أصف لك

حال السيدة والأولاد عندما يحمدون لك صنيعك، وأود أن أصفهم لك وألسنتهم تلهج طوال حياتهم بالحديث عن يوم (برجن)، وعن نبل قرارك فى هذا اليوم المشهود، ولسوف يحكون القصة لأولادهم ولأحفادهم، وسيبثون فى نفوس الآخرين التقدير لك. إن صنيعًا كهذا لجدير بالخلود"

قال: "إنك تصيب نقطة الضعف فى يا أيها المترجم. فأنا لا أحلم بالشهرة الخالدة، إنها من حق أناس غيرى، ولكنى أحرص على أن أحسن التصرف حينما تحين لحظة التصرف، وأحرص على ألا أتقاعس عن أداء واجبى، وعلى ألا أعرض شرفى لما يمسه. لقد طال حديثنا، فاذهب الآن ودع ناكرى الجميل الذين أبقى عليهم يشكرونك".

وجاءت هذه النتيجة السعيدة مفاجأة لى، فهاجت نفسى ولم أستطع أن أحبس الدموع، ووددت أن أقبل يدى الكونت، ولكنه ردنى وقال مقالة الرجل الحاسم الحاد: "أنت تعلم أننى لا أحب أن يقبل أحد يدى" ثم خرج إلى الصالون لينجز الأعمال الملحة، وليسمع مطالب الكثيرين الذين كانوا ينتظرون.

وهكذا سويت المسألة، واحتفلنا نحن الأولاد فى الصباح بمرور المحنة التى هددتنا عندما كنا نغط فى سبات عميق، فأكلنا بقية الحلوى التى تلقيناها هدية من الكونت بالأمس.

هل تكلم المترجم مع الكونت فعلا بهذه الحكمة؟ أم هل صور المشهد على هذا النحو الممتاز كما اعتاد الناس أن يفعلوا عندما تنتهى الحادثة المؤرقة إلى نهاية طيبة سعيدة؟

هذا ما لا أستطيع القطع به، كل ما أستطيع قوله هو أن المترجم كان على الأقل يعيد القصة على النحو نفسه بلا تغير. وأيا كان الأمر فقد ظل هذا اليوم بالنسبة إليه أكثر أيام حياته همًا وأعظمها فخارًا.

أما أن الكونت كان يرفض كل تفخيم زائف، ويرفض كل لقب لا حق له فيه، وأنه كان لطيفًا فى ساعات صفائه، فأمر تشهد عليه الحادثة التالية.

رأى واحد من أعيان فرنكفورت الذين انطبعت حياتهم بطابع العزلة العجيبة أن لديه من الأسباب ما يجعله يشكو من إيواء جنود فرنسيين فى بيته، فأتى بنفسه، وعرض عليه المترجم خدماته فاعتقد الرجل أنه ليس بحاجة إليها، وتقدم إلى الكونت، وانحنى انحناءة مهذبة، وقال: "يا صاحب السعادة". فاستنكر الكونت الانحناءة، واللقب، وانحنى انحناءة مماثلة، ونادى على الرجل بنفس النداء: "يا صاحب السعادة" فظن الرجل أن انحناءته لم تكن كافية، وأن اللقب الذى استعمله كان دون قدر الكونت، فانحنى انحناءة أخرى أشد من الأولى وقال: "يا صاحب المقام الرفيع" فقال الكونت "لا داعى للاستمرار فى هذا التصعيد، وإلا لوصلنا بسهولة إلى يا صاحب الجلالة." وارتبك الرجل أشد الارتباك، ولم يجد كلمة يقولها وكان المترجم يقف منهما غير بعيد، وفهم كل شىء، ولكنه آثر الخبث فلم يتحرك واستأنف الكونت كلامه هاشًا باشًا: "لنأخذ مثلا اسمك يا سيدى. ما اسمك ؟ فرد الرجل "اسمى شـپانجنبرج" وقال الكونت: "وأنا اسمى تورانك. ماذا تريد يا شـپانجنبرج من تورانك؟ هيا بنا نجلس ونسوى الموضوع على الفور" وهكذا سوى الموضوع على الفور، وعلى النحو الذى أرضى من أسميته هنا شبانجيرج كل الرضا، وجاء إلينا المترجم مساء اليوم نفسه ليتشفى فى الرجل، وحكى فى جلستنا العائلية الحكاية بكل تفصيلاتها، بل بكل حركاتها وسكناتها.

وعاد الاطمئنان القديم بعد صنوف الارتباك والقلق والمنغصات وعاد العبث الذى يعيش به الشباب يومًا بعد يوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل، واشتد شغفى بالمسرح الفرنسى مع كل حفلة أحضرها، ولم أكن أتأخر عن أى منها، على الرغم من أننى كنت عندما أعود إلى البيت مساء، أجلس إلى الأسرة المجتمعة إلى مائدة العشاء، راضيًا بالبقايا المتبقية من الطعام، أتعرض صابرًا للوم أبى الذى كان يعيد على مسامعى أن المسرح لا يفيد فى شىء، ولا يوصل إلى شىء على الإطلاق، وكنت أرد عليه بالحجج التى يستند إليها المدافعون عن المسرح عندما يقعون فى مأزق من نوع مأزقى، وأنتهى إلى الخلاصة المتمثلة فى أن العدالة الشعرية تحدث

فى النهاية التوازن بين الرذيلة فى الهناء. والفضيلة فى التعاسة[٦٨]، وكنت أستشهد بأمثلة جميلة على العقاب الذى يكيله كتاب المسرحية على الآثام، فأذكر فى حماس شديد مسرحية "مس سارا سامپسون"[٦٩]. ومسرحية "تاجر لندن"[٧٠]. ولكنه كان يفحمنى عندما يذكر لى "مقالب سكاپان"[٧١] وما إليها ويلومنى على أننى أتمتع صراحة بأعمال الغش التى يسترسل فيها الأوباش، وبالنجاح الذى تحققه السخافات التى يكتبها الشبان الرعناء. ولم يكن أى منا يستطيع أن يقنع الآخر بوجهة نظره. ولكن أبى ما لبث أن رضى عن المسرح عندما رأى السرعة الخارقة التى نمت بها عن طريقه معرفتى باللغة الفرنسية.

ولقد جبل البشر على صفات منها أن الواحد إذا رأى شيئًا يفعله الآخرون أحب أن يفعله هو أيضًا سواء كانت لديه الموهبة أم لم تكن لديه. كنت قد شاهدت برنامج المسرح الفرنسى كله، وفيه تكرر عرض العديد من المسرحيات مرتين أو ثلاث مرات، ومرت أمام عينى وعقلى كل المسرحيات، من أكثر المسرحيات المأسوية جلالا إلى أكثر التمثيليات المقلدة سذاجة. كنت فى طفولتى قد تجرأت فقلدت (تيرنس)[٧٢] وهأنذا أجد حافزًا أشد قوة وإلحاحًا يدفعنى إلى تقليد النماذج الفرنسية بما أوتيت من مقدرة أو عجز. كان المسرح قد عرض بعض المسرحيات نصفها من الأساطير ونصفها الآخر من الرمز على طريقة (پيرون)[٧٣]، وكانت تتميز بالمعارضة التهكمية، وقد أعجبتنى هذه المسرحيات أشد الإعجاب، وشدتنى الصور المعروضة على نحو خاص: الأجنحة الذهبية الصغيرة التى اتخذها (مركور) مرحًا، والصدفة التى يتوقع فيها (جوبتر) والغانية (دانية) – أو أية حسناء أخرى تزورها الآلهة – فقد تكون راعية أو صيادة تتنزل عليها الآلهة. ولما كانت مثل هذه العناصر الفنية تهفو إلىَّ صادرة من كتاب "التحورات" لأوڤيد، ومن كتاب "الپانتيون الأسطورى"[٧٤] تأليف پوماى، وتتشبث برأسى محدثة أزيزًا وطنينًا، فقد كونت فى خيالى – دون ريث – تمثيلية من هذا النوع، لا أستطيع أن أقول عنها الآن إلا إنها

كانت تدور فى إطار ريفى، وأنها كانت عامرة بالأميرات والأمراء والآلهة، وكان (مركور) هو أشد الشخصيات حضورًا فى وجدانى حتى إننى كنت أوشك أن أقسم على أننى رأيته رأى العين.

وأعددت نسخة من هذه المسرحية، كتبتها بخط جميل كل الجمال، وعرضتها على صديقى ديرونس فتلقاها بالتقدير الواضح، ونظر إليها نظرة دونها نظرة الحريصين على رعاية الفنانين، وأظهرنى على بعض الأخطاء اللغوية، وبعض المواضع المسرفة فى الطول، ثم وعدنى بأن يدرس المسرحية عندما يتاح له الفراغ اللازم لمثل هذا العمل، ووعدنى بأن يقِّيمها. فلما سألته متواضعًا، إذا كانت المسرحية يمكن أن تمثل على المسرح أكد لى أن هذا ليس من المحال، وأن كثيرًا مما يجرى فى عالم المسرح رهن بالحظوة، ووعدنى بأن يرعانى مخلصًا، وحثنى على أن أتكتم الأمر فقد حدث له أن فاجأ إدارة المسرح بمسرحية من تأليفه دون أن يذكر أنه هو الذى كتبها، ومن المؤكد أنها كانت ستمثل، لو لم يكتشفوا قبل الأوان أنه هو مؤلفها. فوعدته بكل ما أستطيع من كتمان، وتصورت فى خيالى اسم مسرحيتى مكتوبًا بحروف كبيرة فى إعلانات معلقة على كل أركان الشوراع.

وعلى الرغم من سذاجة صديقى، فقد رحب كل الترحيب بالفرصة التى أتيحت له ليلعب دور الأستاذ فقرأ المسرحية باهتمام، ثم جلس إلىَّ ليغير حسب قوله بعض الأشياء الطفيفة، فإذا به فى أثناء الحديث يقلب المسرحية كلها رأسًا على عقب، فلم يبق فى بنائها حجر على حجر. كان يحذف ويضيف، ويستبعد هذه الشخصى، ويضع آخر بدلا منه والخلاصة أنه تعسف معى أعجب تعسف يمكن أن يحدث لإنسان على وجه البسيطة، حتى انتفض شعر رأسى كله. لقد تعجلت الحكم، واعتقدت أنه قادر على فهم المسرحية فأتاح له هذا أن يفعل كل ما بدا له: فكثيرًا ما تحدث إلى من قبل عن الوحدات الثلاث عند أرسطو، وعن نظام المسرح الفرنسى، وعن الاحتمال، وانسجام الأبيات الشعرية وما يتصل بها من أمور حتى إننى اعتبرته على علم بها بل وبأسبابها. وكان يسب المسرحيين الإنجليز ويحتقر المسرحيين

الألمان. والخلاصة أنه تلا علىّ كل أوراد الفن المسرحى التى ظننت سمعتها فيما بعد.

وحملت – مثلى مثل الصبى فى الحكاية – مؤنبًا نفسى إلى البيت، وحاولت أن أصلح النص، فذهبت محاولاتى أدراج الرياح. ولم أكن لأرضى بالتخلى عنه تمامًا، فقد طلبت إلى الكاتب الذى يعمل لدى أن ينسخ مخطوطى الأول، بعد أن أدخلت عليه بعض التغيرات، وقدمت النسخة النظيفة إلى أبى. وكانت نتيجة تقديمى هذه المسرحية المكتملة إليه أنه تركنى وشأنى حتى أصبحت أستطيع أن أتناول العشاء فى هدوء.

ولقد حفزتنى هذه المحاولة الفاشلة على التفكير. وقررت أن أتعرف إلى هذه النظريات والقوانين التى يستند إليها الجميع، والتى دفعنى خطأ أستاذى المدعى إلى التشكك والارتياب فيها، وقررت أن أطلع عليها فى مصادرها الأولى. ولم يكن ذلك بالشىء الصعب أو العسير. وبدأت بقراءة مقال فى الوحدات الثلاث[75] لكورنى، وعرفت منه ما يطالب به المتمسكون بالوحدات الثلاث فى المسرح. ولكننى لم أقتنع بأسبابهم ومبرراتهم، بل ترديت إلى حال أشد سوءًا. فقد استبدت بى الحيرة عندما قرأت عن المشاحنات التى دارت حول مسرحية "السيد". وقرأت المقدمات التى اضطر (كورنى) و(راسين) إلى كتابتها للدفاع عن نفسيهما أمام النقاد والجمهور وتبينت بوضوح دونه كل وضوح أنهم جميعًا لا يعرفون ما يريدون، وعلمت أن مسرحية "السيد" تأليف كورنى، تلك التى أحدثت أثرًا رائعًا كل الروعة، صدر أمر قاطع من الكاردينال[76] المستبد باعتبارها عملا رديئًا وعلمت أن راسين الذى كان الفرنسيون المعاصرون له يرفعونه إلى مصاف آلهة المسرح. والذى كنت أنا أيضًا أقدره مثل هذا التقدير (فقد أتيحت لى الفرصة إلى التعرف على أعماله عن كثب عندما جعلنا المستشار أولنشلاجر نمثل مسرحيته "بريتانيكوس" ولعبت أنا فيها دور نيرون) لم يصل فى زمانه إلى حل مع المعجبين به، ولم يصل إلى حل مع قضاة الفن.

وأدى بى هذا كله إلى جمع مزيد من الخبرة. فلما طال عذابى مع هذا الكلام الذى يذهب تارة إلى ناحية وتارة إلى ناحية أخرى، ومع هذا السخف النظرى الذى انتشر فى القرن الماضى، انصرفت عن الموضوع برمته. وهكذا نبذت كل هذا السخف بتصميم زاد فى قوته ما اعتقدت أننى أدركته من أن الكتاب الذين أبدعوا الأعمال العظيمة، إذا شرعوا يتحدثون عنها ويذكرون أسبابها وأعذار ومعاذيرهم، مدافعين عن أنفسهم، أو ساعين إلى إبراز نواحى الجمال فيها، لم يوفقوا دائمًا، ولم يبلغوا الهدف المنشود. ولهذا أسرعت إلى الأعمال الحية الماثلة أمامى، وزدت حماسًا فى الاختلاف إلى المسرح، وعكفت على القراة بمزيد من الدقة والمثابرة، وأكببت على أعمال (راسين) و(موليير) فدرستها جميعًا، وعلى أعمال (كورنى) فدرست أغلبها.

وكان الملازم الملكى لا يزال يقيم فى بيتنا، ولم يغير من مسلكه تجاهنا. ولكننا تبينا شيئًا سعى صاحبنا المترجم إلى توضيحه لنا، وهو أن الكونت لم يعد يؤدى أعماله بما كان يؤديها به من بشاشة وإقبال، وأنه لم يعد يتصرف بما عهد فيه من حماس، وإن ظل متمسكًا بمبادئ الأمانة والإخلاص. وأغلب الظن أن سماته الشخصية، وتصرفاته وطباعه التى كانت أقرب إلى طباع الإسبان منها إلى طباع الفرنسيين، ونزاوته التى كانت تؤثر على عمله أحيانًا، وطريقته فى معاندة الظروف، وحساسيته حيال كل شىء يمس شخصه أو خلقه، كل هذه الأمور أوقفته من رؤسائه موقف التصادم يضاف إلى ذلك أنه أصيب بجرح فى أثناء مبارزة تورط فيها وهو فى المسرح، وأخذ عليه رؤساؤه ارتكابه هذه الفعلة المقيتة التى ما كان ينبغى له أن يرتكبها، إذ هو الرئيس الأعلى للشرطة، وأغلب الظن أن هذه الأمور كلها أسهمت فى زيادة اعتزاله، ولعلها جعلته أقل حسمًا.

وتمت فى هذه الأثناء كمية كبيرة من اللوحات التى طلبها الكونت تورانك، وكان يمضى وقت فراغه فى تأملها، فكان يثبتها بمسامير بعضها بجانب البعض الآخر، العريضة منها والضيقة، بل كان يثبتها أحيانًا بعضها فوق البعض الآخر إذا لم يتسع لها المكان، فإذا فرغ من تأملها رفعها ولفها. وكان يعود إلى تأملها من

جديد، ويتمتع المرة بعد المرة بالمواضع التى كانت يرى أن الرسامين برعوا فيها كل البراعة، وكان أحيانًا يفكر فى تعديلات أو إضافات فيطلب إلى الرسامين تنفيذها.

وهنا بدأت عملية غريبة كل الغرابة فقد أدرك الكونت أن هذا الرسام يجيد رسم الأشخاص وذاك رسم المساحات المتوسطة والبعيدة، والثالث الأشجار والرابع الزهور، ففكر فى أن يجمع المواهب معًا فى لوحات تنشد الكمال. وانتقل من التفكير إلى التنفيذ فكلف رسامًا بأن يضيف إلى لوحة تمثل منظرًا طبيعيًا بعض قطعان الغنم الجميلة. ولما لم تكن باللوحات أماكن مناسبة للإضافات، ولم يكن رسام الحيوانات يهتم بعدد الأغنام زيادة أو نقصًا، فقد ضاق المنظر الطبيعى على سعته، ثم أتى رسام الأشخاص ليضيف بعض الرعاة والمارة، فبدوا متزاحمين يكاد الواحد منهم يزاحم الآخر فيما يتنفسه من هواء، حتى إن الناظر ليدهش كيف لا يختنقون فى هذا الخلاء الرحيب. ولم يكن هناك من يستطيع التنبوء بما ستكون عليه اللوحة بعد الإضافات، فإذا انتهت الإضافات اضطربت اللوحة، وغضب الرسامون. كان الرسامون قد نجحوا فى عملهم الذى كلفهم به الكونت فى البداية، فرسموا اللوحات – وهاهم أولاء يخسرون عندما كلفهم بهذه الأعمال التكميلية على الرغم من أنه أغدق عليهم من ماله بسخاء، ولما لم تحدث الأجزاء المختلفة التى رسمها الرسامون مختلطة بعضها بالبعض الآخر أثرًا طيبًا، على الرغم من اجتهادهم الشديد، فقد تصور كل واحد منهم أن أعمال الآخرين أفسدت عمله وبددته، وسرعان ما تشاجر الفنانون، ونشبت بينهم العداوة، ولم يعد هناك من سبيل إلى التوفيق بينهم. كانت هذه التعديلات أو الإضافات تتم فى المرسم الذى أشرت إليه من قبل، والذى كنت أبقى فيه وحدى مع الفنانين، وكنت أجد متعة فى مطالعة الرسوم التمهيدية التى يعدها هؤلاء لبعض العناصر وبخاصة الحيوانات، وكنت أستخلص منها ما يروق لى، وأقترح عليهم رسمها فى اللوحة فى المنظور القريب أو البعيد، وكانوا يستحسنون اقتراحاتى، إما عن اقتناع أو عن مجاملة.

وهكذا ضاقت صدور المشاركين فى هذه العملية إلى أقصى حد، وبخاصة الرسام (زيكاتس)، وكان رجلا سريع الاكتئاب، منطويًا على نفسه، وإن عرف عنه أنه إذا جلس إلى أصحابه صفا مزاجه إلى حد لا يدانيه فيه أحد، وبز الجميع فى المرح والمسامرة، أما إذا عمل، فإنه كان ينطوى على نفسه ويفضل أن يكون على سجيته. كان هذا الرجل قد أنجز المهام الصعبة التى كلف بها بالجد، وبالحب الفائق الذى كان قلبه دائمًا قادرًا عليه، وأصبح عليه الآن أن يأتى من درامشتات إلى فرنكفورت مرارًا، إما ليعدل بعض الأشياء فى لوحاته، أو ليضيف بعض الأشياء إلى لوحات الآخرين، أو ليعين رسامًا آخر على تحويل لوحاته إلى صورة مزركشة. واشتد حنقه، وازدادت مقاومته حدة، وكان من الضرورى أن نبذل جهودًا كبيرة لكى نجعل صاحبنا هذا الذى ارتبط بنا فى هذه الأثناء برباط الشبانة – يستجيب لرغبات الكونت. ولازلت أذكر، عندما أعدت الصناديق لتوضع فيها اللوحات جميعها بالترتيب المحدد للنقاشين ليثبتوها عند وصولها فى الأماكن المخصصة لها، أن الكونت تبين أن هناك ضرورة لتعديل لا سبيل إلى التجاوز عنه، وطلب إحضار زيكاتس، ولكنه أبى، ولم تفلح كل الوسائل فى تحريكه من مكانه. وكان، والحق يقال، قد بذل قصارى جهده، فصور العناصر الأربعة على شكل أطفال وصبيان ينبضون بالحياة، وأنجز صوره هذه لتزين الأبواب، واجتهد أعظم الاجتهاد لا فى تصوير الشخصيات فحسب، بل فى تصوير العناصر الإضافية أيضًا، واعتقد أن الموضوع قد انتهى، وأنه لم يعد له به شأن، ثم جاءه من يطلب إليه أن يسافر إلى فرنكفورت من جديد لكى يضيف بعض لمسات قليلة من فرشاته يوسع بها اللوحات التى تبين أنها دون المقاسات المطلوبة. وكان رأيه أن أى رسام آخر يستطيع أن يقوم بهذا العمل، وقال إنه شرع فى عمل جديد لا يستطيع أن يتركه، وإنه باختصار لا يستطيع الحضور. وكانت عملية الشحن قد أزف موعدها، وكان من الضرورى الأخذ فى الاعتبار أن الإضافات المطلوبة بعد أن تتم ستحتاج إلى وقت لكى تجف، ولهذا فإن التأخير كان شيئًا قبيحًا، واحتار الكونت أشد حيرة، وخطر بباله أن يحضر الرسام بالوسائل العسكرية ، وكنا جميعًا نرجو أن تنتهى عملية شحن اللوحات بسلام، حتى

ينتهى الموضوع، ولم نجد حلا آخر سوى وضع صاحبنا المترجم فى عربة، وإرساله إلى الرسام المعاند ليحضره هو وزوجته وابنه الصغير. ونجح المترجم فى مهمته، وأتى الرسام، فأحسن الكونت إليه واستقبله استقبالاً طيبًا وأكرمه ونفحه الكثير من الهدايا عندما فرغ من العمل وتأهب للرحيل(٢٧).

فلما خرجت الصور من البيت ساده هدوء عظيم، فنظفت الحجرة العلوية وأعيدت إلىّ. أما أبى، فعندما رأى الصناديق تخرج من البيت، لم يستطع أن يمنع نفسه من التعبير عن أمنيته فى أن يرمى الكونت من ورائها. صحيح أن ميول الكونت الفنية كانت تتفق مع ميوله اتفاقا كبيرًا ولا بد أن أبى سعد برؤية المبدأ الذى آمن به، والذى يقوم على الاهتمام بالفنانين المعاصرين، وقد اتبعه رجل أوسع منه ثراء، ولابد أنه أحس بالفخر لأن مجموعة لوحاته كانت السبب فى تمكين عدد من الفنانين الطيبين من كسب مال كثير فى مثل هذا الوقت الصعب. ولكنه على الرغم من ذلك كان يحس بالنفور من هذا الأجنبى الذى احتل بيته، إحساسًا جعله لا يرى فى أى تصرف من تصرفاته خيرًا. كان من رأى أبى أن تشغيل الفنانين واجب، وأنه لا ينبغى لأحد أن يحط من قدرهم فيكلفهم برسم صور للحيطان والأبواب، وكان من رأيه أنه ينبغى على الإنسان أن يرضى بأعمال الفنان التى ينتجها عن اقتناع ذاتى وموهبة خالصة، حتى إذا لم يرتح إليها كلية، وليس للإنسان أن يعيبها أو يقرعها بدون روية. والخلاصة أن قيام علاقة بين أبى والكونت كانت ضربًا فى المحال، على الرغم من أن الكونت كان شديد الحرص على أن يسلك مسلك الإنسان المتحرر فكريًا. ولم يكن أبى يذهب إلى الحجرة العلوية إلا إذا كان الكونت على مائدة الطعام، ولكنى لا زلت أذكر مرة واحدة التقى فيها أبى والكونت فى الحجرة العلوية، فقد أحس الرسام (زيكاتس) فى لحظة من لحظات التجلى أنه تفوق على نفسه فى بعض اللوَحات وطالب بأن يأتى كل من بالمنزل ليروها، واجتمع أبى والكونت على رأى واحد هو الإعجاب المشترك بها – أما أن يجد أحدهما فى الآخر شيئًا يرضى عنه فهذا هو الأمر الذى استحال علميًا.

وما كادت الصناديق الكبيرة والصغيرة تبرح البيت، حتى عاد أبى يستأنف مسعاه الذى بدأه من قبل ثم تركه حينا، ليبعد الكونت عن البيت. وحاول استمالة أصحاب الحل والعقد فى أمور إيواء الجند، تارة بالحجج التى تبين عدالة المطالب، وتارة بالالتماسات التى تبين سلامة الموقف الذى وقفه، وتارة ثالثة بوسائل أصحاب النفوذ، حتى أصدر السادة المسئولون عن إيواء الجنود قرارهم بنقل الكونت ورفع اليد عن البيت مستقبلاً كمكان للإيواء نظرًا لما تحمله صاحبه من عبء منذ سنوات ليلاً ونهارًا. وقيل لأبى إن عليه أن يخلق مبررًا صوريًا فيؤجر الدور الأول الذى يشغله الملازم الملكى حاليًا حتى يكون المستأجرون سببًا فى جعل العودة إلى إيواء جنود فى البيت شيئًا مستحيلاً. وقبل الكونت القرار بلا معارضة، فلم يعد بعد انفصاله عن لوحاته الحبيبة يهتم بالبيت اهتمامًا خاصًا، وقبل أن ينقل إلى مسكن جيد آخر، وانصرف عنا بسلام وما لبث أن رحل عن المدينة كلها، وكلف بعد ذلك بمهام مختلفة متوالية، وإن سمعنا أنه لم يكن راضيًا عنها. ولكنه سعد على أية حال بالتطلع إلى اللوحات التى اجتهد فى استرسامها اجتهادًا كبيرًا، بعد أن وضعت فى أماكنها الموسومة بقصر أخيه، وكتب إلينا عدة مرات، وأرسل إلينا مقاييس لوحات جديدة طالبًا إلينا أن نكلف الرسامين المشهورين برسمها. وأخيرًا انقطعت عنا أخباره، حتى سمعنا بعد سنوات عديدة، أنه مات فى جزر الهند الغربية، فى إحدى المستعمرات الفرنسية، وكان يشغل فيها منصب المحافظ(٧٨).



الكتاب الرابع

وعلى الرغم من أن إيواء الضابط الفرنسى فى بيتنا قد سبب لنا الضجر، فإننا كنا قد اعتدناه وألفناه لدرجة أننا أحسسنا بالوحشة إليه، ووجدنا نحن الأولاد، أن البيت قد خيم عليه سكون دونه سكون القبور. ولم يتح القدر لأسرتنا أن يجتمع شملها فى بيتها وحدها دون غرباء، فقد تم الاتفاق مع مستأجرين. وعاد البيت على أية حال إلى رونقه القديم، بعد الكنس والمسح والكشط والتلميع بالشمع والطلاء والدهان. وجاء المدير الإدارى موريتس وأهله ليسكنوا فى بيتنا، وكانوا من أعز أصدقاء والدى. ولم يكن السيد موريتس من أهل فرنكفورت أصلاً، ولكنه كان رجل قانون عرف بالنشاط، ورجل أعمال حقق النجاح، وكان يتولى الأعمال القانونية لعدد من صغار الأمراء والبارونات والنبلاء، ولا أذكر أننى رأيته قط إلا باشا ودودًا مكبًا على أوراقه ومستنداته. كذلك كانت زوجته وأولاده أهل رقة وسكون وطيبة، وإن لم يوسعوا نطاق التسامر فى بيتنا، لأنهم كانوا يعيشون حياتهم مستقلين عنا. وهكذا عاد إلى البيت ما لم ننعم به منذ وقت طويل من السكينة والسكون وعدت أقيم فى حجرتى العلوية، تطوف بخيالى فيها أحيانًا أشباح اللوحات الكثيرة التى رسمت فى جنباتها، واستعنت بالدراسة والعمل على صرف هذه الأشباح عن خيالى.

وكان من نتائج إقامة المدير موريتس فى بيتنا تكرار زيارات أخيه المستشار موريتس لنا، وكان رجلا تغلب عليه سمة العارف بما يدور فى دنيا الكبار، هيئته مهيبة، ومسلكه ودود مريح. وكان مثل أخيه يؤدى أعمالاً فى خدمة عدد من الكبراء، وكان يتصل بأبى مرارًا فى أمور تتصل بالتصفيات، والمهام القيصرية. وكانا يثقان أحدهما فى الآخر، وكانا بصفة عامة يقفان فى صف الدائنين، بينما اعتادت أغلبية

المنتدبين لتسوية مثل هذه الأمور الوقوف في صف المدينين. وكم عبرا عن تبرمهما بهذا المسلك المتحيز. وكان المستشار موريتس يحب نقل عمله إلى الآخرين، وكان شديد الشغف بالرياضيات، ولما لم يكن للرياضيات دور فيما كان يمارس من عمل، فقد وجد متعة في مساعدتي على دراستها وإحراز التقدم فيها. وهكذا استطعت بفضله أن أطور الرسومات المعمارية التي كنت أرسمها، وأفدت على نحو أفضل من دروس معلم الرسم التي كانت تشغلني ساعة كل يوم.

وكان معلم الرسم هذا رجلاً طيبًا، متقدمًا في السن. لم يسر في طريق الفن إلا إلى منتصف الطريق، كان يعلمنا كيف نخط خطوطًا أولية، وكيف نضمها بعضها إلى البعض الآخر لنكون منها عيونًا وأنوفًا وآذانًا، ثم نجعل منها في النهاية وجوهًا ورؤوسا، ولكنه لم يكن يفكر لا في شكل طبيعي ولا في شكل فني. وكانت النتيجة أنه أرهقنا حينًا بهذا البديل للشكل الإنساني، وظن في النهاية أنه بلغ بنا شأوًا بعيدًا عندما كلفنا بأن ننقل ما كان يسمى بمؤثرات لوبران[79]، وما كانت إلا صورًا مهزوزة لم تتقدم بنا إلى شيء. ثم تحول بنا بعد ذلك إلى رسم المناظر الخلوية والأشجار والأشياء التي يتمرن عليها الدارس في التعليم المألوف بلا منهاج، والتي لا تصل به إلى نتيجة. وأخيرًا وصلنا معه إلى مرحلة النقل الدقيق المطابق للأصل، وإلى الاهتمام بنظافة الخطوط، دون نظر إلى قيمة الأصل وذوقه.

وسبقنا الوالد في هذا النشاط سبقًا نموذجيًا، فهو لم يكن قد تعلم الرسم من قبل قط، ولكنه – وقد قرر أن يتعلم أولاده هذا الفن – لم يرض بالتأخر عنهم، بل آثر أن يكون قدوة لهم، على الرغم من سنه، وأن يبين لهم ما ينبغي عليهم أن يفعلوه في صباهم، وهكذا شرع ينسخ بعض الرؤوس نقلاً عن (پياتسيتا)[80] في لوحاته المشهورة ذات الحجم الصغير، وكان أبي يستخدم في الرسم القلم الإنجليزي وأحسن ورق هولندي. ولم يكن يحرص فقط على النظافة القصوى في نقل الخطوط التي تأتلف منها الصورة ذاتها، بل كان أيضًا ينقل خطوط الحفر في النحاس، ويدقق في ذلك دقة مفرطة، ويخف يده على نحو مسرف، حتى أدى سعيه

هذا إلى رسم لوحات تفتقر إلى التماسك. ولكنها كانت على الرغم من ذلك تتسم بالرقة وبالتناسق كل الرقة وكل التناسق. ووصل به اجتهاده الذى لا يعرف الكلل، ودأبه الذى لا يعتوره الملل، إلى أنه رسم المجموعة الكبيرة كلها، نقلها مسلسلة، لوحة بعد لوحة، فى الوقت الذى كنا فيه – نحن الأولاد – نختار رأسًا ونترك رأسًا آخر، ولا نرسم إلا ما يحلو لنا.

وفى هذا الوقت أيضًا خرجت إلى حيز التنفيذ فكرة طالما دار التشاور حولها وانعقدت من أجلها النية، وهى تعليمنا الموسيقى، والخطوة الأخيرة فى هذا المضمار جديرة بأن أتحدث عنها. كان القرار قد اتخذ بأن نتعلم العزف على البيانو، ولكن اختيار المعلم ظل مسألة طال من حولها النقاش حتى أوشك ألا ينتهى إلى نهاية. وحدث أن دخلت فى ذلك الوقت مصادفة حجرة أحد زملائى ووجدته يتلقى دروسًا فى البيانو، ووجدت معلمه رجلاً لطيفًا إلى أقصى حد، فقد أطلق على كل إصبع من أصابع اليد اليمنى واليد اليسرى اسمًا ظريفًا مسليًا كل التسلية، يعين على حسن استخدام الأصابع فى العزف، كذلك أطلق أسماء تصويرية على ملامس البيانو، السوداء والبيضاء، وأسماء استعارية على النغمات نفسها، وخلق بهذا باقة مزركشة من عناصر ملونة تعمل على نحو ممتع شيق، وجعل وضع الأصابع وضبط الإيقاع شيئًا سهلاً واضحًا، والتلميذ يحفزه الفرح البالغ ويتعلم على أجمل صورة.

وما عدت إلى البيت حتى حدثت والدى بما رأيت وحثثتهما على اتخاذ خطوة جادة واختيار هذا الرجل الفريد الذى لا يدانيه أحد ليكون المعلم الذى نأخذ عنه عزف البيانو، وآثرا التمهل وجمع المعلومات عنه، فلم يبلغهما عنه شىء قبيح، ولكنهما لم يسمعا أيضًا أنه يتسم بميزات خاصة فارقة. وكنت قد قصصت على أختى فى هذه الأثناء قصة الأسماء الطريفة التى يستخدمها، فاشتد شوقنا، ولم نعد نطيق الصبر، وما زلنا نلح حتى قرر والدنا اختيار المعلم.

وبدأت الدراسة الموسيقية بقراءة النوتة، ولم نجد من المعلم فيها مزاحًا فعزينا أنفسنا، وعقدنا الأمل على أن يتغير الوضع عندما نبدأ فى استخدام الأصابع

للعزف على البيانو، وتصورنا أن روحه المرحة لن تلبث أن تنطلق من عقالها، ولكننا تبينا أن ملامس البيانو ووضع الأصابع، عندما جاء دورها، لم تحفزه على شيء من تشبيه أو استعارة، وظل حديثه عن الملامس السوداء والملامس البيضاء جافًا كحديثه عن نغمات النوتة بخطوطها وأوضاعها بين السطور الخمسة، ولم يفتح المعلم فمه بحرف واحد عن "لحَاس السمنة" ولا عن "لبّاس الخواتم" ولا "عن قصّاع القملة" ولم تنفرج أسارير الرجل وهو يتوغل فى الدروس الجامدة بأفضل مما انفرجت عنه من قبل، ولم يعرف المرح والمزاح سبيلهما إليها[٨١] ووجهت إلىّ أختى اللوم المرير؛ لأنها كانت على يقين من أننى خدعتها ومن أن كلامى عن المدرس كان محض اختراع. كذلك أنا كنت كالتائه، ولم أتعلم كثيرًا من الدروس، على الرغم من أن الرجل كان يبذل معنا جهدًا لا غبار عليه، لأننى كنت طوال الوقت أنتظر أن تأتى اللحظة التى يبدأ فيها المزاح الذى رأيته يمارسه، وكنت أستمهل أختى يومًا بعد يوم، ولكن الرجل لم يمزح على الإطلاق، وما كنت سأعرف السبيل إلى حل هذا اللغز لو لم تُعِنّى المصادفة. فقد حدث أن دخل علينا فى أثناء درس الموسيقى أحد أصحابى، وإذا بينابيع المزاح كلها تتفجر لدى المدرس، وإذا به يتحدث عن "الصغير الشاطر" و"لباس الخواتم" و"الطويل الهايف" و"لحاس السمنة" و"قصاع القملة"، والصولا واللالا والسيسى والدودو، ويعيد ويزيد فى التسميات الهزلية، وأغرق صاحبى فى الضحك فرحًا بأن تكون هناك مثل هذه الطريقة الضاحكة لتعلم الموسيقى، وأقسم على أن يلح على والديه لكى يكلفا مثل هذا الرجل الفريد بتعليمه.

وأيًا كان الأمر فقد انفتح أمامى فى ذلك الوقت، على أساس من مبادئ علم تربوى جديد، الطريق فى سنوات مبكرة من حياتى إلى فنين هما الرسم والموسيقى، مصادفة، وبلا اقتناع، وتأكد لى أن الموهبة الفطرية يمكن أن تساعدنى فيهما. وكان أبى يرى أنه ينبغى على كل إنسان أن يتعلم الرسم، وكان لهذا السبب يجل الإمبراطور ماكسيميليان الذى أُثر عنه أنه كان يأمر بتعلم الرسم ويلح فى هذا

الأمر إلحاحًا. وكان أبى يحضُّنى على الاهتمام بالرسم أكثر من الموسيقى، ويحث أختى على الاهتمام بالموسيقى خاصة ويحضها على الجلوس إلى البيانو وقتًا طويلاً من النهار زيادة على ساعات التمرين المقررة.

وكلما زاد أبى من دفعى فى طريق التعلم، زادت رغبتى فى الاندفاع، حتى شغلت ساعات فراغى نفسها بالكثير من الموضوعات العجيبة، وكنت منذ وقت جد مبكر مولعًا بالبحث فى أمور الطبيعة، وقد يفسر البعض الدافع الذى يدفع الأولاد إلى تقطيع وتمزيق وتفتيت الأشياء التى يكونون قد لعبوا بها حينًا وشغلوا بها على نحو أو آخر، تفسيرًا يصوره على أنه ميل إلى القسوة، ولكن الفضول يولد فى الإنسان الحاجة إلى التعرف على تركيب هذه الأشياء، وعلى معرفة شكلها من الداخل. وأنا أذكر أننى فى طفولتى نقضت وريقات الزهور حتى أرى كيف ركبت فى الكأس، ونزعت ريش طائر لأرى كيف تنتظم فى الجناح. ولا ينبغى أن نلوم الأطفال على هذه الأعمال، فعلماء الطبيعة يجمعون معلوماتهم عن طريق التحليل والتفتيت أكثر مما يجمعونها عن طريق الجمع والتركيب، ويتعلمون عن طريق القتل أكثر مما يتعلمون عن طريق الإحياء.

وكان من الطبيعى أن يأتى اليوم الذى تصبح قطعة من حجر المغناطيس، وقد خيطت على نحو لطيف ظريف فى قماش أحمر، موضوعًا يتجه إليه هذا الشغف بالبحث، فقد وجدت فى قدرة الجاذبية الغامضة، التى لم يقتصر أثرها على قضيب الحديد الصغير المرفق، بل رأيتها تزداد كل يوم لتحمل قطعة أكبر من الحديد، شيئًا أدهشنى أعظم الدهشة، وظللت وقتًا طويلا أجد متعة فى مجرد الإعجاب بهذا التأثير. ثم ظننت أننى سأصل إلى بعض المعلومات الوثيقة التى توضح ما استغلق علىّ، عندما أنزع الغلاف الخارجى الذى أحيط به جهاز الحجر المغناطيسى[٨٢]. فنزعته، ولكننى لم أزد علمًا لأن الجهاز وقد تعرى لم يضف إلى معلوماتى شيئًا جديدًا. ونزعت مكونات الجهاز، وأمسكت بالحجر نفسه فى يدى، واسترسلت دون ما كلل فى تجاربى على برادة الحديد وإبر الخياطة، ولم ينتفع

عقلى الصغير بشىء أكثر من الخبرة المنوعة، ولم أستطع بعد ذلك أن أعيد تركيب جهاز الحجر المغناطيسى، فتفرقت أجزاؤه، ثم ضاعت، وضاعت الظاهرة العظيمة.

ولم يكن حظى فى تركيب آلة كهربائية بأحسن من حظى مع المغناطيس. فقد حدثنا أحد أصدقاء الأسرة، وكان قد شهد فى صباه الوقت الذى ملكت فيه الكهرباء على الناس عقولهم، أنه ظل فى صباه يتمنى أن يمتلك آلة كهربائية وأنه جمع بعض الملاحظات الأساسية عن الكهرباء، واستخدم عجلة غزل قديمة وعددًا من زجاجات الأدوية، وحقق نتائج طيبة. وما زال هذا الصديق يتحدث بهذا الحديث المحبب إلى نفسه، ويعرفنا بالكهرباء، حتى وجدنا، نحن الأولاد، هذا الموضوع معقولاً جدًا وشغلنا أنفسنا حينًا من الزمن بعجلة غزل قديمة وبعض زجاجات الأدوية، دون أن نصل إلى أية نتيجة. ولكننا على الرغم من فشلنا ظللنا مؤمنين بالكهرباء، حتى جاء وقت انعقاد السوق، وجاء إليها فيمن جاءوا نفر يعرضون على الناس الأشياء الغريبة النادرة وفنونًا من أعمال السحرة والحواة، وأتى بعضهم بآلة كهربائية وعرض فنونها، وكانت شأنها شأن فنون المغناطيسية فى ذلك الوقت، منوعة غاية التنوع.

وكان الناس فى ذلك الوقت يشكون فى التعليم العام، وكان شكهم يزداد يومًا بعد يوم، وكانوا يؤثرون اتخاذ المدرسين الخصوصيين، ولما لم تكن بعض الأسر تستطيع دفع أجر المدرس الخصوصى، فقد تجمعت وكونت من أولادها مجموعة وتقاسمت الأجر. ولكن الأولاد لم يكونوا يتفاهمون بعضهم مع البعض إلا نادرًا، ولم يكن للمدرس الشاب سلطة كافية على الأولاد الذين كانوا كثيرًا ما يثور بينهم الغضب، ويفترقون على عداوة. فلا عجب أن فكر الناس فى مؤسسات أخرى تتميز بمزيد من الاستقرار والنفع.

وجاءت فكرة إنشاء دور تعليمية وليدة الحاجة التى أحسها كل إنسان إلى تعلم اللغة الفرنسية من حيث هى لغة حية، ونقل تراثها. وكان أبى قد تعهد شابا بالتعليم ثم استخدمه لديه خادمًا عامًا، وخادمًا خاصًا، وسكرتيرًا وأصبح بمرور

الوقت يقوم بكل الأعمال، وكان هذا الشاب، واسمه (پفايل)، يجيد الحديث بالفرنسية، ويفهمها فهمًا عميقًا، فلما تزوج وأصبح على مخدوميه أن يفكروا فى تدبير عمل ثابت له، خطر ببالهم أن ينشئوا له دارًا تعليمية يعلم فيها الأولاد المواد الضرورية التى شملت فى النهاية اللغتين اللاتينية واليونانية. وأتاحت العلاقات الواسعة التى كانت مدينة فرنكفورت تقيمها مع الخارج الفرصة أمام أولاد الفرنسيين والإنجليز ليلتحقوا بهذه الدار، ويتعلموا اللغة الألمانية وغيرها من المواد الدراسية. وكان (پفايل) شاباً فى أزهر سنوات عمره، نشيطاً إلى حد كبير يثير الدهشة كل الدهشة، فلما تولى رئاسة هذه الدار أحسن القيام بالعمل ولقى المدح والتقريظ، وشمر عن ساعد الجد، ولم يتردد أمام همته، حتى إنه عندما تبين أن عليه أن يعلم التلاميذ الموسيقى أكب هو على تعلمها، ونشط فى العزف على البيانو بحماس شديد، وإذا بهذا الرجل الذى لم يكن من قبل قد وضع إصبعًا على ملمس من ملامس البيانو، يتقن العزف فى وقت قصير. ويبدو أنه أخذ عن أبى مبدأه القائل: إنه ليس هناك شيء يحفز الشاب ويقوى عزمهم أفضل من قيام الكبار فى سنوات متقدمة من عمرهم بالتحول إلى تلاميذ، والاجتهاد فى تعلم مهارات جديدة من النوع الذى يصعب تعليمه فى السن المتقدمة، وبالسعى الحثيث إلى منافسة الشباب الذين رفعتهم الطبيعة فى هذا المجال على الكبار درجات.

وتطور شغف (پفايل) بالعزف على البيانو إلى الاهتمام بالآلات الموسيقية نفسها، وسعى إلى الحصول على أفضلها، فاتصل بفريدريسى فى (جيرا) – وكانت آلاته الموسيقية مشهورة فى كل الأنحاء – وحصل على عدد منها ليقوم بتصريفها، وسعد عندما وجد فى بيته أكثر من بيانو مديد[٨٣]، يعزف عليها ويسمع ما يؤديه على هذه الآلة الموسيقية الكبيرة من معزوفات.

كذلك أحدث نشاط هذا الرجل حركة موسيقية كبيرة فى بيتنا، وظل أبى على علاقة طيبة مستمرة به، لا يختلف معه إلا فى الموضوعات الحرجة. واشترينا نحن أيضًا بيانو مديد من إنتاج فريدريسى، لم أعزف عليه إلا قليلا، لأننى فضلت

الاستمرار على العزف على البيانو العادى، أما أختى فقد زاد العبء عليها، إذ تطلب تكريم الآلة الموسيقية الجديدة منها أن تزيد من وقت العزف المقرر عليها يوميًا، وتبدل على مساندتها فى ذلك أبى مشرفًا، و پفايل مشجعًا، وكان پفايل بالنسبة إليها القدوة وصديق العائلة الذى لا يكف عن حفزها على المثابرة على التدريب.

وكانت لأبى هواية خاصة سببت لنا، نحن الأولاد، الكثير من المشقة، ألا وهى هواية تربية دودة القز، وكان يرى أن هذه الهواية إذا انتشرت بين الناس ستحقق لهم نفعًا كبيرًا، ولهذا كان يهتم بها اهتمامًا شديدًا ولقد حفزه على ممارسة هذه الهواية بعض معارفه فى (هاناو)، حيث تلقى تربية دودة القز رعاية عظيمة ودقيقة، وكان معارفه هؤلاء يرسلون إليه البيض عندما يحل موعده، فإذا أورقت أشجار التوت، وبدأ البيض فى الفقس، بدأ الاهتمام الشديد بالكائنات الصغيرة التى لا تكاد العين تراها، وأعد لها فى حجرة علوية مناضد وحوامل خشبية مد عليها ألواح الخشب لتترعرع فوقها، وتجد متسعًا تتحرك فيه على راحتها، لأنها كانت تنمو بسرعة، وكان جوعها يشتد عندما تغير جلدها للمرة الأخيرة، لا يكاد الإنسان يلاحقها بما يكفيها من ورق التوت، فقد كانت تلتهم الورق ليلاً ونهارًا، وما كان ينبغى أن تترك جائعة فى الوقت الذى يحدث فيه فى داخلها التغير الكبير العجيب. وكانت العملية تسير على نحو يمكن اعتباره تسلية إذا كان الجو ملائمًا، أما إذا حل البرد فجأة وتلفت أشجار التوت فإنها تتحول إلى محنة كبيرة. فإذا انهمر المطر فى المرحلة الأخيرة زادت المحنة، لأن هذه المخلوقات لا تتحمل الرطوبة على الإطلاق، ويكون من الضرورى تجفيف ورق التوت المبتل تجفيفًا جيدًا، قبل تقديمه إليها، وتلك عملية لم يكن من الممكن تنفيذها بالدقة المطلوبة، فإذا أكل دود القز هذا الورق الرطب، أصيب بالأمراض المختلفة، وماتت منه الآلاف، وسرعان ما تتعفن الديدان الميتة، وتفوح منها رائحة طاعونية بشعة، ويصبح من الضرورى إبعاد الدود الميت والمريض عن الدود السليم إنقاذًا لما يمكن إنقاذه وكانت تلك عملية

شاقة ومقززة إلى أقصى حد، وكانت ساعات القيام بها ساعات عسيرة فى حياتنا نحن الأولاد.

فلما قضينا فى أحد الأعوام أجمل أسابيع الربيع والصيف فى رعاية دود القز، كلفنا بمساعدة أبينا فى عملية أخرى، كانت أخف وطأة، ولكنها كانت ثقيلة أيضًا.

فقد أثر الضوء والغبار والدخان على الصور الرومانية التى كانت معلقة على جدران البيت القديمة منذ سنوات طوال، تمسكها خوصة من الخشب من أعلاها، وخوصة أخرى من أسفلها، فاصفرت الصور أشد الاصفرار، وتوارى كثير من معالمها، تحت مخلفات الذباب، وكان هذا الاتساخ شيئًا مرفوضًا فى البيت الجديد. وكان أبى يقدر هذه الصور، وكانت قيمة الموضوعات المرسومة قد زادت فى نظره نتيجة لمرور الوقت وطول بعده عن الأشياء التى تمثلها. فمثل هذه الصور تتركز فائدتها فى البداية على تنشيط الانطباعات التى يكون الإنسان قد تلقاها منذ وقت قليل، وعلى إحيائها فى الذاكرة وهى تبدو لنا إذ ذاك قليلة القيمة بالقياس إلى الانطباعات نفسها، بل تبدو لنا فى أكثر الأحوال كبديل باهت لها. فإذا مرت الأيام وتلاشت ذكرى الأشياء الأصلية تدريجيًا من ذهن الإنسان، حلت محلها الصور، دون أن يلحظ الإنسان ذلك وأصبحت غالية مثل الأشياء الأصلية نفسها، وإذا بهذه الصورة التى كنا من قبل نستهين بها تكتسب تقديرنا وتثير شغفنا. هذه هى حال كل الصور، وبخاصة صور الأشخاص، فالإنسان قلما يرضى عن صورة تمثل حاضرًا، ولكنه يتعلق بكل ظل يمثل الغائب أو المفارق.

وخلاصة القول إن أبى، وقد أحس بما قدمت يداه من استخفاف بالصور المرسومة بالحفر على النحاس، قرر أن يصلحها ما استطاع إلى ذلك سبيلا وكان يعرف أن إصلاحها عن طريق التبييض أمر ممكن، وجرت عملية التبييض – التى لم يكن الإنسان ليطمئن إلى نتائجها مسبقًا إذا كانت الصور من الحجم الكبير – فى ظروف غير ملائمة من ناحية المكان، ذلك لأن الألواح الخشبية الكبيرة التى بللت

الصور وثبتت فيها لتعريضها للشمس، وضعت مواجهة لنوافذ السندرة، فى مصافى المياه على السطح، دون تثبيت، مما أدى إلى وقوعها أحيانًا. وكان أهم شيء تجب مراعاته هو أن يظل الورق مبتلاً طوال عملية التبييض، وألا يجف قبل اكتمالها، وكلفنا – أنا وأختى – بهذه المهمة التى كانت نوعًا من البطالة التى يستحسنها الناس عادة، ولكننا شقينا بها أشد الشقاء، فسرعان ما تبدد صبرنا، وتملكنا الملل، وحالت الملاحظة المستمرة بيننا وبين أى نوع من أنواع التسلية، إلا أن عملية تنظيف الصور وتبييضها تمت، وقام المجلِّد بشد الصور، صورة صورة على ورق مقوى، وبذل أفضل الجهد وتحرى الإتقان، وأصلح الأطراف الممزقة التى أصابها ما أصابها نتيجة لإهمالنا، ثم جمع الصور كلها فى مجلد واحد، وهكذا تم إنقاذها فى هذه المرة.

وشاء القدر ألا يحرمنا من سعة الحياة وبسطة العلم، فدفع إلينا فى هذا الوقت نفسه بمعلم إنجليزى كان يعلن على الملأ أنه يستطيع أن يعلم أى إنسان اللغة الإنجليزية فى أربعة أسابيع، ويمكنه من ركيزة يستطيع بجهده الخاص أن ينميها بعد ذلك، ولم يكن يشترط فيمن يتقدم إليه إلا أن يكون قد تمرس بصورة أو بأخرى على تعلم اللغات، ولم يكن يهتم بعدد الطلاب الذين يشاركون فى الحصة، ولا يطلب إلا أجرًا معتدلاً وقرر أبى على الفور أن يخوض التجربة، وأن يتلقى معى ومع أختى دروسا فى الإنجليزية على يد هذا المدرس الأجنبى الذى كان ملتزمًا فى حصصه، حريصًا على المراجعة، وركزنا جهودنا طوال الأسابيع الأربعة على تعلم الإنجليزية، وتركنا ما علينا من واجبات فى المواد الأخرى حينا، وفارقنا المعلم راضيًا، وفارقناه نحن أيضًا راضين. ولما كان قد بقى فى المدينة ووجد فيها زبائن كثيرين، فقد كان يأتى إلينا من حين لآخر ليراجع معنا الدروس، ويساعدنا فى الاستزادة من الإنجليزية عارفًا لنا فضلنا؛ حيث كنا من أوائل الذين وثقوا فيه، وقمنا مقام المثل الذى احتذاه الآخرون.

وأدى تعلم أبى الإنجليزية إلى نشأة اهتمام جديد لديه، ودخلت اللغة الإنجليزية على نحو جميل فى طائفة الاهتمامات اللغوية التى حرص عليها. وأعترف فى هذا المقام بأننى أخذت أضيق شيئًا فشيئًا بدفعه إياى إلى الاعتماد تارة على هذا الكتاب من كتب النحو، وتارة على ذاك، ومن بعده على هذه المجموعة من الأمثلة السائرة، ثم على هذا المؤلف أو ذاك، لأستقى موضوعًا أنطلق منه فى المران على اللغات، مما تسبب فى تبديد الجهود التى كنت أبذلها فى مقررات الحصص المختلفة. ولهذا خطر ببالى أن أحل المشكلة برمتها دفعة واحدة، فابتكرت رواية تدور أحداثها حول ستة أو سبعة إخوة تفرقوا فى بلاد الدنيا، وتبادلوا الرسائل ليحيط كل منهم الآخر بما يجيش فى صدره من أحاسيس وما يمر من أحوال: الأخ الكبير يكتب بلغة ألمانية جيدة متحدثًا عن موضوعات وأحداث عديدة شهدها فى أثناء رحلته، والأخت تكتب بأسلوب نسائى، كثير النقط، قصير الجمل، شبيه بأسلوب (زيجفارت)[٨٤] فيما بعد فترد على رسائله تارة، وتارة تحكى للإخوة الآخرين عن شئون البيت، وعن نفسها، وما يتحرك به قلبها من أحاسيس وأخ آخر يدرس اللاهوت ويكتب بلاتينية سليمة يضيف إليها أحيانًا بعض إضافات باللغة اليونانية وأخ غيره يعمل موظفًا فى متجر بها مبورج، مهمته إنجاز المكاتبات بالإنجليزية، وأخ آخر فى مرسيليا عليه إنجاز المكاتبات بالفرنسية، وابتكرت للغة الإيطالية شخصية موسيقار يقوم بأول رحلة له فى ربوع العالم، أما الأخ الأصغر فقد جعلته يظن أنه يعرف كل شىء، ولكنه متبرم تبرم من تحلو له الشكوى من كل الأمور، فلما انقطعت السبل بينه وبين اللغات الأخرى، استخدم ألمانية اليهود، وحيرَ بها الإخوة الآخرين لما كانت تتضمنه من رموز شفرية عسيرة، أما أبواه فقد وجدا فى هذه السانحة الطريفة التى سنحت له ما أضحكهما.

والتمست لهذا الشكل العجيب المضمون المناسب فدرست جغرافية الأماكن التى تقيم بها شخصياتى، وابتكرت لكل مكان بعض السمات الإنسانية التى تربط بشخصيات الأفراد وأعمالهم على نحو ما. وزادت كراسات تمريناتى ضخامة،

وزاد أبى رضا، وتبينت أنا فى أثناء الكتابة أننى أفتقر إلى بعض المعلومات والمهارات.

وجرى علىّ ما يجرى على غيرى فى مثل هذه الأحوال، فالعمل يبدأ، ولكنه لا يصل إلى نهاية، ولا يقف عند حد، فقد سعيت إلى تعليم ألمانية اليهود فى عصر الباروك قراءة وكتابة، واكتشفت فى هذه الأثناء أننى أجهل العبرية التى اشتقت منها هذه اللغة الحديثة المحرفة المضطربة، وكان من الممكن أن يعالجها من يعرف العبرية على نحو مطمئن وفاتحت أبى فى ضرورة تعلم العبرية، وألححت عليه حتى وافق، وكنت فى الحقيقة أرمى إلى هدف أبعد، فلطالما سمعت أن معرفة اللغات الأساسية ضرورة لفهم العهد القديم والعهد الجديد أيضًا، أما العهد الجديد فقد كنت أطالعه بسهولة ويسر، لأن هذه الأسفار التى يطلق عليها اسم الأناجيل والرسائل، كانت بالنسبة إلى تمرينات يوم الأحد، وكنا بعد العودة من الكنيسة نتخذها موضوعا للتلاوة والترجمة وشيئًا من التفسير. وفكرت فى أن أتناول العهد القديم تناولاً شبيهًا؛ وكان العهد القديم بما يتسم به من سمة خاصة قد أعجبنى منذ وقت أيما إعجاب.

وقرر أبى – الذى لم يكن فى الإنجاز يحب أنصاف الحلول – أن يطلب إلى ناظر مدرستنا الثانوية، الدكتور ألبريشت، أن يعطينى دروسًا خاصة فى العبرية أسبوعيًا، وأن يستمر معى فيها حتى أتمكن من هذه اللغة البسيطة، وكان أبى يأمل فى أن أفرغ منها بالسرعة التى فرغت بها من اللغة الإنجليزية، أو فى مدة مضاعفة إذا دعا الأمر.

وكان الناظر ألبريشت شخصية من أغرب شخصيات الدنيا، كان قصير القامة فى غير بدانة، ولكنه كان عريض المنكبين، مضطرب الهيئة وإن لم يعتور بدنه تشوهات، وخلاصة القول إنه كانِ صورة من (إيسوب)[٨٥]، يلبس عباءة المنشدين وباروكة وكان وجهه السبعينى يتقلص فى ابتسامة ساخرة، تطل عيناه فى أثنائها واسعتين تبرقان وتعبران عما كانتا تعبران عنه دائمًا من حضور البديهة

على الرغم مما يشوبها من احمرار وكان يقيم فى دير الحفاة القديم الذى اتخذ مقرًا للمدرسة الثانوية وكنت فى صغرى قد ذهبت مع والدى أحيانًا لزيارته، ومشيت خلال الممرات الطويلة المظلمة، ومررت بالخلوات التى تحولت إلى حجرات للزوار، وبالدهليز ذى الدرج والتعاريج، وقد تملكنى إحساس بالانقباض والارتجاف وكان إذا رآنى اختبرنى دون أن يثقل على، وكان يمتدحنى ويشجعنى. وحدث أن كنت هناك ذات يوم، وكان يقوم – بعد ظهور نتيجة الامتحان العام – بتوزيع الميداليات الفضية على التلاميذ المتفوقين، ونظر إلى الحاضرين، فوجدنى قريبًا من منصته أتطلع فى شوق إلى الكيس الذى يستخرج منه الميداليات، فأشار إلى أن أتقدم، ونزل هو نحوى درجة، وقدم إلى ميدالية فضية فرحت بها فرحًا شديدًا على الرغم من أن البعض رأوا أن إعطاء الميدالية لصبى من غير تلاميذ المدرسة يخالف كل اللوائح. ولكن الناظر الهرم الطيب لم يكن يحفل بمثل هذه الأمور الشكلية، وكان بصفة عامة يتصرف على نحو لافت للنظر، تصرف إنسان غريب الأطوار، وكان يتمتع بشهرة طيبة جدًا كمدرس يفهم صنعته، على الرغم من أن هرمه لم يكن يسمح له بممارستها على الوجه الأكمل، وكان يحس بأن الذى يعوقه عن أداء عمله كما ينبغى ليس ضعف صحته، بل على الأحرى المجلس الكنسى والعلماء ورجال الدين ورجال التعليم الذين لم يكن يرضى عنهم، وكان يهتم اهتمامًا طبيعيًا بالأخطاء والعيوب ويتحرى السخرية وكانت هاتان السمتان تظهران واضحتين كل الوضوح فى الكلمات التى يلقيها فى الاحتفالات، وفى الخطب العامة، وكان مثله مثل لوكيان[٨٦] – وهو الأديب الوحيد الذى كان يقدره ويطالع أعماله – يتبل كل ما يقول أو يكتب من كلام بالتوابل اللاذعة .

ولكنه – لحسن حظ أولئك الذين لم يكن يرضى عنهم – لم يكن يسلك طريقًا مباشرة فى التعبير، بل كان يلجأ إلى التلميحات والإشارات والاستشهادات القديمة والاقتباسات من التوراة، لينبه إلى العيوب التى يرى ضرورة فى التنبيه إليها. أما إذا خطب – وكان يقرأ دائمًا من ورقة مكتوبة – فكان ثقيل الظل، مستغلقًا على

الفهم، وكان إلى هذا وذاك يقطع كلامه، إما ليسعل، أو ليطلق ضحكة فارغة، تهتز لها أحشاؤه، وكان قد اعتاد أن يقدم بهذه الضحكة كل موضع لاذع. ولكننى وجدت هذا الرجل الغريب حليمًا موطأ الأكناف، عندما بدأت أتلقى الدروس عليه، وكنت أذهب إليه كل يوم فى الساعة السادسة مساء، وأحس بسكينة عميقة عندما أغلق الباب ذا المقبض من خلفى، واجتاز طرقة الدير الطويلة التى تبعث الرهبة. وكنا نجلس فى مكتبته إلى منضدة عليها مفرش مشمع وضع فوقها نسخة من أعمال (لوكيان) أهلكها قراءة، وحرص على أن تكون دائمًا بجواره.

وعلى الرغم مما أبديته من نية طيبة واهتمام بالتفصيل، فلم أبلغ الهدف لأن أستاذى لم يستطع أن يخفى ملاحظاته الساخرة على اهتمامى بتعلم باللغة العبرية وعلى الهدف الذى كنت أسعى إليه. وكنت قد أخفيت عليه نيتى المتصلة بألمانية اليهود، واكتفيت بالحديث عن رغبتى فى فهم نص التوراة الأصلى، فابتسم وقال لى إن علىّ أن أطيب نفسًا إذا وصلت فى العبرية إلى فك الخط، وحز كلامه فى نفسى، ولكننى استجمعت شجاعتى، وشحذت قريحتى عندما بدأنا نتعلم الحروف، ووجدت أمامى أبجدية موازية لأبجدية اليونانية تقريبًا، لم يصعب على استيعابها، ولم تكن أكثر أسمائها غريبة علىّ وسرعان ما فهمتها، وحفظتها واعتقدت أننى سأنتقل إلى القراءة، وكنت أعرف أن العبرية تقرأ من اليمين إلى اليسار. ولكننى بدلا من أن أنتقل إلى القراءة وجدتنى أواجه جيشًا من الحروف الصغيرة والعلامات والنقط والشرط من مختلف الأشكال، ودهشت لذلك، وزادت دهشتى لأن الأبجدية الأساسية كانت تضم بعض الحروف المتحركة، وتضم حروفًا متحركة أخرى خفية تتسمى بأسماء غريبة. وعلمنى الأستاذ أن الأمة اليهودية كانت فى وقت ازدهارها تكتفى بالعلامات الكبيرة الأولى لا تعرف غيرها فى كتابة أو قراءة، وعبرت عن رغبتى فى أن أسير على هذا الطريق القديم الذى لاح لى مريحًا، ولكن الأستاذ الشيخ شرح لى فى صرامة أنه ينبغى على أن أتبع قواعد النحو كما أرسيت، وكما وضعها النحويون، وقال إن القراءة بدون هذه النقط

والشُّرط أمر عسير لا يقدر عليه إلا العلماء والمتمرسون، وهكذا كان على أن أرضى بتعلم هذه العلامات الصغيرة، ولكن الموضوع برمته ازداد اضطرابًا، وعلمت أن بعض العلامات الأولى الكبيرة تلاشت حتى تفسح مكانًا للعلامات الصغيرة المتأخرة فتجعل لها قيمة، كذلك علمت أنها أحيانًا تنطق خفيفة فى الحلق، وتنطق أحيانًا شديدة، وأنها أحيانًا تساند الأصوات الأخرى أو تعارضها. فإذا أحاط الإنسان بكل هذه الأشياء تبين أن عددًا من الحروف الكبيرة والصغيرة على السواء يحال إلى التقاعد، فيعمل الإنسان عند القراءة بعينيه كثيرًا وبشفتيه قليلاً.

وبينما أخذت أنطق متلعثمًا بلغة غريبة عبارات كنت أعرف معناها من قبل، وأستمع إلى تنبيه الأستاذ إلى نبرات فيها شيء من الخنف والغرغرة نُطقُها من المحال، انصرفت عن مهمتى انصرافًا يوشك أن يكون كاملاً، وأخذت ألهو على نحو صبيانى بالأسماء العجيبة التى تتسمى بها هذه العلامات الكثيرة، ووجدت غير قليل من التسلية فى العلامات التى تحكم النطق وتتخذ هيئة القياصرة والملوك والأمراء. ولكن هذه الفكاهات الفجة لم تلبس أن فقدت سحرها، وظللت على الرغم من ذلك حريصًا فى أثناء القراءة والترجمة والإعادة والحفظ على استظهار مضمون الكتاب على أفضل ما يكون الاستظهار، وكان هذا هو الجانب الذى طالبت أستاذى الشيخ بأن يشرحه لى. فقد لفت نظرى منذ حين وجود تناقضات بين ما هو مكتوب فى النص وبين الواقع أو ما يمكن أن يجرى فى الواقع، وكثيرًا ما أحرجت مدرسِيَّ الخصوصيين بسؤال عن الشمس التى وقفت فى جبعون والقمر الذى ثبت فى تل أيلون[٨٧] وغير هذا وذاك من الأمور التى لا تتفق مع المنطق ولا يتصور العقل أنها يمكن أن تحدث. وهأنذا أعود إلى إثارة كل هذه الموضوعات عندما سعيت إلى تعلم اللغة العبرية، وإلى إتقانها، فكان أن عكفت على العهد القديم عكوفًا كاملاً، وتعمقت فى دراسته غير معتمد على ترجمة لوتر، بل على ترجمة زيباستيان شميد الحرفية التى اشتراها لى أبى إذ ذاك، وكانت الترجمة الحرفية مطبوعة بجانب النص نفسه[٨٨] وأخذ نصيب التمرينات اللغوية ينكمش للأسف فى ساعات الدراسة، بحيث لم تكن القراءة والعرض ومراجعة النحو والنقل وتسميع

الكلمات تشغل إلا نصف الوقت على الأكثر، لأننى كنت أسلك سبيلى إلى المضمون، ولا أتقاعس عنه، وعلى الرغم من أننا كنا مشغولين بسفر التكوين، فقد كنت أتطتوق إلى موضوعات عديدة من الأسفار الأخرى علقت بذهنى وشغلت بها. وكان الأستاذ الشيخ الطيب يردنى فى البداية عن هذه الشطحات، ثم انتهى به الأمر على ما يبدو إلى أنه هو نفسه وجد فيها متعة. فلم يكن يفرغ من السعال والضحك على طريقته، وعلى الرغم من أنه كان يحرص أشد الحرص على ألا يقدم إلى معلومات تورطه، فإننى لم أكن أكف عن الإلحاح، ولما كنت أسعى إلى التعبير عن شكوكى أكثر من سعيى إلى التماس ما يبددها، فقد زدت مع الوقت حماسًا وجسارة. وكان مسلكه تجاهى واضحًا فى التعبير عن رأيه فى أن الحق معى. ولم أكن فيما عدا ذلك أستطيع أن أخرج منه بِرَدٍ آخر سوى عبارة كان يكررها المرة تلو المرة، ضاحكًا ضحكة يهتز لها بطنه: "ولد مجنون! ولد مجنون!" وأغلب الظن أن اهتمامى النشيط فى هذه السنوات المبكرة من العمر بالكتاب المقدس من كل جوانبه بدا للأستاذ جادًا إلى حد كبير، وجديرًا بشىء من الاستكمال، لأنه لم يلبث أن نبهنى إلى التفسير الإنجليزى الكبير للكتاب المقدس، وكان فى مكتبه، وكان يضم جهودًا ذكية من طائفة من المفسرين شغلوا بتفسير المواضع الصعبة والخلافية، وكانت الترجمة الألمانية التى قام بها عدد من رجال الدين الألمان، وبذلوا فيها جهودًا كبيرة، أفضل من الأصل. وكان هذا الكتاب يذكر الآراء المختلفة ويجتهد بعد ذلك فى التوفيق بينهما مع الحرص على جلال الكتاب المقدس وأساسيات الدين ومتطلبات العقل، وكنت كلما توجهت إليه فى نهاية الحصة بما أتيت به من أسئلة، وبما شغلنى من شكوك، أحالنى إلى هذا الكتاب الكبير، فأتناوله، ويطلب إلى أن أطالع فيه، بينما يقلب هو فى صفحات لوكيان الأثير إلى نفسه، فإذا علقت على الكتاب المقدس بشىء، جاءت ضحكته المألوفة يرد بها على كل ما يتفتق عنه ذكائى. وكان فى أيام الصيف الطويلة يدعنى أجلس ما شئت الجلوس، وما حلت لى القراءة، وكان أحيانًا يتركنى وحدى، وما لبث أن سمح لى بأن آخذ الكتاب مجلدًا بعد آخر إلى البيت.

وللإنسان أن يوجه نفسه الوجهة التى يريدها، وأن يسعى ما شاء له السعى فى هذا الاتجاه الذى يختاره، إلا أنه يرتد دائمًا إلى الطريق التى رسمته له الطبيعة. وهذا هو ما جرى علىّ فى هذه الحالة. فقد انتهت بى الجهود التى بذلتها فى سبيل تعلم العبرية وإدراك مضمون الأسفار المقدسة إلى نشأة صورة أكثر حيوية ارتسمت فى خيالى عن هذه الأرض الجميلة المحمودة، وما أحاط بها وما جاورها وعن شعوبها وعن الأحداث التى عظمت بها هذه البقعة البسيطة عبر آلاف السنين.

شاء القدر لهذه البقعة الضيقة من الأرض أن تشهد أصل الجنس البشرى ونموه. وأن تصل إلينا الأخبار الأولى والوحيدة القديم، وأن تمثل هذه البقعة من الأرض أمام خيالنا بسيطة محددة ومنوعة فى الوقت نفسه، وملائمة لأغرب حركات التجوال والاستقرار. هنا، بين أربعة أنهار ذكرت أسماؤها، واستخلصت من كل الأرض الممهدة ساحة صغيرة لطيفة كل اللطف يسرت للإنسان حياته فى نشأته الأولى. كان على الإنسان أن ينمى هنا قدراته الفطرية وكان عليه أن يتلقى فى الوقت نفسه القدر الذى قدر له ولخلفه من بعده، فما سعى إلى المعرفة حتى فقد السكينة، وتبدد الفردوس هباء، وزاد الناس عددًا، وزادوا سوءًا، وفقد الأيلوهيم[٨٩] الذين لم يرضوا بمساوئ هذا الجنس صبرهم، وأبادوه بالطوفان الذى لم ينج منه إلا القلة، فلما انحسر الطوفان البشع، لاحت الدنيا الأليفة المعروفة من جديد أمام أنظار الناجين الشاكرين.

كان نهران من الأربعة المذكورة، نهر الفرات ونهر دجلة، لا يزالان ينسابان فى مجريهما، وبقى اسم النهر الأول، ويبدو أن اسم النهر الثانى كان يصف مجراه. ولم يسع ساع إلى تحديد أدق للفردوس بعد هذا الانقلاب الكبير. وانطلق الجنس البشرى، بعد أن تحدد، انطلاقته الثانية من هنا، وتهيأت له الفرصة ليدبر طعامه بكل الوسائل، وليعمل، وكان على الأغلب يجمع حوله قطعانًا كبيرة من الأنعام المستأنسة، يجول بها فى كل الأرجاء.

وأدى أسلوب الحياة على هذا النحو، ومعه تزايد القبائل، إلى اضطرار الأمم إلى الافتراق بعضها عن البعض، ولكنها لم تستطع أن تقرر على التو التخلى نهائيًا عن أقاربها وأصدقائها، ففكرت فى أن تبنى برجا يكون هاديًا لها إلى الطريق من بعيد، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، شأنها شأن المحاولة الأولى ، فلم يكن لهذه الأمم أن تجمع فى وقت واحد بين السعادة والكياسة، بين كثرة العدد ووحدة الشمل، فأحدثت بها الأيلوهيم الاضطراب، وفشل البناء وتفرق الناس، وعمرت الدنيا، ولكن الخلاف دب فى ربوعها.

وتظل أنظارنا وعواطفنا معلقة بهذه الأماكن. ويأتى اليوم الذى ينطلق فيه أب من هنا، أوتى من معه الحظ ما مكنه من أن يطبع خلفه بطابع أكيد، ومن أن يجمعهم هكذا فى أمة متماسكة طوال عصور من الزمان خالدة، على الرغم من تغير البقاع وتقلب المقادير.

خرج إبراهيم(٩٠) من أرض الفرات، ولم يكن خروجه منها بغير إشارة ربانية، وسار ناحية الغرب، لم تمنعه الصحراء، حتى وصل إلى نهر الأردن، وتجاوزه، وانتشر بمن معه فى البقاع الجنوبية الجميلة من فلسطين، وكان أناس قد ملكوا هذه الأرض من قبله، وانتشروا فى كثير من ربوعها. كانت هناك جبال، ليست بالشاهقة، ولكنها كانت جبالا صخرية مجدبة، تتخللها وديان كثيرة يجرى فيها الماء ويجعلها صالحة للزراعة. وكانت هناك مدائن وقرى ومساكن متفرقة، مبعثرة فى السهل وعلى سفوح الوادى الكبير الذى كانت مياهه تتواصل فى نهر الأردن. هكذا كانت الأرض كما سكنها الناس، وكما فلحوها. وكانت الدنيا إذ ذاك واسعة مديدة، ولم يكن البشر قد بلغوا من السعى وكثرة الحاجات والنشاط الدرجة التى تدفعهم إلى الاستيلاء توًا على كل الأماكن المحيطة بهم. وكانت هناك بين الحيازات أماكن فسيحة مديدة تسعى فى ربوعها القطعان الباحثة عن المراعى ما حلا لها السعى. فأقام إبراهيم فى تلك الأماكن، ومعه أخوه لوط، ولكنهما لم يقيما طويلا، لأن أحوال البلد الذى كان أهله تارة يزيدون وتارة ينقصون، والذى لم تكن

حاصلاته تكفى حاجات الناس، كانت تنتهى لا محالة إلى المجاعة، وأصبح القادم يعانى، وأصبح الظاعن أيضًا يعانى بعد أن قاسمه القادم طعامه. وخرج الأخوان الكلدانيان متجهين إلى مصر وتحددت أمامنا الساحة التى ستجرى فيها أهم أحداث الدنيا طوال ألف سنة أو نحوها. فيها نرى الأرض من دجلة إلى الفرات، ومن الفرات إلى النيل يعمرها الناس، ونرى فى هذه البقاع رجلا معروفًا تحبه الآلهة، عظم قدره فى نظرنا، يسير بالقطعان وبالبضائع حينا بعد حين، وينميها فى وقت قصير حتى تصبح ثروة واسعة كل السعة. ويقفل الأخوان راجعين، ولكنهما وقد تعلما الكياسة وهما يجاهدان للتغلب على المحنة، يقرران أن يفترقا، وإن بقيا كلاهما فى جنوب كنعان. استقر إبراهيم فى حبرون عند بلوطات ممرا[٩١]، بينما يمم لوط شطر سديم، الذى يمكن أن يلوح لنا، أو لا بد أن يلوح لنا، على هيئة فردوس ثانية إذا كان لنا من الخيال الجسور ما يتيح لنا أن نجعل لنهر الأردن منفذاً تحت الأرض لنكتسب فى مكان البحيرة الأسفلتية الحالية تربة جافة، لأن سكان هذا الوادى وما حوله كانوا مشهورين بالميوعة والإثم، مما يجعلنا نستنتج أنهم كانوا يعيشون حياة مترفة منعمة وكان لوط يعيش بينهم وإن ظل منعزلاً عنهم.

ولكن حبرون وبلوطات ممرا هى فى تصورنا الموضع المهم الذى كلم فيه الرب إبراهيم، ووعده كل الأرض التى يصل إليها بصره فى أرجاء الدنيا الأربعة. ولكن علينا أن ننصرف عن هذا البقاع الساكنة، وعن هذه الأمم التى تتألف من الرعاة، أولئك الذين أتيحت لهم مخالطة السماويين واستضافهم وتبادل الحديث معهم، وأن ننظر إلى الشرق، ونفكر فى نظام العالم والمجاور الذى كان فى مجموعة يناظر النظام المتفرد لكنعان.

كانت العائلات مترابطة، تتألف فيما بينها، وكان أسلوب حياة القبائل يحدده المكان الذى استولوا عليه، أو الذى كانوا يعملون على الاستيلاء عليه. نجد على الجبال التى تنحدر المياه منها إلى نهر دجلة أمما محاربة تشير منذ وقت جد مبكر إلى هؤلاء الذين غزوا العالم، وهيمنوا عليه، ونجد فى معركة كانت هائلة بمقاييس

تلك الأزمنة مقدمة لأحداث عظام ستجرى فى المستقبل. وهذا هو (كدر لعومر)[٦٢] ملك عيلام يؤثر تأثيرا قويا على بعض الحلفاء ويمسك بزمام الحكم زمنا طويلاً، لأنه كان وقبل نزول إبراهيم أرض كنعان باثنتى عشرة سنة، قد أخضع الشعوب حتى نهر الأردن لإمرته، وألزمهم الجزية، ثم انفرط عقدهم عنه بعد ذلك وتسلحوا للحرب. وإذا بنا نفاجأ بهم على الطريق التى يحتمل أن يكون إبراهيم قد سلكها إلى كنعان. هكذا أخضعت الشعوب على الناحية اليسرى والسفلى من الأردن. وزحف (كدر لعومر) جنوبًا على شعوب الصحراء، ثم اتجه شمالاً فهزم العمالقة ثم الأموريين، ووصول إلى كنعان، وانقض على ملوك وادى سديم، فهزمهم وفرق شملهم، وسار بغنيمة كبيرة بحذاء الأردن شمالا ليشمل لبنان بغزوته المظفرة.

وكان من نتيجة هذه الغزوة أن أُسر البعض وخُطف البعض الآخر وأُخرج آخرون من ديارهم، وكان من بين من حل بهم هذا البلاء لوط الذى كان ضيفًا على البلد. وما علم إبراهيم بالخبر حتى تحرك حركة الجد الأول والمحارب والبطل، فجمع رجاله وقسمهم إلى كتائب، وهجم على الغنيمة الثقيلة، وبث الحيرة بين المنتصرين الذين لم يتوقعوا عدوًا يظهر من وراء ظهورهم، واسترد إبراهيم أخاه وماله معه وشيئًا من أموال الملوك المهزومين. واستولى إبراهيم بهذه الحرب القصيرة على البلد التى حياه أهلها تحيتهم لمن أنقذهم وحماهم، ونصبوه ملكًا عليهم بما عرفوا فيه من أثرة وإنكار للذات. وتلقاه ملوك الوادى ممتنين، وباركه (ملكى صادق) والكهنة.

وتتجدد النبوءات له بخلف لا نهاية له، بل تتسع النبوءات وتتعاظم ويتلقى إبراهيم وعدًا بأن تكون الأراضى من مياه الفرات إلى النيل كلها له، ولكن أمر الوراثة المباشرة من صلبه كان يبدو سيئًا، فهو قد بلغ الثمانين ولم يعقب ولدًا. أما سارا، وكان إيمانها دون إيمانه، فلم تطق صبرًا، وقررت أن يكون لها بحسب التقاليد الشرقية، خلف من جاريتها (هاجر)، ولكن ما تكاد هاجر تقترن برب الدار وما يكاد الأمل فى مولد ابن يتبدى، حتى دب الخلاف فى البيت. فقد أساءت سارا

إلى هاجر التى كانت تحميها، وأغلظت لها أيما إغلاظ. ففرت هاجر بحثًا عن ظروف أفضل لدى جماعات أخرى، ثم عادت ولم تكن عودتها بغير توجيه ربانى. وولدت إسماعيل.

وبلغ إبراهيم التاسعة والتسعين، وكانت الوعود بخلف من صلبه تتكرر، حتى وجدها الزوجان مدعاة للضحك، ولكن سارا حملت فى النهاية، وولدت ابنا تلقى اسم إسحاق.

والتاريخ يقوم فى أغلبه على التناسل المنتظم للجنس البشرى، فإذا أراد الإنسان أن يتتبع أهم أحداث العالم، كان عليه أن يدخل فى أسرار العائلات، وهذه هى زيجات الأجداد القدامى تدفعنا إلى بعض التأملات الخاصة. وكأنما أرادت الآلهة التى شاءت أن تسير مقدرات البشر أن ترسم هنا النماذج الأولى للظروف الزواجية بكل أنواعها. لقد وجد إبراهيم نفسه، بعد سنوات طوال من الاقتران بامرأة جميلة كان الكثيرون يتقدمون لخطبتها، زوجًا بلا أولاد، فلما بلغ المائة وجد نفسه زوجًا لامرأتين وأبا لابنين، وهنا اضطرب السلام فى الدار. امرأتان، واحدة بجانب الأخرى، وولدان من أميَّن، يتواجهان ولا يستطيع أحدهما أن يحتمل الآخر. وأصبح على الطرف الذى قل حظه من الشرعة والحسب والرأى أن يفسح الطريق للآخر، وأصبح على إبراهيم أن يضحى بعاطفته نحو هاجر وإسماعيل، فتركهما، واضطرت هاجر أن تسلك الطريق الذى كانت قد سلكته من قبل بإرادتها، سلكته الآن رغمًا عنها، وإنما فعلت ذلك على ما يبدو حتى لا تضيع هى وحتى لا يضيع الولد. وجاء ملاك الرب الذى أعادها من قبل، فأنقذها فى هذه المرة أيضًا لكى يصبح إسماعيل أمة، ولكى يتحقق وعد هو أكثر الوعود إعجازًا. ويتجاوز فى تحقيقه الحدود.

أبوان طاعنان فى السن، وابن وحيد ولد فى شيخوختهما: فهل تتحقق فى النهاية راحة عائلية وسعادة دنيوية؟ لا على الإطلاق فهؤلاء هم السماويون يدخرون للجد الأكبر أعظم ابتلاء. ولكننا لا نستطيع أن نتحدث عن هذا الابتلاء قبل أن نقدم للحديث ببعض التأملات.

إذا كان لدين فطرى عام أن ينشأ ويتطور عنه دين خاص يتنزل به الوحى، فإن البلاد التى يحلق فيها خيالنا الآن وما اتصل بها من أسلوب للحياة وعاش فيها من نوع من البشر، كانت أنسب المواضع له. ونحن على الأقل، لا نجد فى مكان آخر من العالم شبيهًا لما نجد هنا من مواءمة وصفاء. والدين الفطرى – إذا سلمنا بأنه نشأ فى النفس البشرية قبل الدين الخاص – يقوم على كثير من رقة الوجدان، لأنه يعتمد على اليقين من تدبير عام يسير نظام الكون فى مجموعه، والدين الخاص – أى الدين الذى توحى به الآلهة وتخص به هذه الأمة أو تلك – ينضوى على الإيمان بتدبير خاص تخص به الذات الإلهية بعض البشر والأسر والقبائل والأمم المفضلين دون غيرهم. وهذا الدين الخاص من الصعب أن ينشأ على ما يبدو من ذات الإنسان، لأنه يتطلب تراثًا وأصلاً وضمانًا من زمن سحيق.

جميل إذن أن التراث الإسرائيلى يصور هؤلاء الرجال الأول الذين يثقون فى هذا التدبير الإلهى الخاص، ويصورهم على صورة أبطال الإيمان، فهم يعتبرون أنفسهم تابعين لهذا الكيان الأعلى، وهم يتبعون أوامره كلها بغير تردد، وينتظرون دون أن يساورهم شك، أو يصيبهم وهن، أن تتحقق وعوده.

وكما أن الدين الخاص الذى يتنزل به الوحى يقوم على أساس المفهوم المتمثل فى أن الآلهة يمكن أن تفضل إنسانًا على إنسان آخر، كذلك فهو ينشأ خاصة عن تمييز الأحوال بعضها عن البعض الآخر. والبشر الأول يلوحون لنا أقرباء قرابة وثيقة، ولكن أعمالهم ما لبثت أن فرقت بينهم. كان الصياد أكثر الجميع حرية، وعنه نشأ المحارب والحاكم. أما الفئة التى زرعت الحقول، ووهبت نفسها للأرض، وأقامت المساكن والمخازن لتحفظ المحصول، فقد تصورت لنفسها شيئًا من الرفعة، لأن أحوالها كانت توحى بالدوام والأمان. وأما الراعى فقد أتيحت له على ما يبدو ظروف هى أكثر الظروف انطلاقًا، وأتيح له ملك بلا حدود. كانت قطعان الأنعام تتزايد إلى ما لا نهاية، وكانت الأرض التى ترعى فيها وتنال طعامها تمتد فسيحة فى كل اتجاه. ويبدو أن هذه الطبقات الثلاث – الصيادين

والزراع والرعاة – كانت منذ البداية تنظر بعضها إلى البعض الآخر نظرة الغضب والاحتقار. وإذا كان الراعى قد بدا فى نظر الحضرى شيئا فظيعا، فقد ابتعد الراعى عن الحضرى، وانعزل عنه، وضاع الصيادون من أمام أبصارنا، وتفرقوا فى الجبال، ولم نعد نراهم إلا غزاة.

كان الأجداد الأول من فئة الرعاة، وكان أسلوب حياتهم على بحر الصحارى والمراعى يضفى على أفكارهم سعة وحرية، كذلك كانت قبة السماء التى يسكنون تحتها مع كل ما تعمر به من نجوم تتلألأ بالليل تعطى أحاسيسهم سموا، وكانوا يحتاجون – أكثر من الصياد الماهر النشيط، وأكثر من الزارع الحريص المطمئن المقيم فى بيته – إلى الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع بأن إلها يسير بجوارهم، ويزورهم ويواسيهم ويقود خطاهم وينقذهم.

كذلك نجدنا مضطرين إلى ملاحظة تأملية أخرى تنتقل بنا إلى تتبع مسار التاريخ، فعلى الرغم من أن ديانة أجدادنا الأوائل – كما تصورها التوراة – تبدو لنا جميلة، وإنسانية وصافية، فإن سمات من الغلظة والعنف تتخللها، والإنسان بين خارج منها ومترد إليها.

أما أن الكراهية يكفر عنها بالدم أو بقتل العدو المغلوب فأمر طبيعى، وأن ينعقد السلام على ساحة القتال بين صفوف القتلى فأمر يمكننا تصوره، وأن تذبح الحيوانات لتثبيت عرى التحالف فأمر يستنتج مما سبق، كذلك أن يقوم الإنسان بدعوة الآلهة التى كان يتصورها طرفًا معه أو عليه، بأن يقدم إليها ذبيحة فيسترضيها ويكسبها إلى جانبه، فذلك تصور لا ينبغى أن ندهش له. ولنقف وقفة عند القرابين، ونتأمل الطريقة التى كانت تقدم بها فى ذلك الزمان السحيق، فنجد عادة غريبة تثير فينا النفور كل النفور، ويبدو أنها تولدت عن الحرب، فقد جرت العادة على أن تؤخذ مختلف الحيوانات التى تقدم قربانًا، مهما كانت عدتها، وتشق شقين، يلقى كل شق منها على جانب، فينشأ بينها طريق يسلكه أولئك الذين يريدون أن يعقدوا عقدًا مع الذات الإلهية.

كذلك تمر من خلال هذا العالم الجميل سمة فظيعة أخرى تسير عجيبة رهيبة، وتتمثل هذه السمة فى أن ما ينذَر أو يُهَلّ به ينبغى أن يموت وربما كانت تلك أيضًا عادة من عادات حياة الحرب انتقلت إلى حياة السلام. وكان أهل المدينة التى تقاوم الغزاة يهددون بأن يحيق بهم النذر، فيعصف بهم كالعاصفة أو نحوها، تبيد كل شيء حى، وتهلك الرجال خاصة، وقد تصيب النساء والولدان والأنعام أيضًا، ثم تقدم الضحايا إلى الآلهة، ويقع النذر بهذه الضحايا على نحو متعجل مسرف فى التعجيل، مفعم بالخزعبلات، قد يتحدد وقد لا يتحدد، فيقدمونها إلى الآلهة؛ وهكذا يسيل دم أولئك الذين كان ينبغى على الإنسان أن يصون حياتهم، ومنهم الأقارب المقربون والولد، ليكونوا ضحية تكفيرية لهذا الجنون.

مثل هذه العادة البربرية من عادات التعبد لا يمكن أن تكون قد تولدت تلقائيًا فى نفس إبراهيم الرقيقة العامرة بالأبوة الخالصة ولكن الآلهة، وهى تبتلينا أحيانًا، يبدو أنها تبرر الصفات التى يبتدعها الإنسان وينسبها إليها، وها هى ذى تأمره بالأمرالهائل، تأمره بأن يضحى بابنه آيةً على الحلف الجديد، وإن لم تكن التضحية بمجرد الذبح والحرق، فلتكن على العادة القديمة بشطره شطرين والوقوف بين الأحشاء الدامية الباخرة لانتظار وعد جديد من الآلهة الرحيمة. ويهم إبراهيم دون ما تردد بتنفيذ الأمر، لا يتقلب له بصر، ولكن الآلهة تكتفى بالنية. وهكذا تنتهى اختبارات إبراهيم، فلم يعد من سبيل إلى زيادتها. ثم ماتت سارا، وأتاح موتها لإبراهيم فرصة الاستحواذ على أرض كنعان على نحو نموذجى. فقد كان بحاجة إلى مقبرة، وكانت تلك هى المرة الأولى التى يبحث فيها عن ملك على هذه الأرض، ولعله كان قد اختار من قبل كهفًا مزدوجًا ناحية بلوطات ممرا فاشتراه ومعه الحقل المتاخر له، وتبين الطريقة الشرعية التى اتبعها أهمية هذا الملك بالنسبة إليه، ولقد كانت كبيرة، ربما أكبر مما يتصور، لأن أولاده وأحفاده دفنوا هنا فيما بعد، وعلى هذا تأسس فى أخص خصوصياته المطلب التالى بالبلد كلها، وكذلك الميل المستمر لذى خلفه على التجمع هنا.

ومنذ ذلك الوقت تباعدت المشاهد العائلية المنوعة وتبدلت. وظل إبراهيم يعتزل السكان أشد الاعتزال، وإذا كان إسماعيل، ابن المصرية، قد تزوج واحدة من بنات مصر، فقد تقرر أن يتزوج إسحاق من واحدة تنحدر من دم صديق، تكون ندًا له.

وأرسل إبراهيم عبده اليعازر إلى بلاد ما بين النهرين إلى أقاربه الذين خلفهم هناك، ونزل اليعازر الماهر هناك دون أن يعرفه أحد، ليبحث عن الزوجة المناسبة ويعود بها إلى الدار، وامتحن استعداد البنات للخدمة عند البئر، فطلب أن يشرب، فلبت (رفقة) وسقت جماله أيضًا دون أن يطلب إليها ذلك، فقدم إليها الهدايا، وطلب يدها، فلم يرفض طلبه، وهكذا أخذها إلى بيت سيده، وزفت إلى إسحاق. وطال بإسحاق ورفقة هما أيضًا انتظار الولد، ثم حلت البركة على رفقة بعد سنوات من الابتلاء، وتكرر الشقاق الذى نجم عن زواج إبراهيم بامرأتين أصبحتا أُميَّن لولدَين، ولكن الشقاق كان فى هذه المرة بين ولدين حملتهما فى أحشائها أم واحدة، وخرجا إلى الدنيا مختلفين فى الطابع كل الاختلاف، أكبرهما قوى نشيط وأصغرهما رقيق كيس، آثر الأب أكبرهما، وآثرت الأم أصغرهما، واستمر بينهما التناحر منذ مولدهما. عيسو هادئ النفس غير عابئ بأسبقيه مولده أو البكورة التى حباه بها القدر. أما يعقوب فلا ينسى لأخيه أنه زحزحه عن هذه الأسبقية أو البكورة، وهو حريص كل مناسبة على تحصيل ما يصبو إليه من مصلحة، وهو ينكر على أخيه حتى المولد الأول، وهو يحقد عليه لما ينال من بركة أبيه. ويغتاظ عيسو ويقسم أن يقتل أخاه، فيهرب يعقوب ليجرب حظه فى أرض الأجداد.

لأول مرة يظهر فى أسرة كريمة كل هذا الكرم عضو لا يجد حرجًا فى أن يستخدم المهارة والخبث فى تحقيق فوائد لم تتحها له الطبيعة ولم تمكنه منها الظروف. وكثيرًا ما لاحظ الملاحظون وتكلم المتكلمون عن أسفار الكتاب المقدس أنها لا تعرض علينا إطلاقا هؤلاء الآباء الأوائل وغيرهم من الرجال الذين اصطفاهم الله على أنهم صور للفضيلة، فهم بشر اختلفت مشاربهم واعتورتهم ألوان

كثيرة من العيوب والقصور[٤٣]. ولكن هؤلاء الرجال الذين يحبهم الرب يتسمون بسمة أساسية لا ينبغى التخلى عنها ألا وهى الإيمان الذى لا يتزعزع بأن الله يتولاهم وأهليهم على نحو خاص.

أما الدين العام الطبيعى فلا حاجة به أصلا إلى اعتقاد، لأن الاقتناع بأن هناك كائنا عظيمًا، خلاقا، مدبرا موجهًا، كأنه يتوارى وراء الطبيعة حتى ندركه، عن اقتناع ينبثق فى كل منا، وإذا حدث أن ترك الإنسان أحيانا خيط هذا الاقتناع الذى يقوده خلال ظروف الحياة، فإنه يعود من فوره، وفى كل الأحوال ليتلقفه من جديد. وتختلف الحال اختلافا بينا بالنسبة للدين الخاص الذى يعلننا بأن هذا الكائن العظيم يتولى فردًا واحدًا أو قبيلة واحدة أو شعبًا واحدًا أو بقعة واحدة من الأرض على نحو قاطع متميز. مثل هذا الخاص يعتمد على الاعتقاد الذى ينبغى أن يكون راسخًا لا يتزعزع حتى لا ينهدم من أساسه. وكل شك حيال مثل هذا الدين قاتل. فالإنسان يستطيع أن يعود إلى الاقتناع إذا انصرف عنه يومًا، أما العودة إلى الاعتقاد فلا سبيل إليها. ولهذا كانت ألوان الابتلاء اللانهائية، وتأجيل تحقيق الوعود المتكررة، وكل هذه أمور من شأنها استجلاء القدرة الإيمانية لهؤلاء الأجداد القدامى.

وسار يعقوب طريقه فى هذا الإيمان، وإذا كان أخذه بأساليب الخبث والغش التى أفقدته رضاءنا، فإنه يحوزه بحبه الدائم الثابت (لراحيل) التى طلب يدها ارتجالا كما فعل اليعازر من قبل عندما طلب يد (رفقة) لأبيه. وكأن القدر قد شاء أن تتحقق فيه أولا وعلى أكمل وجه وعد شعب لا يحصيه العد، ورأى يعقوب الكثير من الأبناء حوله، ثم عانى على يد أولاده وأمهاتهم الهموم والأحزان.

ولقد خدم يعقوب سبع سنوات طوال لينال الحبيبة، لا يفقد الصبر، ولا يستبد به تردد، ولكن أباها، وكان خبيثًا مثله، يستحل كل الوسائل التى تبلغه الهدف، غشه وانتقم منه لما كان قد فعله بأخيه، فقد اكتشف يعقوب أن الزوجة التى زفت إليه ليست هى التى أحبها. ولكن الأب – لابان– يسترضيه ولا يلبث أن يعطيه الحبيبة زوجة ثانية، ويشترط عليه أن يخدمه سبع سنوات أخرى، وهكذا يحل به النكد بعد النكد. وكانت الزوجة التى لم يحبها ولودًا، بينما كانت الزوجة التى أحبها عاقرًا

وقررت هذه – مثلما فعلت سارا من قبل – أن تصبح أما عن طريق جاريتها، وحنقت عليها أختها لهذه النعمة، وقررت أن تدخل هى الأخرى زوجها على جاريتها، وأصبح الأب الأول الطيب أكثر الناس عذابا فى الدنيا. كانت له أربع زوجات، وكان له أبناء من ثلاثة منهن، ولم يكن له ولد من الزوجة الحبيبة. وأخيرًا سعدت الزوجة الحبيبة، وجاء يوسف إلى الدنيا ثمرة متأخرة لحب عارم. وانتهت سنوات خدمة يعقوب الأربع عشرة لدى لابان، ولكن لابان لم يشأ أن يفقد عبده الأول الذى أخلص له كل الإخلاص، واتفق الاثنان على شروط جديدة، واقتسما القطعان. فاحتفظ لابان بالأنعام البيضاء وكانت هى الأكثر عددًا ورضى يعقوب بالرقطاء أى المعيبة. ولكن يعقوب عرف كيف يحقق مصلحته، وكما استطاع من قبل عن طريق طعام سوء أن ينال البكورية، وعن طريق التخفى فى ثياب أخيه أن ينال بركة أبيه، فقد عرف كيف يصل بالحيلة والممالأة إلى امتلاك أفضل القطعان وأكبرها، وكان من هذه الناحية الأب الجدير حقًا بأبوة شعب إسرائيل، والقدوة لخلفه. وإن لم يكن (لابان) وآله قد لاحظوا الحيلة، فقد رأوا النجاح الذى حققته. وثارت نيران الغضب. ولكن يعقوب هرب ومعه ذووه، وأفلت بالحظ والحيلة من ملاحقة لابان. وشاء القدر أن تمنحه راحيل ابنا، ولكنها ماتت فى أثناء الوضع، وبقى بنيامين، ابن الأحزان، حيًا، وهكذا يبقى الأب الأكبر ليعانى أشد الآلام عندما يفقد ابنه يوسف إلى حين.

***

وقد يسأل سائل: لماذا أوردت هنا بالتفصيل كل هذه الحكايات المعروفة عامة، والتى كثيرًا ما كررها المكررون، وشرحها الشراح. وأرد على هؤلاء قائلاً: إننى لم أجد سبيلاً آخر أعبر به، كيف أننى كنت فى حياتى المبعثرة، وفى أثناء تعليمى المشتت، أجمع عقلى وأحاسيسى على نقطة واحدة فى سكينة، وأننى لم أجد سبيلا آخر لتصوير السلام الذى كان يحيط بى إذ ذاك حتى إذا كانت الحياة فى الخارج تعج فى اضطراب وغرابة على أشد ما يكون العجيج. فإذا قادنى خيالى

الذى لا يفتر – وعليه تشهد الحكاية التى أوردتها – تارة إلى هنا، وتارة إلى هناك، وأوشك الخلط بين الخرافة والتاريخ وبين الميثولوجيا والدين أن يصيبنى بالاضطراب والحيرة، أحببت أن أهرب إلى تلك البقاع الشرقية، فأغوص فى أعماق سفر التكوين، وألقى نفسى بين قبائل الرعاة المنتشرة فى عزلة هى أشد أنواع العزلة، وألفة هى أشد أنواع الألفة.

تعرض علينا هذه المشاهد العائلية. قبل أن تتبدد فى داخل التاريخ الإسرائيلى، فى نهايتها صورة شخصية يجد فيها الشباب خاصة ما يحرك آمالهم وتخيلاتهم أجمل الحركة: يوسف وليد الحب الشرعى العارم. إنه يلوح لنا هادئًا مطمئنًا صافيًا رائقا، وهو يتنبأ لنفسه بالميزات التى سترفع قدره فوق قدر أسرته. ويدفع به إخوته إلى البأساء. ولكنه يظل ثابت الجنان وهو فى وضع العبودية شرعًا، ويقاوم أشد أنواع الإغراء خطرًا، وينجو بنفسه بالنبوءة التى تنبأها للملك، ويصل إلى درجات عالية من الرفعة بما أوتى من فضل وهنا يستطيع أن يعين المملكة الكبيرة، وأن يعين أهله وينفعهم. وهو يشبه أباه الأول إبراهيم فى الطمأنينة والعظمة، ويشبه جده إسحاق فى السكينة والاستسلام، وهو قد ورث عن أبيه التدبير وأصبح يمارس هذا التدبير على نطاق واسع، لا فى سبيل الوصول إلى مزيد من القطعان يحتال على حميه ويستأثر بها لنفسه بل فى سبيل الوصول إلى مزيد من الشعوب والممتلكات يعرف كيف يتفاوض لتكون خالصة للملك. إنها قصة طبيعية لطيفة إلى أقصى درجات اللطف، ولكنها تبدو لنا قصيرة مقتضبة، يحس الإنسان حيالها كأنما هو مطالب بالتوسع فى تصويرها، والدخول فى تفصيلاتها.

ولم تكن الإفاضة فى تصوير الشخصيات والأحداث الواردة مقتضبة فى التوراة شيئًا غريبًا على الألمان، فقد تناول كلوپشتوك شخصيات العهد القديم والعهد الجديد فأضفى عليها الرقة وغمرها بالإحساس، فأعجبت الصبى وكثيرًا من معاصريه أيما إعجاب[٩٤]. وهو لم يعرف من أعمال (بودمر)[٩٥] فى هذا المضار إلا النزر اليسير، أو لم يعرف منها شيئًا قط، ولكنه عرف "دنيال فى عرين الأسد"

تأليف موزر، وكان عملا أثر فى وجدان الصبى أعظم الأثر. والقصة تحكى عن رجل من رجال الأعمال ومخالطى الأمراء، حسنت أفكاره، وصفت طويته، اجتاز الكثير من المحن، وبلغ الرفعة وعلو القدر، وكانت التقوى التى تمسك بأهدابها، والتى حاول المحاولون أن يفسدوها عليه إفسادا هى الدرع والسلاح فى يده، ينتصر بها آجلا أو عاجلا.

كنت منذ وقت طويل قد تمنيت أن أعالج قصة يوسف، ولكننى لم أجد السبيل إلى الشكل المناسب للموضوع، فلم أعرف بحرًا من بحور الشعر يصلح لمثل هذا العمل. ثم انتهيت إلى أن المعالجة النثرية ستكون أيسر أنواع المعالجة فى يدى، وعكفت على العمل بكل ما أوتيت من قوة. وأفرزت الشخصيات وصورتها، وسعيت إلى إدخال أحداث وفصول تحيل القصة القديمة البسيطة إلى عمل جديد قائم بذاته، ولكننى لم أنتبه إلى ما لا يمكن أن يتنبه إليه الصبية من ضرورة المضمون الذى يتفتق فى ذات نفوسنا بعد إدراك الخبرة والوعى بها. ومهما يكن من أمر، فقد استحضرت فى ذهنى كل الأحداث بأدق تفصيلاتها، ورويتها لنفسى بأشد ما استطعت من دقة.

وسهّل على العمل ظرفٌ عارض أدى به إلى الضخامة والإسهاب، وأوشك أن يدفعنى فى كل ما أنشئ إلى التوسيع إلى أبعد حدود للتوسع. فقد كان لدينا شاب كثير المواهب، وأدى به الإرهاق والخطل إلى العته، يعيش فى بيتنا تحت وصاية أبى، وكان هادئًا فى مسلكه مع الأسرة، ساكنًا أشد السكون، منطويًا على نفسه، وكان يرضى ويستجيب إذا تركه الإنسان يتصرف على سجيته. وكان هذا الشاب قد كتب كراساته الدراسية الأكاديمية بعناية كبيرة، واكتسب قدرة على الكتابة السريعة بخط واضح، وكان أحب شىء إلى نفسه الكتابة، يرحب بأن نكلفه بالنسخ، ويرحب أكثر من النسخ بأنه نمليه، لأنه كان يحس كأنما عادت به الحياة إلى سنوات الدراسة الأكاديمية السعيدة. ولم يكن أبى الذى ثقلت يده فى الكتابة وكان خطه بالألمانية ضامرا مرتعشًا، سعيدًا بشىء قدر سعادته بهذا الشاب، فكان يمليه

عادة طوال بضع ساعات من النهار ما يحتاج إلى كتابته فى أعماله وأعمال الآخرين. كذلك أنا وجدت راحة لا تقل عن تلك التى وجدها أبى فى أن أستعين بالشاب فى أوقات فراغه، ليسجل على الورق بيده الغريبة كل ما يطوف بخاطرى، ونمت قدرتى على الإبداع والتقليد مع سهولة الاستيعاب والحفظ.

ولم أكن قد قمت من قبل بكتابة عمل أدبى ملحمى نثرى حول موضوع من التوراة، وكان الوقت إذ ذاك هادئًا مطمئنًا، ولم يكن هناك ما يشد خيالى إلى الرجوع إلى فلسطين ومصر. وكان المخطوط يزيد كل يوم ضخامة، وكان يعين على ذلك أن الكثير من المواضع كانت تستقر نهائيا على الورق على النحو الذى كنت ألقيها به فى الهواء، وكأنى أروى لنفسى القصة، ولم أكن بحاجة إلى تعديل إلا القليل من الصفحات.

فلما انتهى العمل، وقد دهشت أنا نفسى لأنه تم بالفعل، فكرت فى أن بعض القصائد التى كتبتها قبل سنوات، والتى وجدتها حَرِية بألا تُلقى، يمكن أن تنتسخ على ورق من مقاس الورق الذى كتب عليه "يوسف"، وأن يتكون منها جميعًا مجلد بعنوان "أعمال منوعة". وقد أعجبنى هذا العنوان كل الإعجاب، لأننى وجدت بينى وبين نفسى فرصة لأقلد الكتاب المرموقين المشهورين. وكنت قد كتبت عددًا طيبًا من القصائد التى تسمى بالقصائد الأنكريونية[٩٦]، كانت تنساب من قلمى بسهولة نظرًا لخفة الوزن الشعرى وبساطة الموضوع. ولكننى لم أسمح لنفسى بضمها إلى المجلد لأنها لم تكن مقفاة، وكنت أريد أن يجد أبى فى المجلد شيئًا يرضى عنه. وكان هذا السبب هو الذى جعلنى أستحسن لهذا المقام القصائد ذات الطابع الدينى، ومنها قصيدة قلدت فيها "يوم الحساب" لإلياس شليجل، وبذلت فى كتابتها ما بذلت من الجهد. كذلك لقيت قصيدة فى قالب "الأودة" كتبتها وعالجت فيها عروج المسيح على الجحيم استحسانًا كبيرًا من والدىَّ وأصدقائهما، وسعدت هذه القصيدة بأنها ظلت سنوات عديدة تحظى برضائى أنا نفسى عليها. وقد درست فى همة ونشاط النصوص الموسيقية الكنسية التى كانت تطبع أيام الآحاد، وكانت بطبيعة الحال

شديدة الضعف، وكان من حقى أن أعتقد أن نصوصى، التى كتبت كثيرا منها على النمط المطلوب، تستحق أن تلحن، وأن تلقى على جمهور الكنيسة فيما يلقى عليهم من إنشاد يهدف إلى صلاح النفوس. وكنت قد كتبت من هذا النوع منذ أكثر من عام عددًا كبيرًا بيدى، وأعفانى مدرس الخط من تمرينات الكتابة معتبرًا هذا العمل من قبيل التمرين الخاص. وتناولت هذه النصوص بالإصلاح والترتيب، ولم تكن بى حاجة إلى كلام كثير لإقناع الشاب المولع بالكتابة بنسخها، فنقلها على الورق نقلاً جميلاً منسقًا. وأسرعت بالأوراق إلى المجلِّد، فلما قدمت المجلد الجميل إلى أبى، تطلع إلىّ طويلاً راضيًا كل الرضا، وحثنى على أن أقدم إليه كل عام مثل هذا المجلَّد، وكان يحدثنى عن اقتناع، لأننى كتبت كل هذا الذى كتبته فيما يمكن أن يسمى بالساعات الإضافية.

وثمة طرف آخر حفزنى على التعلق بهذه الدراسات اللاهوتية أو على دراسات الكتاب المقدس. كان كبير الوعاظ، يوهان فيليب فريزينيوس، رجلاً حليمًا، باشًا حسن الهيئة، يقدره جمهور الكنيسة، بل تقدره المدينة كلها وترى فيه واعظًا مثاليًا وخطيبًا مفوهًا. ولكن الأتقياء المعتزلين كانوا ينكرون عليه السمعة الممتازة لهجومه على الهرنهوتيين(٩٧). أما العامة فكانوا يقدرونه أعظم التقدير ويكادون يرفعونه إلى مصاف القديسين، لأنه رد إلى الإيمان واحدًا من القادة العسكريين كان قد جرح جرحًا قاتلاً وكان معروفًا بالإلحاد. فلما مات (يوهان فيليب فريزينيوس) خلفه واعظ اسمه (پليت)، وكان رجلاً طويل القامة، حسن المنظر، مهيبًا ولكنه لم يكن موهوبًا فى الوعظ، بل فى التعليم (وكان من قبل أستاذًا فى ماربورج)، وأعلن أن عظاته ستكون نوعًا من التعليم الدينى، وجعلها تتوالى فى إطار منهجى مترابط. وكنت منذ وقت مبكر، منذ أن كان علىّ أن أختلف إلى الكنيسة، قد تنبهت إلى التقسيم الذى يتبعه الواعظ، وأصبح فى مقدورى أن أعيد على الأسماع العظة كاملة تقريبًا، وأن أبز بذلك الآخرين. ولما كثر الكلام بين رعية الكنيسة عن الواعظ الجديد، وكان بعضهم فى صفه وبعضهم ضده، وكان الكثيرون لا يثقون ثقة خاصة

فيما أعلنه من خطة للعظات التعليمية، فقد قررت أن أكتب العظات بعناية أكبر فى وقت إلقائها. وقد نجحت فى ذلك لأننى كنت أجلس فى الكنيسة على مقعد مناسب جدا للإنصات، وكنت قد جربت الكتابة وحاولتها عدة مرات دون أن يلحظنى أحد. وأخذت أتابع العظة باهتمام بالغ، وبسرعة فائقة، حتى إذا ختم العظة وقال: آمين، خرجت من الكنيسة على عجل، وعملت ساعتين مع الشاب الكاتب، فأمليته مما سجلته على الورق ومما علق فى ذاكرتى، واستطعت أن أقدم العظة مكتوبة إلى ذوِّى قبل أن يجلسوا إلى مائدة الغذاء. وكان أبى فخورًا أشد الفخر بنجاحى. وكان صديق الأسرة الذى أتى لتناول الغذاء، يقاسمه سعادته، وكان هذا الصديق بصفة عامة عظيم الميل إلى، لأننى كنت فى أثناء زياراتى المتكررة إليه – التى كنت أقوم بها لأطلب منه صورًا من الأختام المطبوعة لأضمها إلى مجموعة الشعارات لدىّ – أتلو عليه قطعًا طويلة من ملحمة المسيح لكلوپشتوك، ملحمته الأثيرة إلى نفسه التى اهتممت بها وجعلتها خالصة لنفسى، فكانت الدموع تنساب من مآقيه.

واستأنفت العمل فى يوم الأحد التالى بنفس الهمة، ووجدت فى الناحية الآلية منه متعة خاصة، فلم أكن أفكر فيما أسجل، بل كنت أحرص على مجرد الحفظ والتسجيل. وأغلب الظن أننى ظللت أؤدى هذا العمل طوال الشهور الثلاثة الأولى من العام على نفس المنوال، ولكننى فى النهاية ارتأيت أننى لم أزد معرفة بالكتاب المقدس، ولم أكتسب تصورًا أكثر حرية عن العقيدة، وقدرت أن ما هاج فى نفسى من غرور محدود أرضاه هذا العمل، قد كلفنى الكثير، ولم تعد لدى رغبة فى الاستمرار بنفس الهمة، وهكذا ضمرت مجموعة العظات ضمورًا متزايدًا بعد أن كانت كثيرة الأوراق، وتزايد ضمورها شيئًا فشيئًا، وأوشكت أن أكف عن العمل تمامًا، لو لم يتدخل أبى وكان رجلا يحرص على الكمال، فكلمنى كلامًا جميلاً، ووعدنى بأشياء طيبة، فواصلت العمل حتى الأحد الأخير بعد عيد القيامة، ولم أكن فى النهاية أثبت على الورق سوى النص والموضوع والعناصر.

أما فيما يتصل بالإنجاز الكامل فقد كان أبى عنيدا غاية العناد، وكان يرى أن على الإنسان أن يكمل ما قد بدأ حتى إذا تبين أن هذا الذى بدأه يسبب له المشقة

والملل، أو يثقل عليه أو يبدو له بغير فائدة. ويبدو أن الإكمال كان فى نظره هو الهدف الأوحد وأن المثابرة هى الفضيلة الوحيدة. وكنا إذا شرعنا فى أثناء ليالى الشتاء الطويلة نتلو كتابًا تجتمع العائلة لاستماعه، نتمه إلى نهايته، حتى إذا استبد بنا اليأس جميعًا، وكان هو أول المتثائبين. ولا زلت أذكر شتاء من هذا القبيل التزمنا فيه بقراءة كتاب (باور) "تاريخ البابوات"، وقد ثقلت علينا المطالعة ثقلا فظيعًا، لأن الكتاب لم يكن يتضمن شيئًا فى حديثه عن الأحوال الكنسية يمكن أن يجد صدى لدى الأولاد أو الشباب، أو كان ما يتضمنه من هذا القبيل شيئا قليلاً ولكننى على الرغم من تشتت انتباهى وشدة معارضتى، حفظت فى ذاكرتى قدرًا كافيًا استطعت فيما بعد أن أربط به الكثير.

ولم يكن أبى فى خضم هذه المشاغل والأعمال الغريبة التى تلاحقت سريعًا، حتى إن الإنسان لم يكن يستطيع أن يدرك هل كانت مقبولة ومفيدة أم لا، لم يكن أبى لينصرف عن هدفه الأساسى، فقد بدأ يحاول توجيه ذاكرتى وموهبتى فى الفهم وفى الربط بين الأشياء إلى الموضوعات القانونية، وأعطانى لهذا الغرض كتابًا صغيرًا من تأليف (هوپـه)، وضعه على طريقة الأسئلة والأجوبة، يدور حول شكل ومضمون النظم القانونية، وما لبثت أن حفظت الأسئلة والأجوبة عن ظهر قلب، وأصبحت أنا المدرس الذى يسأل والتلميذ الذى يجيب. وكما أن منهاج التعليم الدينى فى ذلك الوقت كان يتضمن من بين تدريباته الأساسية، تمكين التلميذ من فتح الكتاب المقدس بأسرع ما يمكن على الموضوع المطلوب، كذلك كان المطلوب من دارس القانون أن يتعرف إلى "كتاب القانون" على النحو نفسه، وما لبثت أن تمكنت من طريقة البحث كل التمكن. وأراد أبى أن يخطو بى خطوة أخرى، فأعطانى كتاب (شتروڤـه) الصغير، ولكننى لم أتقدم فيه سريعًا، فلم يكن شكل الكتاب مناسبا للمبتدئ لأنه لم يكن يتيح له الاعتماد على نفسه فى الاستمرار، ولم تكن طريقة أبى فى التعليم متحررة على النحو الذى يمكن أن يجد صدى فى نفسى.

ولم تكن ظروف الحرب التى عشنا فيها منذ أعوام هى وحدها التى علمتنا أن هناك حالات كثيرة تسكت فيها القوانين ولا تهب لمساعدة الأفراد الذين يتعين عليهم أن يلتمسوا وحدهم السبل للخروج من المأزق، بل علمتنا ذلك حياة المواطنين نفسها، وما طالعناه من حكايات وروايات بوضوح دونه كل وضوح. وكنا قد شببنا عن الطوق، وكان علينا بحسب النظام القائم أن نتعلم فيما نتعلم المبارزة وركوب الخيل، لندافع عن أنفسنا، وليكون ركوبنا الخيل على نحو آخر غير ركوب المبتدئين. أما المبارزة، فكان التمرين عليها شيئا محببًا جدا إلى نفوسنا، لأننا كنا منذ وقت طويل قد صنعنا لأنفسنا سيوفًا من عيدان شجر البندق، وجعلنا لها سلالا مجدولة من الخيزران لتحمى أيدينا. وها هم أولاء يسمحون لنا بسيوف فولاذية حقيقية، كنا نحدث بها صليلا عنيفا.

وكان فى المدينة معلمان للمبارزة، معلم ألمانى متقدم فى السن، كان ينهج منهاجا نشيطًا صارمًا، ومعلم فرنسى كان منهاجه يقوم على التقدم والرجوع وتسديد ضربات خفيفة سريعة تصاحبها صيحات. وكانت الآراء منقسمة فى تقدير أى المنهاجين أفضل. وأوتيت المجموعة الصغيرة التى شاركتها الدرس المعلم الفرنسى، وسرعان ما تعلمنا التقدم والتراجع، والإفلات والانسحاب، وكيف نطلق الصيحات التقليدية فى أثناء ذلك.

وكان العديد من معارفنا قد ذهبوا إلى المعلم الألمانى، وكانوا يتعلمون عكس ما كنا نتعلم. وكان هذان المنهاجان المختلفان فى التدريب على شيء مهم كالمبارزة، واقتناع كل واحد منا بأن معلمه هو الأفضل، كل هذا أشاع الفرقة بين الشباب الذين كانوا تقريبًا من عمر واحد، وأوشكت الفرقة أن تتحول إلى مبارزات حقيقية. وكانت المبارزات بالكلام تحتدم وتصبح فى عنف المبارزات بالسيف، وأخيرا تقرر حسم الخلاف بتنظيم مبارزة بين المعلمين. ولست بحاجة إلى وصف النتيجة وصفًا تفصيليًا. لقد وقف المعلم الألمانى فى موقعه كالجدار، حريصا على فرصته، واستطاع بحركاته وضربه على سيف غريمه بعنف مرهق أن يجرد

غريمه المرة تلو المرة من سلاحه، ولكن المعلم الفرنسى ذهب إلى أن ما جرى لم يكن له معنى، واستمر بحركته الخفيفة يسعى إلى إرهاق الألمانى، وسدد إليه بضع ضربات، كان يمكن أن تدفع به هو إلى العالم الآخر لو أنها أخذت مأخذ الجد.

ولكن الأمر لم يحسم، ولم يتحسن، وتحول البعض إلى ابن بلدهم، وهكذا فعلت أنا أيضًا. ولكننى كنت قد تلقيت من المعلم الأول الشىء الكثير من العلم، ومر وقت طويل حتى استطاع المعلم الجديد أن يغير عاداتى، وكان بصفة عامة أقل رضاء علينا، نحن المحولين، من رضائه على تلاميذه الأصليين.

وكان حالى مع ركوب الخيل أشد سوءا، فقد أرسلونى بطريق المصادفة فى الخريف إلى ساحة ركوب الخيل، وهكذا بدأت تعليمى فى وقت بارد رطب، ووجدت فى المعالجة المتكلفة المتعالمة لهذا الفن الجميل ما سبب لى النفور أشد النفور. كان الحديث يدور من البداية إلى النهاية حول الضم، ولم يكن هناك من يستطيع أن يشرح المقصود بالضم الذى كانوا يقولون عنه إن ركوب الخيل كله يعتمد أساسًا عليه، حيث كنا نذهب على ظهر الخيل هنا وهناك بلا ركاب. وكان التعليم يقوم على أساس واحد وهو تأنيب التلاميذ وإشعارهم بالخجل. فإذا نسى التلميذ أن يركب أو أن يحل سلسلة الذقن، أو إذا أوقع العصا أو حتى القبعة، أو تقاعس عن فعل شىء، كان عليه أن يكفر عن سوء فعله أو سوء حظه بمبلغ من المال، ثم كانوا علاوة على ذلك يسخرون منه وقد أفسد ذلك مزاجى كل الإفساد، وبخاصة لأننى وجدت مكان التدريب مكانًا لا سبيل إلى احتماله على الإطلاق. هذا المكان القبيح، الواسع، الذى كان تارة رطبًا، ومغبرًا تارة أخرى، وهذه البرودة ورائحة العفن، كل هذه الأشياء كانت تحدث بى النفور أشد النفور. ولما كان ريّس الإسطبل يعطى الآخرين دائمًا أفضل الخيول، ربما لأنهم كانوا يرشونه بطعام إفطار أو ما شاكله من نفحات، أو يرشونه بمهارتهم، ويعطينى أنا أسوأ الخيول، ويتركنى أنتظر، ويجعل دورى دائمًا فى النهاية، فقد أمضيت أسوأ ساعات فى نشاط هو أبهج ما فى الدنيا من أنشطة. ولقد ظل الانطباع الذى انطبع فى ذهنى عن ذلك

الوقت وتلك الأحوال قويًا، حتى إننى، على الرغم من أننى اعتدت فيما بعد ركوب الخيل، وأغرمت به، وسلكت فيه مسلك الجرأة والجسارة. وكنت أركب الخيل أياما وأسابيع ولا أكاد أفارقها، ظللت أتحاشى كل مضمار مسقوف كل التحاشى، ولا أبقى فيه إلا لحظات على أكثر تقدير. وكثيرا ما يحدث عندما يريد المعلمون تعليمنا بدايات فن مكتمل، أن ينتهجوا منهاجا مخجلاً منفرًا، وقد أدى الاقتناع بسخف هذا المنهاج وضرره فيما بعد إلى ظهور مبدأ تربوى يطالب بأن يُنتهج فى تعليم الشباب منهاجٌ سهل بهيج مريح، وقد نجم عن هذا المنهاج الجديد بدوره مساوئ وعيوب أخرى.

فلما اقترب الربيع زاد الهدوء فى حوبتنا، وإذا كنت فيما مضى قد حرصت على مشاهدة المدينة، ومبانيها الدينية والدنيوية والعامة، وتمتعت أعظم المتعة بالطابع القديم السائد، فقد اجتهدت فيما بعد استخدام "تاريخ ليرسنر" والكتب الفرنكفورتية التى لدى أبى، لأتعرف إلى شخصيات العصور القديمة، وقد وفقت فى ذلك لأننى حرصت على الاهتمام بخاصية الأزمات والعادات وأنواع التفرد المهمة.

وكنت قد تنبهت منذ طفولتى إلى أثر من الآثار القديمة يتمثل فى جمجمة مجرم سياسى علقت على برج الكوبرى، وكانت واحدة من ثلاث أو أربع جماجم – تدل عليها الرماح الحديدية الخالية – بقيت منذ عام ١٦١٦ لا تأتى عليها عوادى الزمان وتغيرات الأجواء. وكان الإنسان كلما جاء من زاكسنهاوزن عائدًا إلى فرنكفورت، يلقى البرج فى مواجهته، وتلفت الجمجمة نظره. وحرصت وأنا بعد صبى على أن أسمع قصة هؤلاء الثوار – فيتميلش ورفاقه – وكيف أنهم لم يرضوا على حكومة المدينة، فثاروا عليها، ومردوا، ونهبوا مدينة اليهود، وأحدثوا أعمال شغب فظيعة، حتى ألقى القبض عليهم، وحكم عليهم نواب قيصريون بالإعدام. واهتممت فيما بعد بمعرفة تفصيلات هذه الأحداث، ومعرفة هؤلاء الناس وحقيقة أمرهم. فلما قرأت فى كتاب قديم، يرجع تاريخه إلى أيامهم، به صور مطبوعة بالحفر على الخشب، أن هؤلاء الرجال حكم عليهم بالإعدام، وأن عددًا من أعضاء

المجلس أعفوا فى الوقت نفسه من مناصبهم، لما جرى من أعمال الشغب وأحداث كثيرة غير مسئولة، وعلمت بتفصيلات الأحداث كلها، أسفت على هؤلاء الرجال التعساء، الذين يجوز للإنسان أن يعتبرهم ضحية المطالبة بدستور أفضل تحقق فيما بعد. فإلى هذا الوقت وما جرى فيه يرجع النظام الذى استقر عندنا، والذى شارك بمقتضاه فى الحكومة بيت ليمبورج العريق، وبيت فراونشتاين الذى نشأ عن ناد قديم، وعدد من القانونيين والتجار والحرفيين، وأخذ فيه بالاقتراع بالكرات على الطريقة الفينيسية على سبيل الإكمال، وباللجان المدنية على سبيل التحديد والتقييد، وأصبح واجبه هو إحقاق الحق، ولم تعد له حرية خاصة تسمح له بالظلم.

وكانت مدينة اليهود من بين الأشياء الرهيبة التى انقبضت لها نفس الصبى منذ طفولته على نحو خاص، وكانت مدينة اليهود، التى يطلق عليها اسم حارة اليهود، لأنها لم تكن تزيد على حارة واحدة، انحصرت كالسجن منذ عصور قديمة بين جدار المدينة والخندق، حارة ضيقة، وكان ما تتسم به من ضيق وما يجتمع فيها من قذارة وما يضطرب فيها من زحام وما يصافح الأذن من نبرات لغة لا بهجة فيها، كل هذا كان يحدث انطباعًا سيئًا غاية السوء على الإنسان حتى إذا لم يدخلها بل أطل عليها وهو يسير على مقربة من بوابة المدينة. ولقد ظللت حينًا طويلاً لا أجرؤ على النزول إليها وحدى، فلما دخلتها مرة لم يسهل علىّ العودة إليها، حيث تعرضت لصنوف من الإلحاح لاحقنى بها أناس كثيرون متزاحمون لا يتعبون ولا يكلون وهم يعرضون بضائعهم، ويطالبون بالشراء، ويساومون فلا يكفون عن المساومة. وكنت فى أثناء ذلك أذكر الحكايات القديمة البشعة التى تصور فظاعة اليهود مع الأطفال المسيحيين، فتمثل فى مخيلتى، على نحو ما رأيناها فى "تاريخ" جوتفريد مصورة أبشع تصوير. وعلى الرغم من أن رأى الناس فيهم قد تحسن فى العصر الحديث، فإن المشهد المخجل الفاضح الكبير الذى يطالع الإنسان أسفل برج الكوبرى عند البواكى لا يزال شهادة خارقة للمألوف ضدهم وسبة فى جبينهم، لأنه لم يقم بناء على رغبة من فرد، بل قام على أساس أمر عام.

ولكنهم ظلوا مع ذلك شعب الله المختار، وساروا على ذكرى العصور السحيقة فى كل درب، أيا كان مصدر هذا التصور. ثم كانوا بشرا، نشيطين ودودين، ولم يكن الإنسان لينظر بغير تقدير حتى إلى تمسكهم العنيد بعاداتهم، وكانت بناتهم، فوق هذا وذاك، جميلات، وكن يبدين الرضا إذا التقى بهم صبى مسيحى يوم السبت فى ساحة الصيادين، فتلطف معهن وأبدى لهن الود، وقد تملكنى شغف شديد بالتعرف إلى شعائرهم، ولم يهدأ بالى حتى زرت مدرسة من مدارسهم وكررت الزيارة مرات، ثم شهدت مرة ختاناً، وعرسًا، وكونت صورة عن احتفالهم بعيد الحصاد. وكانوا يحتفون بى فى كل مرة، ويسبغون على من كرم الضيافة، ويدعوننى إلى العودة، لأننى كنت أذهب إليهم برفقة شخصيات لها نفوذها أو بتوصية منها.

وهكذا كنت كساكن صغير من سكان المدينة الكبيرة أرتمى من موضوع إلى موضوع، ولم تكن السكينة والاطمئنان اللذان نعم بهما المواطنون يخلوان من مشاهد بشعة، فربما شب حريق فى مكان قريب أو بعيد، وأدخل الرعب إلى قلب بيوتنا، أو اكتشفت السلطات جريمة كبيرة شغلت بال الناس فى المدينة الأسابيع الطوال بما يجرى من تحقيقات وما يحكم به من عقاب. وشهدت مرات تنفيذ حكم الإعدام[٩٨]، وشهدت شيئًا أرى أنه جدير بالذكر، وهو إحراق كتاب. كان هذا الكتاب رواية فرنسية مضحكة، لم يمس كاتبها الدولة، ولكنه مس الدين والعادات والحق أن الإنسان يحس بشىء من البشاعة عندما يرى عقوبة تطبق على جماد. كانت طرود الكتب تتفجر فى النار، وكان هناك من يستخدمون حدائد الأفران ليؤججوا النيران، ويقربوا الكتب من ألسنة اللهب. وسرعان ما تطايرت الأوراق التى احترقت أطرافها فى الهواء، وأسرع الناس لتلقفها بشغف شديد. كذلك نحن لم يهدأ لنا بال حتى حصلنا على نسخة من الكتاب الممنوع، ولم يكن الساعون إلى المتعة الممنوعة قلة. ولو كان مؤلف الكتاب طالب شهرة، لما استطاع أن يحقق لنفسه الشهرة التى تحققت له على هذا النحو.

كذلك كانت هناك مناسبات سلمية ساقتنى إلى المدينة المرة تلو المرة، فقد عودنى أبى منذ وقت مبكر على أن أنجز له بعض أعماله الصغيرة، وكان يكلفنى خاصة بالتنبيه على الحرفيين الذين كان يكلفهم بالأعمال المختلفة، والذين كانوا يعطلونه عادة أكثر مما ينبغى، وكان هو يحرص على أن تنفذ الأعمال التى يطلبها بدقة، ويسعى فى النهاية إلى تخفيض الأجر لقاء دفعه على الفور، وهكذا دخلتُ كل أنواع الورش، ولما كنت ذا موهبة فطرية تمكننى من التغلغل فى كل حال من الأحوال، والإحساس بكل نوع من أنواع الوجود الإنسانى والمشاركة عن رضا فيه، فقد أمضيت الكثير من الساعات الممتعة وأنا أقضى لأبى هذه المهام، وتعرفت إلى كل عمل من الأعمال الحرفية، وإلى الشروط التى يرتبط بها ما يتم به هذا الأسلوب أو ذاك من أساليب الحياة من فرح ومعاناة، وما يتصل به من أسباب المواءمة والإرهاق. وعلى هذا النحو اقتربت من طبقة العاملين، التى تربط الطبقة العليا والسفلى. فإذا كانت فئة من الناس تقف على هذه الناحية مشغولة بالمنتجات الخام البسيطة، وفئة أخرى تقف على الناحية الأخرى تسعى إلى التمتع بالمنتجات المصنعة، فإن العامل الحرفى هو الذى يستخدم فهمه ويده لكى يتلقى كل واحد من الفئتين عن الآخر، ولكى ينال كل من يريد شيئًا من مطالبه بحسب رغبته. واهتممت فى صمت بأسرة كل حرفى، وما تكتسبه من شكل ولون عن طريق ممارسة الحرفة، ومن هنا تولد لدى، وتدعم الإحساس بالمساواة، وإن لم يكن بالمساواة بين البشر، فالمساواة بين الأحوال الإنسانية، ورأيت أن الشرط الأساسى يتمثل فى مجرد الوجود، وأن كل ما عداه هو من شأن المصادفة، لا يختلف بعضه عن البعض الآخر.

لم يكن أبى يسمح لنفسه فى يسر بإنفاق شىء من المال يضيع لقاء متعة عابرة، بنت لحظتها، وأنا لا أكاد أذكر أننا ذهبنا للنزهة جميعًا إلى مكان من أماكن اللهو والتسلية فشربنا أو أكلنا شيئًا يقدم فى تلك الأماكن. ولكنه لم يكن ممسكًا عند اقتناء أشياء لها قيمتها الداخلية، ومنظرها الخارجى الجميل. ولم يكن هناك من يتوق إلى السلام مثله، على الرغم من أنه لم يعان فى الفترة الأخيرة من الحرب

أقل معاناة. وفى غمرة هذه الأحاسيس وعد والدتى بأن يقدم إليها علبة من الذهب مطعمة بالماس، تتلقاها يوم يعلن السلام. واستمر العمل فى صناعة هذه الهدية مع الأمل فى عودة السلام. وصنعت العلبة نفسها، وكانت كبيرة الحجم نسبيًا، فى مدينة (هاناو)، ولأن أبى كان على علاقة طيبة بصناع الذهب هناك، وبرؤساء مؤسسة الحرير. ثم رسمت رسوم مختلفة لتزيينها: كان الغطاء يتحلى بسلة من الزهور تحوم فوقها حمامة تحمل غصن الزيتون، وتركت مواضع الماس خالية، وكان بعضها على الحمامة، وبعضها الآخر على الزهور، أو على مكان فتح العلبة. وكان الجواهرجى الذى كلف بالتنفيذ الكامل للعلبة وبتدبير الأحجار الكريمة اللازمة، يدعى (لاوتنزاك) وكان رجلا ماهرًا، باشًا نشيطًا، وكان شأنه شأن الفنانين ذوى الأفكار المبتكرة، لا يفعل ما تدعو إليه الضرورة إلا نادرًا، بل يفعل ما يحلو له. وما يجد فيه متعته. وسرعان ما أعد الجواهر، وركبها على صفحة من الشمع الأسود على الهيئة التى ستتخذها على غطاء العلبة، وبدا منظرها جميلاً، ولكنه لم يتحرك لينقلها من الشمع إلى الذهب. وترك أبى الأمر على هذا الحال حينا، فلما تزايد الأمل فى السلام، ودارت التساؤلات حول شروطه، وبخاصة تتويج الأرشيدوق يوزف ليكون ملكًا، أخذ صبر أبى ينفد شيئًا فشيئًا، وتملكته العجلة، وأصبح على أن أذهب مرات كل أسبوع، ثم كل يوم، إلى الفنان المتقاعس. وأدى حثى المستمر، وعذابى الدائم للرجال إلى تقدم العمل، وإن ظل تقدمًا بطيئًا. فقد كانت نوعية العمل تسمح للفنان بأن يتناوله ثم يتركه، ولهذا كان إذا عَنّ له شىء آخر، يضعه جانبًا إلى حين.

وكان السبب الأساسى فى تصرف الفنان على هذا النحو يتمثل فى عمل كان يقوم به لحسابه الخاص، فقد كان الجميع يعرفون أن القيصر فرانتس مولع بالجواهر، وأنه يحب خاصة الأحجار الكريمة الملونة. فأنفق لاوتنزاك مبلغًا ضخمًا – اتضح فيما بعد أنه يزيد على رأسماله – على شراء مثل هذه الأحجار وبدأ يصنع منها باقة زهور، يبرز فيها كل حجر بحسب شكله ولونه بروزا جميلا

ويأتلف من الجميع عمل فنى يليق بأن يضعه القيصر فى خزائن كنوزه. وأخذ يعمل بطريقته المشتتة عدة سنوات، ثم أخذ الآن يتعجل، لأن الناس كانوا يتوقعون - مع إعلان السلام الوشيك - حضور القيصر للمشاركة فى تتويج ابنه فى فرنكفورت، وكان يريد أن ينتهى من صناعتها نهائيًا، ويركب أجزاءها معًا. وكان يستغل شغفى الشديد بالتعرف إلى هذه الأشياء استغلالا حاذقا كل الحذق حتى يشتت انتباهى عما أتيت من أجله، وليصرفنى عن مهمتى فى تنبيهه وتذكيره. وحرص على أن يعلمنى علم الأحجار النفيسة، وأخذ يشرح لى صفاتها، وينبهنى إلى قيمتها، حتى تعلمت كل شىء عنها وحفظت عن ظهر قلب باقة المعلومات التى لديه، وأصبح فى مقدورى أن أعرضها على الزبائن وأن أمتدح لهم ميزاتها. ولا زالت هذه الجواهر ماثلة إلى اليوم فى ذهنى، وليس من شك فى أننى شهدت فيما بعد مشغولات أكثر قيمة، ولكننى لم أشهد من الروائع ما يفوق تلك حسنًا ورقة. كذلك كان لاوتنزاك يمتلك مجموعة من مشغولات النحاس الجميلة، وقطعًا فنية أخرى، كان يحب أن يتكلم عنها، وهكذا كنت أمضى لديه ساعات كثيرة لم تكن بغير فائدة. وأخيرًا عندما تقرر أن ينعقد المؤتمر فى هوبرتسبورج قدم إلى خدمة من أجل خاطرى، فوصلت الحمامة والزهور فعلا إلى يدى والدتى فى عيد السلام(٩٩).

وكلفنى أبى بمهام مشابهة لأتعجل اللوحات التى كان يكلف الرسامين برسمها. وكان أبى قد تشبث بفكرة لم تكن غريبة على الكثيرين، وهى أن الصور التى ترسم على الخشب تفوق قيمتها الصور التى ترسم على القماش، ولهذا حرص أبى أشد الحرص على أن يقتنى ألواحًا جيدة من خشب القرو من كل شكل، وكان يعلم تمامًا أن الفنانين المستهترين يعتمدون فى ذلك العمل المهم على النجارين. كان أبى يلتمس أقدم الكتل الخشبية، ويكلف النجار بأن يتناولها بالتوضيب والمسح واللصق بدقة متناهية، ثم كان يحفظها فى حجرة علوية سنوات طوال حتى تجف جفافًا كافيًا(١٠٠). ودفع أبى بلوح ثمين من هذا النوع إلى الرسام (يونكر) ليرسم عليه إصيصًا مزخرفًا من الزهور ينقلها عن الطبيعة بطريقته الفنية الرقيقة. وكان

الوقت ربيعا، فكنت أختلف إليه مرات كل أسبوع وأحمل إليه أجمل الزهور التى تصل إليها يدى، فكان يرسمها على الفور، وتكونت الصورة فى مجموعها شيئا فشيئا من هذه العناصر، رسمها نقلاً أمينًا كل الأمانة، ونشط فيها كل النشاط. وتصادف أن أمسكت بفأر فحملته إليه، وحفزه الشغف على رسم هذا الحيوان الرقيق كل الرقة، ونقله نقلا دقيقا كل الدقة، وجعل له موضعا أسفل الإصيص يلتهم سنبلة قمح. كذلك حملت إليه المزيد من هذه المواد الطبيعية مثل الفراشات والحشرات، فرسمها نقلا عن الطبيعة وتكونت صورة قيمة غاية القيمة.

ولم تكن دهشتى قليلة عندما تحدث إلىَّ الرجل الطيب، عندما أوشك على تسليم اللوحة، حديثًا مفصلاً، قائلاً إن الصورة لم تعد تعجبه، حقيقة أن العناصر المنفردة جيدة، ولكن التكوين العام سيئ، لأنه نشأ قطعة قطعة، وقال إنه ارتكب فى البداية خطأ لأنه لم يرسم لنفسه على الأقل خطة عامة للضوء والظلال والألوان، لتنتظم فيها الزهور المنفردة. واستعرض معى الصورة التى نشأت تحت بصرى على مدى نصف عام وأعجبتنى جزئيًا، استعرضًا مفصلا، واستطاع أن يقنعنى برأيه كل الإقناع، مما أحزننى كذلك كان من رأيه أن رسم الفأر كان خطأ، وقال: "إن مثل هذه الحيوانات تتسم بالنسبة للكثيرين بشىء من البشاعة، ولهذا لا يصح أن يضعها الإنسان فى موضع مفروض فيه أن يثير الاستحسان" وأصبحت فى حال كحال الإنسان الذى يرى أنه شفى من حكم مسبق، ويتصور أنه زاد ذكاء عن ذى قبل، أنظر باحتقار حقيقى إلى هذا العمل الفنى، ووافقت الفنان على رأيه كل الموافقة، عندما صنع لوحة أخرى من نفس الحجم، رسم فيها على ذوقه إناء أفضل شكلاً، وباقة من الزهور رتبها ترتيبًا أكثر فنية، وعرف كيف يختار العناصر الحية الإضافية الصغيرة، وكيف يوزعها على اللوحة، توزيعًا يتسم بالرقة والبهجة. وتحرى الدقة كل الدقة فى رسم هذه اللوحة أيضًا، ولكنه نقل بطبيعة الحال عن صور أخرى، أو اعتمد على الذاكرة التى كانت تعينه فى مثل هذا العمل بعد أن طالت خبرته، وعظم تمرسه. تمت اللوحتان الآن، وابتهجنا باللوحة الثانية ابتهاجًا لا مراء فيه، فقد كانت أكثر فنية، وأكثر تأثيرًا فى العين وفوجئ الأب بلوحتين، لا لوحة

واحدة، وكان له أن يختار بينها، ووافق على رأينا، وعلى الأسباب التى بررناه بها، وامتدح النية الطيبة والهمة، ولكنه بعد أن تأمل اللوحتين عدة أيام، اختار اللوحة الأولى دون أن يتكلم كلاما كثيرا عن أسباب الاختيار، وأخذ الفنان متبرمًا اللوحة الثانية التى كان يؤمن بقيمتها، ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول لى إن خشب القرو الجيد الذى رسمت عليه اللوحة أسهم بنصيب فى القرار الذى اتخذه أبى.

عندما أستعيد هنا مرة أخرى ذكرى تتصل بالرسم، تطوف بمخيلتى مؤسسة كبيرة أمضيت فيها وقتًا كثيرا، لأن رئيسها كان يجذبنى إليه جذبًا شديدًا، هذه المؤسسة هى مصنع المشمع الذى أنشأه الرسام (نوتناجل)، وكان فنانًا ماهرًا، ولكنه كان يميل بموهبته وفكره إلى الصناعة أكثر من الفن. اتخذ نوتناجل مكانًا فسيحًا فى المزارع والحدائق ليصنع فيه كل أنواع المشمعات، من المشمع الخشن كل الخشونة الذى يجهزونه بسكين المعجون، والذى يستخدم فى عربات البضاعة وما على شاكلتها – إلى مشمعات الحيطان التى يطبعون عليها رسومات مختلفة، إلى المشمعات الرقيقة والمشمعات الممتازة البالغة الرقة، التى يصورون عليها زهورًا صينية تارة وزهورًا خيالية تارة أخرى، وقد يرسمون عليها أشكالاً ومناظر طبيعية يقوم برسمها عمال مدربون على استخدام الفرشاة. وكان تنوع الأشكال والرسوم تنوعًا لا ينتهى إلى نهاية يمتعنى كل الإمتاع، وكنت أجد فى استخدام هذا العدد الكبير من البشر فى إنجاز الأعمال المختلفة، ابتداء من أحط أنواع الأعمال وانتهاء بتلك التى لا يمكن أن ينكر عليها الإنسان القيمة الفنية، ما يشدنى شدًا بالغًا. وتعرفت إلى هذا العدد الكبير من الشباب والشيوخ العاملين فى حجرات كثيرة، بعضهم من وراء البعض، وربما شاركتهم العمل ومددت يدى. وكانت المشمعات بضاعة مطلوبة، تنعم بالتصريف الممتاز الفائق للمألوف. وكان من يقوم إذ ذاك بالبناء أو بتأثيث مبنى، يحرص على أن يشترى شيئًا يدوم طوال العمر، وكانت هذه المشمعات فى الحقيقة بضاعة لا تبلى. وكان نوتناجل نفسه مشغولاً إلى حد كبير بإدارة العمل فى مجموعة، وكان يجلس فى مكتبه يحيط به الموظفون المختصون بالصناعة والبيع. أما ما كان يتبقى لديه من وقت فكان يقضيه مع

مجموعته الفنية، التى كانت تتكون خاصة من صور مرتسمة بطريقة الحفر على النحاس، وكان أحيانا يتاجر فيها، ويتاجر فى اللوحات التى كان يمتلكها. كذلك كان يهوى الحفر ويمارسه، ويطبع صورًا مختلفة بالحفر، وظل يمارس هذا الفن حتى تقدمت به الأعوام.

ولما كان مسكنه يقع قريبًا من بوابة أيشنهايم، فقد كانت طريقى، عندما أذهب لزيارته، تسوقنى إلى خارج المدينة وإلى الأراضى التى كان أبى يملكها عند بوابات المدينة. كانت قطعة من قطع هذه الأراضى حديقة كبيرة، كثيرة الأشجار، تستخدم مرعى، وكان أبى يهتم بتجديد الأشجار، وبكل أعمال الصيانة، اهتمامًا كبيرًا، على الرغم من أنها كانت مؤجرة وكان أبى يقوم بأعمال أكثر لرعاية بستان كروم جيد عند بوابة فريدبرج وكان يقوم بنفسه بزراعة صفوف من الأسبرجس بين صفوف الكروم، ويدقق فى الزراعة والصيانة والرعاية كل التدقيق. ولم يكن يوم يمر عليه فى أوقات اعتدال الجو دون أن يذهب إلى هناك، وكان يسمح لنا بمرافقته فكنا ننعم بباكورة ثمار الربيع، وما يتلوها من ثمار حتى نهاية الخريف، ونجد فيها المتعة والبهجة. وتعلمنا على هذا النحو أعمال البستنة التى كانت تتكرر فى كل عام، حتى أتقناها وألفناها. وكان جنى العنب، من بعد العديد من فاكهة الربيع والصيف والخريف، يدخل البهجة كل البهجة على نفوسنا ونشتاق إليه كل الشوق. وإذا كان النبيذ يضفى سمة الانطلاق على البقاع والمناطق التى تنمو فيها كرومه ويشرب فيها، فإن أيام جنى العنب التى تختم الصيف وتستهل الشتاء تنشر من البهجة ما يفوق التصديق. فإذا الفرح والمرح ينتشران فى المنطقة كلها، ويسمع الإنسان طوال النهار تهليلاً وفرقعة من كل صوب وحدب، وتنطلق بالليل هنا وهناك الصواريخ والكرات المضيئة معلنة أن الناس ساهرون فى كل مكان، مقبلين على هذا الفرح، يريدون أن يمتد بهم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل. كذلك كانت الأعمال التى تلى الجمع من عصر وتخمير فى القبو السفلى، تبث فينا فى البيت نشاطًا مرحًا، وهكذا كنا ننتقل إلى فصل الشتاء دون أن نشعر أو ندرك ما يجرى علينا تمام الإدراك.

ولقد تمتعنا بهذه الأراضى الريفية فى ربيع عام ١٧٦٣ متعة خاصة عندما أصبح يوم ١٥ فبراير من ذلك العام يوم عيد، إذ عقد فيه السلام الهوبرتسبورجى – ذلك السلام الذى قدر لى أن أمضى فى ظل نتائجة السعيدة أكثر أيام حياتى. ولكننى، قبل أن أستمر فى سرد هذه الأحداث، أجد لزامًا على أن أشيد ببعض الرجال الذين كان لهم أثر عظيم على فى صباى.

أحب أن أذكر فون أولينشلاجر، من بيت فراونشتاين، وكان من المحلفين، وهو زوج ابنة الدكتور (أورث) الذى أشرت إليه من قبل، وكان فون أولينشلاجر رجلا حسن المحيا، لطيف الطبع، من النوع المنبسط المبتهج. وكان عندما يلبس الحلة الرسمية يلوح كأنه واحد من أبرز رجال الدين الفرنسيين. درس فى الجامعة، فلما أتم دراساته الأكاديمية بحث عن عمل من أعمال الحكومة والبلاط، وقام برحلات لهذا الغرض. وكان يقدرنى تقديرًا خاصًا ويتحدث إلىَّ عن الأشياء التى تستأثر باهتمامه. وكنت معه فى الوقت الذى كان عاكفًا فيه على كتابة تعليقاته وشروحه على العهد الذهبى – "شرح العهد الذهبى" – فبيَّن لى فى وضوح شديد أهمية هذه الوثيقة وقيمتها. وكان كلامه يثير خيالى ويردنى إلى العصور القديمة المضطربة العنيفة، حتى إننى لم أستطع أن أمنع نفسى عن تحويل التاريخ الذى يقصه علىَّ إلى حاضر، مصورًا الأشخاص والأحداث والظروف، ومصطنعًا طريقة التمثيل الصامت أحيانًا، وكان يجد فى ذلك متعة كبيرة، ويحثنى بالاستحسان والإعادة.

وكنت قد اعتدت منذ طفولتى عادة عجيبة تتمثل فى حفظ بدايات الكتب والفصول عن ظهر قلب، فحفظت أسفار التوراة الخمسة الأولى، ومطلع "الإنيادة" والتحورات" فحفظت مطلع العهد الذهبى، وأسمعته لهذا الرجل صاحب الفضل على، وكثيرًا ما كان يبتسم عندما أتلو عليه باللاتينية فجأة على نحو جاد: "كل دولة تشيع فيها الفرقة تَبيد، لأن أمراءها يصبحون شركاء اللصوص". وكان الرجل الذكى يهز رأسه ويقول مبتسما بعد تفكر وتدبر: "ما أغرب هذه الأزمات التى ألقى فيها القيصر علنا فى أثناء اجتماع مجلس الرايخ الكبير مثل هذه الكلمات فى وجه أمرائه".

كان فون أولينشلاجر حلو الشمائل، حسن المعاشرة. ولم نكن نرى لديه ضيوفًا كثيرين، ولكنه كان يميل إلى الحديث الغنى بالفكر كل الميل. وكان يحثنا نحن الشباب من حين لآخر على تمثيل مسرحية. وكان يرى قيام الشباب بالتمثيل تمرينًا مفيدا كل الفائدة. فمثلنا مسرحية "كنوت" لشليجل[١٠١]. وأديت أنا دور الملك، وأدت أختى دور استريته، ومثل ابنه الأصغر دور أولفو. ثم تجرأنا ومثلنا مسرحية "بريتانيكوس"[١٠٢]. وكان المفروض أن ندرب موهبتنا على التمثيل ونتدرب أيضًا على اللغة. ومثلت أنا دور نيرون، ومثلت أختى دور أجريبين، ومثل الابن الأصغر دور بريتانيكوس. وكان يغدق علينا من المدح أكثر مما نستحق، وكنا نعتقد أننا أدينا أدوارنا على النحو الجيد المناسب الجدير بالمدح، وهكذا كنت على علاقة طيبة بهذه الأسرة التى أدين لها بالكثير مما نلت من المتعة وأدين لها بما حققته من نمو أسرع، وتطور أوفر.

أما (فون راينيك) فكان من أسرة عريقة، رجلًا نشيطًا، حسن الخلق، ولكنه كان عنيدًا، صلب الرأى، وكان نحيفًا أسمر البشرة سمرة تقترب من السواد، ولم أره قط مبتسمًا. كانت مصيبة قد حلت به، إذ أغرى صديق للأسرة ابنته بالهرب معه، فهربت. ولاحق فون راينيك زوج ابنته بالقضايا العنيفة، ولكن المحاكم، إذ التزمت بالشكليات، لم تتخذ إجراءات سريعة حازمة ترضى رغبته فى الانتقام، ولهذا تشاجر مع المحاكم نفسها وتتابعت المشكلات، وتلاحقت القضايا، وتولد بعضها عن بعض. فاعتزل الناس، ولزم بيته والحديقة المتاخمة له، وأقام فى حجرة سفلية كانت واسعة، ولكنها كانت كئيبة، ولم يمر على حيطانها مبيض بالفرشاة منذ سنوات طوال، ولم تشهد أرضيتها على الأرجح مقشة خادمة إلا نادرًا. ولكنه كان يأنس إلىّ، وأوصانى بأن أهتم بابنه الأصغر. وكان يستقبل أحيانًا أقدم أصدقائه الذين يعرفون كيف يسايرونه، وعملائه، ووكلاء أعماله، على مائدته، وكان يحرص دائمًا على أن يدعونى أنا كذلك. وكان الطعام على مائدته جيدًا، وكان الشراب أفضل، ولكن الضيوف كانوا يضيقون أشد الضيق بالمدفأة الكبيرة التى كانت تنفث الدخان من كثير من

شقوقها. وتجاسر أحد الأصدقاء الحميمين بالتلميح فسأل صاحب البيت، هل يحتمل طوال الشتاء مثل هذا الإزعاج، فرد عليه وكأنما هو تيمون[١٠٣] وأوتونتيموروموينوس[١٠٤] آخر: "ليت الله جعل هذا الإزعاج أكبر محنة من المحن التى تؤرقنى" ولم يستمع إلى كلام الناصحين إلا فى وقت متأخر، فرضى بأن يرى ابنته وحفيده. أما زوج ابنته فرفض أن تقع عليه عيناه مرة أخرى.

هذا الرجل الشديد المراس، السيئ الحظ فى وقت معًا، كان وجودى يحدث فيه أثرا طيبًا كل الطيبة، فقد كان حديثه معى عن طيب خاطر، وتعليمه إياى الكثير من شئون الدنيا والدولة، يخفف عنه ويجعله يحس الارتياح والمرح.

وكثيرًا ما كان الأصدقاء القدامى القليلون الذين بقوا مجتمعين حوله يلجأون إلىَّ إذا أرادوا أن يخففوا من غضبه أو يقنعوه بأن يسرى عن نفسه على نحو ما. وكان قد قرر أن يخرج معنا بالفعل، وأن يتطلع إلى المنطقة مرة أخرى ولم يكن قد نظر إليها نظرة واحدة طوال سنوات عديدة وتذكر الملاك القدامى وحكى عن طباعهم وأحداثهم، وكان قد ظل على صرامته المعهودة، ولكنه كان يصفو أحيانًا ويتحدث حديثًا طريفًا. وحاولنا أن نعيده إلى الالتقاء بالناس، ولكن المحاولة أوشكت أن تنتهى نهاية سيئة.

فقد كان هناك رجل فى مثل سنه أو أكبر منه، هو السيد فون مالاپارت، وكان رجلا موسرًا يمتلك بيتا جميلاً عند سوق الخيل، وكان يحقق دخلاً طيبًا من الملاحات. وكان هو أيضًا يعيش فى عزلة، ولكنه كان فى الصيف كثير التردد على حديقته عند بوابة بوكنهايم، فيرعى القرنفل الجميل البديع ويعنى به.

وكان فون راينيك من محبى القرنفل هو أيضًا، وحل وقت ازدهار القرنفل ففكر من فكر فى أن نجعل الرجلين يزور أحدهما الآخر، ومهدنا للأمر وألححنا حتى قبل فون راينيك أن يخرج معنا عصر يوم أحد. وكانت التحية التى تبادلها الرجلان مقتضبة أشد الاقتضاب، لم تكد تزيد على حركة صامتة، وسارا بخطى دبلوماسية

حقيقية بجانب صفوف القرنفل، ذهابا وإيابا. وكانت الزهور جميلة جمالا فائقا حقا، وبدأ ما يشبه الحديث يتصل بينهما فى النهاية، وكان يلوح مفعما بالود، فتحدثا عن أشكال وألوان الزهور المختلفة، ومميزات هذا الضرب النادر أو ذاك، وزاد فرحنا عندما رأينا فى تكعيبة مجاورة مائدة عليها نبيذ الراين المعتق الثمين فى زجاج مصقول، وفاكهة جميلة وأشياء طيبة أخرى. ولكننا لم يقدر لنا أن ننعم بها للأسف. فقد شاء الحظ السيئ أن يرى فون راينيك قرنفلة جميلة جدًا أمامه، ولكنها كانت تميل برأسها، فمد إصبعيه السبابة والوسطى ومر بهما برقة متناهية على الساق صاعدًا إلى الكأس، ورفع رأس القرنفلة من الخلف ليتأملها. ولكن هذه اللمسة الرقيقة أغضبت المالك، وذكر فون مالاپارت ضيفه بأدب ولكن بأسلوب جاف فيه شيء من التعالى بالعبارة اللاتينية: "بالعينين لا باليدين". وكان فون راينيك قد ترك الزهرة، ولكنه ثار كالنار المتأججة عندما سمع هذه العبارة وقال بأسلوبه الجاف الصارم المألوف إنه يجوز للعارف بالزهور والمحب لها أن يمس زهرة على هذا النحو وأن يتأملها، وكرر حركته مرة أخرى، وأمسك الزهرة بإصبعيه. وأصابت الحيرة البالغة صديق فون راينيك، وكذلك صديق فون مالابپارت، وكان صديقه هذا بجواره. وأطلق كل منهم الأرنب تلو الاخر (وكنا نستخدم هذا التعبير بمعنى قطع الحديث وتحويله إلى موضوع آخر) ولكن دون جدوى، فقد صمت الرجلان الهرمان، وخشينا أن يعود فون راينيك إلى تكرار الحركة مرة أخرى، فتكون تلك هى النهاية بالنسبة إلينا جميعًا. وحاول الصديقان أن يبعدا الرجلين أحدهما عن الآخر، فشغل كل منهما صاحبه بهذا أو ذاك من الأمور؛ وكانت الكياسة تفرض علينا أن نعجل بالانصراف، واضطررنا هكذا إلى أن نخلف المائدة العظيمة الخلابة للأسف وراء ظهورنا دون أن ننعم من طيباتها بشيء.

أما مستشار البلاط "هوسجن"، فلم يكن من فرنكفورت أصلاً، وكان على مذهب الإصلاح الدينى الكالڤينى، ولهذا لم يكن له أن يمارس منصبًا عامًا ولا أن يمارس المحاماة، ولكنه كان فى الحقيقة يمارس المحاماة أمام محاكم فرنكفورت

ومحاكم الرايخ الأخرى بتوقيع آخر لما عرف عنه من براعة فى القانون جعلته موضع ثقة الكثيرين وكان قد بلغ الستين من عمره عندما شاركت ابنه حصة الخط ودخلت بيتهم. وكان عظيم الهيئة، طويل القامة دون نحافة، عريض البنيان دون سمنة. وكان وجهه قد شوهه الجدرى، وكان علاوة على هذا قد فقد إحدى عينيه، فكان الإنسان إذا نظر إليه لأول مرة يحس برهبة، وكان يضع دائمًا على رأسه الأصلع طاقية بيضاء، عليها شريط من أعلاها. وكانت ثيابه المنزلية المصنوعة من قماش الكالامانك الصوفى المزخرف أو قماش الدمست القطنى نظيفة مهندمة، وكان يسكن شقة لطيفة فى الدور الأرضى ناحية الشارع، وكانت نظافة المكان المحيط به تتفق مع ما اتسم به صفاء. وكان النظام البالغ الذى نظم به أوراقه وكتبه وخرائطه يحدث فى النفس انطباعًا جميلاً. أما ابنه، هاينريش زيباستيان، والذى عرف اسمه فيما بعد كمؤلف لكتابات مختلفة فى الفن، فلم يكن فى صغره يوحى بأنه يمكن أن يصبح ذا شأن كان صبيًا حسن الطوية، ولكنه كان أخرق، ولم يكن فظًا، ولكنه كان خشنًا، ولم يكن له ميل إلى طلب العلم، ولهذا كان يفضل تحاشى وجود أبيه، ويلتمس من أمه كل ما كانت تتوق نفسه إليه. أما أنا فكنت أتقرب إلى الوالد، وأزيد اقترابًا منه كلما زادت معرفتى به. ولما لم يكن يتولى من القضايا إلا أهمها، فقد كان لديه متسع من الوقت ليعمل على نحو آخر وليسرى عن نفسه أيضًا وما عشت على مقربة منه، وسمعت تعاليمه، حتى أدركت أنه يقف من الرب والكون موقف المعارضة. وما لبث أن أعطانى كتابًا من الكتب الأثيرة إلى نفسه وهو كتاب (أجريبا)[١٠٥] وعنوانه "عدم جدوى العلوم. وأوصانى به توصية شديدة فلما قرأته أحدث بمخى الفتى اضطرابًا شديدًا حينًا من الزمن. وكنت فى غمرة بشاشة الصبا قد تعلقت بنوع من التفائل، وتصالحت مع الرب أو الآلهة مرة أخرى بدرجة كبيرة. لأننى رأيت من خبرتى طوال عدد من السنين أن هناك ما يعادل الشر، وأن الإنسان إذا مسته الشرور يعود فيشفى منها، وأن الإنسان ينجو من الأخطار ولا يهلك فى كل موقع من مواقع الهلاك. كذلك أخذت أنظر إلى ما يعمله الناس ويمارسونه نظرة التسامح، ووجدت فيه الكثير مما يستحق المدح، ولكن

الشيخ لم يكن ليرضى عنه. وكان ذات مرة قد صور لى العالم من الناحية الشوهاء، ولاحظت عليه أنه يتأهب ليختم الصورة بعبارة حاسمة. فقبض عينه اليسرى العمياء على عادته فى مثل هذه الحالات قبضا شديدا. وحدق بالأخرى، وقال بصوت فيه خنف جملة فيها تطاول على الذات الإلهية.

وكان أستاذى هذا الكاره للبشر متخصصا فى الرياضيات كذلك، ودفعته طبيعته العملية إلى الميكانيكا على الرغم من أنه لم يكن يعمل بيديه. فصمم ساعة عجيبة بالنسبة لذلك الزمان على الأقل، كانت تقيس الساعات والأيام، وتبين حركات الشمس والقمر، وكلف البعض بتنفيذها طبقا لتصميمه. وكان فى كل يوم أحد، فى الساعة العاشرة صباحًا، يملأ هذه الساعة بنفسه، ولا يفوت عليه ذلك، لأنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة على الإطلاق ولم أر لديه ضيوفًا، فرادى أو جماعة، ولا أذكر أننى رأيته يخرج من بيته بكامل ملابسه إلا مرتين أو نحوهما فى عشر سنوات.

كانت الأحاديث المختلفة مع هؤلاء الرجال أحاديث لا تخلو من الأهمية، وأثر فيّ كلٌّ واحد منهم على طريقته. وكنت أكن لكل واحد منهم من الإجلال ما قد يزيد على إجلال أبنائهم، وكان كل واحد منهم يحاول أن يزيد من استحسانه لى، وكأنى ابنه الحبيب، بأن يسبغ علىَّ طابعه الأخلاقى. كان أولينشلاجر يريد أن يجعل منى رجلا من رجال البلاط، وكان فون راينيك يريد أن يجعل منى رجلا من رجال الأعمال الدبلوماسية، وكان كل واحد منهما، وبخاصة فون راينيك، يسعى إلى حملى على كراهية الشعر والكتابة. وكان (هوسجن) يريد لى أن أصبح تيمونا كارها للبشر مثله، وأن أكون عالمًا من علماء القانون المجيدين، وكان يرى أن ممارسة القانون صنعةٌ ضرورية حتى يدافع الإنسان عن نفسه وعن ذويه ضد السفهاء من البشر، ويعين المظلومين، ويلصق التهم بالخبثاء، وإن لم يكن ينصح بهذه الممارسة الأخيرة أو يجد فيها خيرًا.

وإذا كنت قد أحببت ملازمة هؤلاء الرجال لأفيد من نصحهم ومشورتهم، فقد كان الشباب الذين يكبرونني قليلا يدفعونني فيما يشبه التحدى إلى أن أباريهم. وأذكر هنا منهم خاصة الإخوة (شلوسر) و(جريسباخ). ولما كنت قد ارتبطت بهم فيما بعد برباط أوثق، فإنني أكتفي هنا بأن أقول إنهم امتدحوا لنا لامتيازهم في اللغات وفي الدراسات التي استهلوا بها الحياة الأكاديمية وذُكروا لنا ذكر القدوة، وكان الجميع يتوقعون لهم أن يصبحوا ذوي شأن في الدولة أو الكنيسة.

أما أنا فكنت أنوي أن أبلغ شيئًا يفوق المألوف، ولكنني لم أكن أستطيع إلى استجلائه من سبيل. وكما أن الإنسان يفكر في المكافأة التي يود أن ينالها قبل أن يفكر في الجدارة التي ينبغي أن تتوافر له، كذلك أنا لم أكن أعرف لونا من السعادة حقيقًا بأن أهفو إليه، يتمثل في غير تاج الغار الذي يضفرونه ويتوجون به الشاعر.

تعليقات

(١) لم يتلق جوته هذه الرسالة من أحد، بل هي من تأليفه.
(٢) المقصود طبعة (كوتا) التي ظهرت بين عام ١٨٠٦ وعام ١٨٠٨.
(٣) أصبحت هوكست الآن جزءًا من مدينة فرنكفورت، وكانت لها في القرن الثامن عشر شهرة في صناعة الخزف.
(٤) الرسام الإيطالي جامباتيستا بيرانيزي (١٧٢٠ - ١٧٧٨)
(٥) معالم مدينة روما.
(٦) ظل هذا الكتاب مخطوطًا إلى أن طبعته الأكاديمية الإيطالية في عام ١٩٣٢
(٧) الخميلة الجميلة المنعزلة، أغنية كتب كلماتها الشاعر الإيطالي بيترو ميتاستازويو.
(٨) لا يزال هذا المسرح الصغير محفوظًا في بيت جوته بفرنكفورت.
(٩) نهر الماين فرع من نهر الراين، يزيد طوله على ٥٠٠ كم.
(١٠) ضاحية من ضواحي فرنكفورت.
(١١) كانت الدار النورنبرجية أصلاً نزلاً أقيم لتجار مدينة نورنبرج.
(١٢) كان أصلا مقر أمراء ماينتس.
(١٣) عمارة كبيرة.
(١٤) رسم جرافه هذه الصورة في عام ١٥٥٣ اعتمادًا على لوحة لكونراد فابر.
(١٥) إشارة إلى قصة الشيطان الأعرج للكاتب الفرنسي لوساج، وفيها يرفع الشيطان السقوف عن المباني حتى يظهر ما بداخلها.
(١٦) العهد الذهبي أو الصحيفة الذهبية ميثاق سجله كارل الرابع في عام ١٣٥٦، وحدد فيها أمورًا دستورية أساسية.
(١٧) صلح آخن عقد في عام ١٧٤٨.
(١٨) توركواتو تاسو (١٥٤٤ - ١٥٩٥) شاعر إيطالي كبير من القرن السادس عشر، من أهم أعماله مسرحية "أورشليم المحررة" كتب عنه جوته مسرحية "توركواتو تاسو"، وترجمها إلى العربية ترجمة ممتازة الدكتور عبد الغفار مكاوي.
(١٩) يوهان جيورج كايسلر" مؤلف رحلة في ألمانيا وبوهيميا والمجر وسويسرا وإيطاليا، ظهرت في مجلدين في عام ١٧٥١.
(٢٠) يؤاخيم كريستوف نيمايتس، مؤلف كتاب عن إيطاليا، طبع في ليبتسيج في عام ١٧٢٦.
(٢١) كانت المصاريع الزجاجية تتكون من أقراص زجاجية تركب بعضها إلى بعض وتثبت بالرصاص، ثم ظهرت المصاريع التي تركب فيها ألواح كبيرة نسبيًا من الزجاج تتيح المزيد من الإضاءة. ولم تكن للشبابيك مصاريع خشبية (شيش) من الخارج.

(٢٢) لفظة من التوراة تدل على الذات الإلهية. وقد شغل جوته بالتوراة حينا وله تأملات فيما ورد بها من أخبار وقصص، وهو يستقى من التوراة هنا سمات الغضب والانتقام التى تتفق مع الأحداث العنيفة التى مرت به.

(٢٣) حصل الأب على الدكتوراه فى عام ١٧٣٨، والرسالة المذكورة باللغة اللاتينية.

(٢٤) الترجمة بتصرف. والأيسل نهر فى هولندا.

(٢٥) كتاب فى تعليم اللاتينية، ظهرت طبعته الأولى فى عام ١٧٥٥م.

(٢٦) كتاب آخر لسيللاريوس فى التاريخ.

(٢٧) جيبورج بازور مؤلف مدخل إلى الأناجيل.

(٢٨) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى عام ١٦٥٨، والطبعة التى يذكرها جوته ظهرت فى عام ١٧٥٥. ويعرض الكتاب بالصور المحفورة فى الخشب، وباللغتين اللاتينية والألمانية، كل ما يتصل بالدنيا، ابتداء من الخلق والنشأة الأولى، مرورا بالمخلوقات، والطبيعة وكل أصناف النشاط الإنسانى.

(٢٩) كان للصور التى زودت بها الطبعات المصورة من الكتاب المقدس أثر كبير فى خلق وتأكيد بعض التصورات فى نفوس الناس، وانعكس ذلك على الأدب.

(٣٠) جوتفريد هذا هو لودفيج جوتفريد (١٥٨١ – ١٦٣٣) وكتابه عبارة عن مجموعة من الوقائع والنوادر التاريخية والصور، وكان لهذه الصور أيضًا أثرها على أدب جوته وغيره من الأدباء.

(٣١) ألف هذا الكتاب المدرسى العالم اللغوى بيتر لاومبرج، ونشره فى عام ١٦٣٧م، وتكررت طباعته كثيرًا ؛ وهو عبارة عن مدخل إلى التراث اليونانى اللاتينى القديم.

(٣٢) ولد الشاعر اللاتينى أوفيد حوالى عام ٤٧ ق. م. ومات حوالى عام ١٧ ميلادية. ومن أهم أعماله "فن الحب" "والتحورات" ويحكى فى التحورات أساطير عن تحور الكائنات تأثر فيها بالفكر اليونانى.

(٣٣) ألف هذه الرواية التى كانت تعتبر رواية تربوية أخلاقية حسب مفاهيم العصور القديمة الشاعر الفرنسى "فينيلون"، من شعراء نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر.وقد نقلها إلى العربية الشيخ رفاعة الطهطاوى بعنوان "مواقع الأفلاك فى وقائع تيليماك".

(٣٤) كتب هذه الرواية الأدبية الألمانى يوهان جوتفريد شنابل ونشرها على أجزاء ابتداء من عام ١٧٣١م، وهى على غرار رواية روبنسن كروزو.

(٣٥) قام اللورد أنسون برحلته بين عام ١٧٤٠م، وعام ١٧٤٤م، وظهر الكتاب فى ترجمة ألمانية عام ١٧٤٩.

(٣٦) كانت الرومانتيكية قد بدأت تهتم بهذه الكتب وتحدث عنها شليجل فى محاضراته واهتم بها جوريس بعد ذلك، وخرجت منها طبعات جديدة. ويبين جوته هنا أنه عرف هذه الكتب صبيا، قبل أن تكون هناك رومانتيكية. والكتب التى سميت بالكتب الشعبية عبارة عن أعمال روائية تدور حول مواد مختلفة المصادر عاشت فى ضمائر الناس زمنا طويلا قبل

أن تخرج إلى صفحات الكتب. وأويلنشبيجل هو [illegible] الشاطر الذى يتخلص من المأزق، وينتصر على من يريدون به سوءا، ويعرف كيف يدبر لغرمائه المقالب المضحكة. وأولاد هايمون هم أولاد الأمير الفرنسي [illegible] حياتهم إلى مغامرات وتطورات المغامرات إلى أساطير أصبحت مادة للأدب الشعبي. وميلوزينه هى عروس البحر التى تتزوج أحد الفرسان من بنى البشر، ثم تختفى عندما تراها الأبصار على هيئة كائن بحرى. وماجيلونه هى المرأة التى تتحلى بالصبر على [illegible]. وفورتوناتوس هو الإنسان الذى أوتى طاقية الإخفاء وكيس سحرى يحقق الأمنيات. واليهودى التائه هو اليهودى الذى أبى على المسيح أن يرتاح فظل فى الأرض يهيم على وجهه.

(٣٧) أصيب جوته بالجدرى فى عام ١٧٥٨م. والتطعيم الذى كان الأطباء الإنجليز وغيرهم يمارسونه كان يتم باستخدام عينة مأخوذة من بثرات إنسان مصاب بالمرض، وكان هذا النوع من التطعيم محفوفا بالمخاطر. أما التطعيم بعينة مأخوذة من البقر، فقد بدأ فى عام ١٧٩٦م.

(٣٨) من شخصيات ملحمة الأوديسا لهومير، و(ليرتس) هو الملك المسن الجليل الذى تحكى الملحمة عنه أنه كان يعمل فى الحديقة ويلبس قفازا ليتقى الأشواك وهذه هى السمة التى اختارها جوته من بين سمات شخصية ليرتس، فهو لم يختر الناحية السلبية، وهى أنه كان رجلا مثقلا بالأحزان والهموم، مضطرب الهيئة والهندام. أما (ألكينوس) فكان ملكا، ولم يرد فى وصفه أنه كان يلبس قفازا، وإنما ورد أنه كان يحب العمل فى الحدائق. ولهذا آثر جوته أن يجمع بين الشخصيتين.

(٣٩) كان الاختيار يتم أولا بأخذ الأصوات ثم يجرى السحب على ثلاث كريات، إحداهن من الذهب، هى الرابحة.

(٤٠) أشرنا من قبل فى تعليقاتنا على تأثير الصور والرسوم على تكوين الأديب منذ صغره، وعلى العملية الإبداعية فيما بعد.

(٤١) فرجيل شاعر لاتينى من القرن الأول قبل ميلاد المسيح، وهو صاحب الإنيادة، الملحمة الرومانية القومية، وهى المقابل اللاتينى – مع الفارق – لملحمتى هومير.

(٤٢) من بين المسائل التى شملها الاختلاف، مسألة سر الاعتراف، فظلت الكاثوليكية متمسكة به، بينما انصرفت عنه المذاهب الإصلاحية. وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية رفضت الاعتراف بالمذهب اللوثرى، فإن الكنيسة اللوثرية بدورها قد رفضت الاعتراف بمذاهب كثيرة ربما كانت شبيهة بها.

(٤٣) سيتحدث جوته بالتفصيل فى الكتاب الرابع عن التوراة، ومن الواضح أنه كان مشغولاً بفطرته بالبحث عن الذات الإلهية، وأنه كان يسعى فى قرارة نفسه إلى دين الفطرة. وتتحدث التوراة فى مواضع عديدة عن إقامة الهياكل لعبادة الله وعن تقديم قرابين منها الذبائح، ومنها أشياء أخرى مثل المحاصيل الزراعية، والخبز، والخمر، والزيت.

(٤٤) كان فريدريش الثانى يلقب بفريتس، وهو اسم دعابة فى الأصل.

(٤٥) الجراف دوان قائد من قواد الجيش النمساوى فى حرب السنين السبع. والنائم على أذنيه تعبير فيه تصرف، وفى الأصل: طاقية النوم.

(٤٦) مكان محصور بين سور المدينة والبيوت والحدائق الداخلية فى فرنكفورت.
(٤٧) باريس هو أمير طروادة الذى كان عليه أن يحكم بين الربات الثلاث: هيرا و أثينا وأفروديت، أيهن الأجمل حتى تستحق تفاحة إيريس، ربة الشجار.
(٤٨) نرجس هو الشاب الإغريقى الجميل الذى تحكى الأسطورة أنه عشق صورته.
(٤٩) هناك دراسات عن أثر الشرق، وبخاصة حكايات ألف ليلة وليلة، على هذه القصة، نذكر من بينها الكتاب الكلاسيكى "جوته وألف ليلة وليلة" تأليف كاتارينا مونزن برلين ١٩٦٠، وطبعات عديدة بعدها.
(٥٠) الأمازونات جيش من المحاربات حارب أمام طروادة تحت قيادة بنتيزيليا.
(٥١) أخيل هو أشجع أبطال هومير قتل هيكتور انتقامًا لصديقه باتروكولوس، ثم قتله باريس. وهناك أسطورة متأخرة تقول إن أخيل لم يقتل وإنما أصيب فى كعبه فقط.
(٥٢) كائن خرافى عند اليونان نصفه الأعلى إنسان والأسفل حصان.
(٥٣) الرواقية، نسبة إلى الرواق الذى كان زينون يدرس فيه فى أثينا فى القرن الثالث قبل الميلاد، ثم نشأت مدرسة فلسفية استمرت حتى القرن الثالث بعد الميلاد من أبرز فلاسفتها سينيقا وإبيكتيت ومارك أوريل، وكانت تقوم على أن الفضيلة التى تحقق للإنسان السعادة هى التغلب على الذات والترفع الأخلاقى حيال النوائب والاحتمال والصبر والسكينة – وكان للرواقية أثر كبير على أوروبا فى العصر الوسيط وفى عصر النهضة وفى عصر التنوير خاصة.
(٥٤) يوهان كاسپار شنايدر (١٧١٢ – ١٧٨٦)
(٥٥) كان غالبية أهل فرنكفورت فى ذلك الوقت على المذهب اللوترى، وكانت نسبة قليلة على المذهب الكاثوليكى، ونسبة ضئيلة على المذهب الكالڤينى.
(٥٦) كان فريدريش الثانى قد دعا فولتير ليكون فى معيته، ورحب به فى البداية وتعلم عليه الشعر الفرنسى، ثم حدث خلاف بينهما، ويقال إن فولتير سمع أن الملك قال، إنه ينوى أن يعصر البرتقالة وأن يرمى القشر، فقرر أن يسبقه، وفر حاملا معه كراسة شعر الملك بما فيها من أخطاء، يريد أن يجعل الدنيا كلها تضحك منه. فأمر الملك بالقبض عليه واسترداد الكراسة.
(٥٧) الأتقياء أو أتباع التقوية، من بين المجموعات الدينية التى تكونت بعد حركة الإصلاح الدينى، كانت تسعى إلى تعميق الإحساس الدينى فى ضمير الإنسان.
(٥٨) كان كلوپشتوك قد بدأ ينشر الأجزاء من ملحمة المسيادة، أو ملحمة المسيح فى عام ١٧٤٨، ثم تتابعت بعد ذلك أنشودة أنشودة حتى اكتملت تمامًا فى عام ١٧٧٣. ولكن الأجزاء الأولى منها كانت مطبوعة على هيئة كتب ظهرت فى عام ١٧٥١ و١٧٥٥. ويعتبر فريدريش جوتليب كلوپشتوك (١٧٢٤ – ١٨٠٣) بهذه الملحمة، وبقصائد من نوع الأهزوجات، وبمسرحياته وكتاباته النظرية المتعددة من مجددى الأدب الألمانى. وأثره على جوته وغيره من شعراء القرن الثامن عشر والتاسع عشر كبير.
(٥٩) انظر الكتاب المقدس الملوك الثانى ١٧: ٣١ و ١٩: ٣٧ وأشعيا ٣٧: ٣٨

(٦٠) كان الأمير بيدرو تيليث جرون إى جوثمان (١٥٧٩ – ١٦٢٤) واليا على صقلية ونابلى، وكان مشهورًا بالملاحظات الساخرة المضحكة.

(٦١) يذكر الشراح أن جوته لا يمكن أن يكون رأى مسرحية "أنيت ولوبان" من تأليف مارى فافار، ومسرحية "روز وكالا" من تأليف سيدين. لأنهما لم تكونا قد صدرتا بعد ولا بد أنه رآهما فيما بعد، واختلط عليه الأمر.

(٦٢) مسرحية "هيبرمنستر" من تأليف لومبير (١٧٥٨) تدور حول موضوع من الأساطير القديمة، ويحكى أن بنات داناوس. وعددهن ٥٠ بنتا، قتلن أزواجهن، فى ليلة العرس، إلا واحدة وهى هيبرمنستر، وعوقبن بأن يملأن دنا بلا قاع، ويرمز هذا الدن إلى الرغبات التى لا سبيل إلى إشباعها، أو السرف والإسراف من كل نوع.

(٦٣) كتب شارل پاليسو (١٧٣٠ – ١٧٨٤) هذه المسرحية ليسخر من روسو ودعوته إلى العودة إلى الطبيعة، فجعله يسير على المسرح على أربع كالحيوانات ويأكل النبات الأخضر.

(٦٤) شارل دى روهان، أمير سوبير (١٧١٥ – ١٧٨٧) قائد الجيش الفرنسى فى ذلك الوقت.

(٦٥) من قادة فرنسا، وكان صاحب أعلى رتبة بين كبار قادة معركة فرنكفورت.

(٦٦) انتصر فريدريش فى موقعة روسباخ – على مقربة من مدينة هاله – فى عام ١٧٥٧ على الفرنسيين وجيوش الرايخ المتحالفة معهم.

(٦٧) جرت معركة برجن فى ١٣ إبريل ١٧٥٩، وقرية برجن تقع على مقربة من فرنكفورت فى اتجاه (هاناو).

(٦٨) كان المفكرون فى القرن الثامن عشر منقسمين حول أهمية المسرح وأثره الأخلاقى، فبينما وقف روسو من المسرح موقفا ناقدًا رافضًا، كان فولتير وديدرو ودالامبير وغيرهم كثيرون يكتبون مؤكدين القيمة الحضارية والأخلاقية للمسرح. وقد انتقلت هذه المناقشات إلى ألمانيا، ومن الواضح أن والد جوته كان على علم بها.

(٦٩) مسرحية ليسنيج، من نوع التراجيديا البرجوازية، صدرت فى عام ١٧٥٥، ونجحت نجاحًا كبيرًا، وكان مضمونها الأخلاقى المتمثل فى انتصار الفضيلة واضحًا.

(٧٠) مسرحية "جورج برنويل أو تاجر لندن" من تأليف جورج ليلو، مسرحية إنجليزية ظهرت فى إنجلترا فى عام ١٧٣١، وترجمت إلى الألمانية ومثلت فى عام ١٧٥٤.

(٧١) مسرحية مقالب سكاپان لموليير (١٦٧١) مسرحية هزلية. وكان أعداء المسرح كثيرًا ما يقولون إن المسرحيات الكوميدية تسخر من نواح فى الإنسان لا يجوز السخرية منها.

(٧٢) تيرنس مؤلف مسرحى رومانى من القرن الثامن قبل المسيح.

(٧٣) ألكسى بيرون (١٦٨٩ – ١٧٧٣) مؤلف مسرحى فرنسى له طابعه الذى يجمع بين الرمز والأسطورة، ويفيض جوته هنا فى نقد طريقته.

(٧٤) البانتيون الأسطورى، كتاب من تأليف (فرانسوا أنطوان بومى) الفرنسى (١٦١٩ – ١٦٧٣) وفيه تصوير لآلهة اليونان. وكانت طبعاته المتأخرة مصورة.

(٧٥) كان المسرحيون الفرنسيون فى القرن السابع عشر يتمسكون بالوحدات الثلاث – وحدة المكان ووحدة الزمن ووحدة السياق – اعتقادًا منهم أنها أساس وضعه أرسطو فى كتابه

"فن الشعر"، ويشير جوته إلى المناقشات الكثيرة التي دارت في فرنسا وغير فرنسا حول هذا الموضوع.

(٧٦) الكاردينال ريشيليو الذي حث الأكاديمية الفرنسية في عام ١٦٣٦ على استنكار مسرحية "السيد" لكورني.

(٧٧) لا يزال عدد من هذه اللوحات موجودًا في فرنسا وفي ألمانيا، وقد تناولتها البحوث المختلفة بالدراسة والتحقق مما كتبه جوته.

(٧٨) لم يمت الكونت في المستعمرات كما ذكر جوته، بل عاد حيا منها ومات بعد الثورة الفرنسية بعدة سنوات فقيرًا.

(٧٩) إشارة إلى كتاب من كتب لوبران، المصور الفرنسي المعروف (١٦١٩ – ١٦٩٠) يعالج فيه تعليم كيفية التعبير عن المؤثرات النفسية على وجه الإنسان ورأسه.

(٨٠) جوفاني باتيستا بياتيستا (١٦٨٢ – ١٧٥٤) رسام إيطالي من البندقية.

(٨١) استخدمت في ترجمة العبارات الألمانية مقابلا لكل عبارة من التسميات الشعبية المصرية للأصابع، وهي تستخدم عندنا عادة في الريف للعبث مع الصغار.

(٨٢) المغناطيس الذي يتحدث عنه جوته مغناطيس طبيعي من حجر المغناطيس، كان يزود بتركيبة من الحديد عند قطبيه لتزيد فعاليته.

(٨٣) أقصد بالبيانو المديد، البيانو الأفقي الكبير.

(٨٤) زيجفارت رواية عاطفية من تأليف يوهان مارتن ميللر(١٧٧٧).

(٨٥) إيسوب كاتب إغريقي أسطوري يقال إنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وتنسب إليه الأمثال أو الحكايات، التي انتشرت فيما بعد على يد لافونتين وغيره، وترجمها إلى العربية محمد عثمان جلال "العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ". ومما يقال عنه إنه كان قبيح المنظر مشوه الهيئة.

(٨٦) لوكيان أديب إغريقي من القرن الثاني بعد الميلاد اشتهر بنقده اللاذع لعيوب زمانه.

(٨٧) الكتاب المقدس، يشوع ١٠: ١٢

(٨٨) كان مارتن لوتر في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية حريصًا على إنشاء نص سلس، وكان لا ينفر من شيء قدر نفوره من الترجمة الحرفية التي كان يسميها عمل الحمير. أما زباستيان شميد فكانت ترجمته اللاتينية حرفية وكانت تفيد من يقرأ النص العبري المطبوع بجوارها.

(٨٩) يستخدم جوته في هذا الموضوع الكلمة العبرية "إيلوهيم" التي تعني "الآلهة" وهي لفظة بالجمع، ولكن الشراح يقولون إن المقصود بالجمع في هذه الحالة ليس التعبير عن تعدد الآلهة، ولكن تعدد صفات الإله الواحد الأحد. وعلى القارئ وهو يقرأ حديث جوته عن التوراة أن يلاحظ هذه الملحوظة الأساسية. وهناك كتابات لعلماء اللاهوت المسيحين يجدون أن اللفظة العبرية بالجمع، والمقابل الألماني لها يعبر عن عقيدة التثليث فيكون الأيلوهيم أو الآلهة بمعنى الأب والابن والروح القدس إله واحد.

(٩٠) الصفحات التى دون فيها عرضا لما جاء فى التوراة عن إبراهيم والأنبياء من بعده حتى يوسف، تعتمد على التوراة مصدرا لها، وتعبر عن مضمينه. وربما عرض جوته رأيا له هو، أو بعض الآراء التى شاعت فى عصر التنوير عن الدين الفطرى، والدين الخاص.

(٩١) الكتاب المقدس، سفر التكوين ١٣.

(٩٢) الكتاب المقدس، تكوين ١٤: ٢

(٩٣) يتحدث جوته عن الآباء الأول، كتعبير عام، فإذا كان يقصد به الأنبياء فمن الواضح أن رأى شراح التوراة لا يوافقهم عليه الإسلام الذى أكد أن الله اصطفى الأنبياء وطهرهم.

(٩٤) ذكرنا من قبل اهتمام كلوپشتوك بالمواد الواردة فى الكتاب المقدس ومعالجته إياها، ونذكر هنا من أعماله المسرحية "موت آدم" (١٧٥٧) و"سليمان" (١٧٦٤) و"داود" (١٧٧٢).

(٩٥) يوهان ياكوب بودمر (١٦٩٨ – ١٧٨٣) كان له أثره على تغيير مسار الأدب الألمانى بعد خشونة حركة التنوير إلى مزيد من العاطفة والخيال. وكان له اهتمامه بالمواد الورادة فى الكتاب المقدس، فكتب قصصا ملحمية مثل "يعقوب ويوسف" (١٧٥٢) و "يوسف وزليخا" (١٧٥٣).

(٩٦) الأنكريونية، نسبة إلى الشاعر اليونانى أنكريون (القرن الخامس والسادس قبل الميلاد) الذى كان يعالج فى شعره موضوعات التمتع بالدنيا بكل ما فيها من زخرف، وقد قلده فى ألمانيا شعراء كثيرون مثل أوتس وجلايم وهاجيدرون، وجوته فى شبابه على النحو ما نقرأ هنا.

(٩٧) نشأت بعد حركة مارتن لوتر الإصلاحية البروتستنتية حركات نابعة من فكرة الإصلاح، ولكنها اتخذت مسارت أخرى، واعتبرت خارجة على البروتستانتية اللوثرية. وقد أسس الهورنهوتيون – نسبة إلى مدينة هرنهوت – طائفتهم فى عام ١٧٢٢، وكانت لهم كنيستهم المستقلة وانتشرت دعوتهم ولا تزال باقية إلى اليوم فى ألمانيا، وخارج ألمانيا.

(٩٨) من بين أحكام الإعدام التى شهدها جوته، إعدام إنهماريا فروليش فى عام ١٧٥٨ وإعدام زوزانا مارجريته برانت فى عام ١٧٧٢، ومن رأى شراح أعمال جوته، وبخاصة فاوست، أنه تأثر بما شاهده فى تصوير شخصية جريتشن.

(٩٩) عقد السلام فى ١٥ فبراير من عام ١٧٦٣.

(١٠٠) يحتاج تجهيز الخشب إلى خبرة فى الاختيار والتجفيف ثم فى المعالجة حتى يحتفظ بشكله ولا ينبعج.

(١٠١) ظهرت مسرحية "كنوت" من تأليف يوهان إلياس شليجل فى عام ١٧٤٧، وتدور حول الملك الدانمركى كنوت، وقد تأثر فيها شكسپير.

(١٠٢) مسرحية شهيرة لراسين، والحديث عن اللغة هنا يشير إلى أن التمثيل كان بالفرنسية.

(١٠٣) تيمون يمثل شخصية عدو الناس، وأصله فى كتابات لوكيان ثم فى مسرح شكسپير.

(١٠٤) وأتونتيمورومينوس عنوان مسرحية (لتيرنس ومعناه "الذى يعذب نفسه"

(١٠٥) هو هاينريش كورنيليوس أجريپا فون نيتيسهايم (١٤٨٧ – ١٥٣٥) كان عالما فى القانون والطب ونشر كتابه هذا باللاتينية فى عام ١٥٣١.



الجزء الثانى


محمد خطاب

مقدمة

هأنذا أقدم الكتابين الخامس والسادس، خطوة ثانية فى الطريق إلى استكمال هذا الأثر الأدبى الضخم. وتتناول الكتب الأربعة الأولى سنوات حياة جوته منذ مولده حتى نهاية سنوات الطفولة.

الكتاب الأول: يبدأ بلحظة الميلاد التى يضعها فى مكانها من دورات الفلك، ويصف الأحداث التى أحاطت بها أو نجمت عنها، ثم ينتقل إلى وصف سنوات الطفولة الأولى فى مدينة فرنكفورت، فيتحدث عن والديه وعن البيت وإعادة بنائه ويتحدث عن المدينة وما كان يتصل بها من نشاط وما يقام فيها من احتفالات، ثم يرسم صورة للأب واهتماماته العلمية والفنية المختلفة، ورحلته إلى إيطاليا، والرسومات التى احتفظ بها حرصًا على ذكريات عزيزة، ومعارف أثيرة إلى نفسه، فقد درس الأب فى جامعات مختلفة وكتب رسالة دكتوراه فى القانون، وكان يقوم على تعليم أولاده بنفسه ويثابر على ذلك مثابرة عجيبة، كذلك كان الوالد متمسكًا بالتقاليد الدينية على طريقته، وكان يشجع ابنه على الذهاب إلى الكنيسة وفهم الكتاب المقدس، وإن اعتمد الصبى على خياله وفكره الخاص فى تأويل المفاهيم الدينية. ويحدثنا جوته عن الكتب الشعبية التى كان الصبية يشترونها كما يشترون الحلوى، بثمن بخس، فيطالعونها، بنهم حتى إذا فرغوا منها، اشتروا غيرها ويرسم جوته صورة لجده تيكستور الذى كان عمدة المدينة، فيقترب به من آفاق الأسطورة. ويتناول عددًا من الأحداث العامة التى أثرت على فكره أكبر التأثير وبخاصة زلزال لشبونه الشهير.

الكتاب الثانى: يتناول جوته فى الكتاب الثانى بالوصف والتعليق أحداث حرب السنين السبع وأثرها على المدينة وأهلها وأسرته، ثم يتحدث عن الصبية الذين كان يخالطهم ويقص عليهم قصصه الخرافية من نوع قصص ألف ليلة وليلة،

ويعطى نموذجا هو " باريس الجديد"، ويكمل رسم صورة مدينة فرنكفورت بحديث عن شخصيات متميزة، كانت تبدو للناس غريبة الأطوار، ولكنها كانت ذات أثر عليه فكريًا ووجدانيا. ويفرد صفحات عديدة للحديث عن الشاعر الألمانى الكبير كلوپشتوك صاحب ملحمة "المسيادة" أو "ملحمة المسيح". وكيف كان الناس يختلفون فى تقديره أشد الاختلاف، ففى الوقت الذى كان الوالد فيه يرفض كلوپشتوك كل الرفض ولا يقبل أن يكتب الشاعر شعرًا بغير قافية. كانت الأم تحب الكتاب وتطالعه سرًا، وعن طريقها وطريق صديق العائلة حصل الصبى على هذا النص الشعرى الممتاز فحفظه هو وأخته عن ظهر قلب، وبينما هما ذات يوم يتبادلان تلاوة النص سرًا، انفعلا ورفعا صوتيهما، وذهل الأب، وأوشك أن يصاب بجـــرح لا يعلم إلا الله مدى خطورته، لأن الحلاق كان فى تلك اللحظة يمر بالموسى على رقبته ووجهه ويتحدث جوته عن مسرح العرائس الذى قدمته الجدة للأولاد، وعن تأثير هذا المسرح الصغير على فكره، فقد بدأ يكتب له ويعد له العروض، فدخل المسرح فى حياته وكيانه فكرًا وإحساسًا ومتعة وإبداعًا.

الكتاب الثالث: يتناول الكتاب الثالث احتلال القوات الفرنسية فرنكفورت فى مطلع عام ١٧٥٩ والاضطراب الذى حل بالأسرة نتيجة إقامة الضابط الفرنسى الكونت تورانك، فى البيت، واتخاذه بعض الحجرات مكاتب يمارس فيها عمله ويستقبل فيها أصحاب الحاجات، ويصف جوته صلابة الأب فى كرهه المحتل ورفضه التقرب إليه أو التفاهم معه، مما كان يمكن أن يؤدى إلى عواقب وخيمة. ونرى جوته معتدلاً فى حكمه على الكونت، فهو لا ينسب إليه صفات أو أعمالا لم يأت بها، بل يرجح أنواع النفع التى عادت عليه من وراء مخالطة هذا الرجل الفرنسى المهتم بالفنون. فقد شهد الرسامين المعاصرين وهم يرسمون لوحات للكونت تورانك، وشاركهم التصميم ورآهم فى مراسمهم، فعرف فن التصوير عن كثب. كذلك أتاحت له مخالطة الفرنسيين ممارسة اللغة الفرنسية وإتقانها. فلما أقام الفرنسيون مسرحًا فى فرنكفورت اختلف إليه وتعلم منه الكثير، فعرف المسرح الفرنسى الكلاسيكى والمعاصر، وتأثر به فى محاولاته الأولى.

الكتاب الرابع: يصف جوته فى الكتاب الرابع دروس الرسم التى تلقاها طبقا للنظام الذى كان معروفا فى ذلك الزمان، ثم يصف دروس الموسيقى وما جرى له مع معلم الموسيقى، ومع المعلمين الخصوصيين. وينتقل إلى هوايات الأب، ومن بين هذه الهوايات هواية تربية دود القز التى كانت مسلية فى ظاهرها، كثيرة المتاعب فى حقيقتها. ولكن تربية الأولاد كانت هى الاهتمام الأول الذى شغل به الأب، وهكذا أحضر مدرسا خاصًا للغة الإنجليزية، فأفاد هو منه بقدر ما أفاد الابن والابنة فلما بدأ الصبى يكتب رواية بلغات مختلفة، واحتاج إلى تعلم اللغة (اليدِّية)، وهى ألمانية اليهود، وجد أن الأصوب هو أن يتعلم العبرية فيضرب عصفورين بحجر واحد، إذ يحقق هذا الهدف الأول ويحقق بعد ذلك هدفا ثانيًا أكبر وأوسع وهو قراءة العهد القديم فى لغته. وينتهز جوته هذه الفرصة فيتحدث عن قصص الأنبياء كما جاءت فى العهد القديم، ويتحدث عن الحكايات الأولى التى تُعبِّر عن حالات إنسانية عامة تتكرر بمرور الزمن. ولقد شُغل هو بهذه القصص كما شُغل بها الكتاب والشعراء، فكتب معالجة نثرية لقصة يوسف، وكان قد كتب من قبل الكثير من القصائد فى مناسبات مختلفة، وفى إطار التنافس بين أترابه، فجمع طائفة من كل ذلك قدمها على هيئة مجلد إلى أبيه الذى فرح بها. وبدأ الأب يوجه ابنه إلى دراسة القانون، فلم يجد الابن فيها ما يغريه، كذلك شغل بتعلم المبارزة وركوب الخيل دون أن يصل فيهما إلى ما يرضيه.

وينتهز جوته كل مناسبة ليتحدث عن الأنشطة المختلفة فى المدينة، وعن الأمور الهامة التى جرت فى تاريخها الطويل، وعن الرجال المتميزين الذين اتصل بهم، وتعلم منهم وأكْبر شمائلهم أو دُهِش لنواحى النقص فى شخصياتهم.

أما الكتاب الخامس: فيتناول بداية مرحلة جديدة فى حياة جوته، فقد تجاوز سنوات الطفولة والصبا الأولى، وامتدت أمام ناظريه سبل مختلفة تقود إلى آفاق بعيدة، فعرف طريقه إلى الحب، وإلى المعاناة، ثم إلى السفر طلبًا للعلم. وجوته يعتبر الكتب الخمسة الأولى وحدة واحدة يسميها الجزء الأول، ويستهل الجزء الثانى بسنوات الدراسة الجامعية. ولكن الشراح يعرفون أن الكتاب الخامس يمثل

بداية مرحلة محددة المعالم، ففيه يتحدث جوته عن الحب الذى هز وجدانه كما يتحدث عن الاحتفال العظيم الذى جرى فى المدينة لتتويج القيصر، وهكذا تتقابل الأحداث، وتتلاقى الانعكاسات، فما يجرى فى داخل الصبى والشاب الذى يحس بتفرده إحساسا متزايدا – يجد دائمًا فى الحياة الخارجية ما يقابله، والحب فى حياة جوته شيء عظيم، كما أن حفلة تتويج القيصر فى المدينة حدث فريد يدور حول أكبر شخصية فى الإمبراطورية كلها.

ويلفت أريش ترونتس النظر إلى أن الكتاب الخامس من السيرة الذاتية يسير فى اتجاه مختلف عن اتجاه الكتب السابقة، فهو لا يندفع إلى مجالات وآفاق أبعد وأوسع فى الدنيا، بل يعود إلى أعماق الذات فى حالة انكماش وتقوقع، أو فى حالة من اليأس والمرض، وتتمثل هذه الفترة بنوع من الانطواء والتأمل تظهر انعكاساته بين أعمال مختلفة. ويميل بويتلر إلى اعتبار الكتاب الخامس قمة الفن القصصى لا فى السيرة الذاتية فحسب بل فى أعمال جوته النثرية بعامة. فقد عبَّر جوته، وقد عركته الحياة، وتمكن من فنه القصصى كل التمكن، عن الاندماج العميق بين ما يعتمل فى وجدانه من أحاسيس، وما تتلقاه حواسه من روعة احتفالية يضفى عليها معنى رمزيًا يتغلغل فيها، فهو يعايش الاحتفال العظيم من كل موقع، وينظر إليه من كل جانب، ويرى نفسه فيه. وينتهى الكتاب الخامس بالمرض والقلق.

ويبدأ الكتاب السادس: بالغمة وقد انقشعت وبأفق جديد يتكشف ويمتد إلى بعيد وما يبرأ جوته من مرضه حتى يسافر إلى لايپتسيج ليبدأ حياته الجامعية فى مدينة تمتلئ بألوان من النشاط تختلف فى بعض وجوهها عن الحياة فى فرنكفورت، فطلاب الجامعة فى لايپتسيج يعيشون حياتهم فى أدب ورقة ويترددون على حانات خاصة بهم، لا يصرفهم عنها اشتغالهم بالدراسة والتحصيل. وأساتذة الجامعة يسهمون بعملهم العلمى فى إضفاء جو من الثقافة والحوار الفكرى على المدينة، والفنون المختلفة، وبخاصة المسرح، تزدهر وتتفرق فى اتجاهات مختلفة، يصارع بعضها بعضا، وتحث أصحاب المواهب الجديدة على الخوض فى أمواجها المضطربة حينا، والهادئة أحيانا. ولكن أهل لايپتسيج لم يترفقوا بجوته، فأخذوا عليه مظهره،

حتى اضطر إلى تغيير ثيابه، وأخذوا عليه طريقة كلامه الفرنكفورتية حتى اضطر إلى تغيير نطقه وأسلوبه، وأخذوا عليه حبه للشعر، وكرهوه فى الشعر والشعراء، وما زالوا به حتى أحس باليأس الشديد، وتناول كل ما كان قد حرص على جمعه من أعماله الأولى، فحرقه.

وهكذا انتهت مرحلة، وبدأت مرحلة أخرى، وكأنما كانت مرحلة لايپتسيج هذه فى بدايتها مرحلة الانطلاقة الحقيقية إلى عالم الأدب. أرجو الله أن أتمكن من نقل أجزاء أخرى من هذا السفر الضخم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

مصطفى ماهر


محمد خطاب

الكتاب الخامس

لكل طائر من الطيور طُعْمٌ يجذبه، ولكل إنسان طريقة خاصة يجتذب بها إلى طريق الرشاد أو طريق الغواية ولقد جنبتنى الطبيعة والتربية والبيئة والعادة مواطئ الخشونة والإسفاف، وعلى الرغم من أننى كثيرًا ما خالطت الطبقات الدنيا، وبخاصة العمال، فإن هذه المخالطة لم تتحول إلى علاقة وثيقة ولقد كانت لدى الجسارة الكافية للقيام بأعمال خارقة للمألوف، ربما كانت خطيرة، بل كنت أحياناً أحس بأننى ورثت استعدادًا فطريًا يهيئ لهذا السبيل، ولكننى كنت أفتقر إلى الوسيلة العملية التى تتيح لى تحقيق هذا الذى ظننت أننى جبلت عليه.

وإذا بى أتورط من حيث لا أحتسب فى أمور أوقفتنى على شفا حفرة من الخطر الداهم وسببت لى، على الأقل إلى حين، كثيرًا من الحيرة والكرب. وكنت قد حافظت على علاقتى الطيبة بذلك الصبى الذى أسميته من قبل بيلادس، حتى دخلت مرحلة الشباب، وإن لم نكن نتلاقى إلا على فترات زادت بمرور الوقت ندرة لأن الصلات بين أسرتينا لم تكن على خير وجه. ولكننا كنا عندما نلتقى نحس بهجة الود القديم تنتفض فى حنايا صدورنا انتفاضًا. وهكذا التقينا فى الدروب الممتدة بين بوابة سانت جاللن الداخلية والخارجية التى كانت منتزهًا أثيرًا إلى النفوس. وما كدنا نتبادل التحية حتى عاجلنى بقوله:

– ما زال أمرى مع شِعرك هو هو لم يتغير. لقد طالعت الأبيات التى أعطيتنى إياها على بعض رفاقى الظرفاء، فلم أجد واحدا من بينهم يصدق أنك أنت الذى كتبتها.

فقلت له:

- لا تعبأ. دعنا نكتب ما نشاء من الشعر، ونتمتع به، ودع الآخرين يفكرون ويقولون ما يحلو لهم.

فقال صديقى:

- ها هوذا المكذب قد أتى.

فرددت عليه قائلاً:

لا علينا أن نتكلم فى هذا الأمر، فالكلام لن يجدى شيئًا ولن نستطيع إلى إقناع المنكرين من سبيل.

وأجاب صديقى قائلا:

- هذا محال. أنا لا أستطيع أن أتركه يظن ما يشاء من الظنون.

واتصلت بيننا محادثة قصيرة عابرة لم يستطع الصديق الذى كان يميل إلىَّ أشد الميل أن يملك نفسه بعدها، فقال فى شىء من الحساسية:

- هذا هو الصديق الذى كتب أبيات الشعر الجميلة التى تنكرونها عليه.

فقال الفتى:

- لا أظن أنه يعيب علينا رأينا، فإننا نرفع قدره عندما نظن أن كتابة مثل هذه الأبيات الشعرية تتطلب من الحكمة أكثر مما يمكن أن تتاح له فى سنه الصغيرة.

فرددت عليه بكلمات عابرة. أما صديقى فأضاف قوله:

- لن نتعب كثيرًا فى إقناعكم. ما عليكم إلا أن تقترحوا عليه موضوعا فيرتجل قصيدة يتلوها عليكم.

وقبلت راضيًا، واتفقنا وسألنى الفتى هل أجد لدىَّ القدرة على كتابة رسالة حب لطيفة بالشعر توجهها بنت خجولة إلى فتى تصارحه بعاطفتها نحوه. فقلت:

- هذا شيء يسير، ما أحتاج إلا إلى ورق وقلم.

فأخرج من جيبه أجندة بها ورق كثير دفعها إلىَّ، وجلست على مقعد لأكتب. وأخذ الصبيَّان يروحان ويجيئان، وعيونهم لا تفارقنى لحظة. واستحضرت الموقف فى ذهنى، ووجدت طرافة فى تصور بنت جميلة تكون فعلاً ميالة إلىَّ وتقرر أن تكاشفنى بإحساسها نحوى نثرا أو شعرا. وبدأت اعترافى فى غير تكلف، وعبَّرت عنه بأبيات من الشعر قرضتها على وزن بين (الكنيتل) و (المادريجال)(٢٠٧) وتحريت فيها السذاجة قدر الطاقة، وانتهيت منها فى وقت قصير، وما قرأتها على الاثنين حتى استبد بالمنكر الإعجاب وبصديقى الاغتباط. ولم أستطع أن أحجب قصيدتى عن الفتى لأننى كتبتها فى أجندته، ولأننى كنت أحب أن تكون الوثيقة الدالة على مهاراتى بين يديه. وانصرف عنى وهو يلهج بالثناء علىّ والإعجاب بى والمحبة لى، وما تمنينا إذ ذاك شيئا أكثر من أن تتكرر مقابلاتنا وأن نقوم برحلة معًا إلى الريف فى وقت قريب.

وتحققت الرحلة واشترك فيها فتيان آخرون من الضرب نفسه. وكانوا أناسا من الطبقة المتوسطة، أو لنقل من الطبقة الدنيا، لا يفتقرون إلى الذكاء، اختلفوا إلى المدارس فتلقوا شيئًا من المعرفة والتربية. والمدينة الكبيرة فيها إمكانات كثيرة لكسب لقمـــة العيش، وكان هؤلاء يدبرون أمورهم فيعملون كتبة لدى المحامين. أو يعطون دروسًا خصوصية لأبناء الأسر الرقيقة الحال، فيتقدمون على نحو أفضل مما لو كانوا فى المدارس الأولية. كذلك كانوا يستذكرون دروس الدين مع الصبية الأكبر سنا تمهيدًا لتثبيت التعميد، وكانوا يقضون بعض المشاوير للسماسرة والتجار، ثم كانوا يتلاقون مساء وبخاصة فى أيام الآحاد والأعياد ليوسعوا على أنفسهم.

وبينا نحن فى الطريق أثنوا على رسالة الحب التى كتبتها أعظم الثناء، ثم اعترفوا لى بأنهم استخدموها للمزاح، فنقلوها بخط مختلف وقدموها مع تلميحات معينة إلى شاب مغرور يظن أن أى بنت يغازلها من بعيد تقع فى غرامه إلى أبعد

الحدود، وتتلمس السبل للتقرب إليه. وأسرّوا إلىّ بأنه لا يأمل فى شىء أكثر من أمله فى أن يرد عليها هو كذلك بأبيات من الشعر، ولكنه لا يجد لديه ولا لدى أصدقائه الموهبة الشعرية المناسبة، ورجونى ملحين أن أكتب له الرد المطلوب.

والحق أن أساليب الخداع والتضليل كانت ومازالت أساليب التسلية الأثيرة إلى نفوس أصحاب البال الخالى الذين يتحرون المزاح قليله أو كثيره. والأذى الذى يمكن أن يغتفر، والتشفى المقصود لذاته، يمثـلان متعـة لمن لا تشغلهم نفوسهم ولا يستطيعون الخروج إلى الناس بما ينفعهم أو يشفى صدورهم والناس جميعًا فى كل الأعمار معرضون للرغبة فى مثل هذا العبث. وكثيرًا ما استسلمنا فى سنوات الصبا للعبث، ولعبنا بعضنا بالبعض الآخر ألعابا تقوم على التضليل والإيهام ونصب الفخاخ. ولاحت لى اللعبة التى يلعبونها من نفس هذا النوع، فقبلتها وذكروا لى أشياء خاصة ينبغى أن تتضمنها الرسالة. فلما تهيأنا للعودة كانت الرسالة قد تمت، وحملوها معهم.

وما مر إلا وقت قليل حتى دعانى صديقى ملحًا إلى المشاركة فى حفل تقيمه هذه الصحبة مساء، وذكر لى أن الحبيب هو الذى ينفق على الحفل، وأنه يريد به أن يشكر هذا الصديق الذى أدى دور السكرتير الأدبى على هذا النحو الرائع.

والتقينا فى وقت متأخر إلى حد كبير، وتناولنا طعامًا بسيطًا أشد البساطة، وشربنا نبيذًا عاديًا، أما الحديث فقد دار كله أو جله حول التهكم على الشاب الجالس معنا والذى كان محدود الأفق، محدود الإدارك، حتى إنه بعد أن تلى الرسالة وأعاد تلاوتها أوشك أن يظن أنه هو الذى كتبها.

وحالت طيبتى الفطرية بينى وبين التمتع الحقيقى بمثل هذا الخداع القبيح، وما لبثت أن شعرت بالنفور والقرف لتكرار الموضوع نفسه، وليس من شك فى أننى كنت سأقضى ليلة كئيبة لو لم أصادف فى الدار على غير توقع أو انتظار ظاهرة أعادت إلى نفسى ما كنت قد فقدته من أسباب الحياة. وكنت عندما وصلنا قد لاحظت أن المائدة قد أعدت على نحو جميل منسق، ووضع فوقها ما يكفى من

النبيذ، فاتخذنا أماكننا وبقينا وحدنا لا نحتاج إلى من يخدمنا، ومضى الوقت، وفرغ النبيذ فنادى بعضهم الخادم، ولكن الخادم لم تأت، بل أتت بدلاً منها فتاة حسناء، فائقة الجمال، يتجاوز جمالها المألوف إذا نظرنا إليها فى محيط بيئتها. فلما تمنت للصحبة أمسية طيبة بعبارة مفعمة بالود، قالت:

- ماذا تطلبون؟ فالخادم مريضة وقد آوت إلى فراشها. هل يمكننى خدمتكم؟

فقال أحدهم:

- لقد فرغ النبيذ، فلو أحضرت إلينا بضع زجاجات، لكان ذلك جميلاً منك.

وقال آخر:

- هيا يا جريتشن(١٠٨)، فما هى إلا خطوات قليلة.

وقالت:

- لا بأس.

وجمعت بعض الزجاجات الفارغة من فوق المائدة وانصرفت مسرعة. وإذا بقوامها يبدو من الخلف جميلاً أيضًا، أو لعله كان أكثر جمالا، بالقبعة اللطيفة التى تربعت حلوة على رأسها الجميل الرقيق، الذى تصله بالقفا والكتفين رقبة رقيقة حلوة. ولاح لى كل شىء فيها كأنما اختير أروع اختيار، وتتبعتُ تفصيلات قوامها كله ثابتًا ثباتًا مطمئنًا من الخلف حيث لا تستبد عيناها الساكنتان الواثقتان وفمها الرقيق اللطيف بالانتباه كله فلا يستطيع فكاكا. ولُمت الصحاب على إرسالهم البنت وحدها فى الليل البهيم، فسخروا منى، ولم يرتح بالى إلا عندما عادت، وكان الخمّار يقيم فى بيت على الناحية المقابلة غير بعيد. وقال أحدهم:

- اجلسى معنا لقاء صنيعك.

فجلست، ولكنها للأسف لم تجلس بجانبى، وشربت كأسا فى صحتنا، ثم انصرفت بعد قليل، ونصحتنا بألا نطيل الجلوس، وبألا نصخب لأن الأم تتهيأ للنوم، ولم تكن تعنى أمها بل أم الصحاب.

ومنذ تلك اللحظة ظلت هيئة هذه البنت تلاحقنى فى حلِّى وترحالى وأحسست لأول مرة بأول انطباع ثابت تحدثه فىّ امرأة، ولم أجد حجة أحتج بها لزيارتها فى بيتها، ولم أشأ أن أبحث عن مثل هذه الحجة، فقد ذهبت من أجل عيونها إلى الكنيسة، وما لبثت أن اكتشفت المكان الذى كانت تجلس فيه واستطعت أن أروى ظمأ عينى إليها فى أثناء الخدمة التى تطول فى الكنيسة البروتستنتية. فلما خرجت من الكنيسة لم أجرؤ على التحدث إليها، ناهيك عن مرافقتها، ولكننى شعرت بسعادة غامرة لأنها لاحظت وجودى وأومأت – أو هكذا بدت لى – ردًا على تحيتى. ولكننى لم أظل طويلاً محرومًا من سعادة الاقتراب منها. فقد أدخلوا فى روع المحب – الذى أصبحت بقدرة قادر سكرتيره الأدبى – أن الرسالة التى كتبت باسمه قد وصلت بالفعل إلى البنت، وأثاروا شوقه أشد الإثارة إلى تلقى الرد. وطلبوا إلىّ أن أكتب الرد، وكلفت الصحبة الخبيثة العابثة پيلادس بأن يلح على فى أن أقدح قريحتى وأتوسل بكل ما أملك من أساليب الفن لتكون الرسالة فائقة الجمال والكمال.

ودفعنى الأمل فى لقاء جميلتى إلى الشروع فورًا فى العمل، واستحضرت فى ذهنى أجمل ما كان يسعدنى أروع سعادة لو كانت جريتشن هى التى كتبت إلىّ الرسالة. وظننت أننى أغترف من قوامها، وكيانها ولبها وشمائلها، حتى إننى لم أستطع أن أكتم أمنيتى فى أن تكون تلك هى الحقيقة، وأحسست بالذهول يملك علىَّ نفسى وأنا أفكر مجرد التفكير فى أن يأتينى منها يومًا شىء من هذا القبيل. وهكذا خدعت أنا نفسى وأنا أظن أننى أعبث بإنسان آخر، وكان على أن أذوق شيئًا من البهجة، وشيئًا من النكد، يتأتيان من هذا العبث. فلما ذكَّرونى بما طلبوا أجبت بأننى قد فرغت، ووعدت بأن أذهب إليهم. وذهبت فى الساعة المحددة، فلم أجد إلا واحدًا من الأصحاب بالبيت، وكانت جريتشن تجلس إلى الشباك وتغزل، بينما كانت الأم تروح وتجىء. وطلبت الصبية منى أن أقرأ عليها ما كتبته ففعلت، وقرأت قراءة لا تفتقر إلى التأثر، وكنت أرفع بصرى عن الورق واختلس النظرات إلى البنت الجميلة، فلما ظننت أننى لاحظت شيئًا من الاختلاج يستبد بها ، وحمرة رقيقة ترتسم على وجنتيها عبّرت على نحو أفضل وأقوى عما كنت أتمنى أن أسمعه

منها. وتوجه إلىّ ابن العم، الذى قاطعنى فى أثناء القراءة مرارا معبرًا عن استحسانه وتقريظه، طالبًا أن أدخل بعض التعديلات: وكانت تعديلات تنصبُّ على مواضع تنطبق بداهة على أحوال جريتشن أكثر مما تنطبق على أحوال البنت التى كانت من بيت طيب موثر معروف ومشهور فى المدينة. فلما أوضح لى الشاب التعديلات المطلوبة وأتانى بأدوات الكتابة، واستأذن فى الانصراف برهة لينجز بعض أعماله، بقيت جالسا على المقعد إلى الحائط وراء المنضدة الكبيرة، واستخدمت فى صياغة محاولات التعديل لوحة الأردواز الكبيرة الممتدة بطول المنضدة تقريبًا، وكتبت بقلم الأردواز الذى كان دائمًا موضوعًا فى النافذة لأنهم كانوا يستخدمونه كثيرًا فى إجراء العمليات الحسابية كتابةً على لوحة الأردواز، وفى تسجيل أشياء مختلفة، بل إن الرائحين والقادمين كانوا يتبادلون الأخبار على صفحة الأردواز.

وظللت حينا أكتب أشياء مختلفة ثم أمحوها، ثم صحت وقد نفذ صبرى:

- لا فائدة.

فقالت البنت اللطيفة بلهجة متزنة:

- أحسن. كم أتمنى ألا تكتمل هذه الرسالة أبدًا ! ما كان ينبغى لك أن تشغل نفسك بمثل هذه الأعمال القبيحة.

وتركت المغزل ونهضت ثم أقبلت نحوى إلى المائدة وألقت على مسامعى هذه المحاضرة التأديبية المفعمة بالفهم والود معًا:

- المسألة فى ظاهرها مزاح برىء. صحيح أنها مزاح، ولكنها ليست بريئة. ولقد شهدت حالات كثيرة من هذا النوع، وقع فيها شبابنا فى حرج شديد نتيجة لمثل هذا الجرم.

فقلت:

- فماذا أفعل الآن؟ الرسالة قد كتبت والصحاب مطمئنون إلى أننى سأعدلها.

وردت قائلة:

- صدقنى، لا تعدل فيها شيئًا. نعم، خذها كما أتيت بها وانصرف، دسها فى جيبك، وانصرف، وحاول أن تسوى الأمر عن طريق صديقك. وسأتدخل أنا أيضًا وأقول كلمة. ولتكن لك فىّ أسوة حسنة، فأنا بنت فقيرة معتمدة فى معاشى على هؤلاء الأقارب الذين لا يرتكبون الموبقات، ولكنهم فى سعيهم إلى المتعة والبهجة والكسب يفعلون أمورًا تتسم بالجسارة، ولقد قاومتهم ورفضت أن أنسخ الرسالة الأولى عندما طلبوا منى ذلك. فكتبوها هم بخط مصطنع، ولسوف يفعلون نفس الشىء بهذه الرسالة إن لم يجدوا سبيلاً آخر. وأنت شاب من بيت طيب، غنى، مستقل، ما الذى يجعلك تقبل أن يستخدموك كالآلة فى مسألة لن تؤدى إلى خير، بل ربما نجم عنها مالا تحمد عقباه؟

ولقد سعدت بالاستماع إليها وهى تقول كلمات متتابعة مترابطة، فما كانت تتدخل من قبل فى الحديث إلا بكلمات مقتضبة. وزادت عاطفتى نحوها على نحو هائل، وفقدت السيطرة على نفسى، وقلت لها:

- أنا لست مستقلا على النحو الذى تتصورينه، وما الفائدة التى يعود بها علىَّ الغِنى إذ اكنت أفتقر إلى أقيم شىء يحق لى أن أتمناه.

وكانت قد سجلت مسودة رسالتى الشعرية، فقرأتها بصوت خفيض كلُّه حلاوة وطلاوة. وقالت:

- جميل جدًا

ثم سكتت لتقول ما يشبه التعليق الساذج:

- ولكن خسارة ألا يستخدم هذا الكلام استخدامًا أفضل، استخدامًا يقوم على الصدق.

فصحت قائلاً:

- وهذا خير ما أتمناه. ما أسعد الإنسان الذى يتلقى من فتاة يحبها حبًا بلا حدود مثل هذه الرسالة التى تؤكد له فيها عاطفتها نحوه.

فردت على قائلة:

- من الواضح أنك تبالغ، ولكن هناك أمورا كثيرة ممكنة.

واستأنفت كلامى:

- لنفترض مثلاً أن إنسانا يعرفك ويقدرك ويحترمك ويعبدك قدم إليك مثل هذه الورقة، وتوسل إليك بالإلحاح والود من كل قلبه، فماذا تفعلين؟

ودفعت إليها بالورقة مرة أخرى، وكانت قد ردتها إلى. فابتسمت، وفكرت لحظة وتناولت الريشة ووقعت عليها باسمها. وأحسست كأننى لم أعد أعرف من أنا من فرط سعادتى، وهببت واقفًا واندفعت لأعانقها. فقالت:

- لا تقبلنى، فالقبلات شيء سخيف. أما الحب فلمن يستطيع.

وكنت قد أخذت الورقة فدسستها فى جيبى وقلت:

- لن يحصل عليها أحد. انتهى الأمر. لقد نجدتنى نجدة مؤكدة.

فصاحت قائلة:

فأكمل النجدة إلى نهايتها ، وانصرف مسرعًا قبل أن يأتى الآخرون وتقع أنت فى حرج وحيرة. ولم أستطع ان أنتزع نفسى منها، ولكنها توسلت إلىَّ بالود وأمسكت يدى اليمنى بكلتا يديها وضمتها بكل الحب. وأوشكت الدموع أن تفيض من عينى ولاح لى كأننى رأيت عبرات تبلل عينيها، فضممت وجهى إلى كفيها وانصرفت مسرعًا. ولم أكن قد عرفت من قبل فى حياتى مثل هذا الاضطراب الذى ألم بى فى تلك اللحظة.

وأحاسيس الحب الأول التى تختلج فى قلب شباب لم يتعرض للفساد تتجه وجهة روحية خالصة. ويبدو أن الطبيعة تريد أن يدرك الجنسُ فى الجنس الآخر الخير والجمالَ إدراكًا حسيًا. وهذا هو ما جرى علىَّ، فقد انفتح أمامى بعد أن أبصرت بهذه البنت وملت إليها ميلاً قويًا، عالم جديد من الجمال والكمال. فقرأت

رسالتى الشعرية مائة مرة، وتأملت التوقيع، وقبّلته وضممته إلى صدرى وسعدت بهذا الاعتراف الحبيب إلى القلب. وكلما زادت فرحتى العارمة. زاد ألمى لأننى لم أكن أستطيع أن أذهب إليها على الفور فأزورها وأراها وأكلمها فقد كنت أخشى لوم أبناء عمومتها لى، وعودتهم إلى الإلحاح علىَّ. ولم أجد السبيل للقاء پيلادس الطيب الذى كان المفروض أن يتولى تسوية الأمر. وتنفيذا توجهت فى يوم الأحد التالى إلى (نيدرراد)(١٠٩) حيث اعتاد الصحاب أن يذهبوا. ووجدتهم بالفعل هناك. وكم كانت دهشتى عندما أقبلوا على بوجوه مستبشرة، وكنت أحسب أنهم سيلقوننى بوجوه عابسة مندهشة. وكان أصغرهم أشدهم ودًا، فأمسك يدى وقال:

- لقد عبثت بنا مؤخرا عبثًا ماكرا، وغضبنا منك غضبا شديدا. ولكن هروبك منا، واستيلاءك على الرسالة الشعرية جعلنا نفكر فكرة طيبة ما كانت لتخطر لنا على بال. وعليك أن تصلح ما فسد بيننا من ود فتدعونا على حسابك اليوم، وسنحكى لك على المائدة ما خطر ببالنا، وليس من شك فى أنك ستسعد به.

وسبب لى هذا الكلام حرجًا ليس بالهيّن، فلم أكن أحمل معى من المال إلا ما يكفى طعامى وشرابى، ودعوة صديق واحد، أما أن أدعو صحبة كاملة، وبالذات صحبة من هذا النوع لا تعرف لها فى الوقت المناسب حدودها فى الطعام والشراب، فهذا ما لم أكن قد تهيأت له بحال من الأحوال. ولقد أدهشنى هذا الطلب دهشة زائدة لأنهم كانوا يرون من الكرامة أن يدفع كل واحد ثمن ما يشربه هو ويطعمه. وابتسموا لحيرتى، وراح أصغرهم يقول:

- هيا بنا الآن نجلس فى التكعيبة، وستسمع المزيد.

وذهبنا وجلسنا وقال:

- عندما حملت معك رسالة الحب وانصرفت، فكرنا فى الموضوع كله مليًا، وتبينا أننا نستغل مهارتك استغلالا سيئا فيما لا جدوى منه، فنغيظ الآخرين، ونعرض أنفسنا للخطر، لا لشىء إلا لمجرد التشفى والفرح لما يصيب الآخرين من ضر، وكان الأحرى بنا أن نفيد من مهارتك فيما يعود علينا جميعًا بالنفع.

ولقد أتيتك اليوم بطلب قصيدة بمناسبة زواج، وطلب آخر لقصيدة جنائزية (١١٠)، والقصيدة الثانية مطلوبة على الفور، الأولى يمكن أن تكتبها على راحتك فى غضون ثمانية أيام، فإذا كتبتها خدمتنا خدمة مضاعفة، وسنظل مدينين لك ردحا طويلاً.

ولقى هذا الاقتراح هوى فى نفسى من كل ناحية، لأننى كنت منذ الصبا أنظرْ نظرات كلها غيرة إلى قصائد المناسبات، التى كانت الأيدى تتناقل منها فى كل أسبوع عددًا ليس بالقليل، وكانت تظهر بالعشرات عندما تقام حفلات عقد قران كبيرة، لأننى كنت أتصور أننى أستطيع أن أقرض مثلها بل أحسن منها. وهذه هى الفرصة تسنح لى للظهور ولرؤية قصائدى مطبوعة وهو ما كنت أتوق إليه خاصة. وكاشفتهم بأننى غير معترض، فعرفونى بالبيانات وبظروف الأسرة، فانتحيت جانبًا وأعددت تخطيطًا، وكتبت بعض الفقرات، ثم عدت إلى الرفاق، وشربت معهم خمرًا فى غير تحفظ، فتعثرت القصيدة، ولم أستطع إتمامها فى المساء نفسه، فقالوا:

- لديك وقت حتى مساء الغد. ونود أن نعترف لك بأن المكافأة التى سنحصل عليها لقاء القصيدة الجنائزية ستكفى لنمنح أنفسنا حفلا لطيفًا كحفل اليوم. فتعال غدًا إلينا، فمن الخير أن تشاركنا جريتشن المتعة فهى التى حفزتنا على هذه الفكرة.

وأحسست بسعادة لا سبيل إلـــى وصفها. ولم يشغل بالى فى طريق عودتى إلا الأبيات الشعرية المتبقية، ففرغت منها وكتبتها قبل أن آوى إلى فراشى، فلما نهضت فى الصباح بيَّضتها بخط جميل. وأحسست النهار طويلاً طويلاً لا ينتهى إلى نهاية، وما كادت الدنيا تبدأ فى الإظلام حتى كنت فى الشقة الصغيرة الضيقة بجانب البنت الحبيبة التى همت بها.

ولم يكن الشباب الذين ازددت منهم قربًا على هذا النحو جماعة من السفلة، بل كانوا أناسا عاديين، وكانو يقومون بنشاط يستحق المدح، وكنت أسعد بالاستمتاع

إليهم عندما يتحدثون عن الطرق والوسائل المختلفة التى يحقق بها الإنسان كسبًا، كذلك كانوا يحبون الحديث عن أغنياء زماننا الذين بدأوا من الصفر، وأصابوا ثراء واسعًا، وعن أولئك الذين عملوا خدمًا فى متاجر ثم جعلوا أصحاب المتاجر يحسون بأنهم فى حاجة إليهم فزوجوهم بناتهم، وعن آخرين بدأوا بتجارة صغيرة فى عيدان الكبريت وما إليها ثم وسعوها ورفعوا شأنها حتى أصبحوا فى عداد التجار الأغنياء. وكانوا يتحدثون عن الشباب الذين أوتوا سيقانا قوية فهم يكسبون قوتهم ويفيدون ماليًا عندما يقومون بالمشاوير وأعمال التخليص والسمسرة ويتلقون طلبات منوَّعة فى هذا المجال من الأغنياء الذين لا طاقة لهم على قضاء مثل هذه الأمور. كنا جميعًا نحب الاستماع إلى هذه الأحاديث، وكان كل واحد يتصور نفسه شيئًا مهامًا، عندما يتمثل نفسه فى اللحظة التى يجد فيها فى ذاته كل ما يمكنه من التقدم فى الدنيا، بل من تحقيق سعادة فائقة للمألوف. ولم يبد على أحد أنه حمل الحديث محمل الجد أكثر من پيلادس الذى أفاض فى الحديث ثم انتهى إلى الاعتراف بأنه يحب فتاة حبا يفوق المألوف، وأنه تواعد وإياها على الزواج، ولم تكن الأحوال المالية لوالديه تتيح له أن يلتحق بالجامعات، ولكنه تعلم الخط الجميل، والحساب واللغات الحديثة، وفعل كل ما فى إمكانه، وما يزال يفعل، حتى يحقق تلك السعادة الزوجية. وامتدحه أبناء عمومة جريتشن على الرغم من أنهم لم يستصوبوا التعجل بالارتباط بالبنت، وأضافوا أنهم يعترفون بأنه شاب طيب هُمام، ولكنهم لا يرون أنه يملك ناصية النشاط والعزم ليحقق شيئًا خارقًا للمألوف. فلما شرع يبرر موقفه ويبين تفصيلا ما يجد لديه القدرة على القيام به، وما انتوى فعله، استثار الآخرين فأخذ كل واحد منهم يحكى عمَّا يستطيع وعمَّا فعل ونفذ، وعن الطريق الذى قطعه والطريق الذى ما يزال أمامه. وأصابنى الدور فى النهاية، وطلبوا إلى أن أتحدث عن منهاج حياتى وتطلعاتى. وبينما غرقت فى التفكير قال پيلادس:

– لدى تحفظ، فما ينبغى له أن يدخل فى حسابه الامتيازات التى أوتيها من خارج ذاته، من وضعه الاجتماعى، حتى لا يغطى علينا بغير وجه حق والأحرى

به أن يحكى لنا من خياله ماذا كان يفعل لو كان فى هذه اللحظة معتمدًا على نفسه فقط مثلنا.

ونهضت جريتشن واقفة، وكانت حتى تلك اللحظة منهمكة فى الغزل، وأقبلت فجلست على عادتها إلى طرف المنضدة. وكنا قد أفرغنا عددًا من زجاجات النبيذ فشرعت أتحدث بصفاء ما بعده صفاء، وأصف قصة حياتى كما أتخيلها، فقلت:

- أولا أوصيكم بأن تحفظوا لى الزبائن الذين بدأتم باجتذابهم. والرأى عندى، إذا سلمتمونى أنتم الأجر الذى ستقبضونه على قصائد المناسبات كلها، الواحدة تلو الأخرى، وإذا لم نضيعه فى الطعام والشراب، فإننى أعتقد أننى سأصل إلى شىء فى حياتى. وثانيًا لا ينبغى لكم أن تحفظوا علىَّ إذا أنا أدليت بدلوى فى بئر حرفتكم.

وحكيت لهم بعد ذلك ما ثبت فى خاطرى من ملحوظاتى على أعمالهم وما وجدت أننى قادر على القيام به على أية حال. وكان كل واحد منهم قد عبَّر عن مكاسبه بالمال، ولهذا رجوتهم أن يعاونونى على وضع ميزانيتى. وكانت جريتشن قد أنصتت إلى كل ما قيل حتى الآن باهتمام شديد، متخذة الوضع الذى يناسب جمالها إلى أقصى حد، سواء تكلمت أو استمعت، كانت تربع ذراعيها ثم تمسك عضديها بيديها، مستندة إلـــى طرف المنضدة، وكـــانت تستطيع أن تجلس هكذا وقتًا طويلاً، لا تحرك رأسها قط إلا لسبب أو تعبيرًا عن معنى، وتدخلت فى الحديث بين الفينة والفينة بكلمة، وأعانتنا فى ترتيباتنا هنا وهناك إذا تعثرنا، ثم كانت تعود إلى صمتها وسكونها المألوفين. ولم أكن أرفع عينى عنها، ويمكن للمرء أن يتصور أن خطة حياتى التى عرضتها لم تكن خالية من التلميح إليها، ولقد أضفَت عاطفتى نحوها على كل ما قلته مسحة من الحقيقة والإمكانية حتى إننى عشت فى الخيال الذى توهمته، وتصورت نفسى وحيدا حائرًا كما ذكرت فى قصتى، وأحسست بالسعادة كل السعادة

على أمل أن تكون لى. وإذا كان پيلادس قد ختم اعترافه بالزواج، فقد واجهنا نحن الآخرين السؤال: هل نصل فى تخطيطنا إلى هذا المدى. وقلت:

- أنا لا أشك فى ذلك على الإطلاق، لأن كل واحد منا بحاجة إلى امرأة حتى تحفظ فى البيت ما كسبناه وترعاه وحتى تجعلنا نتمتع المتعة الكاملة بما نجمعه من عملنا فى الخارج بالجد والكد.

ووصفت صورة الزوجة التى أتمناها، ولو لم تكن مطابقة لجريتشن كل المطابقة لكان كلامى معوجًا عجيبًا.

وأكلنا وشربنا بما تلقينا من أجر على القصيدة الجنائزية، وكانت قصيدة العرس قريبة بما تحمله من خير. وتغلبت على كل خوف ورهبة، وتمكنت من إخفاء حقيقة مسامراتى المسائية على أهلى لأن معارفى كانوا كثيرين. وما لبثت أن شعرت بأن النظر إلى البنت الحبيبة والاقتراب منها أصبحا شرطًا لا محيص عنه لا يقوم كيانى بدونه، كذلك اعتاد الآخرون علىَّ وأصبحنا نتلاقى كل يوم تقريبًا، كما لو كان اللقاء شيئًا مقررًا لا سبيل إلى فعل غيره. وكان پيلادس يأتى بفتاته إلى البيت أحيانًا، وكان الاثنان يقضيان عندئذ المساء فى صحبتنا. وعلى الرغم من أن خطبتهما كانت فى بدايتها الأولى، كزرع فى مرحلة الإنبات، فإنهما لم يكونا يخفيان ما بينهما من عاطفة. أما سلوك جريتشن معى فكان يهدف إلى إبقائى بعيدًا عنها وكان من عادتها ألا تصافح أحدًا، كذلك أنا لم تكن تصافحنى، ولم تقبل أن يلمسها أحد، ولكنها كانت أحيانًا تجلس بجانبى، وبخاصة عندما كنت أكتب أو أطالع، وكانت تضع ذراعها فى ألفة على كتفى وتنظر إلى الكتاب أو الورقة بين يدى، فإذا حاولت أن أسمح لنفسى بنفس الحرية التى تسمح بها لنفسها حيالى انصرفت وتحاشتنى إلى حين. ولكنها كانت تعود إلى تكرار مسلكها هذا، وكانت كل حركاتها وإيماءاتها على وتيرة واحدة، ولكنها كانت تتسم دائما باللياقة والحسن والفتنة. ولاحظت أن هذه الألفة التى كانت تخصنى بها، لم تكن تبديها لأحد غيرى.

ومن بين رحلات السمر البريئة كل البراءة، المسلية كل التسلية، التى كنت أقوم بها مع جماعات مختلفة من الشباب، رحلة على متن عبَارة سوق هوكست[١١١]. كنا نتأمل خلالها الركاب المكدسين فوقها بأشكالهم العجيبة، وندخل بدافع المزاح أو العبث فى حديث مع هذا أو ذاك فنشاكسه أو نداعبه وكنا ننزل فى هوكست فى الوقت الذى تأتى فيه العبَّارة القادمة من مدينة ماينتس[١١٢]. وكنا نجد فى مطعم هناك مائدة زاخرة بما لذ وطاب يأكل عليها أفاضل الرائحين والغادين، يجتمعون عليها، ثم يستأنف كل رحلته لأن السفينتين كانتا تعودان من حيث أتيتا وكنا نعود بعد تناول الطعام إلى فرنكفورت بعد أن نكون قد قمنا بأرخص رحلة نهرية فى صحبة كبيرة.

وذات مرة قمت بهذه الرحلة مع أبناء عمومة جريتشن، فلما جلسنا إلى مائدة الطعام فى مطعم هوكست انضم إلينا شاب يبدو أنه كان أكبر منا سنا. كانت شخصيته تتسم بكثير من اللطف ولا تتسم فيما عداه بميزة لافتة أخرى للنظر، لقد أتى من ماينتس وسافر معنا إلى فرنكفورت، فى رحلة العودة، وأخذ يتحدث معى فى أمور مختلفة وبخاصة أمور تتصل بالبلدية والوظائف والأقلام، وكان يبدو عليه أنه على علم جيد بما يدور فيها. فلما افترقنا ودَّعنى وأضاف، أنه يتمنى أن أكون قد كونت فكرة طيبة عنه لأنه يرجو أن يسعد بالحصول على توصية منى فى حينها. ولم أفهم مقصده، ولكن أبناء عمومة جريتشن أوضحوا لى الموضوع بعد بضعة أيام، فقد امتدحوا الشاب وطلبوا منى أن أوصى به جدى، فقد خلت وظيفة متوسطة يرجو أن تكون من نصيبه. واعتذرت فى البداية لأننى لم أدس أنفى فى مثل هذه الأمور من قبل قط، ولكنهم ألحوا حتى قررت أن أوصى به وكنت قد لاحظت أحيانا أن توزيع مثل هذه الوظائف – الذى يعتبر للأسف من قبيل المن والتعطف – تؤثر فيه توصيات جدتى أو خالتى. وكنت قد كبرت وتصورت أن يكون لى بعض النفوذ، وهكذا تغلبت – من أجل أصدقائى الذين أعلنوا أنهم سيحمدون لى صنيعى – على خجل الحفيد، وقبلت أن أرفع إلى جدى طلبًا سلموه لى.

وذات يوم أحد بعد طعام الغذاء، عندما كان جدى مشغولا فى أعمال الحديقة على نحو خاص نظرًا لاقتراب الخريف، اجتهدت فى أن أساعده ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وكاشفته بعد تردد بمطلبى وقدمت إليه الملتمس. فنظر فيه وسألنى إن كنت أعرف الشاب، فحكيت له بصفة عامة ما يقال فى مثل هذه الظروف وانتهى الأمر عند هذا الحد. وكان رأيه:

– إذا كانت له ميزة، وكانت بين يدي شهادة طيبة، فسأميل إلى صالحه من أجلك ومن أجله.

ولم يزد عن ذلك، ولم أسمع إلى حين شيئا عن الموضوع.

وكنت قد لاحظت منذ بعض الوقت أن جريتشن لم تعد تغزل، وأنها كانت تخيط بدلاً من أن تغزل، وتخيط أشياء رقيقة دقيقة، ودهشت لذلك لأن الشتاء أوشك، وأصبحت ساعات النهار قصيرة، ولم أشغل بالى بما لاحظته، ولكننى شعرت بالقلق لأننى لم أجدها فى البيت صباحًا، على غير عادتها، وتكرر ذلك، ولم أستطع أن أعرف أين تذهب، ولم أشأ أن ألح فى السؤال. ثم حدث ذات يوم ما فاجأنى وأدهشنى. كانت أختى تتهيأ للذهاب إلى حفل راقص، فرجتنى أن أشترى لها من محل خردوات ما أسمته زهورًا إيطالية، وكانت هذه الزهور تصنع فى الأديرة، وكانت دقيقة حلوة، فيها زهور الآس والورود القرمزية تبدو جميلة وكأنها طبيعية. وقبلت أن أقوم بالمهمة عن طيب خاطر وذهبت إلى المحل الذى كثيرًا ما ذهبت إليه معها. وما كدت أدخل وأسلم على صاحبته حتى لمحت بنتًا تجلس فى الشباك، بدت لى من تحت قبعتها الرقيقة المصنوعة من الدانتيلا صبية جميلة، ورأيتها من وراء ملاءة حريرية بديعة القوام حسنة القد وتبينت فى يسر أنها صبية تعمل فى المحل، لأنها كانت توشى قبعة صغيرة بشريط وريش.

وقدمت إلىّ البائعة صندوقًا طويلا مليئا بزهور مختلفة، فتطلعت إليها، ونظرت وأنا أختار بينها، إلى البنت فى الشباك، وكم كانت دهشتى عندما لاحظت أن بينها وبين جريتشن شبهًا لا يكاد يصدقه العقل. ثم تبينت فى النهاية أنها هى

جريتشن نفسها. ولم يعد يساورنى أدنى شك عندما غمزتنى بعينها، وأفهمتنى بالإشارة ألا أكشف عن معرفتى بها. وأرهقتُ البائعة بالتقليب بين الاختيار والرفض، وبلغت بها مدارج اليأس، أكثر مما كان يمكن أن تفعله بها امرأة، والحق أننى لم أكن قادرًا على الاختيار لأننى كنت مرتبكًا أشد الارتباك، ولكنى كنت محبا لارتباكى وترددى لأنه كان يبقينى بجانب البنت التى كان قناعها يؤرقنى، وإن بدت لى فى هذا القناع أكثر فتنة من ذى قبل. وأخيرًا أوشكت البائعة أن تفقد الصبر، فجمعت فى صندوق مجموعة كاملة من الزهور ملأته بها، لأحمله إلى أختى حتى تختار بنفسها. وهكذا طردتنى من المحل بكياسة عندما كلفت البنت التى تعمل لديها بأن تسبقنى بالصندوق إلى الشارع.

وما كدت ألم بالبيت حتى نادانى أبى وأعلننى بأنه أصبح من المؤكد أن الأمير يوزف سيختار ملكًا رومانيًا[١١٣]، ويتوج وكان من رأيه أن مثل هذا الحدث الجلل لا يصح أن يستقبله الإنسان بلا استعداد، يتطلع إليه وهو يمر به مرورًا، بعين مبهورة مدهوشة. ولهذا قرر قراره على أن نراجع معًا محاضر الانتخاب والتتويج فى المرتين الأخيرتين، ونراجع بنفس الدقة أيضًا شروط الانتخاب الأخيرة وقواعدها حتى نتبين الشروط الجديدة التى سيضيفونها فى الحالة الحاضرة[١١٤]. وفتحنا سجلات المحاضر وشغلنا بها طوال النهار وطرفا من الليل، وكانت البنت الجميلة تطوف بمخيلتى تارة فى ثياب البيت، وتارة فى زيها الجديد، ولا تفتأ تطالعنى من بين الموضوعات العليا للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وهكذا استحال على أن أذهب لرؤيتها فى هذا المساء، وقضيت الليلة مسهدًا لا يغمض لى طرف. وفى اليوم التالى استأنفنا دراسة الأمس بنفس الهمة، ولم أتمكن إلا قبيل المساء من الذهاب لزيارة جميلتى، فألفيتها كالعادة فى ثوب البيت، فابتسمت عندما رأتنى، ولكننى لم أسمح لنفسى بالإشارة إلى شىء فى وجود الآخرين. فلما جلست الصحبة معًا والتأم شملها فى هدوء، قالت:

– لا يليق بكم ألا تكاشفوا صديقنا بما قررناه فى هذه الأيام.

ثم راحت تقول إن الحديث الذى جرى مؤخرا بيننا ودار حول الطريقة التى ينوى كل واحد اتباعها ليقيم لنفسه وزنًا فى الدنيا تساءلنا فيه أيضا عن المرأة كيف تنسى مواهبها وأعمالها وكيف يمكنها أن تحسن الإفادة من وقتها. وبناء على ذلك اقترح ابن العم عليها أن تجرب العمل لدى خياطة تبحث عمن يساعدها، واتفقوا مع الخياطة على أن تذهب إليها كل يوم عددا من الساعات وتحصل على أجر طيب، ولكن عليها، من باب اللياقة، أن تقبل التزين بزى معين تخنعه بعد العمل لأنه لا يتناسب مع حياتها وشخصيتها. وارتحت لهذا التصريح. ولكننى لم أرض كل الرضا بأن أعرف أن البنت الجميلة تعمل فى محل عام وفى مكان تلتقى فيه الطبقة المرفهة أحيانًا. ولم أبد ما يدل على عدم رضائى. وحاولت ان أتغلب بينى وبين نفسى فى سكون على قلقى القائم على الغيرة. إلا أن ابن العم الأصغر لم يدع لى من الوقت إلا أقله، فسرعان ما أقبل نحوى حاملاً إلىّ تكليفا بكتابة قصيدة من قصائد المناسبات، وألقى على مسامعى البيانات ثم طلب منى أن أقوم على الفور بالتخطيط للقصيدة وإبداعها. وكان قد تكلم معى من قبل عدة مرات عن كيفية القيام بمثل هذا العمل، ولما كنت فى مثل هذه الأحوال أكثر من الكلام إلى حد الثرثرة، فقد تلقى عنى بسهولة شرحًا تفصيليا لما ينبغى أن يعمل من الناحية البلاغية، وسمع منى تفسيرًا للموضوع وأمثلة من أعمالى وأعمال غيرى وضحت بها مقصدى. وكان الشاب ذكيًا، وإن افتقر إلى الموهبة الشعرية كل الافتقار، وها هو ذا يدخل فى أدق التفصيلات، ويطلب منى شرحًا لكل شيء، مما دفعنى إلى أن أقول له بصوت عال:

– يبدو أنك تريد أن تنافسنى فى حرفتى، وأن تأخذ منى زبائنى.

فرد على مبتسمًا بقوله:

– هذا ما لا أنكره، لأننى لا أسبب لك بهذا ضررًا. قريبًا ستذهب إلى الجامعة فدعنى حتى ذلك الحين أنتفع منك ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

فقلت:

- حبا وكرامة.

وشجعته على أن يضع تخطيطا للقصيدة وأن يختار الوزن المناسب للموضوع وما إلى ذلك من أمور لها فى تقديرى أهميتها. وعمل بجد، ولكنه لم يصل إلى نتيجة، وكان علىَّ أن أغيِّر وأعدِّل الكثير، ولو أننى قمت بالعمل وحدى منذ البداية لكان أسهل وأفضل، ولكن التعليم والشرح والعمل المشترك أتاح لنا تسلية طيبة، واشتركت جريتشن معنا فيها، وقدمت بعض الخواطر اللطيفة، وهكذا ابتهجنا، بل سعدنا جميعا. كانت تعمل نهارا لدى الخياطة وكنا نلتقى مساء، ننعم بالرضا الذى لم يعكر صفوه تعثر طلبات قصائد المناسبات. وأحسسنا مرة بالألم عندما أعيدت إلينا إحدى القصائد مصحوبة باحتجاج لأنها لم تعجب العميل الذى طلبها. ولكننا تأسينا لأننا كنا نعتبر هذه القصيدة بالذات أفضل ما كتبنا، وكان لنا أن نحكم على الرجل بأنه قليل العلم بهذه الموضوعات. أما ابن العم الذى كان مصممًا على أن يتعلم كتابة قصائد المناسبات على أية حال فقد أخذ يتخيل موضوعات كنا نتسلى أطيب التسلية بصياغتها، ولكنها لم تكن تدر علينا بطبيعة الحال مالا، وكنا لذلك مضطرين إلى الاقتصاد فى طعامنا وشرابنا أشد الاقتصاد.

وبدأ الموضوع الكبير الذى تقضى به تشريعات الدولة، موضوع انتخاب الملك الرومانى وتتويجه[١١٥]، يزداد جدية، ونقل المحفل الانتخابى للأمراء إلى فرنكفورت، وكان قد أعلن من قبل أنه سينعقد فى مدينة أوجسبورج فى أكتوبر ١٧٦٣، وتكثيف الاستعدادات فى نهاية هذا العام وفى مطلع العام التالى تمهيدًا لهذه المهمة الجليلة، واتخذت البداية صورة موكب لم نر له مثيلاً من قبل. فقد امتطى واحد من موظفى المستشارية عندنا صهوة جواده ورافقه أربعة من نافخى الأبواق يركبون الخيول هم أيضًا، ومن حولهم حشد من الحرس المترجلين، وقام هذا الموظف بتلاوة بيان مفصل فى كل ركن من أركان المدينة، بصوت جهير واضح النبرات ليعرفنا بما سيجرى من أحداث، وليحث المواطنين على سلوك مسلك لائق

يناسب الموقف وما يحيط به من ظروف وجرت فى المجلس مشاورات كبيرة. وما مر وقت ليس بالطويل حتى ظهر مأمور الإقامة الإمبراطورى مبعوثا من لدن المارشال الحسيب(١١٦) حتى يدبر، طبقا للنظام التقليدى القديم، مساكن السفراء ومعياتهم ويقطع فى أمرها. وكان منزلنا يقع فى قطاع الإمارة الپفالتسية(١١٧)، وكان علينا أن نقدم مرة أخرى سكنا لإحدى الشخصيات الپفالتسية، ولكننا فى هذه المرة كنا سعداء بها. وأعددنا الدور الأوسط. الذى كان الكونت تورانك يقيم فيه، ليسكنه الفارس الپفالتسى ، ولما كان القائم بالأعمال النورنبرجى البارون فون كونيجستال قد اتخذ الدور العلوى مقرا. فقد ضاق علينا البيت أكثر مما ضاق علينا أيام الفرنسيين، واتخذت من ذلك حجة جديدة للخروج من البيوت وقضاء أطول وقت فى الطريق العام حتى أرى بعينى ما يجرى.

وبعد أن شاهدنا باهتمام ما قد جرى من تغير وتأثيث فى حجرات دار البلدية، وتابعنا وصول السفراء واحدًا واحدًا وموكبهم الأول المهيب يوم السادس من فبراير، أعجبنا بمقدم المندوبين القيصريين وسير موكبهم الجليل إلى دار البلدية. وأحدثت شخصية أمير ليشتنشتاين المهيب انطباعًا طيبًا، ثم قال العارفون ببواطن الأمور إن الأزياء الرائعة التى لبسها رجاله سبق أن استخدمت فى مناسبة أخرى، وقالوا إن احتفالات انتخاب وتتويج الملك فى هذه المرة سيكون من الصعب عليها أن تبلغ ما بلغته احتفالات كارل السابع من أبهة. أما نحن الشباب فقد رضينا بما رأته عيوننا، ووجدنا كل شىء جميلاً جدًا، بل لقد دهشنا لكثير منه.

وتحدد الاجتماع الانتخابى(١١٨) أخيرًا فى يوم الثالث من مارس. وعجَّت المدينة بالحركة مع الاحتفالات الجديدة والزيارات الرسمية التى كان السفراء يتبادلونها والتى كانت تشد انتباهنا وتدفعنا إلى الوقوف طويلا للتطلع إليها. وكان علينا أن ندقق البصر، فما كان يليق بنا أن نحملق مجرد الحملقة، بل كان علينا أن نلاحظ كل شىء ملاحظة دقيقة ونصفه فى البيت شفاهة، بل تحريرًا أحيانًا، حيث كنا نكتب مواضيع إنشاء صغيرة، يحثنا عليها الوالد أو السيد فون كونيجستال،

وربما كتبناها حفاظا على ما لاحظناه، ولقد أفدت أنا شخصيا من هذا فأصبحت أشبه شيء بصحيفة حية قادرة على تصوير أحداث الانتخاب والتتويج.

من بين شخصيات المفوضين التى أحدثت فىَّ انطباعًا باقيًا أذكر أولا السفير الأول الأمير ماينتس الناخب، البارون فون إرتال الذى أصبح فيما بعد أميرًا ناخبا[١١٩]. وعلى الرغم من أنه لم يكن يتسم فى هيئته بشىء لافت للنظر فقد أعجبنى أفضل الإعجاب بثوبه الأسود الموشى بالدنتيلا. وأذكر ثانيًا السفير البارون فون جروشلاج الذى كان رجلا معتدل القامة، ليِّن العريكة، حريصًا أشد الحرص على اللياقة فى سلوكه فى المجتمعات الرفيعة التى كان من أهلها. وكان بصفة عامة يعطى انطباعًا مريحًا كل الراحة. أما الأمير إيسترهاتسى، السفير البوهيمى، فلم يكن طويل القامة، ولكنه كان معتدل البنية، كثير الحيوية، يحرص على اللياقة الرفيعة دون فتور أو خيلاء. ولقد أحسست بميل خاص إليه لأنه كان يذكرنى بالمارشال فون بروليو. ولكن هذه الشخصيات الممتازة بسماتها وأقدارها انحسر حظها من الإعجاب نتيجة للحكم المسبق الذى أخذ به الناس حيال السفير البراندنبورجى البارون فون پلوتو. وكان هذا الرجل الذى تحرى الاقتصاد فى ثيابه هو وفى أزياء رجاله وركائبه، قد أصاب شهرة منذ حرب السنوات السبع، فأصبح بطلا دبلوماسيًا، وكان قد التقى آنذاك فى مدينة ريجنسبورج بالموثق أبريل ومعه مجموعة من الشهود، وفكر أبريل فى أن يعلمه بالقرار الذى اتخذ بعزل الملك، فرد عليه ردًا موجزًا:

- آه. أنت تُعلمنى؟

وألقى به من أعلى الدرج أو، فى رواية ثانية، أمر به أن يلقى من أعلى الدرج. وكنا نفضل تصديق الرواية الأولى، لأنها كانت تروقنا، ولأننا كنا نتصور أن هذا الرجل القصير، المكتز الذى كان ينظر من حين لآخر بنظرات نارية تنطلق من عينيه السوداوين قادر على الإتيان بمثل هذا التصرف. وكانت العيون كلها تتركز عليه. وبخاصة عندما كان ينزل من العربة، وكان الناس فى كل مرة يهللون

له، بأصوات فرحة، بين الهمس والصفير، ويوشكون أن يصفقوا له أو يهتفوا بحياته فقد كان الملك يحظى بتقدير عظيم، وكان كل من ينضوى تحت لوائه قلبا وقالبا، ينعم بميل الجماهير الألمانية من أهل فرنكفورت ومن غيرها، فى كل الأرجاء.

كنت من ناحية أجد متعة فى هذه الأمور كلها، لأن كل ما كان يجرى، أيا كان نوعه، كان يخفى معنى كامنًا، ويشير إلى شيء فى أعماقه، وكانت مثل هذه الاحتفالات الرمزية تبث الحياة لحظة فى الرايخ الألمانى الذى يوشك أن يكون مدفونا تحت أكداس من الرق والورق والكتب. ولكننى من ناحية أخرى لم أكن أستطيع أن أكتم استنكافًا خفيًا كان يساورنى فى البيت عندما كنت أنسخ لأبى نصوص المفاوضات، وكنت أتبين أن هناك قوى عديدة متنافسة ومتعادلة لا تتفق إلا علـــى جعل صلاحيات الملك الجديد أقل من صلاحيات القديم، وأن كل طرف لا يهمه من التمتع بالنفوذ إلا الحفاظ على امتيازاته وزيادتها وتأكيد استقلاله بقدر أكبر. ولقد أخذت الأطراف أنفسها فى هذه المرة بمزيد من اليقظة على نحو يفوق المألوف، لأنهم شرعوا يخافون من يوزف الثانى وحِدَّته وخططه التى يظنون أنه كان يضعها.

وكان هذا الوقت وقتًا سيئًا بالنسبة لجدى ولأعضاء المجلس الآخرين الذين اعتدت أن أختلف إلى بيوتهم، لأنهم كانوا مشغولين باستقبال هؤلاء الضيوف العظام وتحيتهم وتقديم الهدايا إليهم. كذلك كان المستشارون يدافعون عن أنفسهم جملة وتفصيلا ويقاومون ويحتجون، لأنهم كانوا يجدون أنفسهم فى مثل هذه الظروف عرضة للتدخل، إذ يسعى كل إنسان إلى أن يقتطع منهم شيئًا، أو يلقى عليهم عبئًا، ولا يجدون من بين من يتجهون إليهم إلا قلة تريد العون والمساعدة. والخلاصة أننى تمثلت فى صورة حية ما كنت قد قرأته فى تاريخ ليسنر[١٢٠]. عن أحداث شبيهة فى مناسبات شبيهة، وأعجبت بصبر هؤلاء المستشارين الطيبين وجلدهم.

ومن المنغصات ما ينشأ من امتلاء المدينة شيئا فشيئا بأناس كثيرين، منهم من له ضرورة، ومنهم من ليس له ضرورة. ولامدينة تذكر دواوين الأمراء بالعهد الذهبى ومقرراته التى تقادم عهدها بطبيعة الحال، فلم تعد تلقى آذانا صاغيـة. ولا ينعم بالحماية المبعوثون المكلفون بمهام رسمية ومرافقوهم فحسب، بل كثير من الوجهاء والأشخاص العاديين الذين يأتون بدافع الفضول أو لأعمال خاصة. وهنا يثور السؤال عمن يحل ضيفا على المدينة، ومن ينبغى عليه أن يستأجر لنفسه سكنا؟ وهو سؤال لا يقطع فيه على التو فى كل الأحوال. ويزداد الزحام، ويبدأ الناس فى التململ، حتى أولئك الذين لا يقومون بعمل ولا يحملون مسئولية.

كذلك نحن الشباب الذين أتيحت لنا فرصة مشاهدة كل شيء، لم نكن نلقى دائما ما ترضى به عيوننا ويشبع منه خيالنا. كانت المعاطف الإسبانية الطويلة، والقبعات الكبيرة المزدانة بالريش، التى كان السفراء يلبسونها، تضفى، ومعها أشياء أخرى شبيهة، سمة عتيقة حقيقية على الاحتفالات. وإلى جانب هذه الأشياء كان هناك نصف الكامل أو الحديث وهكذا تكونت من كل مكان صورة مزركشة لا ترضى الأذواق وتقترب من السخف فى كثير من الأحيان.

وهكذا سعدنا كل السعادة عندما سمعنا أن الاستعدادات تجرى على قدم وساق لرحلة القيصر والملك وأن المفاوضات التى جرت فى محفل الأمراء الناخبين[١٢١] والتى اعتمدت على لائحة الانتخاب القديمة تقدمت تقدمًا كبيرًا وأن يوم الانتخاب قد تحدد وسيوافق السابع والعشرين من مارس. وبدأ التفكير فى إحضار شارات الرايخ[١٢٢] من نورنبرج وآخن. ولكنهم كانوا ينتظرون أولاً قدوم موكب أمير ماينتس الناخب فى الوقت الذى كانت المفاوضات الصعبة مع سفارته حول السكن لا تزال مستمرة.

وكنت فى هذه الأثناء أنجز فى البيت عملى فى معاونة المستشارية، وأهتم به كل الاهتمام، وكنت بطبيعة الحال أطالع بعض الملحوظات الصغيرة التى كانت تأتى من جهات متعددة، وكان ينبغى أخذها فى الاعتبار فى اللائحة الجديدة. كانت

كل طبقة تسعى إلى تأكيد حقوقها فى هذه الوثيقة وتسعى إلى زيادة قيمتها وسمعتها، إلا أن الكثير من هذه الملحوظات والأماني نُحّي جانبا، وبقيت أكثر الأمور على ما كانت عليه وتلَقّى أصحاب الملحوظات تأكيدات وثيقة أكيدة بأن عدم الأخذ بها لا يعنى بحال من الأحوال الانتقاص من شأنهم.

وكان على مكتب مارشال الرايخ أن يتولى فى هذه الفترة أعمالا كثيرة وصعبة فقد زادت أعداد الأجانب، واشتدت الصعوبات فى العثور لهم على أماكن يقيمون فيها. ولم يكن من الممكن الاتفاق على رسم حدود المناطق المختلفة المخصصة لكل أمير من الأمراء الناخبين. وكان مجلس المستشارين يرى أن يرفع عن كاهل المواطنين الأعباء التى لا يحق إلزامهم بها، ولهذا استمرت الشكاوى والاعتراضات والمشاجرات والخلافات ليلاً ونهارًا، لم تخل منها ساعة.

وجاء موكب أمير ماينتس الناخب(١٢٣) فى الواحد والعشرين من مارس. وبدأ الموكب بطلقات مدفعية أصابت آذاننا بالصمم حينًا من الزمن. ولكن هذا الموكب كان ذا أهمية خاصة بين الاحتفالات، لأن جميع الرجال الذين شاهدناهم حتى تلك اللحظة كانوا تابعين، أما الآن فقد ظهر أمير مستقل، ذو سيادة، هو الأمير الأول بعد الإمبراطور، تسبقه حاشية عظيمة جليلة، وترافقه مثيلتها. ولو لم أكن قد نويت أن أعود إلى وصف الأبهة التى أحاطت بهذا الموكب فيما بعد، بمناسبة لا يمكن أن يتوقعها الإنسان بسهولة، لكنت قد أشرت إلى طرف منها هنا.

وفى اليوم نفسه أتى لافاتر(١٢٤) وكان فى طريق العودة من برلين إلى بلده، فمر بفرنكفورت وشاركنا مشاهدة هذه الاحتفالات. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأشياء الظاهرية الدنيوية لا تكتسى فى نظره بشىء من قيمة، فمن المؤكد أن هذا الموكب بأبهته وما اتصل به من أمور قد انطبع فى خياله القوى العارم، فقد لاحظت بعد سنين، عندما قدم إلىَّ هذا الرجل العظيم العجيب شرحًا لرؤيا يوحنا(١٢٥) أن موكب المسيح الدجال كما وصفه، صورة منقولة عن موكب أمير ماينتس الناخب فى فرنكفورت، خطوة خطوة، شخصًا شخصًا، حالة حالة، منقولة

بدقة حتى إنه لم ينس الشرابات على رؤوس الخيول الشهب. وسأتحدث عن هذا الموضوع بإسهاب عندما أصل إلى عصر النوع الأدبى العجيب الذى كان يسعى إلى تقريب أساطير التوراة والإنجيل إلى الأبصار والوجدان بنقلها نقلا تامًا إلى العصر الحاضر وإلباسها ثوبًا من الحياة الحالية، العادية أو الرفيعة، كذلك سأتحدث عن الاستحسان الذى لقيه هذا الأسلوب شيئًا فشيئًا، وأكتفى هنا بالإشارة إلى أن أحدًا لم يخطئ (لافاتر) والمتشيعين لشيعته، فقد وصف واحد من هؤلاء دخول المجوس بيت لحم وصفًا عصريا حتى أن الأمراء والسادة الذين كانوا معتادين على زيارة (لافاتر) ظهروا فى الصورة على نحو لا يخطئ فى التعرف عليه أحد.

ولنـدع الآن الأمير الناخب إميريش يوزف يدخل الكومبوستيل(١٢٦) متنكرًا أو ما يوشك أن يكون كذلك، ولنعد إلى جريتشن التى رأيتها فى الزحام عندما تفرق، وكانت برفقة پيلادس وجميلته لأن ثلاثهم كانوا على ما يبدو جماعة لا تنفصم عراها. وما كدنا نتلاقى ونتبادل التحية حتى اتفقنا على أن نقضى المساء معًا، وذهبت فى الموعد، فوجدت الجماعة المألوفة مجتمعة، وشارك كل واحد بقصة وكلام وملحوظات، وكان هذا قد اهتم غاية الاهتمام، بشىء ما مما رأى بينما كان الآخر قد اهتم بشىء آخر لفت نظره واستأثر بانتباهه. وأخيرًا قالت جريتشن:

- إن أحاديثكم تحدث بى من الاضطراب أكثر مما أحدثت بى الأمور التى جرت فى هذه الأيام. لقد رأيت أشياء لا أستطيع فهمها والربط بينها، وأنا أحب أن أعرف حقيقة الأشياء.

فرددت عليها قائلاً إنه من اليسير علىَّ أن أقدم إليها هذه الخدمة. وما عليها إلا أن تحدد لى الموضوعات التى تهتم بها ففعلت، وما بدأتُ الشرح حتى أدركت أن الأفضل أن أتحدث بنظام وترتيب، وشبهت الاحتفالات والمهام تشبيها لا يخلو من السخف، فقلت إنها كالمسرحية التى ينسدل الستار فيها حسب الرغبة، بينما يظل الممثلون عاكفين على التمثيل من خلفها، ثم يرفع الستار، فيستطيع المشاهد أن يشارك على نحو ما فيما يراه من أحداث على المسرح. ولما كنت كثير الثرثرة عندما تتاح لى الفرصة، فقد حكيت القصة منذ البداية إلى يومنا هذا، بنظام فائق،

ولم أتقاعس - بغية إضفاء المزيد من الوضوح على محاضرتى - عن استخدام لوحة الأردواز الضخمة والقلم. وبغض النظر عن بعض الأسئلة والتعليقات التى أثارها البعض فقد أتممت محاضرتى دون إزعاج كبير وحظيت فى النهاية على استحسان عام وكانت جريتشن باهتمامها الدائب تشجعنى أعظم التشجيع. وأخيرًا شكرتنى، وقالت بالحرف الواحد إنها تحسد كل أولئك الذين يفهمون أحوال العالم، ويعرفون كيف يتم هذا وذاك من أمره وما يعنيه. وتمنت أن تكون صبيًا، واعترفت لى فى كثير من الود بأنها عارفة لى فضلى فى تعليمها الكثير. وقالت:

- لو كنت صبيا لوددت أن نذهب سويا إلى الجامعات لنتعلم العلم الصحيح.

واستمر الحديث على هذا المنوال، وكان فى نيتها أن تتعلم الفرنسية فقد تبينت فى محل الخياطة ضرورتها التى لا محيص عنها. وسألتها لماذا لم تعد تذهب إلى المحل، وكنت فى الفترة الأخيرة لا أستطيع أن أبعد كثيرًا فى المساء وكنت من حين لأخر أمر بالمحل فى أثناء النهار من أجل خاطرها على أمل أن أراها لحظة. وبينت لى أنها لا تريد فى هذا الوقت المضطرب أن تظهر هناك، وأنها تنوى العودة إلى العمل عندما تعود المدينة إلى أحوالها المألوفة.

ودار الحديث عن يوم الانتخاب الذى أصبح وشيكًا، وشرحت تفصيلا ما سيجرى فيه وكيف، فقد كنت على علم طيب بهذا الأمر، وأوضحت شرحى برسوم تفصيلية على اللوحة، لأن صورة المجمع الانتخابى بهياكله وعروشه وكراسيه الوثيرة ومقاعده كانت مطبوعة فى ذهنى تمامًا. وافترقنا فى وقت مناسب وفى نفوسنا إحساس عجيب بالرضا والارتياح.

فليس هناك شيء يؤلف بين صبى وصبية اتصل بينهما قدر من الانسجام الطبيعى أجمل من أن تكون الصبية تواقة للتعلم ويكون الصبى تواقا إلى التعليم. هنالك تنشأ بينهما علاقة متينة ولطيفة، وترى الصبِّية فى الصبى خالق وجودها الفكرى. ويرى فيها خلقا لم ينشأ عن الطبيعة أو الصدفة أو إرادة منفردة، بل اكتمل اكتمالا يرجع الفضل فيه إلى إرادتهما معا هذه العلاقة المتبادلة تتسم بالحلاوة

الغامرة على نحو لا ينبغى لنا أن ندهش معه إذا علمنا كم نشأت منذ أبيلار[١٢٧] القديم والجديد عن التقاء هاتين الشخصيتين ألوان من العواطف الجياشة وصنوف من السعادة والشقاء.

وماجت المدينة منذ اليوم التالى بحركة كبيرة، فتعددت الزيارات وردود الزيارت تصحبها أعظم الترتيبات الاحتفالية. أما الشىء الذى اهتممت به اهتماما خاصًا باعتبارى مواطنا فرنكفورتيا، وحفزنى على الكثير من التأملات، فكان يمين الثقة الذى قام بتأديته المجلس والجند والأهالى، وكان على كل واحد أن يؤديه بنفسه، لا عن طريق وكيل أو نائب، وان يؤديه على رؤوس الأشهاد، بدأ المستشارون فى قاعة المجلس، وتلاهم هناك ضباط الأركان، ثم جاء الدور على الميدان الكبير، الرومربرج، هناك أدى اليمين الأهالى جميعًا بحسب درجاتهم ورتبهم وأماكن سكنهم، ثم جاء بعدهم من تبقى من العسكريين. وكان الواقف فى الميدان يشمل بنظرة واحدة المجتمع كله وقد اجتمع على هدف جليل وهو تقديم الثقة إلى رئيس الرايخ وأعضائه والتعهد بالهدوء كل الهدوء فى أثناء الحدث الجلل الذى يوشك أن يبدأ. وأتى أمير ترير الناخب وأمير كولونيا الناخب شخصيًا. فلما كانت عشية يوم الانتخاب أبعد الأجانب عن المدينة، وأُغلقت الأبواب، وحبس اليهود فى حارتهم، فالمواطن الفرنكفورتى معتد بنفسه يريد أن يكون وحده شاهدًا على مثل هذا الاحتفال العظيم.

وكان كل شىء قد جرى حتى هذه اللحظة فى صورة تغلب عليها العصرية، فكان الأمراء والكبراء يتحركون جيئة وذهابًا مستخدمين العربات، وهاهم أولاء يتبعون التقاليد فيمتطون صهوة الخيل، وتزاحم الناس على نحو خارق للمألوف ولما كنت أعرف كل خبايا مبنى الرومر[١٢٨]، كما يعرف الفأر خبايا صومعة الغلال فى داره، فقد تسللت من ركن إلى ركن حتى بلغت المدخل الرئيسى الذى يجتمع أمامه الأمراء الناخبون والسفراء، يأتون فى عربات رائعة، فينزلون منها ويركبون الخيول وكانت من الخيول العظيمة المدربة على خير ما يكون التدريب، والمجللة بكل مُوشًى ثمين وبالزينات من كل ضرب. وكان للأمير الناخب إيميريش

يوزف هيئة جميلة على متن الحصان، فقد كان رجلا رزينا حسن القد والشمائل. أما الرجلان الآخران فلا أذكرهما إلا قليلا، لا أذكر إلا أنهما كانا يلبسان معطفين من المعاطف الأميرية الحمراء الموشاة بفراء القاقم التى لم نكن قد رأيناها إلا فى اللوحات المرسومة، فما رأيناها أمامنا حتى حسبناها شيئا غارقًا فى بحور الرومانتيكية. كذلك نعمت أبصارنا بالنظر إلى سفراء الأمراء الدنيويين[١٢٩] الذين كانوا يلبسون الثياب الإسبانية المصنوعة من القصب، والموشاة بالذهب، والمطرزة فى ثراء بأهداب ذهبية مشغولة أو مجدولة، وكانت الرياش البديعة تختلج على نحو رائع فوق القبعات العتيقة التى رُفعت حوافها إلى أعلى. أما الشىء الذى لم يعجبنى على الإطلاق فتلك السراويل القصيرة الحديثة، والجوارب البيضاء الحريرية والأحذية الحديثة. وكنا نود أن نرى أحذية برقبة متوسطة، مذهبة، تسر لها الأعين، أو صنادل أو ما شابهها من أحذية تناسب الأزياء فى مجموعها؟

وكان السفير فون پلوتو مختلفًا فى مسلكه عن الآخرين جميعًا، فقد بدا كثير الحيوية والبشاشة لا يحفل كثيرًا بالمراسم، فما رأى أن الرجل الذى سبقه فى الدور، وكان متقدمًا فى السن، لم يستطع أن يمتطى صهوة الحصان فى الحال، مما اضطره إلى الانتظار فترة بالمدخل الكبير، حتى ضحك، ولم يستطع أن يكتم ضحكه حتى أتوه بحصانه فاتخذ مكانه على متنه بحركة رشيقة كل الرشاقة، وأعجبنا به ورأينا فيه سفيرًا جديرًا بفريدريش الثانى.

ونزل الستار بالنسبة لنا مرة أخرى. وبذلت ما استطعت من جهد لأنفذ إلى داخل الكنيسة وسط الزحام، فوجدت من العناء أكثر مما وجدت من البهجة. وخلا الناخبون إلى أنفسهم فى قدس الأقداس حيث حلت المراسم المطولة محل التفكير المتأنى فى الانتخاب، وبعد انتظار طويل وهرج ومرج سمع الشعب أخيرًا اسم يوزف الثانى ينادى به ملكا رومانيًا.

وتزايد ورود الأجانب على المدينة، يركبون العربات، أو يسيرون على أقدامهم، يلبسون الثياب البراقة التى كثرت حتى إننا لم نعد نلتفت إلا إلى الثياب الموشاه كلها بالذهب.

وكان الإمبراطور والملك قد نزلا فى (هُويزنشتام) وهو قصر نبلاء شونبورن، حيث تلقوا التحية والترحيب طبقًا للتقاليد. وأقامت المدينة بهذه المناسبة الهامة حفلات دينية شاركتْ فيها الأديان قاطبة بصلوات خاصة وعظات، وانطلقت من الجانب الدنيوى المدافع بدون انقطاع وكأنها كانت تمثل مصاحبة للنشيد الـديني "تى ديوم"(١٣٠).

وإذا كنا لننظر إلى الاحتفالات العامة منذ البداية إلى الآن إلى نظرتنا عمل فنى قائم على التدبير والتفكير، فإننا لا نجد كثيرًا نأخذه عليها، فقد تم الإعداد الجيد لكل شيء، وبدأت الاحتفالات العامة متئدة ثم تزايدات أنشطتها شيئًا فشيئًا، وزادت أعداد الناس، وكثرت الشخصيات العظيمة الجلية، وامتد نطاق الزينة والأبهة إلى الكبراء ومن حولهم، وهكذا كان كل شيء فى اذدياد مستمر، يومًا بعد يوم، حتى إن العين مهما تهيأت واستعدت كانت تجد دائمًا ما يبهرها.

كان موكب أمير ماينتس الناخب، الذى امتنعنا عن وصفه تفصيلاً منذ حين، موكبًا رائعًا مهيبًا جديرًا بأن يبقى فى ذاكرة الإنسان دالا على وصول ملك من ملوك الدنيا العظام شهدت له النبوءات بالرفعة. كذلك نحن بهرنا موكبه كما بهر الآخرين. لذلك اشتد شوقنا إلى أقصى حد عندما علمنا أن القيصر والملك القادم يقتربان من المدينة، وكانت خيمة قد نصبت على مسافة من زاكسنهاوزن، وأقام فيها أعضاء المجلس جميعا، وانتظروا هناك ليقدموا لرئيس الرايخ الاحترام الواجب والتبجيل الفائق ويسلموه مفاتيح المدينة. وعلى مسافة أخرى فى الهضبة الفسيحة الجميلة نصبت خيمة رائعة أخرى اجتمع فيها الأمراء الناخبون والسفراء الممثلون للأمراء فى الانتخاب حتى يكونوا جميعًا فى استقبال الإمبراطور والملك، وكانت حاشياتهم تشغل الطريق بطوله، اصطفت هناك بترتيب حتى تعود الواحدة بعد الأخرى إلى المدينة، عندما يتحرك الموكب، وتكون فى مكانها الموسوم. وتقدم الإمبراطور إلى الخيمة، ودخلها، ونعم فيها باستقبال كريم، واستأذن الأمراء الناخبون والسفراء ليفتحوا للرئيس الأعلى الطريق طبقا للمراسم.

أما نحن الذين بقينا فى المدينة حتى نتمتع بهذه الروعة بين الجدران وفى الطرقات أكثر مما كان يمكن أن يتاح لنا فى الخلاء، فقد تسلينا بالطابور الذى صنعه المواطنون عبر الحارات، وبتزاحم العامة، وبألوان المزاح والعبث التى كانت تحدث فى مثل هذه الظروف، حتى أعلمتنا دقات الأجراسُ وطلقات المدافع بقرب وصول الملك. أما ما أثلج صدر المواطن الفرنكفورتى على نحو خاص فكان إحساسه فى هذه المناسبة، وفى وجود كل هؤلاء الملوك وممثلهم، بأن المدينة الإمبراطورية فرنكفورت دولة صغيرة ذات سيادة هى الأخرى، لأن رئيس الخيَّالة فيها افتتح الموكب، وسارت من خلفه خيول تجللت بجُلل مزدانة بالشعار الجميل وهو نسر أبيض على أرضية حمراء، ومن خلفهم السياس والعمال، وحملة الطبول والنفافير، ومندوبو المجلس، والحجاب يسيرون على أقدامهم وهم يرتدون الزى الرسمى. ثم تقدمت الفرق الثلاث للخيالة المدنية(١٣١)، يحسنون ركوب الجياد، ولقد عرفنا هؤلاء الخيالة منذ الصبا ورأيناهم فى مرافقة المواكب القادمة، وفى مناسبات عامة أخرى.

وهكذا نعمنا بالمشاركة فى هذا الإحساس بالكرامة وبجزء من مائة ألف جزء من السيادة التى تجلت الآن فى كامل سناها. وجاء الدور على تشكيلات مختلفة من حاشية المارشال الإمبراطورى الحسيب والسفراء الذين أتوا للانتخاب ممثلين لستة من الأمراء الناخبين الدنيويين، وساروا خطوة خطوة، ولم تكن الحاشية الواحدة تأتلف من أقل من عشرين من الخدم وعربتين رسميتين؛ ورب حاشية زاد عدد أفرادها وعرباتها عن ذلك كثيرًا. وانتظمت فى المواكب بعد ذلك حاشية الأمراء الناخبين الدينيين بأعداد متزايدة متعاظمة، لا يكاد الإنسان يستطيع أن يحصى الخدم والموظفين عددًا، وكان لأمير كولونيا الناخب عشرون عربة، ومثلهم لأمير ترير الناخب، أما أمير ماينتس الناخب وحده فضعف هذا العدد وكان الخدم، سواء منهم الراكبون أو الراجلون، يلبسون أفخر الثياب. وكذلك السادة فى العربات، سواء منهم الدنيويون أو الدينيون، قد حرصوا على أن يظهروا فى أبهى

هيئة وأقيم ثياب، وتحلوا بكل ما لديهم من أوسمة ونياشين. أما حاشية الإمبراطور فقد بزت الجميع كما ينبغى لها ويليق بها. وبهرت الأبصار بمعلمى الفروسية، والخيول المسحوبة، والسروج والحلل والأكسية، وبست عشرة عربة مطهمة يجر كلا منها ستة من الخيول أقلت رجال البلاط الإمبراطورى والوزراء وكبير الياوران ورئيس البلاط ورئيس الركائب، وعلى الرغم من روعتها فما كانت فى موضعها هذا من الموكب إلا مقدمة لما تلاها.

وزاد التحام الصفوف مع تزايد الأبهة والعظمة وظهر السفراء الموكلون بالانتخاب(١٣٢). والأمراء الناخبون بأشخاصهم، كل فى عربة رسمية حافلة، فى تتابع متصاعد بحسب الرتبة، ترافقهم نخبة مختارة من الخدم الخصوصيين أكثرهم مترجلون، وأقلهم راكبون، فلما مر موكب أمير ماينتس الناخب أعلن عشرة من الخواصين الإمبراطوريين، وواحد وأربعون من الشمشرجية وثمانية من الهايدوك(١٣٣) مقدم صاحبى الجلالة. وظهرت أروع عربة فى الموكب، كانت تتحلى بصور ورسوم، وزخارف باللاكيه والحفر والتذهيب، والقطيفة الحمراء الموشاة من الداخل والخارج، وتزدان من خلف بمرآة كبيرة من قطعة واحدة، ورأينا فيها بسهولة ويسر الإمبراطور والملك، الرئيسين العظيمين اللذين طال شوقنا إليهما، وأنعمنا النظر إليهما وهما فى أروع هيئة. ولقد سيروا الموكب فى طريق مطولة، لأن الضرورة كانت تفرض أن يتاح له مسافة يمتد فيها على راحته، وحتى يظهر للجمهور الغفير، وهكذا سار عبر زاكسنهاوزن ومن فوق الجسر، واجتاز فارجاسه، وهبط طريق تسايله، ثم مال إلى داخل المدينة من باب سانت كاترينا، وكان آنذاك بابا حقيقيًا من أبواب المدينة، ثم أصبح بعد توسيع المدينة معبرًا مفتوحًا(١٣٤). ومن الخير أنهم فكروا فى أن الأبهة فى الدنيا قد أخذت فى التزايد ارتفاعًا وعرضًا منذ بضع سنوات، وتبينوا بالحساب والقياس أن هذه البوابة التى مر من خلالها أكثر من أمير وإمبراطور من قبل، دخولا وخروجًا، لا تتسع الآن لمرور العربة الإمبراطورية الحالية دون الإضرار بما تتحلى به من زينات

محفورة في الخشب، وزخارف بارزة. ودارت المشاورات، واستقر الرأى على الانصراف عن تحويل المسار إلى طريق آخر متعب، ورُفع بلاط الطريق على جانبى البوابة، مما يتيح للعربة دخولا وخروجا سهلاً. كذلك قرروا للسبب نفسه إزالة المظلات الخارجية للمحلات والدكاكين من الشوارع حتى لا يصطدم بها التاج أو النسر أو جنِيات الزخارف فيصيبها التلف.

وعلى الرغم من أننا كنا نركز أبصارنا، كلما اقترب منا هذا الركب الثمين ومحتواه الثمين(١٣٥)، على الشخصيتين العظيمتين، فإننا لم نستطع أن نمنع أنفسنا من التطلع إلى الخيول البديعة وما عليها من سروج وجُلل مطرزة، ولفت نظرنا خاصة الرجلان العجيبان الجالسان على الخيل وهما سائق العربة، والخيَّال الأول، وكأنما كانا من أمة أخرى أو من عالم آخر. فقد لبسا قمصاناً من القطيفة السوداء والصفراء وقبعات تعلوها خصلات كثيفة من الريش على ما تجرى به تقاليد البلاط الإمبراطورى. وتزاحمت المشاهد الكثيرة حتى صعب على الإنسان تمييزها: الحرس السويسرى على جانبى العربة، المارشال الحسيب وفى يده اليمنى السيف السكسونى مشهورا، المارشالات على متون الجياد يقودون الحرس الإمبراطورى خلف العربة، نخبة من صبية النبلاء، ثم الحرس الخاص فى بزات من القطيفة السوداء لها رفرف على الطريقة الفرنسية وقد وشيت فى مواضع الخياطة بأشرطة مذهبة وفيرة، ومن تحتها قمصان حمراء وصدريات فى لون الجلد موشاة بالذهب فى وفرة وسخاء. ولقد استغرق كل منا فى النظر والتفسير والتلويح حتى صعب عليه التركيز وأوشك ألا يرى الحرس الخاص للأمراء الناخبين بثيابهم الرائعة، وكدنا أن ننصرف عن النوافذ ولا نرى أعضاء مجلسنا الذين ركبوا خمس عشرة عربة يجر كلا منها حصانان، خُتم بها الموكب، وكان فى العربة الأخيرة كاتب المدينة ومعه مفاتيح المدينة على مخدة من القطيفة الحمراء. وكان من رأينا أن قيام جنود المدينة بتغطية نهاية الموكب ينضوى على قدر كبير من التكريم، وكان لنا فى هذا اليوم المجيد ما نفخر به فخرا عظيما مزدوجا حيث إننا ألمان وفرنكفورتيون.

وكنا قد اتخذنا لنا مكانا في بيت يمر الموكب أيضًا عن عودته من الكنيسة، واستغرقت الصلاة وموسيقى الاحتفالات والخطب والردود والكلمات والمحاضرات فى الكنيسة والساحة والخلوة وقتا طويلا إلى أن حان موعد عهد الانتخاب، مما أتاح لنا تناول وجبة ممتازة وأن نشرب نخب العاهل القديم والعاهل الجديد ونفرغ عددًا من زجاجات النبيذ.

وتفرق بنا الحديث، كما يحدث فى مثل هذه الأحوال، وقادنا إلى الماضى، وكان هناك من المتقدمين فى السن من فضلوا الماضى على الحاضر على الأقل من ناحية الاهتمام الشخصى والمشاركة الوجدانية التى كانت لها الغلبة آنذاك. ولم يشهد تتويج فرانتس الأول مثل هذا التنظيم الذى شمل كل شيء، فلم يكن السلام قد تم الاتفاق عليه، وعارضت إمارة (براندنبورج) وإمارة (پفالتس) وفرنسا الانتخاب، ووقفت قوات الإمبراطور الوشيك عند هايدلبرج حيث كان قد اتخذ مقرًا لقيادته العليا، وأوشكت القوات البفالتسية أن تستولى على الشارات الإمبراطورية الآتية من مدينة (آخن)، ولكن المفاوضات كانت جارية فى تلك الأثناء، ولم تكن الحرب بالنسبة إلى الجانبين أمرًا بالغ الخطر. وأتت ماريا تيريزيا[١٣٦] بنفسها، على الرغم من أنها كانت فى شهور الحمل المتقدمة، لتشهد تتويج زوجها بعد التغلب على ما طرأ من صعاب، ووصلت إلى أشنبورج، وركبت هناك يختا ليقلها إلى فرنكفورت، وقرر فرانتس أن يأتى من هايدلبرج لملاقاة زوجته، ولكنه تأخر. وكانت قد رحلت بيختها منذ حين، فرمى بنفسه إلى قارب، دون أن يعرف أحد من هو، لندفع نحو اليخت حتى لحق به، وسعد الحبيبان بهذا اللقاء الذى تحقق كالمفاجأة. وانتشرت القصة توًا بين الناس وخفقت القلوب مع هذين الزوجين المتحابين اللذين أوتيا الكثير من الأولاد، واللذين ظلا معًا لا ينفصلان حتى إنهما قضيا معًا فى الطريق من ڤيينا إلى فلورنسا فترة الحجر الصحى على حدود البندقية.

واستقبل الجمهور ماريا تيريزيا بالتهليل والترحاب، ودخلت حانة "الملك الرومانى" فى الوقت الذى نصب فيه سرادق عظيم فى مرج بورنهايم لاستقبال

زوجها. ولم يكن قد أتى من الأمراء الدينيين إلا أمير ماينتس، ومن سفراء الأمراء الدنيويين إلا سفراء ساكسونيا وبوهيميا وهانوفر. وبدأ الموكب، وعوض ما اعتوره من نقص فى العدد وتقصير فى الأبهة، حضور هذه المرأة الحسناء، تعويضا عظيما. ووقفت فى بلكونة المبنى، بموقعه الممتاز وحيّت زوجها هاتفة بحياته ومصفّقة، وشاركها الشعب بحماس بالغ. والعظماء على أية حال بشر، وإذا آن للمواطن العادى أن يحبهم، فإنه يتصورهم على حاله، ويرى فيهم زوجين متحابين، ووالدين رفيقين عطوفين، وأخوين متآلفين وصديقين مخلصين. ولقد تمنى الناس فى ذلك الحين الخير وتوقعوه، وتحققت النبوءة اليوم فى الابن الأكبر الذى أحبه الناس لجمال طلعته وعلقوا عليه الآمال الكبار لما أبدى من عظيم الخلال.

تُهنا إذن فى الماضى والمستقبل حتى ردنا إلى الحاضر نفر من الأصدقاء دخلوا علينا حيث كنا، وكانوا من النوع الذى يقدر قيمة الخبر الجديد فهو يسارع ليكون أول من يبلغ به وحملوا إلينا نبأ عن سمة إنسانية حلوة اتسم بها هؤلاء العظماء الذين رأيناهم لتونا يمرون فى أبهة هى أعظم أبهة. وكان الاتفاق قد تم على أن يلتقى الإمبراطور والملك فى الطريق بين هويزنشتام والسرادق الكبير بشريف دارمشتات[١٣٧]، وكان هذا الشريف الهرم الذى أصبح على شفا القبر حريصًا على أن يرى مرة أخرى ذلك السد الذى أخلص له فيما مضى من أيام. وربما تذكر الرجلان ذلك اليوم الذى حمل فيه شريف دارمشتات إلى هايدلبرج مرسوم الأمراء الناخبين بانتخاب فرانتس إمبراطورًا، وتلقى فيه الهدايا الثمينة مؤكدًا أنه سيظل على مر الأيام الوفى المخلص الذى لا ينال من وفائه وإخلاصه شىء. ووقف الرجلان الجليلان فى موضع تكاثفت فيه أشجار التنوب، واستند شريف دارمشتات إلى شجرة صنوبر، وقد أضنته السنون، حتى يطيل الحديث الذى اتصل بين الجانبين ولم يخل من تأثر وعلموا الموضع على نحو ساذج فيما بعد، وذهبنا إليه نحن الشباب بضع مرات.

وقضينا الساعات نذكر الماضى ونقدِّر المستقبل حتى عاد الموكب مرة أخرى يتحرك كالموج أمام عيوننا، وإن قصر واندمجت فقراته. وأتيحت لنا الفرصة لننظر إلى التفصيلات ونحفظها فى ذاكرتنا للمستقبل.

وأصبحت المدينة منذ تلك اللحظة فى حركة لا تنقطع، فقد توجه كل من كان لهم الحق أو كان عليهم واجب زيارة الإمبراطور والملك إلى مقرهما، واحدًا واحدًا للتحية، وأتيح لنا أن نتفحص على راحتنا من جديد حاشية كل واحد، فى حركة الذهاب والإياب التى لم تنته إلى نهاية.

واقتربت شارات الإمبراطورية، ولم يخل أمرها من المشكلات التقليدية، وبقيت نصف اليوم فى الخلاء حتى أظلم الليل، فقد ثار خلاف على حق المرافقة والحدود الإقليمية بين إمارة ماينتس والمدينة، وتنازلت المدينة، ورافقت القوات المايننسية الشارات حتى خشبة الحدود، وانتهى الموضوع إلى هذا الحد فى هذه المرة.

لم أستطع فى هذه الأيام أن أخلو إلى نفسى فقد كان علىّ أن أقوم فى البيت بالكتابة والاستنساخ، وفى خارج البيت كنت أريد، بل كان ينبغى علىّ، ان أشاهد كل شىء. وهكذا انقضى شهر مارس وكان نصفه الأخير بالاحتفالات. وكنت قد وعدت جريتشن بأن أقدم إليها شرحًا دقيقًا وتفصيليًا لما حدث فى الفترة الأخيرة ولما ينتظر أن يجرى يوم الانتخاب واقترب اليوم العظيم، وكنت قد تصورت كيف سيكون حديثى إليها أكثر مما تصورت ما سأقوله لها، وراجعت كل ما رأته عينـــاى، وكـــل مـــا مر من تحت ريشتى فى خدمة المستشارية مراجعة سريعة لا لشىء إلا لهذه المهمة الوشيكة. وأخيرًا بلغت منزلها ذات مساء فى ساعة متأخرة إلى حد كبير، وكنت أمنى نفسى مقدمًا بأن محاضرتى هذه ستكون أفضل من محاضرتى السابقة التى ارتجلتها آنذاك. إلا أن الإنسان كثيرًا ما يجد فى لحظة بلا إعداد فرحة أعظم مما يجدها عن تدبير وتقدير وتصميم. وكانت الجماعة التى وجدتها مجتمعة شبه - إلى حد كبير - الجماعة المألوفة، وإن انضم إليها رفاق لا

أعرفهم. وجلسوا جميعا يلعبون، إلا جريتشن وابن العم الأصغر جلسا إلىّ وإلى لوحة الأردواز. وعبّرت البنت الحبيبة عن ارتياحها بعبارة لطيفة، فقد اعتبروها فى يوم الانتخاب مواطنةً، وشهدت هذا الحدث الفريد. وشكرتنى أجزل الشكر على اهتمامى بها وإتاحة الفرصة لها عن طريق پيلادس للدخول إلى أماكن كثيرة بما دبرته من تذاكر وتوجيهات وتوصيات وعلاقات بأصدقاء.

وكانت تحب ما يصل إلى مسامعها من حديث عن جواهر الإمبراطورية(١٣٨). فوعدتها بأن نذهب معًا إن أمكن، لمشاهدتها، وألقت ببعض الملحوظات المازحة عندما سمعت أن الملك الشاب ألبسوه على سبيل التجربة الثياب والتاج، وكنت أعرف المكان الذى ستنتظر منه إلى احتفالات يوم التتويج، فلفت نظرها إلى كل ما سيمكنها أن تراه من مكانها بدقة.

وهكذا نسينا أن نفكر فى الوقت. فقد مر منتصف الليل، وتبينت أننى لسوء الحظ لم آخذ معى مفتاح البيت فلم يكن فى مقدورى أن أدخل البيت دون أن احدث ضجة هائلة. وحدثتها بحيرتى فقالت:

- الأفضل أن تبقى الجماعة معًا.

وكان أبناء العم وصحبهم الغرباء قد فكروا نفس الفكرة؛ لأنهم لم يجدوا مكانًا يبيت فيه هؤلاء. وهكذا قضى الأمر. وذهبت جريتشن لتعد القهوة، وكانت قد أحضرت مصباحًا نحاسيًا كبيرًا، جهزته بالزيت والشريط، وأشعلته، لأن الشموع كانت قد أوشكت على الذوبان.

وأعانت القهوة على اليقظة بضع ساعات، ثم ما لبث اللعب أن خبا وفرغ الحديث. أما الأم فنامت فى الكرسى الوثير، وأما الغرباء فقد نعسوا هنا وهناك وقد أرهقهم ما تحملوه من وعثاء السفر، وجلس پيلادس وجميلته فى ركن، وأسندت هى رأسها إلى كتفه ونامت، كذلك هو لم يظل مستيقظًا لوقت طويل. وعقد ابن العم الأصغر ذراعيه على مائدة الأردواز فى مواجهتنا، ووضع وجهه عليهما ونام. أما

أنا فجلست فى ركن النافذة وبجانبى جريتشن وأخذنا نتكلم بصوت خفيض، وأخير غلبها النعاس فركنت رأسها على كتفى ونامت من فورها. وهكذا بقيت وحدى يقظا فى أعجب وضع، وجاء أخو الموت اللطيف(١٣٩) فحمل إلىّ السكينة، ونمت. فلما استيقظت كان النهار قد طلع منذ حين. وكانت جريتشن تقف أمام المرآة لتعدل قبعتها الصغيرة، وكانت لطيفة على نحو يفوق لطفها من قبل، فلما هممت بالانصراف صافحتنى وضغطت يدى بعاطفة جياشة. وسلكت طريقًا مطولا متسللا إلى البيت، لأن أبى كان قد فتح طاقة فى الحائط ناحية الهيرشجرابن الصغير رغم معارضة الجيران، وكنا إذا أردنا ألا يلحظنا عند العودة إلى البيت نتحاشى هذه الناحية.

وكانت أمى تتدخل لصالحنا، فلما لاحظت غيابى صباحًا على مائدة الإفطار عند تناول الشاى، أصلحت الموقف مدعية أننى خرجت مبكرًا فى الصباح. وهكذا لم ينجم عن هذه الليلة البريئة شىء.

والحق أن هذا العالم المنوع غاية التنوع الذى كان يحيط بى لم يكن يحدث فىَّ إلا انطباعًا هينًا، فلم أكن أهتم بشىء سوى ملاحظة ظاهر الأشياء فقط، ولم يكن لدى من عمل إلا ما كان أبى والسيد فون كونيجستال يكلفانى به وكان يتيح لى بداهة إدراك ما يجرى فى أعماق الأشياء. ولم يكن بى ميل إلا إلى جريتشن ولم يكن عندى هدف سوى أن أرى كل شىء جيدًا وأفهمه حتى أحكى لها ما رأيت وأشرح لها ما فهمت. بل إننى كنت عندما يمر بى موكب أصفه لنفسى بصوت خفيض حتـــى أطمئن إلى أننى أحطت بكل التفصيلات وإلى أن جميلتى ستمدحنى لانتباهى ودقتى. أما استحسان وإعجاب الآخرين فكنت اعتبره بمثابة شىء إضافى.

والحق أننى قُدمت إلى عدد من العظماء والكبراء، ولكن الناس – من ناحية – ليس لديهم وقت ليهتموا بالآخرين، والكبار – من ناحية ثانية – كثيرًا ما لا يعرفون كيف يتحـدثون بغيــر تدبيــر إلى إنسان شاب، ويختبرونه. وكنت عادة أنال حظوة ولا ألقى استحسانا. وكان الموضوع الذى يشغلنى يملك على نفسى، فلا أسأل هل يمكن

أن يكون على هوى الآخرين. وكنت فى أغلب الأحيان إما مفرط الحيوية أو مفرط السكون، أبدو لحوحًا أو بليدًا بحسب الناس، إذا جذبونى أو نفرونى، وكان الناس يجدوننى واعدًا، ويجدوننى فى الوقت نفسه غريب الأطوار.

وأشرقت أخيرًا شمس يوم التتويج فى الثالث من أبريل عام ١٧٦٤، وكان الجو مواتيا، والجميع فى حركة. وخصص لى مع مجموعة من الأقارب والأصدقاء فى الرومر نفسه فى دور من الأدوار العلوية مكان جيد نستطيع أن نتطلع منه ونرى كل شيء على أكمل وجه. وذهبنا إلى هذا المكان مبكرين غاية التبكير ونظرنا من أعلى، من منظور الطير، إلى الترتيبات التى كنا قد رأيناها قبل ذلك بأيام عن قرب. رأينا النافورة التى أقيمت حديثًا، بحوضين كبيرين يمينًا ويسارًا، ونسر مزدوج على قاعدة، لينساب من أحد المنقارين نبيذ أبيض إلى هذا الحوض ومن المنقار الآخر نبيذ أحمر إلى الحوض الأخر. وكُوِّم الشوفان كومة هناك، وأقيم هنا كوخ كبير من الخشب رأينا الثور السمين فيه بكامله على سيخ ضخم ينضج منذ أيام على نار الفحم.

وكانت كل الطرق المؤدية إلى الرومر والمنطلقة من الرومر قد أقفلت من الجانبين بحواجز، وأمنت بحراس. وامتلأ الميدان الفسيح شيئًا فشيئًا، وزاد الهرج والمرج تدريجيًا، واشتد الزحام لأن الجمهور كان يسعى قدر الطاقة إلى المكان الذى يحدث فيه شيء جديد أو يعلن فيه عن شيء خاص.

كان السكون يخيم بدرجة كبيرة فى أثناء هذا كله، فلما دق الجرس بدا الشعب كله وكأنما تملكته رجفة ودهشة. أما ما جذب انتباه كل الناظرين من أعلى إلى الميدان من تحتهم فكان أولا الموكب الذى خرج فيه أميرا آخن ونورنبرج لينقلا جواهر الرايخ إلى الكنيسة وكانت هذه الجواهر قد اتخذت مكانها الممتاز فى العربة وكأنها مقدسات واقية من كل شر، وجلس النائبان على المقعد الخلفى يتطلعان إليها فى إجلال وإكبار. وهاهم أولاء الأمراء الناخبون الثلاثة يتوجهون إلى الكنيسة. وما أن يتم تسليم الشارات إلى إمارة ماينتس حتى يؤخذ التاج والسيف إلى المقر الإمبراطورى[١٤٠]. وفى هذه

الأثناء تشغل الاستعدادات الأخرى والاحتفالات المختلفة الشخصيات الرئيسية والمشاهدين فى الكنيسة، كما يمكننا أن نتصور نحن العليمين ببواطن الأمور.

ثم انطلقت العربات بالسفراء أمام عيوننا إلى الرومر وحمل الضباط المظلة منه إلى المقر الإمبراطورى، وامتطى المارشال الحسيب البارون فون بابنهايم صهوة حصانه، وكان رجلا معتدلا القد، حسن الطلعة، تناسبه البزة الإسبانية، والصديرى القيم والمعطف المذهب والقبعة العالية ذات الريش وجدائل الشعر الهفهافة. وتحرك، وانطلقت من خلفه، وسط دقات الأجراس، جياد السفراء إلى مقر الإمبراطور فى أبهة أروع من أبهة يوم الانتخاب. وكم تمنى الإنسان أن يكون هناك عندما يصل فيراه! بل كم تمنى فى ذلك اليوم أن يتعدد حتى يكون فى أماكن مختلفة فى وقت واحد! وتحاكينا عما سيجرى هناك فقلنا:

– سيلبس الإمبراطور البزة الرسمية، وهى بزة جديدة صنعت طبقًا لنموذج كارولينجى[١٤١] عتيق وسيتلقى الكبراء من أولى الحسب شارات الرايخ ويركبون بها الجياد ويركب القيصر وقد لبس بزته الرسمية جواده، ويركب الملك الرومانى وقد لبس بدلة إسبانية جواده أيضًا، وبينما هذا يحدث، ينبئنا به مقدم الموكب اللانهائى.

لقد تعبت العين من طول النظر إلى هذه الأعداد الغفيرة من الخدم بأزيائهم الغنية، ومن الموظفين بكسواتهم الثمينة والنبلاء العظام بخطواتهم المهيبة. فلما ظهر السفراء الموكلون بالانتخاب، وجاء الكبراء أصحاب المناصب الوراثية، ومن تحت المظلة المطهمة التى حملها اثنا عشر من المحلفين والمستشارين، بدا الإمبراطور فى ثيابه الرومانتيكية[١٤٢] وعن يساره، إلى الخلف قليلا، ابنه فى ثياب إسبانية، يخطو بهما جوادان مزينان بأروع زينة، وكأنهما يهيمان بهما أو يحلقان، أحست العين أنها عاجزة عن الإحاطة بكل ما يمثل أمامها. وكم تمنى الإنسان أن يقول جملة سحرية يوقف بها هذا المشهد، ويربطه بالأغلال حتى يبقى ولا يتحرك، ولكن الروعة تحركت، لا يقدر ردها أحد، ثم اندفعت الجماهير الغفيرة فملأت المكان الذى خلا لتوه.

ونشأ زحام جديد، فقد بات من الضرورى إعداد ممر آخر من السوق إلى باب الرومر، وإنشاء جسر من الألواح الخشبية ليمر عليه الموكب الخارج من الكنيسة فى طريق عودته.

أما ما جرى فى الكنيسة من مراسم احتفالية لا نهائية، مهدت للمسح بالزيت والتتويج والرسامة وصحبتها، فقد سمعنا قصته من أولئك الذين ذهبوا إلى الكنيسة، وضحوا فى سبيل ذلك بأشياء أخرى.

وتناولنا نحن فى أماكننا وجبة خفيفة من الطعام البارد، رضينا بها فى هذا اليوم الذى شهدنا فيه أروع احتفال، ولكننا شربنا أفخر نبيذ وأعتقه حملوه إلينا من قباء الأسر التى فتحت كلها أبواب أفضل ما لديها من مخزون عتيق، مما أتاح لنا على الأقل من هذه الناحية أن نحتفل على نحو عتيق بعيد عتيق.

وارتسم فى الميدان أطرف منظر رأته العين وهو الجسر الذى غطى بقماش أبيض وأصفر وأحمر، وتهيأنا نرى الإمبراطور – الذى أعجبنا به من قبل جالسًا فى العربة ثم ممتطيًا صهوة حصانه – وهو يسير الآن على قدميه، والغريب أننا ابتهجنا بصورته الأخيرة أعظم الابتهاج لأن السير على الأقدام لاح لنا أقرب إلى الطبيعة وأكثر جلالا .

وحكى بعض الذين يكبروننا سنًا ممن أتيح لهم أن يشهدوا تتويج فرانتس الأول القصة التالية: كانت ماريا تيريزيا جميلة جمالاً يفوق المألوف، وقد شهدت حفلة التتويج المذكورة من شرفة فى دار فراونشتاين المجاورة للرومر، فلما عاد زوجها من الكنيسة مرتديًا الملابس العجيبة التى تشبه ملابس التنكر، ولاح لناظريها كأنه شبح شارلمان، رفع يديه إلى أعلى مازحًا مبينًا لها تفاحة الرايخ والصولجان والقفازين العجيبين، انفجرت ضاحكة لا تكاد تستطيع أن تكف عن الضحك، ووجدت الجماهير المحتشدة كلها فى هذا الضحك ما أبهجها غاية البهجة وما علّمها درسًا عظيمًا. فقد رأوا بأنفسهم شاهدا على علاقة زوجية طيبة وطبيعية تربط بين ملك وملكة هما أرفع ملوك

المسيحية شأنا، وقدروا ما رأوا أعظم التقدير؛ فلما همت الإمبراطورة بتحية زوجها ولوحت له بمنديلها و هتفت بحياته، زاد حماس الجماهير وتهليلها إلى أقصى حد وظلت تصيح صيحات البهجة لا تكاد تكف عنها.

وأعلن رنين الأجراس وطلائع الموكب الطويل الذى اجتاز الجسر المزركش بخطى رفيقة أن الحفل قد انتهى، وزاد انتباهنا عن ذى قبل، وزاد الموكب فى أعيننا وضوحًا لأنه كان مقبلاً علينا. وكشفنا ما يمكن أن يكون تخطيطًا له وللميدان الذى غص بالبشر وتركزت الأبهة فى النهاية تركيزًا شديدًا، فقد بدا السفراء وأصحاب المناصب الوراثية والإمبراطور والملك تحت المظلة والأمراء الناخبون الدينيون الثلاثة الذين لحقوا بهما، والمحلفون والمستشارون فى ثيابهم السوداء، والمظلة التى لاحت كأنها سماء مطرزة بالذهب، بدا هذا كله على هيئة كتلة واحدة تحركها إرادة واحدة فى انسجام رائعٍ، وتلُوحِ، وقد خرجت من المعبد لتوها بين دقات الأجراس كأنها شىء مقدس يبث نحونا ضياه.

والحفل السياسى الدينى له فتنة لا تنتهى عند حد، ولقد رأينا صاحب الجلالة الدنيوية أمام أعيننا تحوطه كل رموز السلطة، فإذا انحنت الجلالة الدنيوية أمام الجلالة الإلهية بينت لأفهامنا ما بينهما من علاقة لأن الإنسان لا يمكنه أن يُفَعِّلَ ما بينه وبين الذات الإلهية من علاقة إلا عن طريق واحد وهو أن يخضع لها ويعبدها.

وانتشر التهليل القادم من ناحية السوق وعم الميدان كله ودوت كلمة "يعيش" جياشة صادرة عن آلاف وآلاف من الأفواه، ومن القلوب أيضًا بلا شك، ذلك أن هذا الحفل قصد به أن يكون ضمانًا للسلام الدائم الذى أسعد ألمانيا فعلاً أعوامًا طوالاً.

وكان المنادى الرسمى قد أعلن منذ أيام عِدَّة أن الجسر والنسر فوق النافورة لن يسلما إلى الجماهير، وأنهما لا ينبغى أن يمسَّا، وجاء هذا الإعلان للحيلولة دون قيام السوقة بما لا يحمد عقباه إلا أن المدينة رأت أن تقدم ما يشبه القربان إلى روح السوقة، فكلفت رجالا معينين بالسير وراء الموكب ورفع قماش الكسوة من فوق الجسر، وضمه

معا ثم قذفه فى الهواء ولم يؤد هذا إلى أحداث مؤسفة، وإن أصاب البعض بما أثار الضحك، لأن لفافة القماش عندما انتشرت فى الهواء وهوت غطت أعدادًا قليلة أو كثيرة من الناس، وأمسك من وقعت عليهم الأطراف نهايات القماش وشدوها، فقلبوا الواقفين فى الوسط وحجبوهم وظلوا يضايقونهم حتى استطاع هؤلاء أن يشقوا لأنفسهم فى القماش مخرجًا، بآلة حادة أو باليد، وسعى كلٌّ بطريقته إلى أن يأخذ معه قصاصة من هذا النسيج الذى باركه أصحاب الجلالة بنعالهم.

ولم أطل النظر إلى هذا اللهو الصاخب بل أسرعت من مكانى العالى، فهبطت العديد من السلالم وتسللت من خلال العديد من الدهاليز حتى وصلت إلى سلاملك الرومر الكبير الذى رأيت الحشد الجليل الرائع، الذى هلل له الناس من بعيد، يتأهب ليرتقيه. ولم يكن الزحام شديدًا، لأن الحراسة التى فرضت على منافذ المجلس كانت جيدة؛ ووصلت بسلام إلى الطرف العلوى من الدرابزين المصنوع من الحديد، وهكذا مرّ بى العظماء والكبراء، وبقى أفراد الحاشية فى الدهاليز السفلية، واستطعت أن أنظر إليهم من كل جانب وهم يصعدون إلى البسطة الأولى، ويدورون إلى البسطة الثانية ثم من بعدها إلى البسطة الثالثة، حتى أصبحوا أمامى، فتأملتهم عن كثب.

وأخيرًا صعد صاحب الجلالة الإمبراطور وصاحب الجلالة الملك، وكان الأب والابن يلبسان النمط نفسه من الثياب، وكأنهما توأمين أو فولة انقسمت إلى اثنتين، ولفتت النظار بزة الإمبراطورة الحريرية بلونها القرمزى، وتطريزها القيم الوفير باللآلئ والأحجار الكريمة، وكذلك التاج، والصولجان وتفاحة الرايخ، فقد كان كل شيء فيها جديد، وكان تقليد تراث العصور القديمة يتسم بحسن الذوق. كان الإمبراطور يتحرك فى بزته بسهولة لا تكلف فيها، وكان وجهه الجليل المفعم بالأمانة والإخلاص يدل على صاحبه إمبراطورًا وأبًا فى وقت واحد، أما الملك الشاب فكان مضطربًا فى قطع الثياب الفظيعة المحلاة بجواهر شارلمان، وكأنما كان فى ثياب تنكرية حتى إنه كان ينظر بين الفينة والفينة إلى أبيه، ولا يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسام، وكان التاج يمتد إلى الأمام شبيها بسقف بارز، وكان الأحرى بالصناع أن يبطنوه حتى يستقر

على الرأس فى الوضع اللائق وعلى الرغم من أن الدالماتيكا والاستولا[١٤٣] قد جربا من قبل، وثبتتا بالخياطة، فلم يكن منظرهما ملائمًا على الإطلاق. وعلى الرغم من أن الصولجان وتفاحة الرايخ قد أثارا الإعجاب، فإننا لم نستطع أن ننكر أنه كان الأفضل أن يزينوا البزة بحلية مناسبة أكبر حجما حتى يتحقق تأثير لائق فى مجموعه.

وما كادت أبواب القاعة الكبيرة تنقفل وراء هذه الشخصيات، حتى أسرعت إلى مكانى الذى كان آخرون قد احتلوه، ولم استرده منهم إلا بشق الأنفس.

وكان ذلك هو الوقت المناسب للعودة إلى مكانى بالنافذة، فقد أوشك أهم حدث علنى يمكن ان تراه الأعين أن يبدأ، كان الشعب قد اتجه كله إلى الرومر وهتف بحياة الإمبراطور والملك مرة أخرى، دلالة على أن الإمبراطور والملك قد خرجا إلى شرفة القاعة الكبيرة وهما فى الثياب الرسمية، ولكنهما لم يؤديا وقائع المشهد وحدهما، فقد جرى أمامهما مشهد فريد[١٤٤]، إذ قفز المارشال الحسيب بقده الممشوق الجميل فوق ظهر حصانه. كان قد امتشق سيفه، وأمسك فى يمينه بمكيال فضى له مقبض، وفى شماله مقشطة، وجرى بين الحواجز إلى كومة الشوفان الكبيرة، فاندفع إليها، وملأ المكيال حتى فاض، ثم مسح عليه بالمقشطة وعاد به فى مهابة وجلال: هكذا حصلت حظائر الإمبراطور على زادها واندفع الياور الحسيب على النحو نفسه إلى الموضع نفسه وعاد ومعه طست وإبريق وفوطة، ووجد الجمهور متعة أكبر فى النظر إلى معلم الفروسية الحسيب وقد عاد بقطعة من الشواء، وكان قد سار ممتطيًا صهوة حصانه بين الحواجز يحمل صحنًا فضيًا حتى وصل إلى المطبخ المقام من ألواح خشبية، ودخله ثم خرج بعد برهة بصحنه وقد مُلئ وغُطى، ويمم شطر الرومر وجاء الدور على الساقى الحسيب الذى اتجه بجواده إلى النافورة وأتى بالنبيذ وهكذا اكتملت المائدة الإمبراطورية. وتركزت الأبصار على الحسيب أمين الخزانة الذى جاء موعد نثره النقود، فامتطى، هو أيضًا صهوة حصانه الجميل الذى ركب على جانبى سرجه، بدلا من حمالات الطبنجات، كيسان مطرزان عظيمان رُسم، عليهما شعار البفالتس، وما كاد يتحرك حتى مد يده إلى هذين الكيسين وأخذ ينثر منهما بسخاء، ذات اليمين وذات

الشمال، عملات فضية وذهبية كانت تبرق فى الهواء كمطر من المعدن، تبتهج له النفوس، وكانت آلاف الأيدى تنتفض فى كل لحظة وترتفع إلى أعلى لتتلقف النفحات، فإذا سقطت النقود على الأرض أخذت الجماهير تتلوى فى زحامها كأنها تحتفر لنفسها مكانا لتصل إلى الأرض، وتصارع صراعًا عنيفًا من أجل الحصول على ما يكون عليها من فضة أو ذهب. ولما كانت هذه الحركة تتكرر على الجانبين كلما تقدم ناثر المال، فقد وجد المتفرجون أمامهم منظرًا ابتهجوا له أشد الابتهاج، ووصل الهرج إلى منتهاه، عندما ألقى الحسيب الكيسين، وسعى كل واحد إلى الإمساك بالجائزة الكبرى النهائية.

ودخل صاحبا الجلالة تاركين الشرفة، وجاء دور تقديم ضحية[٤٤١] إلى العامة الذين كانوا فى مثل هذه الأحوال يفضلون أن يحصلوا عليها غصبا على أن تقدم إليهم فينالوها شاكرين. وكان المألوف فى الأزمان الصاخبة أن يترك للعامة الشوفان بعد أن يأخذ منه المارشال الحسيب نصيبه، وأن تترك لهم النافورة بعد أن ينصرف عنها الحسيب الساقى، ويترك لهم المطبخ بعد أن يبرحه الحسيب معلم الفروسية، أما فى هذه المرة فقد أخذت المدينة بالنظام والاعتدال قدر المستطاع حتى لا يحدث مالا يحمد عقباه. ولكن ألوان المزاح المختلط بالتشفى والنقمة التى كانت مألوفة فى الماضى عادت فى هذه المرة أيضًا، فإذا ملأ أحدهم جوالا من الشوفان أحـدث فيــه آخر شقًا أو خرقًا، وما إلى ذلك من ألوان المزاح. ودار حول الثور المشوى صراع عنيف فى هذه المرة أيضًا، وكان الهدف هو الحصول عليه كاملاً، ودخل الصراع اتحادان، اتحاد الجزارين واتحاد شيالى النبيذ كل اتحاد يريد الحصول على الشواء الهائل كاملاً ووقف كل طرف وقفته التقليدية، وكان الجزارون يرون أن لهم الحق الأوفى فى الحصول عليه لأنهم هم الذين قدموه إلى المطبخ قطعة واحدة، أما شيالو النبيذ فطالبوا به لأن المطبخ أقيم بجوار مقر اتحادهم، ولأنهم هم الذين حصلوا عليه المرة الأخيرة، ولقد وضعوا القرون فى شباك السطح بمقر اتحادهم واجتماعاتهم تراها الأبصار شاهدًا على فوزهم به آنذاك. وكان هذان الاتحادان كثيرى الأعضاء، وكان المنتمون إليهما من أولى القوة والهمة والنشاط، ولا أذكر الآن من الذى فاز بالثور المشوى فى هذه المرة.

ولما كان مثل هذا الاحتفال ينتهى بشىء خطير مرعب هو تسليم المطبخ للعامة، فقد كانت هذه اللحظة لحظة رهيبة حـقا، إذ سـرعـان ما تكاثر الناس فوق سطحه لا نعرف كيف تسلقوا فوقه، تنزعوا الألواح وألقوها، حتى ظننا، وبخاصة ونحن نتطلع عن بعد، أن كل لوح سيطيح باثنين من المهاجمين. وما هى إلا لحظة حتى كانت ألواح السقف كلها قد نزعت، وتعلق الناس بالعروق والعوارض لينتزعوها من تعشيقاتها، وكان البعض لا يزالون هائمين إلى أعلى، عندما كانت الأعمدة قد نشرت من أسفل، واهتز الهيكل وتأرجح وأوشك على الانهيار. ولقد أشاح أصحاب القلوب الرقيقة بأبصارهم، وتوقع الجميع كارثة كبيرة. ولكننا لم نسمع عن حدوث أضرار، وانتهى كل شىء نهاية سعيدة على الرغم من العنف والشراسة.

وكان كل إنسان يعرف أن الإمبراطور والملك سيخرجان من الحجرة التى دلفا إليها عندما انصرفا من الشرفة، ليذهبا إلى القاعة الكبيرة فى الرومر لتناول الطعام. ولقد شهدت الاستعدادات التى جرت فى اليوم السابق وأعجبت بها، وحدا بى شوق حار إلى القاء نظرة إلى القاعة إن استطعت إلى ذلك سبيلا، وسلكت الدروب المعروفة لى حتى وصلت إلى السلم الكبير المواجه لباب القاعة مباشرة، وتطلعت بالإعجاب إلى الوجهاء الذين أعلنوا أنفسهم اليوم خدما لرئيس الرايخ، ومر من أمامى أربعة وأربعون بارونا يحملون الطعام من المطبخ إلى المائدة، وكانوا جميعًا يلبسون أفخر الثياب، ولقد اضطرب عقل الصبى وهو يرى التناقض بين مقام هؤلاء الوجهاء والعمل الذى قاموا به ولم يكن التزاحم شديدًا، ولكن القاعة بدت مزدحمة لصغرها، وكان هناك حراس يقومون على باب القاعة، وكان القائمون بالعمل يدخلون ويخرجون، ولمحت واحدًا من الموظفين البفالتسيين، وسألته هل يمكن أن يأخذنى معه إلى داخل القاعة، فلم يفكر طويلاً، بل أعطانى آنية من الأوانى الفضية التى كان يحملها، وساعده على هذا التصرف أننى كنت حسن الهندام، وهكذا دخلت إلى قدس الأقداس. كانت المائدة البفالتسية قد نصبت إلى اليسار ملاصقة للباب، وما سرت خطوات حتى كنت على المنصة التى مدت المائدة فوقها وراء الحواجز.

وإلى الطرف الآخر من القاعة، وعند النوافذ مباشرة، جلس الإمبراطور والملك فى ثيابهما الرسمية البهية، على درجات للعرش مرفوعة تحت المظلات وكان التاج والصولجان موضوعين على مخدة مذهبة إلى الخلف وكان الأمراء الناخبون الدينيون الثلاثة قد اتخذوا أماكنهم على منصات منفردة، وبموائد خاصة بهم إلى الخلف، كان أمير ماينتس الناخب يوجه الإمبراطور والملك، وأمير تربر الناخب إلى يمينهما وأمير كولونيا الناخب إلى يسارهما. كان هذا الجزء من القاعة مهيبا يسعد الإنسان بالنظر إليه، ويفسح مجالا لملاحظة أن رجال الدين يحبون أن يقضوا أطول وقت ممكن بجوار أصحاب الجلالة. أما الموائد والمناضد التى زينت أروع زينة، وأعدت خير إعداد، وظلت خالية من أصحابها الأمراء الناخبين الدنيويين جميعًا[١٤٦]، فكانت تشهد على سوء التفاهم الذى نشأ تدريجيًا على مر القرون بين هؤلاء الأمراء والرئيس الأعلى للرايخ، وكان سفراء هؤلاء الأمراء قد ابتعدوا ليتناولوا الطعام فى حجرة جانبية. وإذا كان هذا المسلك قد أدى إلى اكتساب الجزء الأكبر من القاعة سمة شبحية حيث كان الطعام يقدم فى أروع صورة إلى ضيوف كثيرين لا تدركهم الأبصار، فقد كانت هناك منضدة كبيرة فى الوسط خالية من الطاعمين تثير فى النفس المزيد من الحزن، فقد ظلت أماكن كثيرة خالية لأن أولئك الذين كان لهم حق الجلوس إليها، آثروا الغياب حتى لا يفقدوا شيئًا من كرامتهم فى أعظم يوم للكرامة، وبقوا فى المدينة.

ولم تكن سنوات عمرى وظروف الزحام تتيح لى الاسترسال فى كثير من التأملات ولهذا اجتهدت فى أن أسجل بعينى كل شىء قدر الطاقة[١٤٧]، فلما جاء دور الحلوى، ودخل السفراء مرة أخرى للتحية، خرجت، وذهبت إلى أصدقاء حميمين فى مكان قريب، منا، وتلقيت من الطعام ما عوضت به صيام اليوم أو ما يوشك أن يكون صيامًا، حتى أتهيأ للأنوار التى ستضاء ليلا.

وكنت أنوى أن أقضى هذه الأمسية الرائعة على نحو تطيب له النفس، فاتفقت مع جريتشن وبيلادس وجميلته أن نلتقى فى ساعة معينة بالليل. وكانت المدينة تتلألأ بنورعم أطرافها وأركانها قاطبة، عندما لقيت أصحابى وقدمت ذراعى لجريتشن، وسرنا من موضع إلى موضع، نحس جميعًا بالسعادة الغامرة، وكان أبناء عمومتها

معنا فى البداية ثم تاهوا فى الزحام. كانت الإضاءة أمام بيوت بعض السفراء، حيث ركبت أنوار رائعة، وضاحة كالنهار وكانت أنوار البفالتس ممتازة على نحو فريد ولما كنت أريد ألا يعرفنى أحد، فقد تخفيت فى ثيابى، ولم تعترض جريتشن على ذلك. وأعجبنا بالأنوار الباهرة بمختلف تكويناتها، وبألسنة اللهيب التى تفننوا فيها فبدت كحكايات الجنيات، وكان كل سفير يسعى إلى أن تبز زيناته زينات الآخرين، وإن كانت الزينات الحافلة بالأنوار التى أقامها الأمير إيسترهاتسى قد فاقت كل ما عداها. وأعجبت جماعتنا الصغيرة بالتصميم والتنفيذ أشد الإعجاب وأخذت تتأمل التفصيلات لتتمتع بها متعة خالصة، وهنا التقينا مرة أخرى بأبناء عمومة جريتشن الذين حدثونا عن الإضاءة البديعة التى زين بها السفير البراندنبورجى مقره، فلم نجد غضاضة فى قطع المسافة البعيدة من الروسماركت إلى الزالهوف، حتى إذا وصلنا اكتشفنا أنهم عبثوا بهذه الطريقة السخيفة من المزاح بحسن نيتنا.

والزالهوف(١٤٨) من ناحية الماين بناء منتظم حسن المنظر، أما الجزء الذى يواجه المدينة منه فهو عتيق مضطرب لا يلفت النظر، نوافذه صغيرة مختلفة الشكل والحجم، لا تستقيم على خط، ولا تتباعد بمقدارٍ واحد، وأبوابه وبواباته لا انسجام بينها، والدور الأرضى قد تحول جله إلى حوانيت، فهى واجهة مضطربة لا يحفل بها أحد. فلما ركبوا الإضاءة، اتبعوا العمارة المضطربة المتنافرة، وأحاطوا كل نافذة وكل باب وكل فتحة بمصابيح على نحو لا يمكن أن يتبع إلا فى البيوت المنتظمة البناء على أفضل الأحوال، وكانت النتيجة أن أقبح وأسوأ واجهة أضيئت أوضح إضاءة فبدت فى صورة لا يتصورها العقل. وإذا كنا تمتعنا بالمقلب بألوان المزاح التى يسترسل فيها المهرجون، فإننا فكرنا فيما تنضوى عليه، إذ لا بد أنها تنضوى على نية مبيتة. وكما أننا تحدثنا من قبل عن سلوك بلوتو هذا الذى كان يحظى بالتقدير، وأنهم كانوا يحبونه ويعجبون بخبثه، فقد تكبر، مثل ملكه، على كل ما تنظمه المراسم، وفعل ما حلا له. وهكذا فضلنا أن نعود إلى مملكة جنيات إيسترهاتسى.

كان هذا السفير العظيم، احتفالا باليوم المشهود قد صرف النظر عن تزيين بيته لأن موقعه لم يكن مناسبا، وزين طريق الزيزفون فى الروسماركت من الأمام ببوابة

من الأضواء الملونة، ومن الخلف بتشكيل من الأنوار أكثر روعة، وحدد المحيط كله بالمصابيح ، ووضع بين الأشجار أهرامات وكرات من النور على قواعد شفافة، ومد بين الأشجار أكاليل منيرة تدلت منها المصابيح، ووزع رجاله على الناس الخبز والسجق فى أكثر من موضع، ولم ينسوا النبيذ.

وأخذنا نروح ونجيء، نحن الأربعة، مبتهجين غاية الابتهاج، وكنت وجريتشن بجانبى أتصور أننى أسير فى حقل سعيد من حقول الإليزيوم[٤٠٩] يقطف الإنسان فيه كؤوسًا من البللور تمتلئ من فورها بما يشتهى من خمر، ويهز الشجر فتقع ثمار تتحول إلى ما يشتهى من طعام، وأخيرًا أحسسنا بحاجة إلى الطعام فأرشدنا پيلادس إلى مطعم حسن التنسيق، ولم نجد فيه طاعمين لأن الناس كانوا جميعًا فى الشارع، فأحسسنا بمزيد من الارتياح، وأمضينا بقية الليلة ننعم إلى أقصى درجات الصفاء والسعادة بالصداقة والحب والعاطفة. فلما رافقت جريتشن بعد ذلك إلى بيتها وبلغنا الباب طبعت قبلة على جبينى وكانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة التى منَّت علىَّ فيها بهذه المنة، فلم يتح لى أن أراها بعد ذلك مرة أخرى.

وفى صباح اليوم التالى كنت لا أزال فى الفراش عندما دخلت أمى خائفة مذعورة، وكان من السهل على الإنسان أن يعرف عندما يراها أن هناك ما يقلقها وقالت:

– انهض واستعد لشيء صعب كريه. لقد ظهر أنك كنت تتردد على جماعة شريرة، وأنك تورطت فى أخطر وأقبح الأعمال، ولقد فقد أبوك رباطة جأشه، ولم نستطع أن نجعله يوافق على أكثر من أن يقوم شخص غيره بالتحقيق، فالزم حجرتك وانتظر ما سيجرى عليك. سيأتى إليك المستشار شنايدر بتكليف من أبيك ومن السلطات لأن القضية فى دور التحقيق، وقد تتحول إلى منعطف بالغ السوء.

وأدركت أنهم يبالغون فى تصوير خطورة الموضوع، ولكننى شعرت بالقلق لاحتمال كشف العلاقة الحقيقية. وأخيرًا دخل الصديق المحب لملحمة المسيح، وقد أغرورقت عيناه بالدموع، وأمسك بذراعى وقال:

– يؤسفنى كل الأسف أن أحضر إليك فى مثل هذا الموضوع، وما كنت أتصور أنك يمكن أن تضل الطريق إلى هذا الحد، ولكن أصدقاء السوء والقدوة السيئة تفعل ما لا يخطر على بال، وهكذا ينقاد إنسان صغير السن عديم الخبرة خطوة خطوة إلى الجريمة.

فقلت:

– لا أعرف أننى ارتكبت جريمة، ولا علم لى بأصدقاء السوء فقاطعنى قائلاً:

– لسنا فى معرض الدفاع، بل التحقيق، وعليك أن تعترف بكل صدق. وقلت له:

– ماذا تريد أن تعرف؟

فجلس وأخرج ورقة وبدأ يسألنى:

– ألم توص جدك بمن يدعى ن ن ليعينه فى وظيفتة**؟

قلت:

– بلى.

– أين التقيت به؟

– فى أثناء نزهات.

– فى أى صحبة؟

وتلعثمت لأننى لم أكن أريد أن أكشف عن أصدقائى فراح يقول:

– التستر لن يفيد بشىء لأن كل شىء قد عرف بما فيه الكفاية.

فقلت:

– وما هذا الذى عرف؟

– إن هذا الشخص قدمه إليك آخرون من أمثاله، وبخاصة ***.

وهنا ذكر أسماء ثلاثة أشخاص لم أرهم ولم أعرفهم من قبل قط، فقلت له كلامًا بهذا المعنى ردًا على تساؤله، فاستأنف:

– أنت تدعى أنك لم تعرف هؤلاء الناس، مع أنك اجتمعت بهم مرارًا.

فقلت:

– هذا ما لم يحدث على الإطلاق فأنا لا أعرف، فيما عدا الأول، أحدًا، ثم إننى لم أره فى بيت.

– ولكنك ما كنت فى شارع ***؟

فقلت:

– لم يحدث هذا قط.

ولم تكن تلك هى الحقيقة الكاملة، فقد صحبت ذات يوم پيلادس إلى حبيبته التى تسكن فى هذا الشارع الذى ذكره، ولكننا دخلنا آنذاك من الباب الخلفى وبقينا فى كشك الحديقة، ولهذا اعتقدت أن لى أن ألجا إلى هذا المخرج فى إجابتى، لأننى لم أكن فى الشارع نفسه.

وألقى علىَّ الرجل الطيب مزيدًا من الأسئلة كان فى مقدورى أن أنفيها كلها فلم أكن أعرف شيئا من كل هذا الذى حاول أن يعرفه منى، وأخيرًا بدا عليه أنه بدأ يتبرم، لأنه قال:

– إنك تكافئنى على ثقتى وحسن نيتى مكافأة جد رديئة، لقد أتيت لإنقاذك. وأنت لا تستطيع أن تنكر أنك كتبت لهؤلاء أو لشركائهم خطابات ومقالات وأعنتهم على أعمالهم العابثة الشريرة. لقد أتيت لأنقذك، فالموضوع ليس أقل من تزوير خطوط، وتزوير وصايا وصكوك استدانة وما إلى ذلك. وأنا لست هنا كصديق للعائلة فقط، ولكننى أتيت إليك بتكليف من السطات التى تريد أن تصونك وتصون عددًا من الشباب الآخرين الذين انحرفوا مثلك ووقعوا فى هذه الشباك، مراعاة لعائلتك ولصغر سنك.

ولفت نظرى أن أسماء الأشخاص التى ذكرها لم يكن من بينهما أسماء أولئك الذين خالطتهم. ولم تكن الظروف مطابقة، ولكنها كانت قريبة الشبه، ولهذا ظللت آمل أن أنأى بأصحابى عن هذه المساءلة. ولكن الرجل الطيب زاد إلحاحًا، ولم يكن فى مقدورى أن أنكر أننى عدت إلى البيت فى بعض الليالى متأخرًا، وأننى دبرت أمورى لأحصل على مفتاح البيت حتى أدخل دون أن يشعر بى أحد، وأننى ذهبت مع أشخاص، سحناتهم مريبة، وأصولهم وضيعة، أكثر من مرة، إلى أماكن النزهة والتسلية، ورآنى الناس هناك، وأن بعض البنات اشتركن معنا. والخلاصة أن كل شيء قد كشف على ما يبدو، إلا الأسماء، فشجعنى هذا على إصرارى على الصمت.

وقال الصديق الطيب:

– لا تدعنى أنصرف فالقضية لا تحتمل تأجيلاً، وسيأتى بعدى على الفور رجل آخر لن يترك لك ما تركت من براح. ولا تفسد بعنادك هذه القضية، فهى قضية قبيحة من أصلها.

وهنا تصورت أبناء عمومة جريتشن، وتصورت جريتشن نفسها فى صورة حية أمام عينى رأيتهم وقد قبض عليهم، وحقق معهم، وعوقبوا، وأهينوا، ثم مر بخاطرى كالبرق الخاطف أن أبناء عمومة جريتشن، على الرغم من أنهم كانوا يتصرفون معى تصرفًا سليمًا كل السلامة، يمكن أن يقوموا بمثل هذه الأعمال القبيحة، وبخاصة الأكبر سنًا الذى كان دائمًا ثقيلاً على نفسى، وكان يعود إلى البيت متأخرًا

دائما، ولا يستطيع أن يتحدث حديثًا مرحاإلا قليلا، ولكننى ظللت مصمما على عدم الاعتراف وقلت:

- أنا لا أشعر شخصيا بأننى فعلت شيئا قبيحًا، ويمكننى أن أطمئن من هذه الناحية كل الإطمئنان، ولكن من غير المستبعد أن يكون هؤلاء الذين خالطهم قد ارتكبوا عملاً متهورًا أو مخالفا للقانون، ومن الممكن أن يبحثوا عنهم، ويعثروا عليهم، ويأخذوهم للتحقيق ويعاقبوهم، أما أنا فلم أفعل شيئا ألوم نفسى عليه، ولا أريد ان أفعل شيئا يضر بأولئك الذين كانوا طيبيين ودودين معى.

ولم يدعنى أتم كلامى بل صاح فى شىء من الانفعال:

- نعم، سيجدونهم، لقد اجتمع الأشرار فى ثلاثة بيوت.

وذكر الشوارع ووصف البيوت. وكان من بينهما للأسف الذى كنت أذهب إليه، وأردف يقول:

- ولقد تمت تصفية الوكر الأول، ويجرى الآن تصفية الوكرين الآخرين. وما هى إلا ساعات حتى يتضح كل شىء فقدم اعترافا صريحًا، حتى تخلص نفسك من التحقيق القانونى والمواجهة وما إلى ذلك من أشياء قميئة.

ولقد ذكر البيت ووصفه ولهذا رأيت أن السكوت لن يفيد. ولما كانت لقاءاتنا لقاءات بريئة، فقد حدانى الأمل فى أن أتكلم بما ينفع الآخرين أكثر مما ينفعنى وقلت له بصوت مرتفع:

- اجلس.

- واسترجعته هكذا من الباب، ثم قلت:

- سأحكى لك كل شىء فأخفف عن قلبى وقلبك، ولكننى أرجو ألا تشك فى صدقى هذا هو الشىء الوحيد الذى أرجوه.

وحكيت للصديق تطور الموضوع كله، وكنت فى البداية هادئا رابط الجأش، ولكننى كلما تذكرت الأشخاص والأشياء والأحداث، واستحضرتها فى ذاكرتى، وتصورت أننى أوشك أن أكشف لمحكمة تختص بالجرائم عن متع بريئة ومباهج خالصة من كل عيب، تملكنى إحساس متزايد بالألم، حتى إننى انفجرت باكيًا وجاشت فى قلبى عاطفة عارمة لم استطع السيطرة عليها، وخالج صديق العائلة الأمل فى أن يكون السر الحقيقى فى طريقه إلى التكشف (لأنه اعتبر آلامى دليلا على أننى أوشك أن أعترف رغما عنى بشىء هائل) وسعى إلى تهدئتى على خير ما استطاع، لأنه كان حريصا على كشف السر. ولم يوفق فى ذلك إلا جزئيا، مما أتاح لى على أية حال أن أتم قصتى عــلى قدر الاستطاعة، وعلى الرغم من أنه كان مطمئنا إلى أن ما حدث كان بريئًا، فإنه كان مرتابًا إلى حد ما، فوجه إلىّ أسئلة أخرى أثارتنى، وسببت لى الألم والغيظ، وأكــدت فــى النهاية أنه ليس لدى ما أقوله بعد الذى قلته، وأننى على يقين من أننى لا أخشى شيئًا لأننى برئ، ولأننى من بيت طيب ولأننى أنعم بالتوصية، أما الآخرون فمن الممكن أن يكونوا أبرياء أيضًا، ولكنهم لن يجدوا من يعترف بهم، ويميزهم. وأعلنت أننى سأنتحر ولن يمنعنى أحد من ذلك، إذا لم يترفقوا بهم كما يترفقوا بى، ويعفوا عن حماقاتهم وأخطائهم، أو إذا أغلظوا لهم أو ظلموهم؛ كذلك حاول الصديق أن يهدئنى، ولكننى لم أثق فى كلامه. فلما تركنى كنت فى أبشع حال.

ولمت نفسى على روايتى القصة كلها، وكشفى عن التفصيلات كاملة، وتنبأت بأنهم سيفسرون التصرفات الصبيانية، وعواطف الشباب ومايتصل بينهم من ألفة ومودة، تفسيرات مختلفة كل الاختلاف، وتصورت أنهم ربما يجرون رجل پيلادس الطيب، ويسببون له تعاسة محققة، وتتابعت هذه التصورات فى خاطرى حية، فحركت آلامى وزاداتها شدة، وأخذت أولول وأشكو وأنتحب، ولا أقدر على التخفيف عن نفسى، ثم ارتميت على الأرض، وبللت الأرض بدموعى.

لا أعرف كم بقيت مددا على الأرض عندما دخلت أختى وفزعت لحالى وبذلت كل ما فى وسعها لتنهضنى، وحكت لى أن رجلاً من السلك القضائى كان مع الوالد

ينتظر عودة الصديق، وأنهم تحدثوا لفترة من الزمن وحدهم وراء أبواب مغلقة، ثم انصرف الرجلان، وكانا قد تكلما راضين كل الرضا، بل كانا يضحكان، وقالت إنها تظن أنها سمعت وفهمت الكلمات التالية "لا بأس فالمسألة لا معنى لها".

وانتفضتُ قائلاً:

- طبعًا المسألة لا معنى لها بالنسبة إلى، وبالنسبة لنا أيضا فأنا لم أرتكب جرمًا، ولو كنت قد ارتكبت جرمًا، لعرفوا كيف يخرجوني من المصاعب، أما هؤلاء فمن سيساعدهم.

ورفعت صوتى بالتساؤل الأخير وحاولت أختى أن تسرِّى عنى قدر طاقتها، متعللة بأنهم عندما ينقذون الوجهاء سيضطرون إلى القاء حجاب يستر أخطاء من هم دونهم قدرًا. ولكن كلامها لم يحقق المرام. فما كادت تنصرف عنى حتى استسلمت مرة أخرى لألمى، واستحضرت صور هواى وعاطفتى تارة وصورة المحنة الحاضرة والمحتملة، تارة أخرى، وظللت أقلبها بلا انقطاع. وقصصت على نفسى حكاية الحكايات، وحكاية وراء حكاية، لا أرى إلا محنة تتلوها محنة، ولا أتردد عن صورة بائسة كل البؤس لى ولجريتشن.

وكان صديق العائلة قد أمرنى بأن أبقى فى حجرتى، وألا أتصل بأحد من خارج الأسرة، وقد راق لى هذا، لأننى كنت أحب أن أنفرد بنفسى. وزارتنى أمى وأختى من حين لحين، ولم يقصرا فى مساندتى أقوى مساندة بمختلف صنوف التسلية والسلوان. ثم جاءتا فى اليوم التالى باسم الوالد صاحب المعرفة الواسعة بالأحداث وتطوراتها يبلغانى عفوًا شاملاً، فقبلته شاكرًا، ولكننى رفضت طلبه رفضًا عنيدًا أن أخرج معه لنشاهد شارات الرايخ التى عرضوها ليراها الفضوليون، وأكدت أننى لا أريد أن أعرف شيئًا عن الدنيا أو الرايخ الرومانى، حتى أسمع أن هذه الحادثة السخيفة التى لم

تصبنى عواقبها قد انتهت أيضًا بالنسبة لمعارفى المساكين ولم يكونا يعرفان شيئا عن هذا الموضوع وتركانى وحدى.

وتكررت المحاولات فى الأيام التالية لحثى على الخروج من البيت والمشاركة فى الاحتفالات العامة، ولكن بلا جدوى. ولم يفلح أى شيء فى تحريكى، لا الحفل العظيم، ولا الاحتفالات التى كانت تقام بمناسبة منح الرتب النبيلة، ولا الوليمة العامة التى أولمها الإمبراطور والملك. كان فى مقدور أمير الـبفالتس الناخب أن يأتى لتحية صاحبى الجلالة، وكان فى مقدور الإمبراطور والملك أن يزورا الأمراء الناخبين، وكان فى مقدور هذا أو ذاك أن يذهب إلى الجلسة الأخيرة للأمراء الناخبين لإنجاز النقاط المتبقية ولتجديد المحفل الانتخابى، لكن لم يكن هناك من استطاع أن يخرجنى من عزلتى العاطفية. وفى يوم عيد الشكر أمرت فى خيالى الأجراس أن تدق، وجعلت الإمبراطور يذهب إلى كنيسة الكابوتسينين، ثم جعلته يرحل هو والأمراء الناخبين دون أن أخطو خطوة واحدة خارج حجرتى، ولم تثرنى طلقات المدفع الأخيرة على الرغم من عنفها البالغ، فلما تبدَّد غمامُ البارود وتلاشى دويُّ الطلقات، كانت كل هذه الروعة قد تلاشت من روحى.

وأصبحت لا أشعر بالرضا إلا فى اجترار بؤسي وفى زيادته إلى آلاف الأضعاف فى خيالى، وتركزت موهبتى الإبداعية كلها، وشعرى وبلاغتى جميعًا على هذا الموضع المريض، وأوشكَتْ لفرط عنفها أن تصيب بدنى وروحى بمرض لا يبرأ، وأمسيت لا أعرف لى، فى همى وحزنى، شيئًا يستحق أن أتمناه أو أن أتوق إليه، وإن كنت قد شعرت من حين لآخر برغبة لا نهاية تستبد بى لأعرف ما جرى لأصدقائى وأحبابى المساكين، وإلى أى مدى كانوا متورطين فى الجرائم المذكورة، أو هل تبين أنهم كانوا أبرياء. وكثيرًا ما صورت الأمر لنفسى فى صـور مختلفة أشد الاختلاف، لا أقصر فى اعتبارهم أبرياء وتعساء أشد التعاسة، وما لبثت أن تمنيت أن أخلص من

هذا القلق، وكتبت خطابات تهديد عنيفة إلى صديق العائلة، أطالبه بألا يخفى عنى ما تمخض عنه الوضع، ثم مزقتها بعد ذلك لأننى كنت أخشى أن أعرف بوضوح ويقين ما آلت إليه مصيبتى، ولا أستطيع حتى أنا أتأسى فى خيالى، وكان لى فى هذا التأسى الخيالى تارة ما زاد عذابى، وتارة ما أقام صلبى.

وهكذا قضيت الأيام والليالى فى قلق شديد، وغضب عارم وفتور، حتى إننى سعدت فى النهاية عندما اعترانى مرض جسمانى شديد إلى حد كبير، فاستدعوا الطبيب، وركزوا اهتمامهم على تهدئتى بكافة الوسائل، واعتقدوا أنهم سيحققون هذا الهدف بصفة عامة، عندما يؤكدون لى أن كل الذين كانوا متورطين فى هذا الذنب، من قريب أو بعيد، قد عوملوا أفضل وأرق معاملة، وأن أصدقائى المقربين كانوا أبرياء تمامًا، وأن السلطات صرفتهم بعد تحذيرهم تحذيرًا رقيقًا، وأن جريتشن ابتعدت عن المدينة، وعادت إلى بلدها. وكانوا مترددين وهم يحدثونى بهذا الخبر الأخير، ولم أقبل الكلام راضى النفس. لأننى لم أر فى عودتها إلى بلدها رحيلا رغبت فيه من تلقاء نفسها، بل رأيت فيها نفيًا مهينًا لكرامتها، ولم تتحسن حالتى الجسمانية والنفسية نتيجة لهذا الحديث، بل بدأت محنتى بدايتها الحقيقية، وكان لدىَّ الوقت لأبتدع لنفسى، وأنا أعذبها، أغرب رواية عن أحداث واقعة ومصيبة فتاكة لا سبيل إلى تحاشيها.

الكتاب السادس

ما يتوق الإنسان إليه فى شبابه

يجده فى شيخوخته كثيرًا وفيرا

وهكذا كنت تارة أرجو الشفاء، وتارة أحول دونه، وانضم إلى أحاسيسى الأخرى إحساسٌ جديد هو حنق دفين: فقد لاحظت أنهم كانوا يراقبونى، فلا يقدمون إلىّ خطابًا مقفلاً وقد شحذوا انتباههم ليروا الأثر الذى يحدثه فى، وهل سأعتبره من أسرارى فأخفيه أو أضعه مفتوحًا، وما إلى ذلك، ولهذا خمنت أن يكون پيلادس أو واحد من أبناء عمومتها أو جريتشن نفسها قد حاول أن يكتب إلى ليعطينى أخباره أو يطلب منى أن أخبره بأخبارى، وأصابنى غضب شديد فوق ما ألم بى من غم، ووجدت فرصة تحفزنى على الاسترسال فى التخمين والضياع فى دروب تتشابك فيها أغرب الارتباطات.

ولم يمض وقت طويل حتى عيّنوا رقيبًا خاصًا يراقبنى، وكان لحسن الحظ رجلا أحبه وأقدره، وكان يشغل وظيفة مدرس خصوصى فى بيت أسرة صديقة، وذهب تلميذه إلى الجامعة وحده[١٥١]. جاء هذا الرجل لزيارتى وأنا فى وضعى الحزين، وتكررت زيارته حتى وجدوا فى النهاية أنه ليس هناك شىء أكثر طبيعية من إعطائه حجرة فى البيت بجانب حجرتى، فقد كان عليه أن يشغلنى ويهدئنى وأن يراقبنى أيضًا كما تبينت. ولما كنت أقدر الرجل من كل قلبى، وكنت أحكى له أسرارى باستثناء ميلى لجريتشن فقد قررت أن أكون صريحًا كل الصراحة، مستقيمًا كل الاستقامة معه، وبخاصة لأننى لم أحتمل أن أعيش كل يوم مع إنسان أرتاب فيه،

ولا آنس إليه، ولهذا لم أنتظر طويلا، بل حدثته عن الموضوع، وانتعشت وأنا أحكى وأعيد أدق تفصيلات سعادتى الماضية.

وبلغت بقصتى أنه كان رجلا حسن الفهم، رأى من الفضل أن يتولى إخبارى بمضمون القصة بتفصيلاته كلها، حتى أعرف الموضوع برمته، ويكون من الممكن أن يحثنى بهمة وجد على أن أتمالك نفسى وأن ألقى بالماضى وراء ظهرى، وأبدأ حياة جديدة. وكاشفنى أولاً بوضع هؤلاء الشباب الذين تورطوا أولا فى أعمال من العبث المتهور، ثم فى أعمال إجرامية ظاهرها المزاح، ثم فى أعمال نصب مضحكة، وغيرها من المغامرات، وتكونت بالفعل مؤامرة صغيرة شارك فيها بعض الأوغاد، فزوروا أوراقًا وقلدوا توقيعات وارتكبوا أشياء توجب العقاب، وأعدوا لأشياء أخرى يعاقب عليها القانون. أما أبناء عمومة جريتشن الذين سألت عنهم فى النهاية وقد فرغ صبرى، فكانوا أبرياء تمامًا، صحيح أنهم كانوا يعرفون الآخرين معرفة عامة، لكنهم لم يكونوا فى عصابتهم، كما بينت التحقيقات أما الرجل الذى أوصيت به جدى، وكانت التوصية هى التى وضعت السلطات على بداية الخط، فكان واحدًا من أخطر الخطرين. ولقد سعى إلى هذه الوظيفة بالذات، لكى يقوم بأعمال إجرامية، أو يتستر عليها. فلما قال لى الرجل هذا كله لم استطع أن أمسك نفسى فسألته عما وصل إليه أمر جريتشن التى تحركت نفسى نحوها بأقوى عاطفة، وهز صديقى رأسه وقال مبتسمًا:

– هدىء روعك، لقد تصرفت أحسن تصرف وخرجت بأروع شهادة، فلم يجد المحققون عليها إلا كل خير ولطف، وعطفوا عليها، ولم يستطيعوا أن يرفضوا طلبها الابتعاد عن المدينة، كذلك فإن ما قالته عنك يا صديقى يشرفها، ولقد رأيت بنفسى أقوالها فى السجلات السرية وقراته ورأيت توقيعها.

فصحت قائلاً:

– التوقيع الذى أسعدنى وأشقانى، غاية السعادة وغاية الشقاء. وما هذا الذى اعترفت به ووقعت عليه؟

وتردد الصديق، ولكن بشاشة وجهه أظهرتنى على أنه لم يكن يخفى شيئا خطيرًا، وأخيرا قال:

– إذا كنت تريد أن تعرف، فلا بأس. عندما سألوها عنك وعن تصرفك معها قالت فى غير تكلف: "أنا لا أستطيع أن أنكر أننى رأيته كثيرًا وأننى كنت أحب أن أراه، ولكننى كنت دائمًا أعتبره طفلاً، وكانت عاطفتى نحوه أخوية خالصة، ولقد نصحته فى بعض المواقف، وبدلا من أن أحثه على القيام بأعمال مشبوهة، منعته من الاشتراك فى مقالب قبيحة كان يمكن أن تعود عليه لا يحمد عقباه".

وراح الصديق يعيد كلمات جرتشن ويعرضها كأنها كلمات مُدرسة حريصة على تربية تلميذها، ولكننى قد كففت عن الإنصات إليه منذ حين، فقد غضبت أفظع الغضب لأنها أعلنت فى السجلات أننى طفل، وظننت أننى شفيت فجأة من كل عاطفة نحوها، بل إننى أكدت لصديقى أن الموضوع قد انتهى الآن. وأصبحت لا أتكلم عنها، ولا أذكر اسمها، ولكننى لم أستطع أن أتخلى عن العادة القبيحة التى اعتدتها ألا وهى التفكير فيها، وتمثل هيئتها وكيانها ومسلكها الذى لاح لى الآن فى ضوء مختلف كل الاختلاف، ووجدت أنه من غير المحتمل أن تظن بنت لا تكبرنى إلا بأعوام قليلة أننى طفل[١٥١]، وكنت أنا أعتبر نفسى شابًا عاقلاً رزينًا أريبًا، ولاح لى أسلوبها الفاتر الصدود، والذى كان من قبل يفتننى، كريهًا مقيتًا ولعلى كنت أستطيع أن أتجاوز كل شىء، لو لم يعطنى توقيعها على الرسالة الغرامية، الذى كان إعلانًا صريحًا عن ميلها إلى الحق فى اعتبارها فتاة محنكة فى التدلل والغندرة وحب الذات. ولقد لبسَتْ أقنعة الخيَّاطة التى تصنع المظاهر، فما يمكن أن تظل فى نظرى على براعتها، وما زلت أقلب هذه التأملات السيئة فى نفسى حتى جردتها من كل الصفات اللطيفة تمامًا، ولقد اقتنع عقلى، وآمنت بأنه ينبغى على أن أنبذها: ولكن صورتها كانت تلوح لى فى خاطرى وتكذبنى، وما أكثر ما كانت تمثل أمامى!

كان السهم الشائك قد اقتُلع من قلبى فى هذه الأثناء، وأصبح السؤال هو كيف يمكن مساعدة القدرة العلاجية التى تكمن فى الشباب على بلوغ مداها؟ بدأت بأن ملكت

زمام نفسى، وكان أول شىء تخلصت منه هو البكاء والهياج، لأننى رأيت أنهما من التصرفات المفرطة فى الصبيانية، وخطوت هكذا خطوة كبيرة نحو التحسن، ذلك أننى كنت أستسلم أحيانا للأوهام والآلام العنيفة، واستجيب لها حتى إننى من فرط البكاء والنحيب والنشيج عجزت عن البلع، أو كدت ولم أكن أستطيع تناول شىء من طعام أو شراب إلا بصعوبة وعناء، وبدأ صدرى القريب من أعضاء البلع فى المعاناة هو أيضًا على ما يبدو، كأن الغم الذى ألم بى. عندما تكشفت لى هذه الحقيقة، أصبح يلازمنى ويحول دون كل لون من ألوان الرقة والترفق. ووجدت من الفظاعة بمكان أن أكون قد ضحيت بنومى وراحتى وصحتى من أجل بنت ترى فى طفلا رضيعًا تعامله معاملة الحاضنة والمرضعة.

وأقنعت نفسى بسهولة أن هذه التصورات الجارحة لا يمكن التغلب عليها إلا بالعمل النشيط، ولكن ماذا أعمل؟ كان أمامى بطبيعة الحال فى كثير من الأمور ما أستكمله، وكان علىّ أن أستعد فى أكثر من اتجاه لدخول الجامعة التى حان موعدها، ولكننى لم اجد لشىء طعمًا، ولم اوفق فى أى شىء فمن الأمور ما بدا لى معروفًا شائعًا، ومنها ما لاح لى بدائيا فجًا، ولم أجد فى داخلي القوة، ولا فى خارجى الظروف المواتية للتعمق، ولهذا تركت جارى الطيب فى الحجرة المتاخمة يغرينى بدراسة اهتم هو بها على سبيل الهواية، دراسة الفلسفة، وكانت دراسة جديدة على وغريبة بالنسبة إلىّ، أتاحت لى حينًا مجالا فسيحًا من المعارف والتأملات. وبدأ صديقى يعرفنى بهذه الدراسة، ويأخذ بيدى إلى الأسرار الفلسفية، وكان قد درس الفلسفة في (يينا) على الأستاذ داريس[١٥٢]، واستوعب فى رأسه المنظم المرتب أفضل نظام وترتيب خلاصةَ هذه الدراسات بوضوح، وسعى إلى أن ينقلها إلى، ولكن هذه الموضوعات للأسف لم تستقر على النحو الذى قدمها عليه فى ذهنى، وألقيت أسئلة عليه وعدنى بأن يجيب عنها فيما بعد، وقدمت إليه طلبات وعدنى بأن يستجيب لها فى المستقبل. وكان أهم خلاف بيننا هو أننى ذهبت إلى أن الفلسفة لا حاجة بها إلى أن تقوم مستقلة، فهى متضمنة تمامًا فى الدين والشعر. ورفض هو الموافقة على هذا الرأى، وحاول أن

يبرهن لى على أن الفلسفة هى التى تشرحها، فأنكرت ذلك فى عناد وإصرار؛ ووجدت فى أثناء حوارنا فى كل خطوة دليلاً يثبت رأيى إذ إن الشعر ينبغى أن يتضمن إيمانا بالمستحيل، والدين ينبغى أن يتضمن أيضًا إيمانا بما لا سبيل إلى سبر أغواره، ولهذا فإن الفلاسفة فى تصورى كانوا فى وضع شديد الحرج، لأنهم أرادوا أن يشرحوا الشعر والدين ويقيموا عليهما البرهان، ويمكننا اعتمادًا على تاريخ الفلسفة أن نتبين بسرعة أن كل فيلسوف كان يبحث عن تعليل آخر غير تعليل من سبقوه، وأن الشكاكين أعلنوا فى النهاية أن الأشياء كلها لا تقوم على سبب أو أساس.

كان هذا أمرى مع الفلسفة أما تاريخ الفلسفة الذى اضطر صديقى إلى استعراضه معى فقد أعجبنى. لم أستطع إذن أن أخرج بشىء من المحاضرة الدجماطية عن الفلسفة نفسها، فلما تتبعت مسارها عاملت كل مذهب وكل رأى على قدم المساواة مع المذاهب والآراء الأخرى على قدر ما استطعت أن أتوغل فيها. وأعجبنى فى الرجال القدامى والمدارس القديمة على نحو خاص أن الشعر والدين والفلسفة كانت شيئًا واحدًا، وأكدت رأيى الأول تأكيدًا قويًا ذاهبًا إلى أن سفر أيوب ونشيد الأنشاد وأمثال سليمان[١٥٣] مثلها مثل الأناشيد الأورفية[١٥٤] تقوم شاهدًا أكيدًا على ذلك، أو هكذا تلوح لى. وكان صديقى يعتمد على كتاب بروكر[١٥٥] الصغير فى محاضرته، وكلما تقدمنا فى الكتاب، قل ما كنت أستطيع أن أفيده منه، فلم يتضح لى بجلاء ما كان فلاسفة الإغريق الأُول يريدونه، أما سقراط فتمثلته رجلاً حكيمًا ممتازًا يمكن مقارنته فى حياته ومماته بالمسيح، كذلك لاح لى بين تلاميذه وتلاميذ المسيح شبه كبير[١٥٦]، فقد اختلفوا وتفرقوا بعد موت المعلم مباشرة، واتضح أن كل واحد منهم قصر الحقيقة على ناحية محدودة بعينها، دون سواها، وعجز أرسطو بدقته، وأفلاطون بثرائه عن أن يحققا لدىَّ أدنى نتيجة؛ أما الرواقيون فكنت أميل إليهم من قبل، فأتيت بأعمال إبيكتيت[١٥٧] ودرستها بكلف شديد، ولم يكن صديقى راضيًا على هذه المحاباة التى عجز عن صرفى عنها، لأنه على الرغم من دراسته المنوعة لم يكن قادرًا على التركيز على السؤال الجوهرى؛ كان يمكنه أن يكتفى بأن يقول لى إن الشىء الذى

يعول عليه فى الحياة هو العمل، أما التمتع والتألم فيأتيان من تلقاء ذاتهما، ويكفى أن ندع الشباب فى هذا المرحلة ليسلك سبيله وحده، فلن يظل طويلا مرتبطا بأمثله زائفة، لأن الحياة تنتزع الشباب منها أو تجذبهم بعيدًا عنها.

وكان الفصل الجميل من السنة قد أقبل، فذهبنا مرارًا معا لأماكن النزهة الكثيرة حول المدينة، ولكنى لم أكن شعر فيها بالارتياح لأننى كنت أرى أشباح أبناء عمومة جريتشن فى كل مكان، وكنت أخشى أن يخرج لى واحد منهم من هذه الناحية أو تلك. كذلك كنت أعانى من نظرات الناس، حتى تلك التى لا يرتسم فيها أى اهتمام. كنت قد فقدت السعادة التى كنت أحسها عن غير وعى بها، عندما كنت أروح وأجيء فلا يعرفنى أحد ولا يلومنى أحد، وأندس وسط الزحام دون أن أفكر فى إنسان يراقبنى ويتطلع إلىّ. لقد بدأت الخيالات السوداوية تؤرقنى، وكأنى كنت أجذب أنظار الناس إلى شخص فتتركز علىّ وتفحصنى وتوبخنى.

ولهذا كنت أشد صديقى شدًا إلى الغابات، حيث كنت أهرب من شجر الصنوبر الرتيب، وألتمس الخمائل ذات الأوراق الكثيفة التى لم تكن تمتد فى المنطقة إلى بعيد، ولكنها كانت على الرغم من ذلك متسعة اتساعًا يكفى القلب المسكين الجريح ليختفى فيها، واخترت لى فى أبعد أعماق الغابة مكانًا جادًا، حيث كانت أشجار البلوط والزان العتيقة تصنع مكانًا ظليلاً فسيحًا رائعا، وكانت الأرض منحدرة قليلاً، تبرز سمات الجذوع العتيقة المنيفة، ومن حول هذه الساحة الطليقة قامت شجيرات كثيفة متلاحمة، تطل من بينها صخور مكسوة بالطحالب، صلبة عظيمة، تتيح لغدير غزير المياه انهمارًا سريعًا.

وما كدت أجذب صديقى، الذى كان يفضل الأماكن الطليقة على النهر بين الناس، إلى هذا المكان غصبًا، حتى أكد لى مازحًا أننى أثبت بذلك إننى ألمانى حقيقى، وحكى لى تفصيلا، بناء على كتاب تاسيتوس[١٥٨]، أن أجدادنا الأول كانوا يكتفون بالمشاعر التى تبثها الطبيعة بثا رائعًا فى مثل هذه الأماكن المنعزلة الخالية من العمارة المصطنعة، ولم يطل حديثه حتى صحت فيه قائلاً:

– آه، لماذا لا يقع هذا المكان فى أعماق الأحراش؟ لماذا لا نستطيع أن نقيم من حوله سياجًا[١٥٩] لنصون قدسيته وقدسيتنا ونعتزل الدنيا؟ إننى على يقين من أنه ليس هناك عبادة لله أجمل من تلك التى لا يحتاج الإنسان فيها إلى صورة، عبادة تنشأ فى صدورنا من حوارنا مع الطبيعة وحدها.

ولا زلت على بينة من الإحساس الذى أحسسته آنذاك، أما ما قلته فلن أستطيع أن أجمع شتاته مرة أخرى. ولكن هناك شيء يقينى وهو أن الأحاسيس المتعاطفة غير المحدودة التى يحسها الشباب، وتحسها الشعوب غير المتحضرة، هى وحدها الأحاسيس الجـديرة بالجـلال، وذلك الجـلال الذى إذا أثارته فينا أشياء خارجية، لاح بلا شكل أو لاح بأشكال لا يمكن الإحاطة بها، وتغمدنا بعظمة لا قبل لنا بها.

هذا الإحساس الروحى يحسه بقدر كبير أو صغير كل الناس الذين يسعون إلى إشباع هذه الحاجة النبيلة بطرق مختلفة، ولكن، كما أن الجلال ينشأ فى يسر عن الشفق أو الليل حيث تنضم الأشكال وتتداخل، كذلك الجلال يتبدد بالنهار الذى يفرق الأشكال ويفصلها، ويتلاشى حتمًا نتيجة زيادة الثقافة، إلا إذا لاذ بالهروب إلى الجمال، واندمج وإياه اندماجًا حميمًا مما يجعلهما خالدين لا يبيدان ولا يتبددان.

وكان صديقى المفكر يقصر اللحظات القصيرة لمثل هذه المتع، ولقد حاولت دون جدوى، عندما كنت أخرج إلى الدنيا فى محيط مضيء وهزيل، أن أثير فى نفسى مثل هذا الإحساس، بل لم أكن أستطيع إلا فيما ندر أن أبقى على ذكراه. كان قلبى قد تدلّل إلى درجة لم يكن فيها من الممكن تهدئته: كان قد أحب ونزعوا منه حبيبته، وكان قد عاش، ففسدت عليه حياته. والصديق الذى يبين بوضوح أنه يريد أن يتفقك لا يثير فيك مشاعر الرضا، أما المرأة التى تتفقك وهى تتظاهر بأنها تدللك، فأنت تعبدها كأنها كائن سماوى يأتيك بالبهجة. وأما الصورة التى مثل لى فيها مفهوم الجمال فقدت تلاشت فى مكان بعيد، ولكنها كانت تزورنى كثيرًا فى ظل أشجارى، دون أن استطيع الإمساك بها، بل كنت أحس دافعًا عارمًا يدفعنى إلى أن ألتمس شيئًا مشابهًا فى البعد.

وكنت قد عودت صديقى ورقيبى، دون أن يلاحظ، على أن يتركنى وحدى، بل اضطررته إلى ذلك اضطرارًا، لأن تلك الإحساسات الهائلة غير المحددة نفسها لم تكن ترضينى حتى فى غابتى المقدسة، وكانت العين بالنسبة إلىَّ العضو الذى أدرك به العالم قبل غيره من أعضاء الإدراك الأخرى، وكنت منذ طفولتى قد عشت بين الرسامين، واعتدت أن أنظر إلى الأشياء متصلة بالفن. والآن وقد أسلمتنى المقادير لنفسى وللوحدة، برزت هذه الموهبة، التى كانت نصف طبيعية نصف مكتسبة، وكنت كلما نظرت إلى أية ناحية أرى صورة، وكنت أريد أن أمسك بما يشد انتباهى ويبهجنى، فبدأت أرسم عن الطبيعة بطريقة غشيمة فجة. أما ما كان ينقصنى لكى أستطيع ممارسة هذا الفن ممارسة سليمة يقل عن كل شىء ولكننى ظللت أرسم بعناد. دون أن أحتكم على وسيلة فنية تمكننى من نقل أروع ما كان يمثل أمام عينى. واكتسبت على هذا النحو بداهة انتباهًا قويًا كبيرًا موجهًا إلى الأشياء، ولكننى لم أكن أدركها إلا فى مجموعة ما دامت تحدث فىّ أثرًا؛ وإذا لم تكن الطبيعة قد جعلتنى شاعرًا وصافًا كذلك الطبيعة لم تمنحنى القدرة على رسم التفصيلات. ولما كانت هذه الطريقة فى معالجة الرسم هى الطريقة الوحيدة التى بقيت لى لأعبر عن نفسى، فقد تعلقت بها بإصرار شديد، أو بأسى شديد، فظللت مستمرًا فى الرسم على الرغم من أننى لم أكن أحقق نتيجة.

ولست أنكر أن نوعًا من الخبث كان يداخلنى إذذاك. لأننى كنت قد لاحظت أننى إذا اخترت جذعًا عتيقًا فى شبه الظل، تلتصق الأعشاب المضيئة بجذوره الملتفة التفافات شديدة، وتمسه ومضات من الحشائش، لأرسمه فى دراسة مرهقة مضنية، كان صديقى يعرف بالخبرة أننى لن أفرغ قبل ساعة على الأقل، فكان يقرر عادة أن يتركنى، ويسعى بكتابه إلى مكان يرتاح إليه. كنت أبقى وحدى لا يزعجنى شىء. وأتابع هوايتى، وأمارسها بهمة ونشاط، خاصة لأننى كنت أحب أوراقى التى اعتدت أن أعود إليها، لا لأرى ما قد رسمته بقدر ما أرى تسجيلاً لما كنت فى تلك الساعة أفكر فيه. وهكذا فإن الأعشاب والزهور العادية إلى أقصى حد يمكن أن تكون سجلا

لطيفا. يصعب علىّ إلى اليــوم أن أبدد أشياء من هذا القبيل تكون قد بقيت لى من ازمنة مختلفة؛ لا أظن أنها أصبحت بلا قيمة، فهى تنقلنى مباشرة إلى تلك الأزمنة التى قد يطيب لى تذكرها، وإن أثارت فى نفسى اكتئابا وشجنا.

وإذا كانت هذه الأوراق تتسم بشىء من أهمية فى حد ذاتها، فالفضل يرجع إلى اهتمام الوالد وحرصه، فما إن علم أبى من الرقيب أننى أتحسن شيئًا فشيئًا، وأننى اتجهت إلى الرسم عن الطبيعة بحماس شديد، حتى أحس بالرضا، من ناحية لأنه كان مولعًا بالرسم والتصوير، ومن ناحية ثانية لأن العم زيكاتس(٢٦٠) قال له مرارًا إن عدم توجيهى لكى أصبح رسامًا خسارة كبيرة. وهنا تصادمت شخصيتا الأب والابن مرة أخرى. كان أقرب من المحال بالنسبة إلىَّ أن استخدم لرسوماتى ورقًا أبيض طريًا خاليًا من كل شائبة، وكانت الأوراق القديمة المسمرة، أو التى كتب على صفحة منها، تشدنى إليها، وتفتننى أكثر من غيرها. وكأنما كانت موهبتى تخشى أن توضع موضع الاختبار على صفحة بيضاء ناصعة؛ كذلك لم أكن أتم رسمًا إلى نهايته تمامًا، وكيف كان يمكننى أن أنتج رسمًا كاملاً، لشىء رأيته بالعين، ولكننى لم أدركه حق الإدراك، وكيف كان يمكننى أن أرسم تفصيلا من التفصيلات وليست لدىّ المهارة أو الصبر لتتبع التفصيلات. والحق أن حنكة أبى فى أمور التربية كانت جديرة بالإعجاب، فقد سألنى لَيِّنا مستبشرًا عن محاولاتى، واهتم بها وخط خطوطًا حول الاسكتشات التى لم تكتمل، حاثًا إياى على الإكمال والإنجاز، وتناول الأوراق غير المنتظمة فأصلحها بالمقص، وبدأ على هذا النحو يكوِّن مجموعة، تبين له يومًا تطور ابنه وتقدمه فى الرسم، وتدخل بذلك البهجة إلى نفسه؛ وهكذا لم يكن ينكر علىَّ جولانى المضطرب فى الناحية، انصياعًا لطبيعتى الهوجاء، بل كان يبدى الرضا عندما كنت أعود إليه بكراسة يمارس فى الاطلاع عليها صبره، ويجد فيها ما يقوى آماله ولو بقدر قليل.

لم يعد هناك من يخشى على أن أرتد إلى ميولى وعلاقاتى السابقة، ولهذا تركوا لى حريتى الكاملة، وكنت بناء على اقتراح يجىء عفو الخاطر، وفى جماعة تأتلف حيثما اتفق، أقوم برحلات سيرًا على الأقدام إلى الجبال التى كانت ترتفع أمامى منذ

الطفولة بعيدة نائية، عابسة صارمة وهكذا قمنا برحلة وزرنا مرتفعات هومبورج وكرونبرج وتسلقنا فيلدبرج ذلك الجبل الذى كان المنظر المديد الذى نراه منه يفتننا ويشدنا إلى أفق بعيد، كذلك لم نترك كونجسشتاين دون أن نزوره، وشغلتنا ڤيسبادن وشڤالباخ وما حولهما عدة أيام، وبلغنا نهر الراين، ونظرنا إليه من عل وهو يتلوى فى مساره البعيد، وأعجبنا بماينتس وإن لم تأسر لبنا كشباب، لأننا كنا نتحمس للانطلاق، وتمتعنا بموقع بيريش، ثم عدنا راضين سعداء إلى دورنا.

ولقد أوشكت هذه الجولة الطويلة التى توقع أبى أن أعود إليه منها ببعض الرسوم أن تنتهى دون ما ثمرة: فإلى أى عقل. وإلى أى موهبة وإلى أى دربة يحتاج الإنسان ليحيل منظرًا طويلاً عريضًا إلى صورة؟ ولكننى ألفيتنى مندفعًا دون تدبير منى إلى أماكن ضيقة وجدت فيها بعض الغنائم: وما عثرت على قصر متهدم أو جدار يحمل بصمات ماضٍ بعيد، إلا وأحسست أنهما من الأشياء الجديرة باهتمامى، وعكفت على رسمهما بكل ما أوتيت من قدرة على الإجادة، بل لقد رسمت حجر دروزوس(١٦١) فوق أسوار ماينتس؛ وعرضت نفسى للخطر والتعب اللذين يحس بهما كل من يريد أن يعود من رحلة إلى بيته ومعه ذكريات مرسومة عنها.

ولكننى للأسف لم أكن قد حملت معى إلا أسوأ ورق للتسويد، فكدست موضوعات متعددة بطريقة غشيمة على ورقة واحدة، ولكن والدى، الأب والمعلم، لم يدع هذا الوضع المضطرب يضله، بل أخذ الأوراق وفصل الأجزاء بعضها عن البعض، ثم كلف مجلد الكتب بأن يضم الأوراق معًا، ورسم حول كل ورقة بروازًا واضطرنى إلى أن أمد خطوط بعض الجبال إلى الهامش وملء مقدمة الصورة ببعض النباتات الصغيرة والأحجار.

وإذا كانت جهوده المخلصة لم تفلح فى زيادة موهبتى فإن هذه السمة من حبه للنظام كان لها تأثيرها الكامن علىّ، وهو تأثير ظهر فيما بعد حيًا فى أكثر من صورة.

ولكننى عندما كنت قمتُ الجولات التى تتسم فى شق منها بالبهجة، وفى الشق الآخر بالاهتمامات الفنية ولقد كانت جولات قصيرة متكررة كنت أحس بما يشدنى إلى البيت، كالمغناطيس، ويحدث فىَّ أثرًا قويًا منذ الأزل، وأعنى به: أختى. كانت أختى تصغرنى بعام واحد فقط، ولهذا فقد عاشت معى كل حياتى الواعية وارتبطتْ بى لهذا ارتباطًا حميما بالغ العمق(٢٦٢). وانضم إلى هذه الأسباب الطبيعية دافع آخر انبثق عن وضعنا فى البيت. كان أبى رجلاً عطوفا طيبًا، ولكنه كان عبوسًا، كان فى أعماقه رقيقًا غاية الرقة، وفى ظاهره صارمًا كالفولاذ، لا تلين له عريكة، ويتمسك برأيه بشكل لا يصدقه العقل، حتى يحقق هدفه، فيعطى أولاده أحسن تربية، ويبنى بيتا ثابت الأركان، وينظمه ويحافظ عليه. أما أمى فكانت طفلة أو تكاد، ولم تبلغ الوعى إلا مع ابنيها الكبيرين وهما ينموان. وأدرك الثلاثة الدنيا وأبصروا بها بعين سليمة. كانوا مقبلين على الحياة، محبين للمتعة الحاضرة، وكان هناك صراع كامن فى أعماق نفوسهم، يزيد مع الأعوام حدة: كان الوالد يتابع هدفه فى تصميم لا يلين ولا يهتز، وكانت الأم وابنيها متمسكين بمشاعرهم وطلباتهم وأمنياتهم لا يتخلون عنها.

فى هذه الظروف كان من الطبيعى أن يرتبط الأخ والأخت معًا برباط وثيق، وأن يقفا فى صف الأم حتى يتمكنا من اختطاف المتع التى كانت محرمة عليهما فى مجموعها. ولما كانت ساعات العزلة والتعب أطول بكثير من لحظات الراحة والمتعة، وبخاصة بالنسبة لأختى التى لم يكن لها أن تبقى خارج البيت فترات طويلة مثلى، فقد كانت حاجتها إلى التحدث معى تزداد شدة نتيجة للشوق الذى كانت تحوطنى به عندما أكون بعيدًا.

وإذا كان الأخ والأخت قد تآلفا كل التآلف فى السنوات الأولى حيث جمع بينهما اللعب والتعلم والنمو والتربية، حتى إن الناس كانوا يظنونهما توأمين، فقد بقى هذا التآلف والثقة مع تطور القدرات الجسمانية والنفسية. عرفا معا ما يهتم به الشباب، وعرفا الدهشة التى تنجم عن صحوة الدوافع الحسية التى تكتسى صورًا روحية، وصحوة الدوافع الروحية التى تكتسى صورًا حسية، وشاركا فى كل التأملات التى

تنشر حولنا الغموض أكثر مما تنشر من الوضوح، والتى تلوح كالغمام فوق الوادى يريد أن يرتفع عنه، ولكنه يغطيه ولا ينيره. وعرفا معا بعض الأخطاء والانحرافات، كل هذه الأمور عاناها الأخ والأخت يدا فى يد، وتغلبا عليها معا، ولكنهما لم يبصرا فى وضوح بحقيقة أحوالهما العجيبة لأن الخجل المقدس المرتبط بالقرابة الوثيقة بينهما، كان كلما ازداد تقاربهما وسعيهما إلى الوضوح يباعد بينهما فى عنف متزايد.

والحق أننى لا أتحدث بصفة عامة إلا على مضض عن هذا الموضوع الذى الذى بدأت بمعالجته فى عمل أدبى قبل سنوات، لم أستطع إلى إنجازه من سبيل. ولما كنت قد فقدت هذه الإنسانة المحبوبة الغامضة مبكرًا فقد شعرت لذلك بأن هناك ما يكفى من الأسباب التى تدعونى إلى أن أتمثل قيمتها، وهنا نشأ فى فكرى مفهوم الكل الشعرى الذى يتيح لى تصوير فرديتها، ولكنى لم أجد فى فكرى قالبًا مناسبًا إلا قالب روايات ريتشاردسون(١٦٣). فما يمكن إلا عن طريق التصوير الدقيق كل الدقة لكل صغيرة وكبيرة، والإحاطة بكل التفصيلات اللانهائية، التى تضفى الحياة على صورة الكل وتعطى لمحة أولى عن الأعماق العجيبة وهى تخرج منها متدافعة فوارة. هذا هو النهج الوحيد الذى كان ينبغى أن أسلكه كى أحقق شيئًا مقبولا من النجاح فى تصوير هذه الشخصية العجيبة الفذة: فما يمكن أن نتصور النبع إلا وهو ينهمر. ولكن هذا المشروع الجميل الوفى صرفنى عنه وعن غيره صخب الحياة، ولم يعد أمامى من سبيل إلا أن أدعو خيال هذه الروح الناعمة لحظة واستحضره مستعينًا بمرآة سحرية.

كانت طويلة القامة، صحيحة البنية، رقيقة وكان مسلكها يتسم بمهابة طبيعة تتصهر فتستحيل إلى رقة لطيفة، أما تقاطيع وجهها التى لم تكن جميلة أو متميزة، فكانت تعكس طبيعة غير راضية عن نفسها، ولا يمكن أن ترضى عن نفسها، ولم تكن عيناها أجمل عينين رأيتهما، ولكنهما كانتا أعمق عينين، وكان الإنسان يحس أن وراءهما شيئًا بالغ الثراء، فإذا عبرتا عن ميل أو حب لمعتا ببريق لا مثيل له، ولكن هذا البريق لم يكن يعبر تعبيرا عاطفيا كذلك الذى يصدر عن القلب ويجمع فى ذاته الحنين والشوق، بل كان تعبيرًا صادرًا عن الروح، تعبيرا غنيا وفيرا يبدو عليه أنه لا يريد إلا أن يعطى، وأنه ليس بحاجة إلى أن يأخذ.

أما ما كان يشوه وجهها حقيقة، حتى كانت تبدو قبيحة فعلا أحيانًا، فكانت موضة ذلك العصر التى لم تكن تعرّى الجبهة فحسب، بل كانت تتوسل بكل الوسائل لتوسع الجبهة توسيعًا ظاهريًا أو فعليا عفويا أو متعمدا. كانت جبهتها هى أكثر الجبهات أنوثة، بما اتسمت به من استدارة ممتازة خالصة، وكان حاجباها أسودين كثيفين، وعيناها جاحظتين، ولهذا فقد تولد عن هذه العلاقات تناقضٌ، إن لم ينفر الغريب لأول وهلة، فما كان على الأقل ليجذبه. ولقد أحست بذلك مبكرًا، وكان هذا الإحساس يسبب لها حرجا متزايدا كلما تقدمت بها الأعوام، ودخلت المرحلة التى يجد فيها الجنسان متعة بريئة فى أن يعجب الواحد منهما الآخر.

والإنسان لا يستطيع أن ينفر من شكله. ومن حق أقبح الناس وأجملهم أن يسعد بمنظره. ولما كانت النية الطيبة تضفى على الإنسان جمالا، ولما كان كل إنسان ينظر إلى نفسه فى المرآة بنية طيبة، فلنا أن نقول إن على كل إنسان أن ينظر بالرضا عن نفسه حتى إذا كان ثائرًا عليها. وكانت أختى بفطرتها شديدة الالتزام بالعقل، فلم يكن من الممكن أن تتصنع العمى أو العبط. بل كانت تعلم، ربما بوضوح أكثر مما ينبغى، أنها من ناحية الجمال الخارجى دون صاحباتها جميعًا، ولم تكن تعزى نفسها بأنها من ناحية الميزات الداخلية تفوقهن تفوقًا لا حدود له.

وإذا كان لامرأة أن تجد ما يعوضها عن الجمال، فقد نالت تعويضًا سخيًا يتمثل فى الثقة التى لا حدود لها، والاحترام والحب الذى كانت صديقاتها كلهمن يشعرن به نحوها، كن جميعًا، من يكبرنها أو يصغرنها، يكنن لها المشاعر نفسها. وكانت جماعة لطيفة قد اجتمعت حولها ولم يخل الأمر من شباب تسللوا إلى هذه الجماعة، ووجدت كلُّ بنت تقريبًا صديقًا، إلا هى فقد بقيت بلا صديق. وإذا كان ظاهرها ينفر الآخرين إلى حد ما، فإن باطنها الذى كان يسلك سبيله إلى الظاهر، كان يصد أكثر مما يجذب، لأن طابع المهابة يرد الآخرين ويضطرهم إلى العكوف على أنفسهم. كانت تحس بذلك إحساسا قويا، ولم تكن تخفى علىَّ هذا الإحساس، ولهذا كانت توجه ميلها تجاهى على نحو أشد. وكانت تلك الحالة غريبة بما فيه الكفاية. وكما أن الأصفياء الذين يُسِرُّ إليهم

الإنسان بعلاقة حب يتحولون نتيجة للمشاركة الوجدانية الخالصة إلى شركاء فى الحب فعلاً، بل إلى منافسين، ويجذبون العاطفة فى النهاية إلى ذواتهم، كذلك كانت حالنا كأخوين: فلما انفصمت عرى العلاقة بينى وبين جريتشن واستتى أختى جادة جدًا كبيرًا، فقد كانت تحس بالرضا بينها وبين نفسها لأنها تخلصت من غريمةٍ لها، وكان علىَّ أن أحس فى سكونٍ بسرورٍ فيه التشفى عندما تضع الحق فى جانبى قائلة إننى الوحيد الذى أحبها حبًا حقيقيا وأعرفها وأقدرها. فإذا تجدد من حين لآخر ألمى لفقدان جريتشن، وبكيت من تلقائى وولولت وخرجت عن صوابى، كان يأسى لما ضاع منى يثير فيها قلقًا يائسًا على ما لم تنله قط، على ما لم يتحقق لها، ما فاتها من غراميات الشباب، حتى تصورنا كلانا أننا أصبنا بتعاسة لا حدود لها، وبخاصة فى هذه الحالة العجيبة التى يمكن أن يتحول فيها الأصفياء إلى عشاق.

ومن حسن الحظ أن إله الحب العجيب الذى يسبب الكثير من المصائب دون داع، تدخل هنا بالخير، ليخرجنا من كل حيرة، فقد كنت على صلة وثيقة بشاب إنجليزى ينزل فى بنسيون بفايل(١٦٤)، وكان متمكنا من أصول لغته، فكنت أمارسها معه، وأتعلم منه شيئا عن بلاده وشعبه، وكان يزورنا كثيرًا؛ وظل يزورنا دون أن ألاحظ عليه ميلا إلى أختى؛ ولكنه كان يحس بهذا الميل، ويغذِّيه على ما يبدو فى سكون إلى أن تحول إلى عشق كشف عن نفسه فجأة بوضوح لا لبس فيه. كانت تعرفه وتقدره وكان هو جديرا بذلك. وكانت كثيرا ما تكون ثالثتنا عندما نجلس ونتحادث باللغة الإنجليزية، وكنا نحاول أن نتعلم منه، ونأخذ عن فمه عجائب النطق الإنجليزى، بل كنا نتلقى خصوصيات النغمة والنبرة، ونتلقى فوق ذلك الخصوصيات الشخصية لمدِّرسنا، حتى كان كلامنا يحدث رنينًا عجيبا عندما نتكلم ثلاثتنا وكأنما كان يخرج من فم واحد. أما الجهود التى بذلها ليتعلم منا من الألمانية قَدْرَ ما كنا نتعلم منه الإنجليزية(١٦٥)، فلم توفق.

وأعتقد أننى لاحظت أن قصة الحب الصغيرة بينه وبين أختى اتصلت كتابة وشفاهة باللغة الإنجليزية. وكان الشابان مناسبين أحدهما للآخر. فقد كان هو أيضا

طويل القامة، وحسن البنية مثلها، ولكنه كان أكثر رشاقة منها، وكان وجهه صغيرا وضيقا، وكان يمكن أن يبدو جميلا لولا الجدرى الذى شوهه تشويها بالغا، وكان فى سلوكه هادئا، ثابتا مطمئنا، قد يصل إلى حد الجفاف والفتور، ولكن قلبه كان عامرا بالطيبة والحب، وكانت روحه مفعمة بالنبل، وكانت ميوله مستقرة، واضحة، ساكنة. كان هذان الاثنان الحادان اللذان اجتمع شملها أخيرا، يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافا بيِّنا، وبخاصة هؤلاء الذين يعرفون بعضهما بعضا معرفة أكبر، ويتسمون بشخصيات خفيفة، ولا يهتمون بالمستقبل إلا قليلا، ويضطربون فى مثل هذه العلاقات عابثين، تلك العلاقات التى تسبق عادة الارتباطات الجادة وكأنها تمهيد لا يجدى ولا يؤدى إلا فيما عز وندر إلى صلات وثيقة مستمرة تبقى مدى الحياة.

وكان الفصل من السنة هو فصل الجو الجميل، وشدت المنطقة الجميلة الصحبة البهيجة لتذهب إليها وتتعم بها، فكانت تركب السفن فى كثير من الأحيان لأن الرحلات النهرية أكثر بهجة وسمرا. وسواء ذهبنا بطريق النهر أو بطريق البر، فسرعان ما كانت قوى الجذب المتفردة تظهر وتعمل عملها، فكان كل اثنين مؤتلفين ينضمان معا، أما الرجال الذين لم يكونوا مخطوبين مثلى، فلم يكونوا ينعمون بالحديث إلى رفقة نسائية أو إن أتيحت لهم فلم تكن من النوع الذى يتمناه الإنسان فى مثل هذه الأيام البهيجة. وكان من بين الرفاق صديق[١٦٦] فى مثل هذا الوضع لم يؤت صحبة نسائية لا لشىء إلا لأنه، على الرغم من مزاجه الممتاز، ورفقته الطيبة وفهمه الواسع، لم تكن له القدرة على هذا اللون من المجاملة الذى لا تقوم مثل هذه الصلات إلا به. وشكا هذا الصديق مرارا من هذا الوضع شكاوى بعضها يقوم على العقل، وبعضها على المزاح، ثم وعد أن يقدم فى اللقاء التالى اقتراحا ينفعه وينفع الجميع. فلما كان اللقاء التالى لم يتقاعس عن تقديم ما وعد به. كنا قد قمنا برحلة نهرية رائعة، وقمنا بعد ذلك بنزهة لطيفة كل اللطف سيرا على الأقدام، واتكأنا على الكلأ النضير بين التلال الظليلة أو جلسنا على الصخر أو على جذور الأشجار المكسوة بالطحالب، وتناولنا بمزاج صاف سعيد وجبة ريفية، فنظر الصديق إلينا ورآنا فرحين مستبشرين، فأمرنا متصنعا مهابة هزلية أن نجلس على هيئة نصف دائرة، وتقدم ليلقى هذه الكلمة بحماس متكلف:

"أصدقائى العظام، صديقاتى العظيمات، من المتزوجات والمتزوجين وغير المتزوجين وغير المتزوجات.

من هذه العبارة الاستهلالية يتبين لكم منذ البداية كم تدعو الضرورة إلى قيام واعظ يوجه الكلام إلى ضمائر المشاركين فى هذه الصحبة من أصدقائى الكرام، طائفة تزوجت وسعدت بالحياة الزوجية، وطائفة لم تتزوج؛ وهى فى وضع سيئ إلى أقصى حد، وهو ما أستطيع أن أؤكده اعتمادًا على خبرتى الخاصة وعلى الرغم من أن المتزوجين هم الأغلبية، فإننى أطلب إليهم أن يفكروا فيما إذا كان من واجبهم حيال الجماعة أن يعم الخير الجميع. فما الذى يدفعنا إلى القيام برحلة كهذه فى جماعة كبيرة إلا إذا كنا نسعى إلى التعاون وتبادل المودة؟ وكيف يمكن أن يتحقق ذلك إذا كان الكثيرون فى جماعتنا ينفردون كل بزوجته أو خطيبته. وأنا بعيد كل البعد عن أن أتكلم بالسوء عن هذه العلاقات الجميلة أو المساس بها. ولكن لكل شىء وقته، هذه عبارة عظيمة جميلة لا يفكر فيها أحد إذا وجد لنفسه ما يكفيه من تسلية".

واستأنف خطابه بحماس وانبساط متزايدين عاقدا المقابلة بين الفضائل الاجتماعية وبين المشاعر العاطفية الرقيقة فقال:

"أما المشاعر العاطفية الرقيقة فهى لا تعوزنا أبدا، فنحن نحملها دائما فى نفوسنا، وكل منا يستطيع دون تدريب كبير أن يملك ناصيتها. أما الفضائل الاجتماعية فينبغى علينا أن نسعى إليها، وأن نجتهد فى بلوغها، ومهما توغلنا فيها، فإننا لا نتمكن منها تمكنا كاملا".

وبعد أن فرغ من هذا الكلام العام، انتقل إلى التفصيلات، وربما أحس هذا أو ذاك أنه هو المقصود وأخذنا ننظر بعضنا إلى البعض، ولكن الصديق كان ينعم بامتياز خاص، وهو أن الآخرين لم يكونوا ليغضبوا منه، ولهذا استأنف خطابه قائلا: "ولا ينبغى لنا أن نكتفى بالكشف عن العيوب، بل إننا نخطئ إذا اكتفينا بكشف العيوب. وإنما علينا أن نبين على الفور الوسيلة التى تؤدى إلى إصلاحه. ولست أريد أن أفعل

ما يفعله الواعظ فى أسبوع الآلام فأحثكم على الاستغفار وإصلاح ذات النفس، ولكننى يا أصدقائى الأعزاء، أتمنى لكل المتزوجين المتحببين سعادة دائمة غامرة، وحتى أسهم بنفسى فى ذلك إسهاما أكيدا، أقدم اقتراحا بأن يفترق الزوجان السعيدان الحبيبان فى أثناء الساعات التى تمضيها الصحبة معا".

ثم قال:

"ولقد فكرت فى طريقة التنفيذ، إذا ما حظى اقتراحى بالقبول، فهذا كيس فيه أسماء الرجال، فتعالين أيتها الحسناوات، ولتسحب كل واحدة ورقة فيها اسم الرجل الذى اختاره الحظ ليكون خادما لها ثمانية أيام، وليكن هذا اتفاقا قاصرا على اللقاء بين ظهرانى صحبتنا، فإذا انتهى اللقاء، انتهى كل ارتباط، وليرافقك إلى البيت الرجل الذى اختاره قلبك".

وسعد جزء كبير من الجماعة بهذا الخطاب وبالطريقة التى ألقى بها، وبدا عليه أنه قبل الاقتراح، ولكن بعض الأزواج والزوجات أخذوا ينظرون إلى أمام كالحالمين، يظنون أن الأمر ليس فى صالحهم، ولهذا فقد رفع الخطيب صوته فى حدة هزلية:

"حقا إننى لأدهش لأن أحدًا منكم لم ينتفض فيهب واقفا – على الرغم من تردد البعض – ويمتدح اقتراحي ويبين ميزاته ويوفر علىَّ أن أمدح نفسى وأنا أكبركم سنا، عفا الله عنى، وهذه صلعتى التى سببها إغراقى فى التفكير..." ورفع قبعته:

"... أعرضها على أبصاركم، بالشرف والبهجة معا، إذا كانت أفكارى التى جففت جلدى، وجردتنى من أجملَ زينة، يمكن أن تفيدكم بشىء. نحن صغار السن، وهذا شىء جميل، وستتقدم بنا السن، وهذا شىء قبيح، ونحن لا نلوم بعضنا بعضا، وهذا شىء لطيف ويناسب هذا الفصل من السنة، ولكن عما قريب ستأتى الأيام التى نلوم فيها بعضنا بعضا، وسيكون على كل واحد أن يجد السبيل ليرضى عن نفسه، ثم يأتى من يلومنا على بعض الأشياء، وبخاصة على أمور لا طاقة لنا على فهمها. ينبغى علينا أن نتهيأ لذلك وهذا هو ما نويت عليه."

كان قد ألقى الخطبة كلها، وبخاصة الجزء الأخير منها بنبرة راهب كاپوتشى وحركاته، فقد كان كاثوليكيا، وأتيحت له فرصة كافية، ليدرس بلاغة هؤلاء الآباء، وبدا عليه أنه قطع النفس، فراح يجفف صلعته الفتية التى أضفت عليه هيئة القسيس، وتمكن بهذه الطرائف من إدخال البهجة إلى قلوب هذه الصحبة الطائشة التى كان كل واحد فيها يشتاق إلى المزيد. ولكنه بدلا من أن يقول المزيد أخذ الكيس واتجه إلى أقرب واحدة وقال:

"التجربة هى التى ستحسم الموقف. والعمل هو الذى يمدح صاحبه. وإذا لم نرض عن التجربة بعد ثمانية أيام، ننصرف عنها ونعود إلى القديم."

وجذبت السيدات، بين راغبات وراهبات، الأوراق الملفوفة، واتضح بسهولة فى هذه الحركة البسيطة أن هناك غراميات مختلفة متصلة. ومن الأشياء المفرحة أن المرحين انفصلوا، والجادين بقوا معًا، وهكذا بقيت أختى مع خطيبها الإنجليزى. وقد أسعدهما الحظ وإله الحب معًا. أما الأزواج الذين اختارهم الحظ فقد جمعهم الرئيس[١٦٧] وشرب نخبهم، وتمنى لهم بهجة وسرورا فى الوقت القصير الذى سيتاح لهم.

وما من شك فى أن تلك اللحظة كانت أبهج لحظة نعمت بها صحبتنا منذ وقت طويل. أما الشباب الذين لم ينالوا رفقة نسائية، فقد آلت إليهم، كما قال الخطيب، مهمة خدمة العقل والروح والبدن طوال الأسبوع، وبخاصة الروح، لأن العقل والبدن سيعرفان كيف يدبران أمورهما وحدهما.

وقام المشرفون الذين كانوا مسارعين إلى فعل ما يشرفون به، بتنظيم ألعاب جديدة لطيفة، وأعدوا على بعدٍ مائدة لطعام العشاء لم يكن أحد يتوقعها، وأناروا اليخت فى طريق عودتنا ليلا بأنوار الزينة على الرغم من أن ضوء القمر كان كافيا، ولم تكن هناك حاجة إلى أنوار أخرى، وتعللوا بأن النظام الاجتماعى الجديد تناسبه على نحو خاص تغطيه النظرات الرقيقة لقمر السماء بأنوار من الأرض. وفى اللحظة التى

وصلنا فيها صاح سولون[٦٦٨] زماننا باللاتينية : "انتهينا"[٦٦٩] فسار كل شاب بالسيدة التى خصه به الحظ من السفينة إلى البر، وسلمها إلى زوجها أو خطيبها، وردت إليه زوجته أو خطيبته.

فلما جاء موعد اللقاء التالى أقر هذا الترتيب الأسبوعى طوال الصيف وأجريت القرعة من جديد. وما من شك فى أن هذا المزاح أدى إلى تحول فى صحبتنا لم يكن أحد يتوقعه، وأصبح كل واحد يحس بدافع يحفزه إلى التعبير عن خير ما يتفق عنه العقل، ويتفق مع الجمال والرقة، حتى يرضى صاحبته المؤقتة على خير وجه، ويطمئن نفسه بأن سيتزود ما يكفى أسبوعا من زاد التلطف والإعجاب.

وما كدنا نفرغ من الاستعدادات حتى بدأ البعض يوجه إلى خطيبنا، بدلا من عبارات الشكر، عبارات اللوم لأنه احتفظ لنفسه بأفضل جزء من الخطبة، ألا وهو الختام. فرد قائلا إن أفضل جزء فى خطبته كان الإغراء، فمن لا يستطيع أن يغرى المستمعين، لا ينبغى له أن يخطب. أما الإقناع فأمر عسير. فلما لم يتركوا له، على الرغم من ذلك، فرصة للراحة، بدأ بخطبة كابوتشية أكثر هزلاً مما سبق، ولعلها كانت كذلك لأنه كان يتظاهر بأنه ينوى أن يقول كلامًا جادًا. فقد استخدم عبارات من الكتاب المقدس تعمَّد أن تكون غير مناسبة، وتشبيهات تعمَّد أن تكون خاطئة، وتلميحات لا تشرح شيئًا، ليعالج موضوعًا يتلخص فى أن الإنسان الذى لا يعرف كيف يخفى عواطفه وميوله وآماله ونواياه وخططه إنسان لا يصل إلى شىء فى الدنيا، ويتعرض فى كل صوب وحدب للاضطراب وللسخرية، وإذا كان الإنسان يريد أن يسعد فى الحب فعليه أن يأخذ نفسه بأشد ألوان الكتمان.

وتداخلت هذه الفكرة فى الخطبة فى مجموعها دون أن ترد كلمة واحدة مباشرة عنها. وإذا أردنا أن نكوِّن صورة عن هذا الإنسان الغريب فلنقل إنه أتى الدنيا بمواهب موروثه، وإنه طور استعدادته وألمعيته ودربها فى مدارس اليسوعيين، وتلقى معرفة واسعة بالدنيا وبالناس، ولكن من الناحية القبيحة. كان فى حوالى الثانية والعشرين من عمره، وكان يحب أن يتخذنى تابعا من أتباعه فى

احتقار البشر، ولكن آراءه لم تفلح معى، لأننى كنت دائما أشعر برغبة قوية فى أن أكون طيبا وفى أن أجد الآخرين طيبين. ولكننى تنبهت عن طريقه إلى أمور كثيرة. والصحبة المرحة لا تكتمل هيئتها إلا إذا كان فيها ممثل يسعد بأن يبث الحياة فى اللحظات البليدة التى يتعرض لها الآخرون موجها إليها سهام الفكاهة. فإذا لم يكن مجرد تمثال من القش، مثل الدمية التى يسدد إليها الفرسان الرماح وهم يلعبون، بل يفهم كيف يعالج السلاح فيحفز ويثير ويستفز ويجرح قليلا ويتراجع، ويتظاهر بأنه ينهار، ليسدد إلى الآخرين ضربة عصماء، فإنه يفعل شيئا لطيفا لا يتصور الإنسان ما هو ألطف منه. كان لدينا هذا الممثل فى شخصية صديقنا هورن(١٧٠)، الذى كان اسمه الذى يعنى "قرين" سببا فى كثير من المزاح، وكنا نسميه، نظرا لقصر قامته هورنشن قُرين. وكان فعلا أقصر شاب فى المجموعة، مضطرب الهيئة، وإن ظل لطيفا يبتهج الناس لمرآه. كان أنفه أفطس، وفمه ضخم الشفتين، وعيناه السوداوان البراقتان تؤلف جميعا وجها أسمر اللون يميل إلى الدكنة، يبدو أنه كان دائما يبعث على الضحك. وكانت جمجمته المدكوكة مغطاة بشعر أسود كثيف مجعد. ولقد اصطبغت لحيته قبل الأوان بلون الشيب الباهت، وكان يحب أن يدعها تنمو كثة حتى يستخدمها كقناع هزلى يضحك الصحاب. وكان بصفة عامة خفيف الحركة، وكان يدعى أن ساقيه مقوستان، وكان الصحاب يوافقونه على ادعائه هذا لأنه كان يحب أن تكونا كذلك، ولأن كثيرا من حديث المزاح كان يدور حول هذا الموضوع. كانت النساء يحببن أن يرقصن معه لأنه كان راقصا ماهرا ، وكان يرى أن من غريب ما تفعله النساء الإعجاب بالسيقان المقوسة فى حلبة الرقص. كان مرحه أكيدا لا سبيل إلى هدمه، وكان وجوده فى كل لقاء لنا شيئا لا مفر منه. ولقد توطدت الصلات بيننا عندما تبعنى إلى الجامعة، وهو يستحق أن أذكره بكل تكريم وتشريف، لأنه ظل سنوات طوال يخصنى بحب لا حد له وإخلاص لا تنفصم عراه.

وقد أغراه ما أجده من سهولة فى كتابة القصائد واستخلاص ما فى الأشياء العادية من سمة شاعرية فأخذ يحاول هو أيضًا كتابة أشياء شبيهة. فكنا نشجع رحلاتنا الصغيرة الأليفة، وحفلاتنا السامرة، وما يطرأ فيها من مفاجآت ونغذيها بالشعر، وكان تصوير واقعة ما يؤدى إلى واقعة جديدة وهكذا دواليك. ولما كانت أمثال هذه الفكاهات فى اللقاءات السامرة تنتهى عادة إلى السخرية بالناس، ولما كان الصديق هورن لا يلتزم فى تصويراته الهزلية بحدود اللياقة، فربما تملك البعض الغضب، ولكن هذا الغضب كان سرعان ما تخف حدته، وينتهى.

وهكذا جرب قلمه فى نوع من الشعر كان شائعا فى تلك الفترة، وهو نوع القصيدة البطولية الهزلية. وكانت قصيدة پوپ[١٧١] "خطف خصلة من الشعر" قد حفزت الكثيرين على تقليدها، ونقل تساخاريا[١٧٢] هذا النوع الشعرى إلى الديار الألمانية، فأعجب بها الجميع، لأنها كانت تدور عادة حول رجل أبله تهزأ به الجنيات منتصرة للرجل الأفضل.

والإنسان لا يجد ما يثير إعجابه، بل ما يحرك فيه الدهشة، عندما يتأمل أدبا ما وبخاصة الأدب الألمانى، فيتبين كيف أن أمة بأسرها لا تستطيع أن تتخلص من قالب معين ظهر مرة، وعالج موضوعا من الموضوعات على نحو ناجح، بل إنها تظل متمسكة به، حريصة على أن يعاد ويتكرر بكل السبل، حتى يتوارى الأصل نفسه فى النهاية ويختنق تحت تل من التقليد والمحاكاة. وكانت القصيدة البطولية التى كتبها صديقى شاهدا على هذه الملحوظة. وتدور حول رجل أبله كان فى أثناء رحلة بالزحافات فارس[١٧٣] سيدةٍ لم تكن تطيقه، وتعرض للمصائب الواحدة بعد الأخرى على نحو هزلى، وكانت مصائب من النوع المألوف فى مثل هذه المناسبات، حتى إذا طلب من السيدة فى النهاية حق الزحافة، وهو أن يقبلها، انقلب من فوق مقعده، فقد وضعت الجنيات ساقا فى طريقه، كالمعتاد، لينكفئ على وجهه. وقبضت الحسناء على اللجام وانطلقت وحدها إلى البيت، حيث استقبلها الرجل المحظوظ، وانتصر هكذا على غريمه المتحزلق. وكان تصوير الجنيات مبتكرا ولطيفا غاية اللطف، حيث تتابعت

عليه الجنيات الأربع، حتى جاء دور الجنيات القزمية فى النهاية وأوقعته من السرج. ولقد أمتعت القصيدة التى كانت منظومة على البحر السكندرى، ومعتمدة على قصة حقيقية، الجمهور الصغير امتاعا كبيرا، وكان من رأيه أنها على مستوى قصيدة "النفاج" لتساخاريا.

كانت هذه التسلية الجماعية تشغلنى أمسية واحدة فى الأسبوع وكانت الاستعدادات لها لا تستغرق أكثر من ساعات قلائل، وهكذا فقد كان لدى وقت لأقرأ، ولأدرس، كما ظننت. وراجعت إرضاء لوالدى كتاب "هوبـة" الصغير(١٧٤) مراجعة متينة، حتى بات من الممكن أن أمتحن فيه من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله، واستوعبت التشريعات(١٧٥) استيعابًا كاملا. إلا أن حب المعرفة دفعنى إلى المزيد، فتوغلت فى تاريخ الأدب القديم، ثم فى الكتب الموسوعية حيث طالعت كتاب "إيساجوجى"(١٧٦) لجسنر، و" پوليهستور"(١٧٧) لمورهوف، وكونت فكرة عامة عن الأشياء الغريبة التى ظهرت فى العلم وفى الحياة. ولكن هذه القراءة الدؤوبة المتسرعة التى عكفت عليها ليلاً ونهارًا سببت لى الاضطراب أكثر مما عادت على بالفائدة. ووجدت نفسى فى متاهة أكبر عندما تعمقت فى قراءة قاموس بيل(١٧٨) الذى وجدته فى مكتبة أبى.

وتكونت لدىَّ قناعة أساسية ظلت تتجدد بمرور الزمن، وهى أهمية اللغات القديمة، فكثيرا ما كان يتكشف لى من خلال الاضطراب الأدبى الذى تواجهنى آياته أن اللغات القديمة تزخر بكل نماذج البلاغة كما تزخر بكل ما أوتى العالم من كريم جليل. ولقد انكمشت اللغة العبرية التى تعلمتها، والدراسات التى قمت بها فى الكتاب المقدس وانزوت إلى الظل، كذلك اللغة اليونانية التى لم تكن معلوماتى فيها تتجاوز (العهد الجديد) من الكتاب المقدس، ولكننى كنت شديد الاهتمام باللغة اللاتينية التى كنا نحس بروائعها قريبة من نفوسنا، والتى كانت تقدم إلينا، إلى جانب اعمالها الأصلية، ما تزودت به على مر العصور من ترجمات(١٧٩) وأعمال العلماء العظام، لهذا كنت أقرأ الكثير بهذه اللغة فى سهولة كبيرة، وسمحت لنفسى بان أعتقد أننى أفهم المؤلفين لأننى

كنت أفهم المعنى الحرفى كاملا، ولكم غضبت عندما سمعت أن جروتسيوس[١٨٠] قال فى زهو وتعال إنه يفهم تيرنس[١٨١] على نحو يختلف عن فهم الصبية له. ياله من تقييد سعيد لأفق الشباب، بل للبشر جميعا عندما يظنون أنفسهم فى كل لحظة من لحظات وجودهم قد بلغوا الكمال، وهم لا يسألون عن الصواب والخطأ، عن العظمة والحضيض، وإنما يسألون فقط عما يناسبهم.

وكنت قد تعلمت اللاتينية كما تعلمت الألمانية والفرنسية والإنجليزية، على أساس الممارسة، دون قواعد، ودون فهم للنحو. ومن يعلم الوضع الذى كان عليه التعليم فى ذلك الوقت، لا يدهش لأننى تجاوزت النحو وتجاوزت البلاغة، واكتفيت بملاحظة أن كل شىء فى اللغة يسير على نحو طبيعى، فكنت أحفظ الكلمات وتكوينها وتصاريفها فى أذنى وعقلى، واستخدم اللغة بسهولة فى الكتابة والثرثرة.

وحل يوم ميشائل[١٨٢] – أواخر سبتمبر – الذى تقرر أن أذهب إلى الجامعة فيه، وتحركت أعماقى جياشة بأمور الحياة والعلم، وبدأت أحس على نحو متزايد الوضوح بنفور من المدينة التى شهدت مولدى، وكان بعد جرتشن سببا فى تحطم قلب هو غرس الصبا والشباب، وكان هذا الغرس الذى تحطم بحاجة إلى وقت لينبت من الجوانب مرة أخرى، وليتغلب بنماء جديد على الإصابة الأولى. وتوقفت جولاتى التائهة خلال الشوارع، وأصبحت أسير مثلى مثل الآخرين على طرق محدودة تدعو إليها الضرورة. ولم أذهب قط إلى حى جريتشن، ولا إلى المنطقة التى يقع فيه؛ وكما أن أسوارى وأبراجى القديمة قد أصبحت أحمالا ثقيلة على نفسى، كذلك أصبحت أرى دستور المدينة الجمهورية شيئا قبيحا. وتحول كل ما كان يلوح لى عظيما مجيدا إلى صور مشوهة لا عظمة فيها ولا مجد. ولما كنت حفيد العمدة فقد عرفت العيوب الخفية لمثل هذه الجمهورية، وبخاصة لأن الصبية شعروا بنوع خاص من الاندهاش، وبرغبة خاصة تحفزهم على إجراء البحوث العنيدة، والتحقيقات الدؤوبة عندما يساورهم الشك فى شىء كانوا يمجدونه بغير حدود. ولقد تبينت بوضوح ما بعده وضوح الغضب اليائس الذى يتملك الرجال المخلصين فى صراعهم مع أولئك الذين يسهل على

الأطراف المختلفة أن تستميلهم أو أن ترشيهم، ولقد كرهت الظلم أيا كان نوعه بلا حدود، لأن الأطفال جميعا لا يحيدون فى أمور الأخلاق بفطرتهم عن الصراط المستقيم. وكان أبى الذى لم يشارك فى شئون المدينة إلا مشاركة مواطنٍ عادى، يستخدم عبارات حادة للتعبير عن غضبه من أمور الحكومة المضطربة الفاشلة. ألم أره بعينى – بعد أن قام بدراسات كثيرة، وجهود كثيرة، وجهود عظيمة، ورحلات بعيدة، وثقَّف نفسه ثقافة منوعة – وقد انتهى به الأمر إلى أن يبقى بين جدران بيته الملاصقة لبيوت الآخرين، يعيش حياة عزلة لا يمكن أن أتمناها لنفسى؟ كان هذا كله يطأ قلبى بثقل بشع أتمنى أن أخلص منه بأن أتخذ لحياتى خطة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى رُسمت لى، خطة كنت أسعى للتوصل إليها. ولهذا فقد نبذت فى فكرى دراسة الحقوق، وكرست نفسى لدراسة اللغات والآثار والتاريخ وكل ما يتفرع عنها.

وكنت أجد فى كل وقت متعة فائقة فى التعبير بالشعر عما أدركه فى نفسى وفى الآخرين وفى الطبيعة. وكان أمر هذا التعبير الشعرى يلين لى ويسهل فى يدى على نحو متزايد، لأنه كان يأتى وليد الفطرة، ولم يكن النقد قد أضله عن الطريق. وإذا كنت أحيانا لا أرضى عن بعض إنتاجى كل الرضا، فإننى لم أكن أنكره كل الإنكار، بل كنت أرى فيه عيوبا أو أخطاء، إذا عاب البعض فى عمل من أعمالى كلَّشيئا، فقد كنت فيما بينى وبين نفسى أظل مقتنعا بأننى سأتحسن شيئا فشيئا، وبأننى سأُذكر ذات يوم بالتكريم مع هاجيدورن[١٨٣] وجيللرت[١٨٤] وأمثالهما. ولكن هذه الموهبة وحدها بدت لى خاوية، ناقصة، ولهذا عزمت على أن أقوم بدراسات جادة متعمقة فى المواد التى أشرت إليها من قبل، وأن أتقدم فى فهم تراث العصور القديمة على نحو أكمل، وأحرز فى الوقت نفسه تقدما سريعا فى أعمالى الخاصة، وأؤهل نفسى لوظيفة تدريس فى الجامعة، فقد لاحت لى هذه الوظيفة أسمى ما يصبو إليه الشاب الذى يفكر فى تثقيف نفسه وتثقيف الآخرين.

وكنت وأنا أفكر هذه الأفكار أضع جوتينجن[١٨٥] أمام ناظرى، وكانت ثقتى فى رجال مثل هاينه[١٨٦]، وميشائيليس[١٨٧] ومن على شاكلتهم كاملة، وكنت أتمنى من كل قلبى أن أجلس إلى أقدام هؤلاء وأتلقى العلم عليهم. ولكن أبى ظل متمسكا

برأيه، ولقد حاول بعض أصدقاء الأسرة ممن رأوا رأيى أن يؤثروا عليه، ولكنه صمم على أن أذهب إلى لايبتسيج. وفكرت فى أن اتخاذ قرار مضاد لآرائه ولإرادته للقيام بالدراسات التى أريدها، وانتهاج سبيل الحياة التى أرومها، سيكون من نوع الدفاع المشروع عن النفس. ولقد أدى عناد أبى – الذى كان دون علم منه يعارض مخططاتى – إلى خروجى على ما تفرضه التقوى، فلم أكن أحس بوخز فى الضمير عندما كنت أنصت إليه الساعات الطوال وهو يصف لى نهج الدراسة والحياة التى ينبغى علىّ أن أنتهجه فى الجامعات وفى الدنيا، ويعيد وصفه على مسامعى".

فلما تبددت كل آمالى فى الذهاب إلى جوتينجن يممت وجهى شطر لايبتسيج. وهناك وجدت إرنستى[١٨٨] يلوح لى كالنور الوضاح، وموروس[١٨٩] يحوز ثقتى الكبير. وفكرت فى أن أتخذ لنفسى مسارًا مضادًا أو على الأحرى بنيت لنفسى قصرًا الهواء على قرار مكين؛ وبدا لى شيئا مسرفا فى الخيال، أن يقوم الإنسان مقدما برسم طريقه فى الحياة، طريقا لا يخالطها الوهم لأن جرسباخ[١٩٠] حقق تقدما عظيما على هذا النحو أو ما يشابهه، واستحق التقدير والثناء من كل إنسان. لا يمكن أن تكون فرحة السجين عندما توشك أغلاله أن تحل، وتوشك نافذة زنزانته على الخضوع للمبرد والمنشار، أعظم من فرحتى وأنا أرى الأيام وأنا أرى الأيام تنقضى وأرى شهر أكتوبر يقترب. ولم يفزعنى هذا الفصل الصعب الثقيل من فصول السنة، بجوه الردىء، وطرقه الموحلة القبيحة، وما يحكيه عنه كل إنسان من أهوال. ولم أحزن وأنا أتصور أننى سأقيم فى مكان ما عداها فأى مكان من العالم المجهول سيكون مشرقا وضاحا. هكذا صنعت أحلامى واستسلمت لها كل الاستسلام، ومنيت نفسى بأننى لن ألقى فى البعد شيئًا آخر سوى الرضا والسعادة.

وإذا كنت قد كتمت أسرار مشروعاتى ومخططاتى على كل الناس، فإننى لم أخفها على أختى التى فزعت فى البداية أشد الفزع ثم هدأ روعها بعد ذلك، عندما

وعدتها بأن أعود إليها وآخذها لتتمتع معى بالوضع الباهر الذى سأحققه لنفسى ولتشاركنى النعمة التى ستتاح لى.

وأتى يوم ميشائل أخيرا، بعد طول انتظار وشوق، وركبت العربة مع الكتبى فلايشر[١٩١] وزوجته، وهى من أسرة تريللر، وكانت قاصدة ڤيتنبرج لتزور أباها، وسافرت سعيدًا، تاركا وراء ظهرى المدينة العظيمة التى أنجبتنى وربتنى، غير عابئ بها، وكأننى لن أنزلها بعد الآن أبدًا.

وهكذا تأتى فترات ينفصل فيها الأولاد عن أبويهم، والخدم عن سادتهم، والمحظوظين عن أرباب الحظوة، ليقفوا على قدميهم، وليكونوا ذواتهم، ويحاولوا محاولة قد تنجح وقد تفشل، ولكنها تتفق مع إرادة الطبيعة على أية حال.

وخرجنا من بوابة كل القديسين، وسرعان ما تجاوزنا هاناو، ونزلنا بقاعا جديدة علىَّ، شدت انتباهى لهذا السبب، على الرغم من أن منظرها فى هذا الفصل من السنة لم يكن يدخل من البهجة إلى النفس إلا الشيء القليل. فقد انهمر المطر بغير انقطاع وأفسد الطرق أشد الإفساد، ولم تكن الطرق قد اتخذت بعد الوضع الطيب الذى اتخذته فيما بعد. ولهذا فلم تكن رحلتنا لطيفة، ولم تكن بهيجة. ولكننى أعرف لأننى لم أر مثلها من قبل، ولم أر مثلها بعد ذلك أبدا، ولم أسمع من الآخرين أنهم أبصروا بمثلها. كنا سائرين بين هاناو وجلنهاوزن فى الليل، وكانت العربة تجد صعوبة فى صعود الطريق الوعر الموحل، وعلى الرغم من الظلام الحالك، فقد فضلنا أن ننزل ونسير على أقدامنا بدلاً من أن نعرض أنفسنا للخطر والعسر فى هذه المسافة من الطريق. وفجأة رأيت على الناحية اليمنى من الطريق، فى مكان منخفض، ما يشبه الساحة ذات المدرجات فى المسارح القديمة وقد أضاءت بنور عجيب، فقد أُومضت فى بقعة على هيئة القمع أنوارُ ضئيلة كثيرة، لا حصر لها، بعضها فى طبقات فوق بعض، وكان سناها باهرا يخطف البصر. أما ما أحدث المزيد من الاضطراب، فكان تحرك هذه الأنوار، فهى لم تبق ساكنة، بل أخذت تتقافز من حين لآخر، تارة من أعلى إلى أسفل، وتارة من أسفل إلى أعلى.

وفى كل الجهات، ولكن غالبية الأضواء ظلت هادئة ترتعش. ولقد نادى علىّ رفاق السفر، فتركت هذا المنظر كارها وعدت إليهم، وكنت أحب أن أستمر فى التطلع إليه وتأمله بدقة أكبر. فلما سألت السائق تبينت أنه لا يريد أن يسمع شيئا عن هذه الظاهرة، ولكنه قال إن هناك على مقربة من هذا الموضع محجر قديم، فى وسطه منخفض ممتلئ بالماء. فهل كانت تلك ساحة سحرية تعمرها الأنوار المضللّة(١٩٢)؟ أم هل كانت تلك طائفة من الكائنات المضيئة؟ هذا ما لا أستطيع أن أجزم به.

وزادت الطرق خلال ربوع تورينجن سوءًا، وانغرست عربتنا للأسف عند حلول الليل فى الطين فى منطقة أُورشتيت، بعيدًا عن الناس، وحاولنا قدر الطاقة أن نُخرج العربة من الوحل، وأجهدت نفسى إجهادا شديدا، مما شد أوتار صدرى أكثر مما ينبغى، لأننى ما لبثت أن أحسست بألم فى الصدر، تلاشى بعد برهة ثم عاودنى، وظل يتلاشى ويعاودنى، ولم يتلاش نهائيا إلا بعد أعوام كثيرة.

وكأنما كانت تلك الليلة ليلة اختارها القدر لأحداث متضاربة، إذ تعرضت بعد مشهد بهيج جاء على غير انتظار، إلى نكد مثير وغم ثقيل، قابلنا فى أورشتيت زوجين وجيهين، جرى عليهما مثل الذى جرى علينا، فوصلا متأخرين. كان الرجل مهيبا حسن الهيئة فى أفضل سنوات العمر، وكانت معه زوجته الحسناء، وطلبا إلينا، على سبيل المجاملة أن ننضم إليهما ونتناول الطعام معًا فى الحانة، وسعدت سعادة كبيرة عندما وجهت إلىّ السيدة الممتازة كلمة لطيفة. فلما أرسلونى لأتعجل الحساء الذى طلبوه، تملكنى النعاس، فما كنت أعرف السهر، ولا كنت قد اعتدت متاعب السفر، وكان النعاس عنيفًا، لا سبيل إلى التغلب عليه، حتى إننى نعست فى أثناء المشى، وعدت إلى الحجرة والقبعة فوق رأسى، ولم ألحظ أن الآخرين منهمكين فى الصلاة التى تؤدَّى قبل تناول الطعام، فوقفت وأنا على هذه الحالة خلف الكرسى، ولم يخطر ببالى أننى بمسلكى هذا الذى يثير الضحك قد أفسدت عليهم صلاتهم. وتدخلت مدام فلايشر وكانت امرأة حاضرة البديهة، سريعة العبارة، فرجت الرجلين، قبل أن يجلسا ألا يجدا غرابة فى المنظر الذى تقع عليه أعينهم، قائلة: إن هذا المسافر الشاب شديد الحماس لجماعة الكويكر التى اتبعها، إنهم يحترمون الله والملك احتراما أكبر عندما

يُبقون قبعاتهم على رؤوسهم(١٩٣) ولم تستطع المرأة الحسناء أن تمنع نفسها من الضحك، فازدادت حسنا، ولو استطعت أن أدفع كل ما فى الدنيا من مال لأقضى على منظرى هذا المثير للضحك والسخرية الذى مثل أمام عينيها على هذا النحو العجيب لفعلت، فقد حزَّ فى نفسى حزا عميقًا. وما رفعت القبعة عن رأسى ووضعتها إلى جانبى، حتى كف الناس عن الضحك، حسب تقاليد المجتمع الراقى، ومحوا بأفضل نبيذ فى جعبتهم ما تملكنى من نعاس وغضب وتفكير فى آلام ومنغصات مضت، فلم يبق لها أثر.

فلما وصلت لايبتسيج كان الوقت وقت إقامة السوق، فوجدت متعة خاصة لأننى رأيت هنا استمرارا لوضع أليف إلى نفسى فى مدينتى، فهذه هى البضائع، وهؤلاء هم الباعة، وإن اختلف المكان، وتباين النظام والترتيب. وجُلت فى جنبات السوق وتطلعت إلى الدكاكين باهتمام كبير، وشد انتباهى على نحو خاص أهل الربوع الشرقية، من بولنديين وروس ويونانيين، بملابسهم الغريبة، وكثيرا ما ذهبت إلى السوق لأراهم بأشكالهم المتميزة وثيابهم المهيبة، وأحس لذلك بالمتعة والبهجة.

ولكن هذه الحركة النشيطة سرعان ما انتهت بانتهاء السوق، وتجلت أمامى المدينة بمبانيها الجميلة العالية المتشابهة، وأحدثت فىّ انطباعًا طيبا جدا؛ وليس من الممكن أن ننكر أنها فى أيام الآحاد والأعياد لها طابع مهيب، وأن شوارعها الجذابة فى ضوء القمر، بين ظل ونور كانت تشدنى لأقوم فى الليل بنزهات فى جوانبها.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الطابع الجديد لم يُرض ذوقى بالقياس إلى ما كنت قد ألفته حتى ذلك الحين. فلايبتسيج لا تعود بزائرها إلى زمن قديم، بل إن ما فيها من عمائر يتصل بالعصر الحاضر المرتبط بماض قريب عامر بالنشاط التجارى والثراء والسعة. ولكننى رضيت كل الرضا على العمائر التى بدت لى هائلة، وكانت تطل على شارعين بواجهتين، وتضم أحواشا تعج بحياة أواسط الناس من حولها جدران عالية تكاد تصل إلى السماء وكأنما كانت صروحا ضخمة أو قطائع من المدينة توشك أن تشغل نصف مساحتها.

وأقمت فى عمارة من هذه العمائر العجيبة، فى "كرة النار"[١٩٤]، بين السوق الجديدة والسوق القديمة. وشغل الكتبى فلايشر حجرتين لطيفتين تطلان على الحوش، حيث يتناهى إلى السمع قدرٌ غير قليل من الضجيج الصادر عن حركة الغادين والرائحين، واتخذهما فى أثناء السوق، ثم استأجرتهما أنا لباقى العام بأجر مقبول، وكان جارى فى الحجرة المتاخمة طالب[١٩٥] يدرس اللاهوت، كان على علم واسع بتخصصه، حسن التفكير، ولكنه كان فقيرا، وكان يعانى من مرض فى عينيه يجعله قلقا أشد القلق على مستقبله، ولقد جلب لنفسه هذا المرض نتيجة للإفراط فى القراءة حين يحل الظلام ويشتد، بل كان فيوفر زيت المصباح ويقرأ فى ضوء القمر. وكانت صاحبة البيت العجوز كريمة معه، وكانت طيبة معى، وكانت تشملنا جميعا بالرعاية.

وأسرعت بكتاب التوصية إلى المستشار بومه[١٩٦]، الذى كان تلميذا لماسكوف ثم خلفه على الكرسى، حيث درس التاريخ والقانون العام، وكان رجلا قصيرا بدينا، مليئا بالحيوية. واستقبلنى استقبالا وديا، وقدمنى إلى زوجته، فأحدثا فى، ومن بعدهما كل من زرتهم، انطباعًا عظيمًا بالنسبة لإقامتى المستقبلة، ولكننى لم أكشف لأحد فى البداية ما كنت قد نويت عليه، على الرغم من أننى كنت أتعجل اللحظة المواتية لأتخلص من دراسة القانون، وأعلن اهتمامى بدراسة تراث الأقدمين. وانتظرت حريصا حتى يرحل السيد فلايشر وزوجته لكى لا يصل خبر نواياى إلى أهلى بسرعة مفرطة.

ثم ذهبت مباشرة إلى المستشار بومه، ورأيت من الصواب أن أحدثه فى السر عن الأمر كله، وشرحت له بالأدلة الواضحة ما قر رأيى عليه. وكان كأى أستاذ للتاريخ والقانون العام يكره كل ما يحمل طابع العلوم الجميلة – أى الآداب – أشد الكره وأصرحه، لأنه للأسف لم يكن على علاقة طيبة بالمشتغلين بها، وبخاصة جيللرت، الذى لم يكن يطيقه، وكنت أنا، لقلة حنكتى قد عبرت عن إعجابى الشديد به. ولم يكن ليرضى بحال من الأحوال بأن يبعث بطالب عزيز عليه إلى هؤلاء الرجال، ويضيعه على نفسه، وفى هذه الظروف بالذات. ولهذا ألقى على موعظة عنيفة مرتجلة، أكد لى

فيها أنه لا يستطيع بغير موافقة والدى أن يعتمد مثل هذه الخطوة، ولو كان هو نفسه راضيًا عنها، وإن لم تكن هذه هى الحال بالنسبة إلىّ. وهاجم فى عنف فقه اللغة ودراسات اللغة، وهاجم على نحو أشد الممارسات الشعرية التى كنت قد ألمحت إليها من بعيد، وختم كلامه قائلا إننى إذا كنت مهتما بالاقتراب من فكر القدماء فأفضل سبيل إلى ذلك هو دراسة القانونيين، وذكر لى عددا من القانونيين المرموقين مثل إيڤرهارد أوتو(١٩٧)، وهاينيكيوس(١٩٨) ووعدنى بجبال من الذهب أحصل عليها عند دراسة الآثار الرومانية وتاريخ القانون، وبيَّن لى بوضوح دونه وضوح الشمس، أننى فى هذه الحال لا أسير خلال طرق ملتوية إلى الهدف، إذا كنت فى مستقبل الأيام، بعد تفكير عميق وموافقة والدى، لازلت مصمما على ما نويت عليه. وطلب منى فى ود أن أفكر فى الموضوع مرة أخرى، وأن أبلغة قريبا بما انتهى إليه، فهناك ضرورة لاتخاذ القرار بسرعة نظرًا لقرب موعد ابتداء المحاضرات.

كان جميلا منه أنه لم يلح على أن أعطيه الإجابة على الفور، وكانت الحجج التى اعتمد عليها والثقل الذى أكدها به، كافية لإقناع شبابى اللين الغض، وكان لى فى كلامه ما بيَّن لى الصعاب والمخاطر التى تحف بموضوع كنت أتصوره بينى وبين نفسى سهل التنفيذ. ثم دعتنى السيدة حرم المستشار بومه لزيارتها بعد ذلك بقليل، ووجدتها وحدها، وكانت قد تجاوزت سن الشباب، وأصبحت مريضة كثيرة المعاناة، ولكنها كانت رقيقة وعطوفة إلى أقصى حد، وكانت فى خلقها على النقيض من زوجها الذى كان طلق الطبع، طيب الطوية، قلبه على لسانه إلى درجة الصخب والجلجلة. وفاتحتنى فى الموضوع الذى كلمنى فيه زوجها مؤخرا، وعرضت القضية أمامى مرة أخرى فى ود ورقة وتفهم، وبينتها لى كاملة من كل جوانبها، حتى إننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التراجع، وقبل الجانب لآخر – وهو المستشار بومه – التحفظات القليلة التى ظللت مصمما عليها.

ونظم زوجها بعد ذلك ساعات دراستى، وأصبح علىَّ أن أدرس الفلسفة وتاريخ القانون ومبادئ القانون وأشياء أخرى، ورضيت بها، ولكننى أصررت على أن أستمع

إلى محاضرات تاريخ الأدب التى يلقيها جيللرت معتمدا على كتاب شتوكهاوزن[١٩٩]، وأن أختلف كذلك إلى دروسه العملية.

كان جيللرت يحظى من الشباب بتقدير وحب يفوقان المألوف. وكنت قد زرته فاستقبلنى بالود، ولم يكن طويل القامة، بل معتدل الطول، وكان رقيق البنية دون نحافة، وكانت عيناه وديعتين تميلان إلى الحزن، وكانت جبهته جميلة جدا، وكان أنفه قان، وفمه رقيقا، ووجهه بيضاويا لطيفا، وكانت كل هذه التقاطيع تضفى على شخصيته لطفا وتجعل الحديث إليه مستحبا. وكان الساعى إلى لقائه يجد صعوبة فى الوصــول إليــه لأن تلميذية المــلازمين له كانا يبدوان مثل كهنة يحرسون هيكلا قدسيا لا يسمحون لكل إنسان فى كل وقت بالــدخول إليه. وكانت هذه الحيطة ضرورية، وإلا لضاع يومه كله إذا استقبل كل الناس الذين يسعون إلى التقرب فى ألفة إليه، وأرضاهم.

واختلفت فى البداية إلى المحاضرات نشيطا مواظبا، ولكن الفلسفة لم تلن لى، ووجدت فى المنطق غرابة، كان يلزمنى بأن أتناول العمليات العقلية التى كنت أمارسها منذ الصغر بسهولة بالغة، فأفسخها وأفرقها بل أحطمها حتى أدرك كيف يكون استخدامها استخداما صحيحا. وكان رأيى أننى أفهم عن الأشياء وعن العالم وعن الرب قدر ما يفهم المدرس نفسه الذى كان مذهبه يلوح لى مضطربا فى أكثر من ناحية. ولكننى تابعت المحاضرات بانتظام إلى أن اقترب ثلاثاء المرفع[٢٠٠]، وكان هناك بجوار قاعة الأستاذ ڤينكلر[٢٠١] فى ميدان توماس، محل يقدم فى ساعة محاضرته ألذ الفطائر المقلية ساخنة من الطاسة مباشرة، فكنا نتأخر عن المحاضرة إلى أن خفت كراساتنا وظلت تخف حتى إذا أقبل الربيع وذاب الثلج كانت هى الأخرى قد ذابت.

وجرى على محاضرات القانون ما جرى على محاضرات الفلسفة، لأننى كنت أعرف ما وجد المدرس من الخير أن ينقله إلينا، ولهذا أصاب الشلل التدريجى كل الهمة العنيدة التى أخذت نفسى بها فى البداية وأنا أسجل كل ما كان يلقيه من دروس، ثم عانيت الملل أشد الملل وأنا أسجل مرة أخرى ما كنت قد كررته مع والدى، سائلا

تارة، ومجيبا تارة أخرى، حتى ثبت فى ذاكرتى إلى الأبد. والضرر الذى يصيب الشباب عندما يتعلمون فى المدرسة الكثير من المعلومات فى تخصصات مختلفة، عرفت حقيقته فيما بعد عندما تغيرت الأوضاع وقل الاهتمام بتمرينات اللغة والأساسيات، وقل ما خُصص لها من الوقت، وتركز الاهتمام والوقت على ما سمى بالعلوم الواقعية التى تؤدى إلى التشتيت لا إلى التثقيف إذا لم تقدم على نحو منهجى وفى صورة متكاملة.

وهناك ضرر آخر يعانى منه الطلاب أذكره هنا بالمناسبة. فالأساتذة مثلهم مثل غيرهم من أصحاب المناصب الأخرى، لا يمكن أن يكونوا جميعا من سن واحدة، فصغار السن منهم يدرسون لكى يتعلموا، فإذا كانوا من النابهين فإنهم يسبقون زمانهم، وهم يتعلمون على حساب مستمعيهم، لأن هؤلاء المستمعين لا يتعلمون ما هم فى حاجة إليه، بل ما يحتاج المعلم إلى دراسته. أما كبار السن فمن بينهم من تجمدت أفكارهم منذ وقت طويل، فهم لا ينقلون إلى الطلاب إلا آراء ثابتة، وتفصيلات أثبت الزمن أنها بغير فائدة وحَكَمَ بخطئها. وبين هؤلاء وأولئك ينشأ صراع مؤسف، فيتأرجح الشباب هنا وهناك، ولا يستطيع من هم بين هؤلاء وأولئك سنا من الأساتذة، الذين نالوا من العلم والثقافة حظًا وافرًا وظلوا يسعون بشغف شديد إلى مزيد من المعرفة والتأمل، أن يحدثوا التوازن المأمول.

وعلى هذا النحو تعلمت أن أجمع المعلومات أكثر مما تعلمت كيف أنظمها التنظيم الصحيح، مما زاد من إحساسى بالتبرم، فى الوقت الذى كنت أواجه فيه فى الحياة بعض المنغصات، فالإنسان عندما يغير مكان إقامته ويدخل فى علاقات جديدة يكون عليه أن يدفع الثمن. وكان أول شىء استقبحته النساء فىَّ ثيابى، لأننى أتيت من بيتنا إلى الجامعة فى ثياب عجيبة.

لم يكن أبى يكره أمرًا قدر كراهيته تبديد الأشياء أو تضييع الوقت دون نفع، أو عدم القدرة على التدبير الصحيح للانتفاع بالوقت، ولقد دفعه الاقتصاد فى الوقت والطاقة إلى أنه لم يكن يجد متعة أكبر من تلك التى يجدها فى إنجاز شيئين بجهد

واحد، وإصابة عصفورين بحجر واحد. ولهذا لم يكن يعيّن مستخدما قط إلا إذا كان فى إمكانه الإسهام فى الأعمال المنزلية بشىء نافع. ولقد كان منذ الأزل يكتب أشياءه كلها بيده، ثم سهل على نفسه العمل، فكلف المستخدم الذى عينه فى البيت بأن يكتب ما يمليه عليه. كذلك وجد من المفيد أن يعين خياطين للخدمة فى البيت، فيفيدون من وقت فراغهم فى حياكة ثيابهم، وحياكة الثياب للوالد والأولاد، ويقومون بأعمال الإصلاح المختلفة التى تحتاجها الملابس وما إليها. وكان أبى حريصا على شراء الأقمشة الممتازة، يشتريها من التجار الأجانب فى الأسواق الموسمية، ويحفظها فيما يحفظه من مقتنيات. وأنا أذكر تماما أنه كان يزور السادة لوفينيش من مدينة آخن، وأنه عرفنى منذ وقت مبكر بهؤلاء وأولئك من التجار المرموقين.

كان مطمئنا إلى تدبير الجيد من القماش، وكان لديه مخزون من مختلف أصناف الصوف والحرير وما تحتاجه من بطانة. وكانت أصناف الأقمشة ممتازة يشرُف بها الإنسان أمام الناس، ولكن التفصيل كان يتلف كل شىء. فالخياط البيتى كان على أحسن الفروض عاملا مجتهدًا يستطيع أن يخيط الثوب إذا فصله المعلم، أما أن يفصل هو، فهذا هو الشىء الذى لم يكن يتقنه فى كل الأحوال. يضاف إلى هذا أن أبى كان يحافظ على ثيابه وعلى كل ما يتصل بثيابه محافظة شديدة، ويهتم بنظافتها، ويحفظها أكثر مما يلبسها لسنوات عديدة، ولهذا كان يفضل الموضات القديمة والحليات القديمة وما كان يضفى على ثيابنا أحيانا منظرا عجيبًا.

على هذا النحو كانت ثيابى التى أخذتها معى إلى الجامعة؛ كانت كاملة ومنوعة وقيمة، وكان من بينها حلة موشاة مطرزة. وكنت أنا قد اعتدت هذا اللون من الملابس، وكنت أعتقد أننى أنيق بما فيه الكفاية، ولكن سرعان ما أقنعتنى صديقاتى، أولا بمداعبات خفيفة، ثم بشروح بديهية بعد ذلك، بأن منظرى كمنظر إنسان من عالم آخر ظهر فجأة بعد رخة من رخات الثلوج. وعلى الرغم من الغم الذى أصابنى فإننى لم أعرف فى البداية سبيلا للتصرف، حتى ظهر على خشبة المسرح ذات يوم السيد فون مازورن[٢٠٢]، النبيل الريفى المحبوب لدى الجمهور،

وقد لبس ثيابا مثل ثيابى، وضحك الناس عليه أشد الضحك لما بينته ملابسه من فساد ذوقه، وكان ما به من فساد الذوق أكثر مما كان به من الضحالة، فجمعت أطراف شجاعتى وتجاسرت على مبادلة ثيابى كلها بثياب على الموضة الجديدة السائدة فى الناحية، مما أدى إلى انكماشها عددًا إلى درجة كبيرة.

فلما تجاوزت هذا الامتحان جاء امتحان آخر، أثقل على النفس لأنه كان يتصل بشىء لا يستطيع الإنسان أن ينحيه جانبا أو يبادله.

فقد ولدت ونشأت فى منطقة اللهجة الألمانية العليا، وعلى الرغم من أن أبى كان حريصًا على نقاوة اللغة، وكان ينبهنا نحن الأولاد منذ الصغر إلى ما يمكن أن يسمى عيوب وهنات هذه اللهجة، ويهيئنا للحديث بلغة أفضل، فقد بقيَت لدىَّ بعض السمات الخاصة ذات الجذور العميقة، التى كنت أُبرزها عن استحسان لأنها كانت تعجبنى بفطريتها، وكان المواطنون الجدد الذين انتقلت للحياة بينهم يؤاخذوننى عليها مؤاخذة عنيفة؛ والألمانى فى منطقة الجنوب، وبخاصة الذى يسكن على ضفاف نهر الراين ونهر الماين، فيما أظن (لأن الأنهار الكبيرة مثلها مثل ساحل البحر تحدث دائما أثرا قويًا يبث الحياة فى الموات) يكثر من استخدام التشبيهات والاستعارات والتلميحات ويحرص على الأمثال السائرة[٢٠٣] التى يستخدمها سعيا منه إلى فهم الأعماق البشرية. وهو على كل حال يعبر فى أكثر الأحيان تعبيرا فجأ، وإن كان سليما، إذا أخذنا فى الاعتبار المعنى الذى يقصد إليه. ومن البديهى أن يحدث له أحيانا أن يقول فى وسط الكلام لفظة أو عبارة تخدش الأذن الحساسة.

وكل منطقة تحب لهجتها، لأن هذه اللهجة هى العنصر الذى تلتقط فيه الروح أنفاسها. ونحن جميعا نعرف كيف حاولت لهجة مايسن[٢٠٤] فى إصرار أن تسيطر على اللهجات الأخرى، بل تمكنت من أن تنفرد هى دونها بالنفوذ زمنا. ولقد عشنا سنوات كثيرة تحت هذا الحكم المتحزلق ولم تستطع الأقاليم المختلفة أن تسترد حقوقها القديمة إلا بعد صراع متعدد الجوانب؛ أما ما عاناه شاب نشيط مليء بالحيوية من جراء هذا التقريع المستمر فيمكن أن يقدره بسهولة إنسان يدرك أن

تعديل طريقة النطق، التى سينتهى الغريب إلى القبول بها راضيا، هو فى الوقت نفسه تضحية بطريقة التفكير والخيال والشعور والطابع القومى. كان هذا المطلب غير المحتمل يأتينى من رجال ونساء من المثقفين لم أكن أستطيع أن آخذ عنهم اقتناعهم، بل كنت أحسُّ بخطئهم دون أن أتصوره بوضوح. كانوا يمنعونى من استخدام التلميحات إلى عبارات فى الكتاب المقدس، ومن استخدام التعبيرات الساذجة التى ترد فى كتابات المؤرخين، وكان علىَّ أن أنسى أننى قرت جايلر فون كايزرسبرج، وأن أحرم نفسى من الأمثال السائرة التى تعبر التعبير المباشر، وتوفر على الإنسان اللف والدوران، كل هذه الأشياء التى اكتسبتها بحماس الشباب ونشاطه كان علىَّ أن أحرم نفسى منها، وأحسست كأنما أصابنى شلل فى أعماقى، وأصبحت لا أكاد أعرف كيف أعبر عن أبسط الأشياء. وكنت لا أفتأ أسمع أنه ينبغى على الإنسان أن يكتب كما يتكلم وأن يتكلم كما يكتب[٢٠٥] وكنت اتصور أن الكلام والكتابة شيئان مختلفان، لكل منهما حقوقه التى يؤكدها تأكيدًا واضحًا، ولقد سمعت فى لهجة مايسن عبارات ما كان يمكن أن تتخذ صورة طيبة على الورق.

وكل من يسمع هنا عن الأثر الحاسم الذى يحدثه المثقفون من الرجال والنساء والعلماء وغيرهم من الأشخاص الذين يزهون بأنفسهم وَسَط المجتمع الراقى فى طالبٍ شاب، سيعرف على الفور وعن يقين، دون أن نذكر اسم المدينة، أننا فى لايـبتسيج. ولكل جامعة من الجامعات الألمانية طابعها الخاص، ونظرا لأن وطننا لم تشمله ثقافة موحدة[٢٠٦]، فقد تمسك كل مكان بطابعه وبالغ فى إبراز سماته المميزة كل المبالغة، وينطبق هذا الكلام على الجامعات خاصة فى (يينا) و(هالِّه) بلغت الشراسة أعلى درجة، وأصبحت القوة الجسمانية والمهارة فى المبارزة وأعنف ألوان اعتماد كل واحد على قبضته من موضوعات الساعة[٢٠٧]؛ وهذا الوضع لا يمكن أن تقوم له قائمة ولا يمكن أن يتطور إلا فى ظل الاحتفالات الفجة إلى أقصى حدود الفجاجة. وكانت العلاقات بين الطلاب ومواطنى هذه المدن، مهما اختلفت، تتسم بسمة واحدة عامة وهى أن الغريب الشرس لا يحترم

المواطن من أهل المدينة، ويعتبر نفسه شخصية متميزة لها الحق فى الحرية كل الحرية والشراسة كل الشراسة. أما فى لايبتسيج فلم يكن فى مقدور الطالب إلا أن يكون رقيقا إذا أراد أن تكون له علاقة وثيقة بأهل البلد الأغنياء المرفهين.

ولكن رقة السلوك إذا لم تأت ثمرة حياة رغدة سخية عظيمة تبدو حتما محدودة وجامدة وسخيفة فى بعض جوانبها، ولهذا اعتقد الصيادون الشرسون فى مدينة هالّه الواقعة على ضفاف نهر الزالة أنهم يفضلون الرعاة الطيعين فى مدينة لايبتسيج الواقعة على ضفاف نهر البلايسه[٢٠٨]. وستظل قصيدة (تساخاريا) "النفاج"[٢٠٩] وثيقة دائمة القيمة تشهد على أسلوب الحياة والتفكير فى ذلك الزمان بل إن قصائده بصفة عامة حقيقة بأن تلقى الترحيب من كل إنسان يريد أن يكون فكرة عن المجتمع والحياة الاجتماعية التى كانت فى ذلك الوقت واهنة، ولكنها كانت لطيفة بما انضوت عليه من براءة وسذاجة كسذاجة الأطفال.

والعادات التى تتولد عن علاقة ما من علاقات المجتمع عادات لا يمكن تحطيمها، ولقد شهدت فى ذلك أشياء تذكر بما جاء فى قصيدة، تساخاريا الملحمية. وكان هناك مواطن واحد من طلاب الجامعة ظن أن لديه من المال والاستقلال يمكنه من توجيه صفعة إلى الرأى العام، فتصادق مع كل العربجية ورفع ما بينه وبينهم من الكلفة، وكان يجلسهم فى العربات كأنهم هم السادة، ويجلس هو فى مكان العربجى، وكان يعتبر من قبيل المداعبة العظيمة أن يقلب العربات ويدفع تعويضًا عما يتحطم منها أو ينبعج، ولكنه لم يكن يسب أو يعيب فى أحد، بل يسخر من الجمهور فى مجموعه. وذات مرة استولى هو وواحد من رفاقه الظرفاء على حمارى الطحان توماس، فى أجمل يوم من أيام النزهة، وركبا الحمارين، وقد لبسا أفخر الثياب، والجوارب والأحذية، واصطنعا الجد أشد الجد ودارا حول المدينة كلها[٢١٠]، يدهش لهما المارة الذين امتلأت بهم الشوارع، وهم يتنزهون. فلما وجه إليه بعض العقلاء ملحوظات على ما فعل، أكد لهم فى غير تكلف أنه كان يريد أن يعرف كيف كان منظر المسيح[٢١١] عندما ركب الحمار. ولكنه لم يجد مقلدين ولم يجد من الرفاق إلا القليل.

فما كان للطالب الذى أوتى شيئا من الثراء والوجاهة إلا أن يخضع لطبقة التجار، وأن يجتهد فى تعلم اللياقة وحسن السلوك، وبخاصة لأن جالية الهوجنوت(٢١٢) كانت نموذجا يحتذى فى العادات والتقاليد الفرنسية. وكان الأساتذة على جانب من الثراء بما أوتوا من أملاك ودخل إضافى، فلم يكونوا معتمدين على الطلبة، أما غالبية أبناء المدينة فقد تعلموا فى مدارس الأنجال(٢١٣) أو غيرها من المدارس الثانوية، وعلقوا الآمال على التقدم والحصول على وظائف فى هذا السلك، ولهذا لم يكونوا يجرؤون على التملص من التقاليد المرعية. ولم يكن موقع دريسدن القريب وما توليه الحكومة هناك من اهتمام بالتقاليد، والتقوى الصادقة التى اتسم بها القائمون على شئون الدراسة، دون تأثير أخلاقى ودينى على الناس فى المنطقة.

ولم أجد فى هذا اللون من الحياة فى البداية ما ينفرنى، فقد فتحت لى خطاباتُ التوصية التى حملتها معى السبيل إلى العائلات الطيبة التى عرفتنى بدورها بالأوساط القريبة منها حيث لقيت حسن الاستقبال والترحاب. فلما أحسست فى قسوة بما يأخذه المجتمع علىّ وأصبح علىّ أن أغير ثيابى لتكون موافقة لنظرته، ثم أصبح على أن أتكلم كلامه، واتضح لى بجلاء أننى لقاء ذلك لا أحصل إلا على القليل مما كنت أتمنى الحصول عليه من التعليم والتقدم الفكرى من هذه الإقامة فى رحاب الجامعة، بدأت أتحول إلى إنسان مهمل، فأهملت الواجبات الاجتماعية للزيارات وما إليها من المجاملات. وكان من الممكن أن أخرج من كل هذه العلاقات قبل ذلك، لو لم أكن قد ارتبطت بالمستشار بومه برباط الخجل والاحترام، وبزوجته برباط الثقة والميل. ولم يكن للزوج للأسف موهبة التعامل الناجح مع الشباب وكسب ثقتهم وتوجيههم بحسب الحاجة التى تتفتق عنها اللحظة. فلم أكن أفيد بشىء إطلاقًا عندما كنت أزوره، أما زوجته فكانت على العكس منه تهتم بى اهتماما خالصا. وكانت أسقامها تضطرها إلى لزوم البيت على الدوام، وكانت بين الفينة والفينة تدعونى مساء إليها، وكانت تعرف كيف توجهنى وتصلح بعض الأشياء الطفيفة من سلوكى. والحقيقة أننى كنت مهذبا، ولكننى لم أكن قد

تعلمت ما يسمونه أسلوب الحياة فى الطبقة الراقية، وكانت لها صديقة وحيدة تمضى الأمسيات معها، وكانت هذه الصديقة متسلطة تتصرف كالمعلمين والمعلمات، ولهذا لم أكن أرتاح إليها، بل كانت ثقيلة على نفسى إلى أقصى حد، وكنت أعاندها فأسلك معها سلوكا خشنا من النوع الذى تكون زوجة الأستاذ قد نبهتنى إلى ضرورة التخلى عنه. ولكنهما كانتا صبورتين معى، فعلمتانى البيكية[٢١٤] ولومير[٢١٥] من ألعاب الكوتشينة التى كانت معرفتها شيئا لا مفر منه فى المجتمعات.

أما أكبر تأثير لمدام بومه عليّ فانصب علي ذوقي، وكان بطبيعة الحال تأثيرا سلبيا، وكانت فى ذلك لا تفترق عن النقاد. كانت مياه جوتشد[٢١٦] قد أغرقت العالم الألمانى كالطوفان الحقيقى الذى وصل حتى إلى أعلى الجبال، ولم ينحسر هذا الفيضان، ويجف الوحل الذى تخلف عنه إلا بعد أن انقضى وقت طويل، لأن الشعراء الذين يقلدون كما تفعل القرود أعدادهم كثيرة كثرة هائلة، ونجم عن تقليد الضحالة اضطراب لم يبق منه الآن شيء تقريبا. وكان النقاد فى ذلك العصر يجدون متعة فائقة، بل يحسون بالنصر، عندما يبينون أن الردىء ردىء وكان كل إنسان أوتى شيئًا من الفهم، ومعرفة سطحية بالأقدمين، ومعرفة أوثق بالمحدثين، يعتقد أنه يملك المقياس الذى يضعه على كل شيء.

وكانت مدام بومه امرأة مثقفة تنفر من كل تافه ضعيف غث، وكانت علاوة على ذلك زوجة رجل لاسلام بينه وبين الشعر، وما كان ليرضى عما تكون هى قد استحسنته. ولقد استمعت إليّ عدة مرات فى صبر عندما كنت أتلــو عليها شعــرا أو نثرا من أعمال شعراء مشهورين لهم مكانتهم لأننى كنت لا أزال أحفظ عن ظهر قلب ما كان يعجبنى نوعا ما، ولكن صبرها لم يدم طويلا، وكان أول ما هوت به إلى الحضيض مسرحية "شعراء على الموضة"[٢١٧] لكريستيان ڤايسه التى كانت قد عرضت منذ قليل وتكرر عرضها بنجاح كبير ووجدت أنا فيها متعة خاصة. والحق إننى عندما نظرت إلى الموضوع عن كثب وجدت أنها لم تجاوز

الصواب. كذلك تجرأت فى بعض الأحيان فطالعت عليها شيئا من قصائدى الخاصة، ولكن دون أن أذكر مؤلفها، فلم يكن حظها مختلفا عن حظ القصائد الأخرى، وهكذا هوت السيوف فى وقت قصير على المروج اليانعة التى كست بقاع الپارناس الألمانى والتى كنت أجد المتعة فى نزهاتى بينها، فاجتثت الكلأ النضير بغير رحمة، واضطررتُ فوق ذلك إلى أن أقلب الكلأ المجتث وقد استحال إلى هشيم، وأن أنظر فى سخرية إلى موات كنت منذ وقت قصير أراه حياة تدخل البهجة على نفسى.

ولقد عاونها على آرائها هذه، دون علم منه، الأستاذ موروس[٢١٨]، وكان رجلا لطيفا ودودا عرفته على مائدة المستشار لودفيج[٢١٩]، وكان يحسن استقبالى عندما كنت أسمح لنفسى بأن أذهب لزيارته. فلما سألته عن تراث العصور القديمة، لم أخف عليه ما يعجبنى من أدب المحدثين، ولما كان يتحدث بهدوء أكثر من مدام بومه، ويتحدث – وهو الأسوأ – بمزيد من التعمق عن هذه الأمور، فقد أثار فى البداية غضبى الشديد، ثم أدهشنى بعد ذلك، وانتهى إلى أن علمنى وفتح عينى.

ثم كانت هناك أغانى الشكوى التى كان جيللرت ينشدها فى تمريناته ليصرفنا عن الشعر، فكان يطلب موضوعات إنشائية نثرية، ويقيمها قبل غيرها دائما. أما الشعر فكان يعالجه كإضافة حزينة، وأسوأ ما فى الأمر أن نثرى لم يكن يلقى منه إلا القليل من الرحمة : فقد اعتدت على أن أكتب، على طريقتى القديمة، منطلقا من رواية صغيرة اتخذها أساسا وأكتبها على هيئة خطابات. وكانت موضوعاتى موضوعات عاطفية، وكان أسلوبى يتجاوز حدود النثر العادى، ولم يكن الموضوع بطبيعة الحال يشهد على معرفة عميقة بالبشر، ولهذا لم أكن أنال من الحظوة لدى أستاذنا إلا القليل، على الرغم من أنه كان يقرأ أعمالى بدقة كأعمال الطلاب الآخرين، ويصححها بالحبر الأحمر، ويضيف هنا وهناك ملحوظات أخلاقية. ولقد احتفظت بعدد من هذه الأوراق حينا، ولكنها بمرور الزمن ضاعت لم أعثر لها على أثر.

وإذا كان المتقدمون فى السن يريدون حقا أن ينتهجوا نهجا تربويا فما ينبغى لهم أن يمنعوا الشاب من عمل شىء يجد فيه متعة أيا كان هذا العمل، وما ينبغى لهم أن ينفروه منه، إلا إذا قدموا إليه بديلا أو يسّروه إلى هذا البديل. كان المتقدمون فى السن يحتجون على هواياتى وميولى، أما ما كانوا يمتدحونه لى فكان إما بعيدا عن منالى، بحيث عجزت عن إدراك ميزاته أو كان قريبا منى بحيث صعب على أن أجد أفضل مما استقبحوه واستنكروه. ولقد أصابنى الاضطراب، وتوقعت أن أجد فى محاضرة إرنستى(٢٢٠)، عن الخطيب فى رأى سيسيرون(٢٢١) أعظم الفائدة، ولقد تعلمت من الدرس شيئا بطبيعة الحال، ولكننى لم أستتر فيما كنت مهتما به أصلا، فقد كنت أبحث عن مقياس للحكم، واعتقدت أننى أدركت أن هذا المقياس ليس بين يَدَىْ أى إنسان ممن عرفت، فلم يكن الواحد منهم يتفق مع الآخر، وكان الخلاف بينهم يظهر حتى فى الأمثلة التى كانوا يستشهدون بها. وكيف السبيل إلى حكم، ونحن نراهم يعددون العيوب فى أعمال ڤيلاند(٢٢٢) التى كانت أثيرة لدينا نحن الشباب وحبيبة إلى نفوسنا؟

وبينما أنا فى هذا الاضطراب الكثير، أو التشتيت الذى تعرض له كيانى، حدث أن اختلفت إلى مائدة غذاء المستشار لودڤيج، وكان طيبا، ومتخصصا فى النبات، وكانت جماعته تتكون باستثناء موروس من أطباء فرغوا لتوهم من الدراسة أو يوشكون على الفراغ من دراستهم. وكنت فى الساعات التى أقضيها معهم على المائدة لا أسمع شيئا من حديث إلا عن الطب أو التاريخ الطبيعى، وراح خيالى يحلق فى آفاق مختلفة كل الاختلاف. وكنت أسمع أسماء هاللر ولينيه وبوفون يذكرونها بالتقدير الشديد والإجلال، حتى إذا كانوا يشيرون أحيانا إلى أخطاء وقع فيها هؤلاء، ويجادلون فيها، فقد كانوا فى النهاية يردون الأمور إلى نصابها، ويشيدون بعظمة هؤلاء الرجال؛ كانت الموضوعات التى يتحدثون عنها موضوعات طريفة وهامة، وكانت تشد اهتمامى. ولقد تعلمت منهم تسميات مختلفة ومصطلحات كثيرة حفظتها مرحِّبا بها لأننى كنت فى ذلك الوقت قد أصبحت أحس

بالخوف من كتابة بيت من الشعر يطوف بخاطرى، ومن قراءة قصيدة قد تعجبنى فى لحظة قراءتها، ثم يكون على أن أعلن بعد قليل أنها رديئة كغيرها.

كان هذا القلق فى أمور الذوق والحكم يؤرقنى يوما بعد يوم حتى استبد بى اليأس، وكنت قد أحضرت معى من أعمال الصبا ما كان فى رأيى أفضلها، من ناحية لأننى كنت آمل أن أبلغ بها شيئا من الرفعة، ومن ناحية أخرى لأتمكن من الحكم على تقدمى حكما مطمئنا، ولكننى وجدت نفسى فى الحالة السيئة التى يوضع فيها الإنسان عندما يكون المطلوب منه هو تغيير فكره تغييرا كاملا، وإنكار كل ما كان يحبه وما كان يرى فيه الخير فلما انقضى بعض الوقت، دخلت فى صراع مع نفسى، وما لبثت أن احتقرت ما بدأته وما أتممته من أعمال احتقارًا كبيرًا، حتى إننى جمعت ذات يوم كل ما لدى من نثر وشعر وتخطيط وتمهيد وتسويد وحرقته على فرن المطبخ فامتلأ البيت بالدخان، فانزعجت صاحبته الطيبة وفزعت فزعا لا يستهان به.

تعليقات

(١٠٦) الكنيتل بحر من الشعر يتميز بحرية النبرة، وكان فى هذا الوقت الذى يتحدث عنه جوته منتشرا بين الشعراء لسهولته، فما على الشاعر إلا أن يظهر فى البيت أربع نبرات، دون اهتمام بما بينها طولا أو قصرا. كذلك كان بحر المادريجال يتميز بحرية مشابهة، ففيه تتابع منتظم بين الرفع والخفض فى النبرات، ولكن دون اهتمام بالحشو. وكانت هذه الألوان من البحور تصلح للتعبير عن الأحاسيس والأفكار والخواطر فى قالب سهل – وقد أبقى جوته عليها فى مسرحيته الكبيرة "فاوست".

(١٠٧) جريتشن هو تصغير مارجريته، وهو اسم مشهور فى ألمانيا وفى غير ألمانيا من البلاد الغربية والشرقية، وقد بدأ انتشاره تبركا بالقديسة مارجريتا. أما شخصية جريتشن التى يتحدث عنها جوته فلا نعلم عنها إلا ما ذكره هو هنا، هذا ما أثبته إريش ترونتس الذى اعتمدنا على النص الذى حققه والشروح التى أوردها.

(١٠٨) نيدرراد أو نيدرات الآن ضاحية من ضواحى مدينة فرنكفورت، ولكنها كانت فى ذلك العصر قرية على أطراف المدينة.

(١٠٩) القصائد التى تكتب المناسبات قصائد كان لها وظيفة اجتماعية، وكان الاهتمام بها محصورا على طبقات معينة، وكانت تتنوع بحسب الطبقة الاجتماعية التى تتجه إليها، من حيث البساطة والتعقيد، والتلميحات المختلفة. وكانت قصائد حفلات الزواج تقرأ على المدعويين، وتطبع وتوزع عليهم وترسل إلى من لم يستطيعوا لسبب من الأسباب الحضور – أما القصائد التى تكتب فى حالة الوفاة، فكانت تطبع وتوزع مع إعلان الوفاة. وقد احترف كثير من الشعراء المتوسطين كتابة هذه القصائد لقاء أجر، بل كان بعض الشعراء المعروفين يكتبونها سعيا وراء الربح. ولا زالت عادة كتابة القصائد وتلاوتها فى المناسبات موجودة إلى يومنا هذا، وبخاصة فى المناسبات السعيدة، وتقصد إلى إدخال السرور على جمهور الحاضرين.

(١١٠) هوكست الآن من ضواحى مدينة فرنكفورت، وكانت من قبل قرية تربطها بفرنكفورت عبَّارة تقوم من فرنكفورت صباحا وتعود بعد الظهر، وفى هوكست الآن مصانع للكيمائيات والأدوية، ولها شهرة قديمة بصناعة الخزف والصينى.

(١١١) مدينة قديمة إلى الشرق من فرنكفورت، كانت تعج بنشاط تجارى وصناعى وعلمى كبير، وكانت لها أهمية كبيرة من حيث هى مقر لأسقف وأمير ناخب، فقد أصبحت فى القرن الثامن الميلادى مقرا للأسقف وما لبث الأسقف أن أصبح أميرا لها وكانت له صلاحية المشاركة فى انتخاب الإمبراطور، ومن هنا سمى الأمير الناخب.

(١١٢) كان خلف الإمبراطور الألمانى أو ولى عهده يسمى طبقا للتقاليد القديمة "الملك الرومانى" والمعروف أن شارلمان تلقى من البابا فى روما عام ٨٠٠ تاج الإمبراطورية الرومانية وأصبح إمبراطورا، ومن هنا تسمت الدولة الألمانية فيما بعد باسم (الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية" أو "الرايخ الرومانى المقدس للأمة الألمانية").

(١١٣) ترجع لائحة انتخاب الإمبراطور أو القيصر الألمانى إلى أيام كارل الخامس (شارلكان) من القرن السادس عشر، فبعد أن تم انتخاب كارل الخامس، أعد الأمير فريدريش الحكيم وثيقة، وقع عليها ممثلوه، وتتضمن التزام الإمبراطور بحماية الكنيسة وصون السلام فى البلاد، والاعتراف بالعهد الذهبى باعتباره وثيقة دستورية، والالتزام بالتشاور مع الأمراء الناخبين قبل الدخول فى حلف أو الخروج إلى حرب أو دعوة مجلس الرايخ إلى الاجتماع، والالتزام بعدم فرض جمارك جديدة أو رفع الجمارك القائمة، وعدم التدخل فى حقوق الأمراء والمدن الإمبراطورية والالتزام بنظام الإمبراطورية الانتخابية وعدم السعى إلى الإمبراطورية الوراثية إلى آخر ذلك.

(١١٤) لم يكتف جوته فى صياغة هذا الفصل الذى يتناول فيه أحداث الانتخابات ووقائعها ، وما أقيم من احتفالات، بما علق فى ذاكرته، بل استخدم عددا من المراجع المعروفة ومنها يوميات دقيقة. وقد انتخب يوزف الثانى فى ٢٧ مارس ١٧٦٤ وتوج فى ٣ إبريل ملكا رومانيا، أى وليا لعهد القيصر. أما احتفالات التتويج السابقة فكانت فى عام ١٧٤٢ لتتويج كارل السابع، وفى عام ١٧٤٥ لتتويج فرانتس الأول. وقد أشار جوته إلى هذه الاحتفالات فى الكتاب الأول حيث يقول: "وكان الصبى يستمع بشغف كبير إلى ما كان أهله والمتقدمون فى السن من الأقارب والمعارف يرونه ويكررونه من حكايات عن حفلتى التتويج اللتين تتابعتا فى وقت قصير: ولم يكن هناك واحد من أهل فرنكفورت تقدمت به السن لا يعتبر هذين الحادثين وما اتصل بهما ذروة حياته.." ويشير إلى الأبهة التى اتسم بها تتويج كارل السابع، وإلى حضور الإمبراطورة ماريا تيريزا الاحتفال الذى أقيم لتتويج زوجها فرانتس الأول.

(١١٥) مدينة أوجسبورج الواقعة فى جنوب ألمانيا مدينة كانت لها شهرتها فى أيام نشأة المذهب البروتستنتى وما تبعه من اضطرابات، وقد عقد فيها الرايخ عددا من اجتماعاته الهامة، وفيها انعقد السلام بين الكاثوليكية والبروتستنتية والمعروف باتفاقية أوجسبورج فى عام ١٥٥٥ وكان للمدينة علاوة على ذلك شهرتها فى التجارة التى برزت فيها أسرة (فوجر).

(١١٦) كانت هناك بعض المناصب المخصصة للعائلات، يناط بها أصحاب الحسب والنسب، ولهذا أسمينا أصحابها "الحسيب".

(١١٧) كانت أحياء المدينة قد قسمت إلى قطاعات، كل قطاع لإمارة، وكان منزل آل جوته فى القطاع المخصص لإمارة الپفالتس. – ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن إمبراطور أو قيصر ألمانيا كان يتربع على العرش بالانتخاب، وكان أصحاب حق الانتخاب هم: الأمراء الناخبون الأساقفة وهم ثلاثة : أمراء ماينتس وترير وكولونيا، ثم پفالتسجراف الراين وأمير ساكسونيا وماركجراف برندنبورج وملك بوهيميا ثم حصل أمير الپفالتس على حق الانتخاب، ومن بعده أمير هانوفر.

(١١٨) الاجتماع الانتخابى هو اجتماع الأمراء الناخبين أو السفراء الذين ينوبون عنهم من أجل انتخاب الإمبراطور أو الملك، ويتم عقد هذا الاجتماع بناء على دعوة من أمير ماينتس الناخب، وفيه يدور البحث فى شروط الانتخاب ولائحته وفى الرأى الذى يرونه فى المرشح ويقررونه يوم الانتخاب الذى تجرى فيه المراسم.

(١١٩) أصبح البارون فون إرتال فى عام ١٧٧٤ أسقفا وأمير ناخبا لماينتس وكانت له أعماله العظيمة ومن بينها إنشاء جامعة ماينتس، والكثير من العمائر، وكان بلاطه يمتاز بالسعة والثراء، فلم احتل الفرنسيون ألمانيا لاذ بالفرار فى عام ١٧٩٢ ومات عام ١٨٠٢.

(١٢٠) تاريخ ليسنر أو "تاريخ مدينة فرنكفورت الواقعة على نهر الماين، المدينة الإمبراطورية ومدينة الانتخاب ومدينة التجارة المشهورة فى العالم أجمع"، ظهر فى عام ١٧٠٦ و١٧٣٤، وقد اهتم به جوته وقرأه صبيا، ثم قرأه بعد ذلك عند كتابة هذا الجزء.

(١٢١) كان مجلس الرايخ ينقسم إلى ثلاثة محافل، محفل الأمراء الناخبين، ومحفل الأمراء ومحفل المدن الإمبراطورية، وكان من الممكن أن يجتمع كل محفل على حدة لينظر فى الأمور التى تدخل فى اختصاصه وحده، ثم كانت المحافل الثلاثة تنضم معا فيتم انعقاد مجلس الرايخ بكامل هيئته.

(١٢٢) شارات الرايخ هى العلامات الدالة على القيصر، وظلت مستخدمة حتى عام ١٨٠٦، وكانت تحفظ ولا تخرج إلا عند تتويج إمبراطور جديد. وهى الآن محفوظة فى متحف الهوفبورج فى ڤيينا. وتتكون هذه الشارات من: التاج الألفى الذى يرجع تاريخه على الأرجح إلى عام ٩٦٢، وقد أضيفت له بمرور الوقت إضافات قيمة عديدة، وهو محلى باللآلئ وبصليب صغير؛ والقطعة الثانية من الشارات عبارة عما يسمى بتفاحة الرايخ، وهى كرة على شكل تفاحة، لعلها تشير إلى الكرة الأرضية وبالتالى إلى السلطان الواسع، ولها صليب أيضا، وترجع هذه التفاحة إلى النصف الثانى من القرن الثانى عشر؛ والقطعة الثالثة هى الصولجان ويزيد طوله على ستين سنتيمترا قليلا، فيرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر؛ والقطعة الرابع؛ هى السيف وتختلف الآراء فى تحديد مصدره، ويقال إن شارلمان حصل عليه هديه من هارون الرشيد وإنه كان يرسم به الفرسان، ومن العلماء من يرده إلى القرن الحادى عشر؛ والقطعة الخامسة هى حامل الإنجيل الذى يقسم عليه الإمبراطور الجديد يمين التتويج؛ والقطعة السادسة هى الصليب. وهناك علاوة على ذلك الثياب التقليدية وأهمها المعطف، وفى متحف الهوفبورج معطف يحتمل أن يكون معطف شارلمان وهو مصنوع فى الشرق الإسلامى، وعليه زينات على شكل جمال؛ ومن الثياب التقليدية أيضا شال قيم يرجع إلى أزمنة عتيقة.

(١٢٣) أمير ماينتس الناخب المقصود هو الأمير إمريش يوزف، نبيل برايدنباخ فى بورينهايم (١٧٠٧ – ١٧٧٤)، وكان من أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، وتربع على عرش الإمارة من ١٧٦٣ إلى ١٧٧٤، حيث خلفه فريدريش كارل يوزف فون إرتان كما ذكرنا فى ملحوظة ١٠٤ وكأن أمير ماينتس الناخب صاحب امتيازات فى المرتبة الأولى بعد الإمبراطور.

(١٢٤) يوهان كاسپار لافاتر (١٧٤١ – ١٨٠١) أديب وشاعر سويسري، درس اللاهوت وظهر اهتمامه بالموضوعات الدينية فى أعماله المختلفة الشعرية والقصصية والمسرحية، التى ظلت لهذا السبب محصورة فى إطار معين. وعرف له معاصروه التقدميون جرأته فى بعض الكتابات التى أشارت بوضوح إلى عدد من النبلاء والمرموقين، فى صورة حديث عن موضوعات قديمة، فيما يسمى بالإسقاطات. ومن الكتب الهامة التى كتبها لافاتر "شذرات فى الفراسة من أجل تشجيع معرفة الناس ومحبتهم". فى أربعة مجلدات ظهرت بين عام ١٧٧٥ وعام ١٧٧٨. وسيعود جوته إلى الحديث عن لافاتر فيما بعد.

(١٢٥) رؤيا يوحنا اللاهوتى وهى تصور مستقبل المسيحية التى يرى أنها ستنتصر بعد ظهور المسيح الدجال. وفى الإصحاح السادس من الرؤيا حديث عن حيوانات رمزية، منها الخروف الذى يفض الختوم السبعة، فيظهر "فرس أبيض والجالس عليه معه قوس وقد أعطى إكليلا وخرج غالبًا ولكى يغلب". ثم يظهر فرس أحمر "وللجالس عليه أعطى أن ينزع السلام من الأرض وأن يقتل بعضهم بعضا وأعطى سيفا عظيما". ثم يظهر فرس أسود" والجالس عليه معه ميزان فى يده" ويظهر فرس رابع هو فرس أخضر. "والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه أعطيا سلطانا على ربع الأرض أن يقتلاه بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض".

(١٢٦) أشار جوته فى الكتاب الأول إلى دير الكومپوستل، وذكرنا فى شرحه أنه ظل حينا مقرا لأمراء ماينتس.

(١٢٧) پيير أبيلار القديم فيلسوف ولاهوتى فرنسى (١٠٧٩ – ١١٤٢) اتصلت بينه وبين تلميذته الراهبة إلوزية قصة حب مشهورة. أما أبيلار الجديد فشخصية المحب فى قصة چان چاك روسو الشهيرة "إلوزية الجديدة"(١٧٦١).

(١٢٨) وصف جوته مبنى البلدية المسمى الرومر فى الكتاب الأول.

(١٢٩) ذكرنا من قبل أن الأمراء الناخبين كانوا مجموعتين، أمراء دينيين يشغلون مناصب الأساقفة فى الكنيسة الكاثوليكية، وأمراء دنيويين أى من غير رجال الدين.

(١٣٠) إريش كريستوف إدلر فون پلوتو (١٧٠٧ – ١٧٨٨) كان وزيرا فى پروسيا. وقد حدث جوته من قبل عن پروسيا وملوكها وكيف انقسم الناس حتى فى أسرته إلى معجبين ومنكرين للپروسيين والپروسية وكان انقساما شديدا يصل إلى درجة الشقاق. ومن هنا نفهم إعجاب جوته به، وتقديره له.

(١٣١) هويزنشتام قرية إلى الجنوب الشرقى من فرنكفورت، وكان فيما قصر آل شونبورن، والقرية تدخل فى زمام مدينة درامشتات.

(١٣٢) اختصار لـــ (تى ديوم لاوداموس) باللاتينية ومعناها "الحمد لك اللهم" وبهذه العبارة يبدأ نشيد كنسى قديم لشكر الله، ونسبة إلى هذا النشيد تستخدم اللفظة للدلالة على صلاة الشكر.

(١٣٣) كان جوته قد وصف فرق الخيالة المدنية من قبل وصفا فيه الإقلال من شأنهم. أما هنا، فى إطار الاحتفالات العظيمة فإنه يرى أنهم كانوا يحسنون ركوب الجياد.

(١٣٤) كان الأمير الناخب الذى لا يستطيع حضور الاحتفالات بنفسه يرسل سفيرا موكلا لينوب عنه.

(١٣٥) الهايدوك خدم القيصر أصلهم من المجر وكانوا يعرفون بزيهم المجري المميز.
(١٣٦) وصف جوته كل هذه الأماكن من قبل وفي الكتاب الأول خاصة.
(١٣٧) صورة بلاغية للعربة وصاحبي الجلالة الإمبراطور والملك الروماني.
(١٣٨) ماريا تيريزيا (١٧١٧ – ١٧٨٠) ابنة الإمبراطوركارل السادس وزوجة فرانتس الأول، وكانت إمبراطورة تحظى بالحب والتقدير في النمسا، واستطاعت أن تقف مواقف حاسمة وتحافظ على ممتلكاتها، وإن لم تستطع أن تنتصر في حربها ضد پروسيا، حرب السنين السبع، على الرغم من معارك كثيرة ناجحة. وقد أعقبت ١٦ ابنا وبنتا منهم ماري أنطوانيت التي تزوجت ملك فرنسا لويس السادس عشر وماتت على المقصلة بعد الثورة الفرنسيية، ومنهم يورف الثاني الذي توج ملكًا رومانيًا في فرنكفورت في عام ١٧٦٤، في هذه الاحتفالات التي يصفها جوته. وعندما حضرت تتويج زوجها إمبراطورا في عام ١٧٤٥ كانت حاملا في الطفل الثامن، ماريا أماليا.
(١٣٩) شريف دار مشتات هذا هو اللاندجراف لودفيج الثامن (١٦٩١ – ١٧٦٨) وكان في الخامسة والسبعين من عمره، ومات بعد حفلات التتويج بنحو أربعة أعوام.
(١٤٠) جواهر الإمبراطورية هي شارات الرايخ التي علقنا عليها في ملحوظة مفصلة.
(١٤١) كان ليسينج قد نشر في عام ١٧٦٩ مقالا بعنوان "كيف صور القدماء الموت" بين فيه أن القدماء كانوا يتصورون الموت والنوم أخوين، ومن هنا تلمح عبارة "أخو الموت اللطيف" إلى ليسنيج ومقاله.
(١٤٢) قطع شارات الرايخ أو جواهر الإمبراطورية التي كانت تحفظ في آخن هي : حامل الكتاب المقدس، وسيف شارلمان وكان جوته حريصا أشد الحرص على مراجعة منظر هذه الشارات، فاستعار في أثناء كتابة هذا الجزء مجموعة الصور الكبيرة التي رسمها الرسام دلزنباخ، وطبعها بالحفر على النحاس في نورنبرج في عام ١٧٩٠، وتصور الإمبراطور وهو في كامل زينته، من ثياب، وشارات. – وقد بدأت تقاليد التتويج في أيام كارل الأكبر المعروف باسم شارلمان في عام ٨٠٠، حيث تلقى التاج من يد البابا في روما وأصبح للبابا بذلك حق التتويج. وفي عام ٨١٣ توج شارلمان بنفسه ابنه في مدينة آخن، ومن هنا أصبح لمدينة آخن حق تاريخي في التتويج. ولكن البابا أعاد التتويج في عام ٨١٦، فوضع بيده التاج على رأس ابن شارلمان وهو لودفيج التقي. وتطورت مراسم التتويج بمضي الزمن، وأصبحت لها شارات متزايدة العدد أشرنا إليها في ملحوظة سابقة. وتأكد حق آخن كمقر للتتويج وتسجل في العهد الذهبي. وفي الوقت نفسه تأكد حق أسقف ماينتس في التتويج. وكان البابا من حين لآخر يتدخل في التتويج لاستعادة حقه ولتأكيد نفوذه السياسي، ولكن الأمر استقر فيما بعد على احتفالية تتويج ألمانية. وكانت آخر حفلات تتويج تتم في آخن في عام ١٥٣١. فلما توج ماكسيمليان الثاني نفسه أقيمت الحفلات في فرنكفورت في عام ١٥٦٣ واستقر الأمر لفرنكفورت كمكان للنويج، واستقر الأمر لأسقف ماينتس كصاحب حق في وضع التاج وإجراء المراسم. واستمر الحال على هذا المنوال حتى عام ١٨٠٦.
(١٤٣) الأسرة المالكة العتيقة التي برز منها كارل الأكبر المعروف بشارلمان.

(١٤٤) يستخدم جوته كلمة رومانتيكية كما يقول الشراح تعبيرا عن تغلغل التراث القديم فى العصر الحديث. وربما استخدمت كلمة رومانتيكية بعد ذلك بمعنى تراث العصر الوسيط.
(١٤٥) استخدم جوته عنوان مسرحية پلاوتوس الهزلية "التوأمان" للدلالة على طرافة المنظر.
(١٤٦) الدلماتيكا ثوب احتفالى يلبسه البابا وكبار رجال الكنيسة فى الاحتفالات الرسمية فلما توسعت مراسم احتفالات تتويج القصر والملك الرومانى اتخذت الدلماتيكا أيضا ثوبا رسميا لتتويج القيصر أو الإمبراطور، وكانت الدلماتيكا تصنع من الحرير الأزرق المطرز المطرز باللآلئ ويتخذ لها كمان فضفاضان؛ والاستولا شال استخدم أيضًا فى الملابس الرسمية التى كانوا يلبسونها فى حفلات التتويج.
(١٤٧) قام هؤلاء الكبراء بهذه الأعمال على نحو رمزى إحياءً للتقاليد القديمة، وكان لكل حسيب نسيب من هؤلاء الوجهاء منذ عام ١٣٥٦ على الأقل، وطبقا لنص العهد الذهبى، عمل خاص به يؤديه للأمير الناخب. وهؤلاء النبلاء أو الوجهاء من أصحاب الحسب والنسب كانوا: المارشال والياور والساقى ومعلم الفروسية أما الحسيب أمين الخزانة فأضيف إلى قائمة هؤلاء فى القرن السابع عشر.
(١٤٨) تحدث جوته فى الكتاب الرابع عن العادات التى كانت مألوفة لدى الأمم القديمة والتى يذكرها العهد القديم، ومنها تقديم الضحايا والقرابين بصورة نراها نحن اليوم بشعة. ويبدو أنه يريد أن ينبه إلى بقايا هذه الممارسات القديمة فى نفس البشرية على الرغم من مرور القرون الطوال.
(١٤٩) بينما حضر الأمراء الناخبون الدنيويون الثلاثة لم يحضر الأمراء الناخبون الدينيون واكتفوا بإرسال سفراء ينوبون عنهم، وكانت تصرفاتهم تنم عن الجفوة.
(١٥٠) واضح أن جوته عندما قرأ الكتب التى وصف فيها المؤلفون هذه الأحداث وشاهد الصور تبين أنه لم يفهم كل ما كان يجرى الفهم الصحيح لصغر سنة وكثرة الأحداث وتشابكها.
(١٥١) وصف جوته كل هذه العمائر فى الكتاب الأول.
(١٥٢) كان الاليزيوم فى الميثولوجيا الإغريقية مكانا يرويه نهر النسيان وينعم فيه السعداء بالمتع الخالصة فى الحياة الأخرى، وعن الإغريق أخذه الرومان حيث نقرأ عنه فى إنيادة ڤرجيل، وعنهما أخذه المحدثون مثل فينيلون فى قصة تليماك الشعرية المعروفة.
(١٥٣) لم يذكر جوته اسم هذا المدرس الخصوصى على الرغم من حرصه على ذكر أسماء الأشخاص وإثبات الوقائع والرجوع إلى المراجع إذا لزم الأمر، وكان دور هذا الرجل إيجابيا فى حياته.
(١٥٤) كان جوته فى الخامسة عشرة تقريبا. ويعالج جوته موضوع الحب بين اثنين من الشباب بينهما فارق السن فى "سنوات التجوال" (فيلكس وهيروزيليا).
(١٥٥) المقصود هو الأستاذ يؤاخيم جيورج داريس (١٧١٤ – ١٧٩١)
(١٥٦) من أسفار التوراة.
(١٥٧) الأورفية نسبة أورفيوس، المغنى الإغريقى الأسطورى، وتطلق عبارة الأناشيد الأورفية على مجموعة من القصائد الغنائية الفلسفية تدور حول أورفيوس، وهى منوعة فى

مضمونها كل التنوع وتضم شتات تراث بأكمله، وقد تنبه جوته إلى ما فيها من تكامل تقوم فيه الفلسفة مقام النواة فى الثمرة.

(١٥٨) هيزيود شاعر إغريقى من القرن الثامن قبل المسيح ترك شعرا فيه الكثير من الفلسفة والعلم والأخلاق : "الأعمال والأيام"، و"أنساب الآلهة"...

(١٥٩) كتاب بروكر هو: كتاب باللاتينية عن تاريخ الفلسفة وضعه يوهان ياكوب بروكر لاستخدام الطلاب وطبعه لأول مرة فى عام ١٧٤٧، ثم تكرر طبعه، ولعل الطبعة التى استخدامها صديق جوته ومدرسه الخاص فى تلك الأيام هى طبعة ١٧٥٦ وكانت فى أكثر من ٨٠٠ صفحة. وكتاب بروكر الصغير هو ملخص كتابه الكبير فى تاريخ الفلسفة، فى عدة مجلدات. وكان هذا الكتاب محبوبا ومنتشرا كمرجع سهل المنال نسبيا، وكان جوته يمتلك نسخة منه فى مكتبته.

(١٦٠) كان إراسموس فون روتردام، مؤسس الدراسات الإنسانية بمفهومها الحديث فى القرن السادس عشر يريد التوفيق بين الدين المسيحى والفلسفة الإغريقية على هذا النحو الذى يصفه جوته هنا تقريبا، وعادت الفكرة إلى الظهور وبخاصة فى القرن الثامن عشر.

(١٦١) إبيكتيت فيلسوف رواقى من القرن الأول، وهو صاحب القصة المشهورة التى تبين مدى تحمله، فقد كان عبدا استبد به سيده، ولوى ساقه، فلم يبد تأثرا بالألم وتمسك بالصبر، وقال باختصار: لعلك تكسرها إذا لويتها هكذا!؟ - فلما استمر حتى كسرها فعلا قال له : ألم أقل لك. وقد جمعت أقواله فيما بعد ونشرت ملخصة فيما يمكن أن يسمى بمختصر إبيكتيت، وكان والد جوته يمتلك نسخة من الواضح أن جوته قرأها.

(١٦٢) تاسيتوس مؤرخ لاتينى من القرن الأول كتب عن ألمانيا كتابا بعنوان (جرمانيا) يعد من المراجع الهامة عن هذه الفترة المبكرة من تاريخ ألمانيا. وكانت ترجمة ڤولتمان لكتاب "جرمانيا" لتاسيتوس قد ظهرت، وأرسل المترجم نسخة إلى جوته فى عام ١٨١١م.

(١٦٣) يرى شراح جوته أنه حرص فى كتابة قصة حياته على أن يعود إلى الأنماط الأولى للحياة الإنسانية فى كل جوانبها، فحكى القصص الأولى للعلاقات البشرية كما فهمها من التوراة، ثم حكى فى أثناء وصف الاحتفالات عن مفهوم القرابين والأضاحى، وهو هنا يتحدث عن الصورة الأولى لأماكن العبادة عند الأمم الأولى، وكان المكان الحرام فى صورته الأولى مكانا محاطا بسياج. وهناك دراسات متخصصة عن هذا الموضوع الذى أحس به جوته مبكرا ولم يصفه فى عمل أدبى متكامل، ولكنه ظل من أفكاره الأساسية التى نستشعرها فى أعماق فكره. وكان جوته قد تحدث فى "الكتاب الأول" عن محاولته التقرب إلى الذات الإلهية عن طريق هيكل تتخذ فيه الذات الإلهية صورة على النحو الذى فهمه من التوراة أما هنا فيؤكد بعد سنوات النضج، ثم من منظور الشيخوخة، أن الإيمان بالله شىء فى الوجدان وأن الخلوة تتيح التقرب إلى الله.

(١٦٤) تحدث جوته من قبل عن الرسام زيكاتس، والرسامين الآخرين الذين رسموا لوالده مجموعة من اللوحات، ثم رسموا للكونت تورانك مجموعة أخرى.

(١٦٥) نصب تذكارى للقائد الرومانى دروزوس من القرن الأول قبل المسييح.

(١٦٦) ولدت كورنيليا فى عام ١٧٥٠ وتوفيت فى عام ١٧٧٧ وهى فى السابعة والعشرين من عمرها.
(١٦٧) يقصد جوته بروايات ريتشاردسون روايات "باميلا" (١٧٤٠ ترجمت إلى الألمانية فى عام ١٧٧٢) و"كلاريسا هارلو" (١٧٤٧ ترجمت إلى الألمانية فى عام ١٧٤٨) وسير تشارلز جرانديزون" (١٧٥٣ ترجمت إلى الألمانية بعد صدورها مباشرة) وكان صامويل ريتشاردسون (١٦٨٩ – ١٧٦١) من الأدباء الذين لقوا نجاحا كبيرا وخلقوا اهتماما بنوع الرواية العاطفية المكتوبة على هيئة رسائل، والتى تدور حول شخصية البنت، أو المرأة ذات الجمال والفضيلة عندما يتحرك قلبها بالحب. وليست هنا دلائل تشير إلى أن جوته بدأ بالفعل كتابة رواية من هذا النوع عن أخته، أو متأثرا فيها بها مباشرة.
(١٦٨) تحدث جوته عن ڤايل وعن داره وجهوده فى تعليم اللغات.
(١٦٩) هذا الشاب الإنجليزى اسمه أرثر لبتون، أرسله أبوه الذى كان يشتغل فى صناعة الأقمشة الصوفية وتجارتها إلى ألمانيا ليتعلم اللغة الألمانية حتى يساعده فى عمليات البيع، وبخاصة فى فرنكفورت التى كان الطلب فيها على الأقمشة الإنجليزية كبيرا. وكان ڤايل هو الذى قدمه إلى آل جوته.
(١٧٠) لم يذكر جوته اسم هذا الصديق، ومن الممكن، كما يرى الباحثون، أن يكون واحدا من اثنين: برنهارد كريسيل (١٧٤٧ – ١٨١٣) أو يوهان بالتازار كولبله – أو ربما يكون قد جمع بين الشخصيين فى صورة هذا الصديق. والأرجح أن يكون برنهارد كريسيل الذى كان على علاقة وثيقة بآل جوته.
(١٧١) الرئيس : أى صاحب الفكرة والقائم على تنفيذها وتنظيم برنامج الرحلة والنزهة.
(١٧٢) سولون هو المشرع اليونانى الشهير، وواحد من الحكماء السبعة (٦٤٠ – ٥٥٨ ق. م) وقد عرف عنه أنه سعى إلى الانتصار للمظلومين والفقراء والمحرومين وإلى تحقيق الانسجام فى المجتمع الأثينى. ويشبه جوته الصديق به لأنه انتصر للمحرومين، وحاول أن يحقق مزيدا من الانسجام بين الصحاب.
(١٧٣) استخدم العبارة التى تستخدم فى الكنيسة الكاثوليكية عند انتهاء الصلاة، ويصرف بها الكاهن رعيته.
(١٧٤) هورن هو يوهان آدم هورن (١٧٤٩ – ١٨٠٦) كان من معارف جوته وذهب إلى لايپتسيج للدراسة فى جامعتها عندما كان جوته يدرس هناك، فلما أتم دراسته عاد إلى فرنكفورت وعمل فى سلك القانون والقضاء، وكان جوته على علاقة مستمرة به حتى وفاته.
(١٧٥) لقى ألكسندر پوپ (١٦٨٨ – ١٧٤٤) اهتماما كبيرا فى ألمانيا، وأثر على توجيه الحركة الأدبية فيها، بشعر الرعاة أولا الذى حفل به ممثلوا الروكوكو ثم بالقصة الشعرية "خطف خصلة شعر" التى ظهرت بالإنجليزية فى عام ١٧١٤ وترجمتها إلى الألمانية لويزة أديلجونده جوتشد فى عام ١٧٤٤، وفيها يسخر من المتمع الذى يتكلف من العاطفة ما لا يحس حقيقة، وقد نقلت كل أعمال پوپ إلى الألمانية، ومنها معالجات للإلياذة والأوديسا

ولرسائل إيلويزة إلى أبيلار، وكانت هذه الأعمال موجودة فى مكتبة والد جوته، فطالعها الشاب، وتأثر بها.

(١٧٦) يوستوس فريستون ڤريدريش ڤيلهلم تساخاريا (١٧٢٦ – ١٧٧٧) أديب من تلاميذ جوتشد كان له دوره فى أدب عصر التنوير، ومن أهم أعماله قصص شعرية على نمط قصة بوب الشعرية "خطف خصلة شعر" وخاصة قصة "النفاج" (١٧٤٤)، و"معبد السلام" (١٧٥٦) و"خلق الجحيم" (١٧٦٠)، وله أيضا قصص على ألسنة الحيوان من نوع قصص أيسوب، ولافونتين، وكانت قصصا محببة فى عصر التنوير لمضمونها التعليمى الأخلاقى.

(١٧٧) فارس = مرافق أو صديق، وكانت التقاليد تفرض على الرجل أن يتصرف بشهامة كالفرسان، وأن يكون مهذبا مع النساء. وقد تستخدم كلمة خادم أيضا بمعنى الفارس فى هذا المقام.

(١٧٨) يوهان فريدريش لوفن (١٧٢٦ – ١٧٧١) مؤلف "ليلة ڤالبورجيس" طبعت فى عام ١٧٥٦، وقرأها جوته لأنها كانت فى مكتبة والده، وليلة ڤالتورجيس هى ليلة الأول من شهر مايو، وفيها كما تحكى الأساطير الشعبية تلتقى الساحرات والجنيات لقاء صاخبا حيث يرقصن ويتهيأن لإيذاء البشر والحيوان والحرث والنسل.

(١٧٩) ذكره جوته من قبل، وهو عبارة عن أسئلة وأجوبة لتعليم القانون.

(١٨٠) التشريعات جزء من الموسوعة القانونية المدنية فيه مبادئ القانون الرومانى، وكان والد جوته يمتلك عدة نسخ من هذا الكتاب اللاتينى المعروف، ويمتلك عددا من الشروح والتعليقات عليه.

(١٨١) كلمة أيساجوجى كلمة يونانية معناها مقدمة، وكان هناك من تأليف يوهان ماتياس جيسنر موسوعة تتناول بالعرض والتاريخى الفلسفى مجموعة من العلوم الموسوعية فى مجلد واحد، ظهرت الطبعة الأولى فى عام ١٧٥٦ باللاتينية ثم تكررت الطبعات فيما بعد. ويشير جوته هنا إلى طبعة عام ١٧٦٠م. أما جيسنر فكان أستاذ للشعر والبلاغة فى جوتينجين وتوفى فى عام ١٧٦١م.

(١٨٢) كان دانييل جيورج مورهوف (١٦٣٩ – ١٦٩١) من كبار الموسوعيين الألمان فى القرن السابع عشر، وكتابه " پوليهيستور" عبارة عن عرض موسوعى للعلوم التى عرفتها الإنسانية حتى زمانه، مع الاهتمام بالتطور التاريخى والأعمال المتميز. وقد تكرر طبع الكتاب بعد وفاة مؤلفه، وأضاف إليه البعض إضافات مختلفة عند إعادة طبعه. ويبدو أن جوته كان يستخدم طبعة عام ١٧٤٧ بإضافات يوهان شڤابه وظل جوته مهتمًا بهذا الكتاب فى سنوات تالية واستخدمه خاصة فى الوقت الذى كان مشغولا فيه بنظرية الألوان.

(١٨٣) كان بيير بيل (١٦٤٧ – ١٧٠٦) من كبار الموسوعيين الفرنسيين فى القرن السابع عشر، وكتابه المشهور هو "قاموس تاريخى نقدى" ظهر بالفرنسية فى جزأين – عام ١٦٩٥ و١٦٩٧، ونشر جوتشد ترجمة ألمانية له فى عامى ١٧٤١ و١٧٤٤ وكان جوتشد أستاذ الفلسفة ومحرك الحركة الأدبية التنويرية فى لايپتسج، ومن أكبر المتحمسيين للفكر الفرنسى. ويعلق إيريش ترونس على قاموس بيل بقوله: إن فكرته تختلف عن فكرة جيسنر

وفكرة مورهوف اللذين يقدمان المعلومات العلمية بطريقة منظمة نسقية، وفى موضعها من بناء الكون، أما بيل فهو يجعل من الإنسان نقطة انطلاقه، ويصدر عن الفلاسفة أنفسهم، فيعرض أفكار الفلاسفة واللاهوتيين، أولا عرضا محايدا، ثم ينقدها بعد ذلك، ويبين ما فيها من خروج على متطلبات الفكر النقدى، وهو يقبل بالوحى الدينى، كما يقبل بالتفسير العقلانى ويبين الفرق بين العلم والإيمان. وللعالم بيل دور كبير فى التنوير وفى تثبيت الفكر التاريخى. وكتابه الموسوعى فوق هذا وذات مصدر متميز للمعرفة، استخدمه المعاصرون فى فرنسا، وخارج فرنسا، على نحو ما نفهم من تصوير جوته.

(١٨٤) كانت اللغة اللاتينية حتى عصر جوته تتيح لمن يعرفها إمكانية الاطلاع على آداب الأمم الأخرى مترجمة، فكانت هناك ترجمات لاتينية للأدب اليونانى وللفلسفة اليونانية، وكانت هناك ترجمات لاتينية من لغات كثيرة منها العربية ونحن نعرف أن جوته قرأ القرآن لأول مرة فى ترجمة لاتينية. وكان جوتة يفضل استخدام الطبعات التى تورد النص باللغة الأصلية مع ترجمته إلى اللاتينية. وهكذا قرأ جوته الإلياذة والأوديسة والمسرح اليونانى.

(١٨٥) هوجو جروتسيوس من علماء النصف الأول من القرن السابع عشر، حكى عنه مورهوف فى كتابه "پوليهيستور" أنه قال فى عبارة طريفة: إن الكبير يفهم النص على نحو يختلف عن فهم الصغير له، وكانوا قد عابوا عليه أنه يقرأ تيرنس الذى تعطى نصوصه فى كتب القراءة للصغار. وعلقت هذه الملحوظة فى ذهن جوته وعبر عنها مرارا.

(١٨٦) تيرنس أوتيرنسيوس مؤلف مسرحى لاتينى من القرن الثانى قبل الميلاد كتب مجموعة من المسرحيات الكوميدية التى تجدد الاهتمام بها فى عصر النهضة، وكانت كتب تعليم اللغة اللاتينية القديمة تستقى منه نصوصا مبسطة تصلح للأولاد، حتى ظنه البعض دون مستوى الكبار.

(١٨٧) كانت الكنيسة تطلق على الأيام المختلفة أسماء نسبة إلى القديسين أو إلى مناسبات دينية.

(١٨٨) فريدريش فون هاجيدورن (١٧٠٨ – ١٧٥٤) كان شاعرا مرموقا فى عصره، أثر في المعاصرين أمثال ليسينج ومن بعده جوته وجيله، ثم خبت شهرته بمرور الزمن وكانت له أعمال طريفة منها قصائد مناسبات وقصائد قصصية وقصائد على لسان الحيوان. وكان متأثرا بالأدب الإنجليزى والأدب الفرنسى، وأخذ عنهما شيئا من فكر التنوير، وشيئا مما سمى فى ألمانيا أنذاك ادب الأنكريونية، نسبة إلى الشاعر القديم أنكريون.

(١٨٩) كريستيان فورشتيجوت جيللرت (١٧١٥ – ١٧٦٩) كان أديبا وشاعرا، وأستاذا للشعر والبلاغة والأخلاق فى جامعة لايپتسيج، وهناك التقى به جوته. وكان جيللرت من أكثر كتاب ذلك العصر انتشارًا، وله محاولة فى الرواية على طريقة ريتشاردسون (حياة الكونتيسة السويدية ج)، وله قصص ذات مضمون أخلاقي عاطفى، وقصائد على لسان الحيوان وأغنيات ذات مضمون دينى.

(١٩٠) أنشئت جامعة جوتينجن فى عام ١٧٣٧ فهى جامعة حديثة نسبيا.

(١٩١) كان كريستيان جوتلوب هاينه (١٧٢٩ – ١٨١٢) أهم المشتغلين بفقه اللغات القديمة فى زمانه، وشغل كرسى الأستاذية فى جامعة جوتينجن فى عام ١٧٦٣ وكان منهجه يقوم على

الاهتمام بالنواحى المختلفة للنص القديم: الناحية اللغوية والناحية الأدبية والناحية التاريخية الثقافية.

(١٩٢) يوهان داڤيد ميشاليلس (١٧١٧ – ١٧٩١) أستاذ اللاهوت والاستشراق فى جامعة جوتينجن، وهو مؤسس الدراسات التاريخية النقدية للكتاب المقدس وله فى الاستشراق جهود قيمة، وهو الذى خطط لرحلة كارستن نيبور الشهير التى زار فى خلالها مصر واليمن والعراق وسوريا وغيرها.

(١٩٣) كان الأستاذ إرنستى أستاذا للبلاغة واللاهوت فى جامعة لايپتسيج آنذاك.

(١٩٤) كان موروس أستاذ فقه اللغات القديمة عندما ذهب جوته إلى الجامعة.

(١٩٥) يوهان ياكوب جريسباخ (١٧٤٥ – ١٨١٢) ذكره جوته فى الكتاب الرابع وكان جوته على علاقة مستمرة به إلى أن مات، وشغل جريسباخ كرس أستاذية اللاهوت فى يينا.

(١٩٦) كان يوهان جيورج فلايشر (توفى فى عام ١٧٩٦) صاحب مكتبة فى فرنكفورت ومشاركا فى النشر أحيانا، وكان جوته على علاقة به، وكان يسافر إلى لايبتسيج لحضور سوقها الشهيرة، وكانت زوجته تزور والدها فى مدينة ڤيتنبرج القريبة من لايپتسيج.

(١٩٧) ذكر عالم الطبيعة جونتر شميد أن ظاهرة الأنوار المضللة كانت معروفة فى قصص القرون الغابرة، ويحكى الناس عنها أنها كانت تظهر خاصة فوق المستنقعات أما الآن فلم يعد أحد يلحظها بسبب الجفاف.

(١٩٨) واضح أن المنظر العجيب والمسلك غير اللائق هو دخول الرجل الحجرة والقبعة فوق رأسه، وإبقاء القبعة فوق رأسه فى أثناء الصلاة.

(١٩٩) كان هناك فوق البوابة نموذج قنبلة ملتهبة ككرة النار اتخذ رمزا للدار.

(٢٠٠) يوهان كريستيان ليمپريشت (١٧٤١ – ١٨١٢).

(٢٠١) المستشار بومه : يوهان جوتلوب بومه (١٧١٧ – ١٧٨٠) كان بومه تلميذا ليوهان ياكوب ماسكوف المؤرخ المشهور، وعمل منذ عام ١٧٥١ أستاذ التاريخ للقانون الدستورى فى جامعة لايپتسيج.

(٢٠٢) إيفرهارد أوتو (١٦٨٥ – ١٧٥٦) كان أستاذا فى دويسبورج وأوترشت وله كتاب كانت له قيمته فى ذلك العصر هو "كنوز القانون الرومانى".

(٢٠٣) يوهان جوتليب هاينكيوس (١٦٨١ – ١٧٤١) كان أستاذ لتاريخ القانون فى جامعة هال ثم جامعة فرنكفورت الواقعة على نهر الأودر.

(٢٠٤) كان المألوف فى ذلك الزمان الغابر من تاريخ الجامعة الألمانية أن يعتمد الأستاذ الجامعى على كتاب من نوع ما يسمى عندنا الآن بالكتاب الجامعى وكان جيللرت يستخدم كتابا من تأليف يوهان كريستوف شتوكهاوزن يعرض نصوصا أدبية وفلسفية مختارة مع شروح. طبع فى عام ١٧٥٢ ثم تكرر طبعه مرارا بعد ذلك.

(٢٠٥) من أيام الكرنڤال، وهناك أطعمة وفطائر تقليدية تقدم فى هذه المناسبة بالإضافة إلى أنواع الاحتفالات الشعبية والدينية الأخرى.

(٢٠٦) الأستاذ يوهان هاينريش فينكلر (١٧٠٣ – ١٧٧٠) كان يحاضر فى الفلسفة واللغات القديمة والعلوم الطبيبعة.

(٢٠٧) كانت أديلجونده جوتشيد قد كتبت فى عام ١٧٤١ مسرحية كوميدية بعنوان "النبيل الريفى الشاعر" على نسق مسرحية "الشاعر الريفى" الكاتب الفرنسى ديتوش، وكانت الشخصية الرئيسية فيها هى شخصية السيد فون مازورن.

(٢٠٨) تجاذبت اللغة الألمانية منذ بداية العصر الحديث، وبخاصة منذ القرن السابع عشر، اتجاهات مختلفة، منها الاتجاه المرتبط بالتراث الشعبى وتشبيهات واستعاراته وأمثاله السائرة، والاتجاه المرتبط بالتجريد والترفع عن العبارة الشعبية، وكانت لايپتسيج منطبعة بالاتجاه الثانى الذى تزعمه جوتشد، وكان لا يزال سائدا عندما ذهب جوته إلى الجامعة.

(٢٠٩) تقع مدينة مايسن فى المنطقة الوسطى الشرقية من ألمانيا التى ارتبطت بها اللغة التى استخدمها مارتن لوتر فى القرن السادس العشر فى ترجمة الكتاب المقدس، وظهرت اتجاهات لفرضها لغة عامة على كل الألمان، ودار حوار واسع متشعب بين العلماء وغير العلماء حول اللغة المتميزة الخالية من العيوب، لغة الكتابة، والفرق بينها وبين لغة الكلام، واللهجات وكان لظهور حركة الشتورم أُند درانج فى القرن الثامن عشر أثرها فى رد الاعتبار إلى المصادر الحية للغة المتمثلة فى بيئاتها الجغرافية والاجتماعية المختلفة. وعندما نزل جوته لايپتسيج كانت مفاهيم اللغة النقية التى لا تظهر فيها السمات الإقليمية من مستلزمات السلوك اللائق فى المجتمعات الراقية.

(٢١٠) كان الأستاذ جيللرت صاحب هذه الدعوة، وكان فى دروسه العملية يدرب الطلاب على الكتابة كما يعلمهم كيف يتكلمون، وكان يعنى بذلك الانصراف عن النماذج المحفوظة التى كانت مألوفة فى عصر الباروك والتى كانت مؤثرة حتى ذلك الوقت، ثم إن جيللرت كان يهتم بالصياغة المتقنة، ولا يقبل بكل ما يأتى فى اللغة الدارجة. ونحن نلاحظ فى حديث جوته المفصل عن اللغة ومستوياتها أن وصول الأديب الشاعر إلى مفهوم خاص عن اللغة، وتجسيم هذا المفهوم ركن أساسى من أركان العملية الإبداعية، ومن تطور شخصية الفنان.

(٢١١) لا تزال هذه السمة مميزة للثقافة الألمانية، ولم تؤد محاولات توحيد الثقافة الألمانية – فى عصر النازية مثلا – إلا إلى نتائج محدودة ولا تزال ألمانيا حريصة على مراكزها الثقافية المنوعة.

(٢١٢) كان الطلاب فى بعض المدن الجامعية يقومون بأعمال قريبة من أعمال الفتوات وكانت فى كثير منها منظمة، ولها قواعدها ومن هذه التجمعات الطلابية ما تطور ودخلت فيه مفاهيم وطنية وقومية. وقد صور جوته شيئا من حياة الطلاب فى مسرحية فاوست.

(٢١٣) يلمح جوته إلى أن سمة العنف فى أمة قد تكون نتيجة لأنها كانت فى عصورها الأولى تحترف صيد الحيوان، أما الأمم التى تحترف الرعى فهى أمم رقيقة الطبع.

(٢١٤) أشار جوته مرارا إلى هذه القصيدة التى كتبها تساخريا على نسق قصائد پوپ وكان موضوعها يتلخص فى أن طالبا من الفتوات أتى من مدينة يينا التى ألفت الطلبة الفتوات وأعمالهم الخشنة الشرسة، ونزل لايپتسيج التى لزم الناس فيها رقة الطباع واللياقة

والمجاملة، فحدثت له أحداث غريبة طريفة. ظهرت القصيدة لأول مرة فى عام ١٧٤٤، ثم تكرر طبعها بعد ذلك مرارا.

(٢١٥) يتحدث جوته عن طريق دائرى حول المدينة كان فيما مضى يتخذ لأغراض عسكرية، ثم أصبح طريقا للنزهة.

(٢١٦) إشارة إلى صورة المسيح المألوفة وهو يركب حمارا.

(٢١٧) جالية الفرنسيين الإنجيليين الذين فروا من الاضطهاد فى فرنسا واستقروا فى أماكن مختلفة من ألمانيا، وما لبثوا أن انصهروا فى الشعب الألمانى بمرور الوقت لا تميزهم إلا أسماؤهم.

(٢١٨) مجموعة المدارس المخصصة للأمراء أصلا، وكانت رفيعة المستوى، يسمح بدخولها للنابهين من أبناء الشعب، وكانت فى مايسن مدرسة من مدارس الأنجال، وأخرى فى شولپفورتا وثالثا فى جريما. وقد بدأ إنشاء هذه المدارس فى عام ١٥٤٣ وصاحب فكرتها هو الأمير الناخب السكسونى موريتس.

(٢١٩) نوع من ألعاب الكوتشينة.

(٢٢٠) لعبة من ألعاب الكوتشينة.

(٢٢١) يوهان كريستوف جوتشد (١٧٠٠ – ١٧٦٦) كان أستاذا فى جامعة لايپتسيج ثم رئيسا للجامعة، ولعب دورا رئيسا فى تثبيت نظريات التنوير فى الأدب بكتابه "محاولة لفن أدب نقدى للألمان" وبأعماله التى كتبها تجسيمًا لنظرياته، وكان يرى الالتزام بالقواعد وبخاصة قواعد الأدب الفرنسى والالتزام بالعقل وعدم الاهتمام بالعاطفة والخيال وما تتفتق عنه الفطرة وما يتنزل به الإلهام والحدس. وإذا كان قد أدخل قدْرًا من الجدية على المسرح وعلى بعض الأنواع الأدبية، فإنه وضع قيودا شديدة لم يتطور الأدب الألمانى إلا بعد أن تغلب عليها.

(٢٢٢) كريستيان فيلكس ڤايسه (١٧٢٦ – ١٨٠٤) كان من كتاب المسرحيات المشهورين فى زمانه، وكانت مسرحيته الكوميدية "شعراء على الموضة" التى مثلت فى لايپتسيج فى عام ١٧٦٤ من أنجح مسرحياته وأكثرها حظوة لدى الجمهور.

(٢٢٣) صور بيانية يلمح فيها جوته إلى الپارناس، جبل الأدب والشعر عند اليونان ومقر أپولو وربات الفن، ويتصور الإنتاج الشعرى عل أنه كلأ نضير ومروج يانعة يتمتع الإنسان بالنزهة فى ربوعها، ثم يضطر إلى استخدام سيوف قطع النجيل، فيقطع الخضرة الجميلة ويقلبها حتى تستحيل إلى هشيم.

(٢٢٤) صامويل فريدريش موروس (١٧٣٦ – ١٧٩٢) كان مدرسا شابا فى جامعة لايپتسيج عندما التحق بها جوته، وكان يشرح الكتاب اليونانيين واللاتينيين القدامى ثم تحول إلى الاهتمام باللاهوت.

(٢٢٥) المستشار كريستيان جوتليب فريدريش (١٧٠٩ – ١٧٧٣) كان أستاذا للطب فى لايپتسيج.

(٢٢٦) يوهان إوجست أرنست (١٧٠٧ – ١٧٨١) كان أستاذا للبلاغة ثم شغل بعد ذلك كرسي أستاذية اللاهوت وكان متخصصا واسع العلم فى فقه اللغات القديمة، ونشر طبعات محققة من أعمال المؤلفين القدامى، وبحوثا لها قيمتها فى درسات الإنجيل.

(٢٢٧) يعالج سيسرون (كيكرون فى كتب ثلاثة كيف يبرع الخطيب فى الخطابة، مهتما بالمضمون والشكل.

(٢٢٨) كريستوف مارتين ڤيلاند (١٧٣٣ – ١٨١٣) كان من أشهر أدباء وشرعاء ونقاد عصر جوته وأقربهم إلى نفوس القراء، وكان منوع الإنتاج، واسع العلم، كتب المسرحية والرواية والقصة الشعرية والقصيدة، وترجم، وكتب مقالات فى النقد، وكانت له معرفة جيدة بالآداب الشرقية. وعلى الرغم من أن موهبة ڤيلاند لم تكن فى حقيقتها على قدر إعجاب المعاصرين، فإنها لعبت دورا هاما فى عصره وكان رأيه له احترامه، وكان قريبا من الكلاسيكية.

(٢٢٩) هاللر (١٧١٨ – ١٧٧٧) ولينيه (١٧٠٧ – ١٧٧٨) وبوفون (١٧٠٧ – ١٧٧٨) علماء الطبيعة الأفذاذ فى ذلك العصر. ويبين جوته هنا كيف أن المشتغلين بالعلوم الطبيعية كانوا أقرب إلى الإتزان فى الحكم والموضوعية فى التقدير من المشتغلين بالأدب فقط، وكأنه يرجو أن يصل علم الأدب يوما إلى شيء من هذه الموضوعية التى يرتاح إليها المشتغلون بالعلوم الطبيعية.

المؤلف فى سطور:

جوته

ولد جوته (يوهان ڤولفجنج فون جوته) فى ٢٨ أغسطس من عام ١٧٤٩ فى مدينة فرنكفورت لأسرة مرموقة ودرس القانون فى مدينة لايپتسيج، حيث أتيحت له فرصة الاتصال بعدد من الأدباء والمفكرين البارزين ومن بينهم جيللرت وجوتشد، وتأثر باتجاه الروكوكو، وكتب شعرًا بهذا الأسلوب، ومسرحية "نزوة العاشق" التى عالج فيها موضوعًا استقاه من "ألف ليلة وليلة"، وتأثر بالاتجاه المتحمس للكلاسيكية الفرنسية، وكتب مسرحية "الشركاء" التى تتطبع بهذا الطابع الفرنسى. فلما اتصل بهردر ولينتس وغيرهما من دعاة حركة "العاصفة والاندفاع" شارك فى هذه الحركة مشاركة كبيرة، وكتب روايته الشهيرة "آلام ڤرتر" ومسرحيات "جوتس فون برليشنجن" و"أورفارست"، و"كلاڤيجو" و"شتيلا".

ذهب جوته فى حكمه على كتب السيرة الذاتية، وفى نقده لها، وتأملاته حولها، إلى أن رجال الفكر عليهم عندما يبلغون الخمسين أو الستين من عمرهم، أن يكتبوا سيرهم الذاتية، ويعرضوا فيها ما أنجزوا، ويتحدثوا عما يرجون بلوغه إذا امتد بهم العمر. كذلك كان من رأيه أن على من يكتب سيرته الذاتية أن يضعها فى إطار يشمل أوجه الحياة المختلفة السياسية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية. وهذا هو ما فعله جوته عندما خطط لكتابه، وعندما نفذ خطته.

المترجم فى سطور

مصطفى ماهر

ولد فى القاهرة فى عام ١٩٣٦. أستاذ بكلية الألسن جامعة عين شمس حيث أسس منذ مطلع الستينيات قسم اللغة الألمانية وآدابها والترجمة على المستوى العالمى، وأدخل علم الترجمة الذى ازداد ترسخاً بمرور الزمن. درس فقه اللغة الألمانية وآدابها وفقه اللغات ذوات الأصول اللاتينية، وفقه لغات وثقافات الأمم الإسلامية، وحصل فيها على الدكتوراه من جامعة كولونيا بألمانيا فى عام ١٩٦٢. له فلسفته الثقافية ونظريته فى الترجمة، ومن أقواله: "تؤدى الترجمة أدوارًا حاسمة فى تشكيل الاستقبال الثقافى واستثماره وفى العمل على التغلب على الحواجز بين الثقافات، محولة الحواجز إلى جسور ، إلى أن تتحقق بالترجمة أدق صور ثقافية إنسانية ممكنة معبرة عن تكامل البشر". أهم ترجماته: ترجمة القرآن الكريم كاملاً إلى اللغة الألمانية (نشرتها وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية). له برنامج متكامل يقوم على انسجام جهوده الفردية فى مجالات الثقافة وبخاصة الأدب والفلسفة مع الجهود المؤسساتية. ظهرت أول ترجماته عن الفرنسية فى عام ١٩٥٢ / ١٩٥٣ ومازال نشاطه - منذ اعتمده طه حسين مترجمًا - مستمرًا منذ أكثر من نصف قرن فى النقل عن الفرنسية والألمانية. تشمل ترجماته المنشورة مجموعة مجلدات المختارات، وأعمالاً أدبية كاملة تمثل العصور المختلفة من العصر الوسيط إلى العصر الحاضر نذكر منها فى مجال الكلاسيكيات مختارات من أعمال ليسنج وكلايست وكبار المعاصرين من أمثال دورينمات وفريش وهاندكه. ونذكر فى مجال الأدب القصصى السيرة الذاتية لجوته ولعبة الكريات الزجاجية لهرمن هيسه والقصر والقضية لكافكا. وهو يذكر بامتنان خاص تكريم المؤتمر الدولى الأول للترجمة الذى أقامه المركز القومى للترجمة بمشاركة المجلس الأعلى للثقافة فى القاهرة فى مارس ٢٠١٠ له تقديرًا لعطائه وجهوده فى إثراء حقل الترجمة من وإلى العربية.





كتاب من حياتى شعر وحقيقة كتاب ضخم فى أكثر من ألف صفحة، تنقسم إلى عشرين فصلاً أو على حد تسمية جوته: عشرين كتاباً. نقدم إلى القارئ هنا ستة منها فى ترجمة كاملة، ونأمل أن تتاح الفرصة فنترجم أجزاء أخرى منها، فما من شك فى أن هذا الكتاب من أمهات الكتب لا فى الأدب الألمانى وحده، بل فى الأدب العالمى كله.

تصميم الغلاف: نسرين كشك